عثمان نويه

المفكرون

من سقراط إلى سارتر

هنري توماس ودانالي توماس

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

١٩٧٠

مقدمة

نشطت حركة التأليف الفلسفى فى السنين الأخيرة، فأقبل الخاصة على ما ألف، وأفادوا منه. ولكن جمهرة القراء لم يقبلوا عليه، ولم يفيدوا منه، فهم لا يزالون يرون الفلسفة مادة جافة، تحتاج قراءتها ويحتاج فهمها من الجهد والمثابرة ما لا يحتاجه غيرها من ألوان الثقافة والفنون. فانصرف الناس عنها إلى ما هو أيسر فهماً وأشهى مذاقاً. وكانت القصة أوفر هذه الفنون نصيباً من إقبالهم فاكتسحت ميدان المطالعة اكتساحاً، ولم يعد لها فيه منافس أو ضريب. فكسد الشعر والفلسفة . . . إلا فى سوق خاصة القراء. أما القارىء العادى فهو لا يشق على نفسه بالجهد والمثابرة اللازمين لفهم العميق من الفلسفة أو الشعر.

ولسنا مع ذلك ممن يغض من شأن القصة، أو يشكك فى قدرها... بل إننا لنراها من أسمى فنون الأدب وأشملها. فهى فن قام على فهم صحيح للطبيعة، وتعمق نزعاتها وخلجاتها، وتحر بصير لما يلذها ويمتعها إنها لتخلق عوالم كاملة قائمة بذاتها، قد تحاكى عالم الواقع وقد تخالفه،

ولكنها من وحيه على أى حال . وهى خلق فنى له أصالته وشموله وتنوعه ... يتطلب من الكاتب كل ما أوتى من علم وفن وتجربة وذكاء وبصيرة .

ولكن بعض نقاد الأدب يتنبؤون بأن القصة أيضاً توشك دولتها أن تدول . فمن القراء من يضن بوقته على قراءة أحداث لم تحدث ، دائرة حول أشخاص لم يكونوا . وقد توسع القصة آفاق بعض الناس وتعمق نظرتهم ، ولكن من الناس من زاد على كتاب القصة فهماً للحياة وإيغالاً فيها ، بحيث فقدت القصة عنده مزيتها ، ويستدلون على ذلك بأن الإنسان كلما علت به السن ، زاد فى القصة زُهداً ، لأنه زاد بالحياة خبرة . ويرى هؤلاء النقاد أن تراجم عظماء الرجال ستغلب القصة على دولة القراءة ، لأن المتعة الفنية لا تتنافى والمتعة العقلية والعلمية . فمن الميسور أن نجمع بين العلم والفن فى آن ، فنقدم قصصاً من الواقع ، أبطالها من أساطين التاريخ العلمى أو الفلسفى أو السياسى ... ونعرضها عرضاً شائقاً يقوم على فهم النفس البشرية ، ما يلذها ، وما يمتعها ، وما ينفعها فى الوقت نفسه . فيخرج القارىء من مطالعة هذه السير وقد أمتع نفسه ، وأشبع نهمه ، وأروى ظمأه إلى العلم والمعرفة .

فالسير الحية لقاء بين الفن والعلم ، يستفيد فى تصوير الواقع بما استحدثه كتاب القصة من تفنن فى العرض ، وبراعة فى إثارة الخيال .

وبين يديك كتاب من كتب السير ، يعرض حياة كل علم من أعلام الفكر عرضاً حياً، فهو يدعونا إلى مجالسته ومحادثته ،ويسمعنا صوته إذا تكلم، ويرينا قسمات وجهه إذا سخر،ويطالعنا بهدوء عينيه إذا تفكر ... فإذا نحن والفلاسفة أصدقاء بربطنا بهم سبب من الود والمعرفة والتقدير، ويعطفنا عليهم ماقاسوا لينيروا سبيل الحق والمعرفة، فننفذ إلى حقيقتهم ، ونعيش فى أفكارهم فنعلم إلى أى حد جاءت آراؤهم ومذاهبهم من متاعب الطفولة ، أو غرام المراهقة ، أو شظف العيش أو لينه ، أو الكتب التى شاقتهم . فلا نزاع إذ نجد بعضهم يخطىء بعضاً ، ويقدح بعضهم فى بعض ، فإن الإلمام بهذه التفاصيل ليزيد قارىء الفلسفة فهماً لما وراء الآراء والمذاهب الكبيرة من علل شخصية يسيرة .

والفلاسفة الذين تطالع سيرهم فى هذا الكتاب قد اختيروا بحيث

يمثلون مختلف أطوار الفلسفة ومذاهبها وكان فى طبعته الأولى يقدم سير الفلاسفة من سقراط إلى سنتيانا .الذى توفى سنة ١٩٥٢ فأضفت إليه فى هذه الطبعة ما وصل به إلى الفلاسفة الأحياء الذين لا يزالون ملءسمع الدنيا وبصرها وبخاصة برتراند رسل وجان بول سارتر. فالفلسفة اليونانية ، والفلسفة المدرسية ، والفلسفة الحديثة فى مختلف مذاهبها وأطوارها تقرؤها مسلسلة فى هذا الكتاب فى ثنايا سير الأعلام الذين يقدمهم .

وإننا نعيش فى عصر ديمقراطى، وفضيلة الديمقراطية العظمى أنها تتيح للناس من الطيبات ما كان يختص به الأقلون . ولقد مر زمان طويل كان لا يستمتع فيه بطيبات الحياة من مأكل وملبس غير كبار الأثرياء ، وكانت الشعوب محرومة من أيسر قدر من هـذه الطيبات ، فحطمت الدمقراطية هذا الاستئثار وكفلت حق الحياة للجميع .

لقد كانت قراءة الفلسفة إلى عهد قريب مقصورة على خاصة الخاصة من العلماء ولكنها بمضى الزمن قد عم نفعها الناس جميعاً . فلم يعد تستأثر بها طبقة من الناس دون طبقة ، ولكن الكتاب الذى بين

ولقد ارتقت العلوم والمعارف فى زماننا وتنوعت أشد التنوع ، فكان لابد من التخصص والتخصُّص الدقيق. ولكن هذا التخصص الدقيق على ضرورته قد أوجد طائفة من المتخصصين الذين يصفهم ت . س . اليوت بأنهم من بناة الثقافة ، ولكنهم هم أنفسهم غير مثقفين . ذلك أن المثقف لابد له أن يلم من كل شيء . بطرف حتى يستطيع أن يجارى روح القرن العشرين فى تشعب المعارف وترابطها واعتماد بعضها على بعض فصار على المتخصص نظراً لضيق وقته أن يعتمد فى الماسه بالمعارف الأخرى على كتب ميسرة موجزة ، فلاينقطع عن كل نواحى المعرفة خارج النقطة الصغيرة التى ينحصر فيها تخصصه الدقيق .

ولعل أشد ما يحتاج إليه هذا المتخصص هو كتب من هذا النوع الذى يسعدنى أن أقدمه للقراء .

عثمان نوية

أفلاطون

٤٢٧ — ٣٤٧ ق . م

— ١ —

أقيمت فى منزل الشاعر الأثينى (أجاثان) مأدبة، فقد نال الشاعر الجائزة الأولى على رواية قدمها للمسرح اليونانى. ودعا الشاعر صحابته ليشاركوه احتفاله بهذا الفوز . وتناقش الأضياف فى موضوع أثير إليهم هو « الحب » فجعل كل منهم يعرض ما يراه فى هذا الموضوع الخلاب الممتع .

فقال فيدروس « الحب أقدم الآلهة جميعاً ، ومن أشدها بأساً . فهو القوة التى تحيل الشاب العادى بطلا . فالعاشق يستحى أن يظهر الجبن أمام من يحب . ولو تهيأ لى جيش من العشاق لفتحت به العالم كله » .

وقال بوسنياس : هذا حق . لكن علينا أن نميز حب الأرض من حب السماء . . بين التجاذب بين الجسدين من ناحية ، وتآلف الروحين من ناحية أخرى. فحب الجسد همجى خشن ، يولى إذا ذوت زهرة الشباب ، أما حب الروح فنبيل خالد لا يصوح زهره أبداً .

ثم يخرج عليهم الشاعر الساخر أرسطوفان بنظرية فى الحب غاية فى الجدة . فيقول إن الجنسين فى غابر الزمن كان ينتظمهما جسد واحد . جسد مستدير كالكرة ، له أيد أربع وأرجل أربع ووجهان . وكان يتحرك فى سرعة فائقة ، يستخدم فى سيره أطرافه الثمانية ، كأنها عوارض عجلة تدور على نفسها باستمرار . وتهيأت لهذا الجنس المذكر المؤنث قوة رهيبة ، وانفسحت مطامحه انفساحاً لا يحد ، فعوّل على الإرتقاء إلى السماء ومهاجمة الآلهة . فاهتدى زيوس إلى فكرة سديدة فقال : لنشطر كلا من هذه المخلوقات شطرين ، وبذلك تنخفض قوتها إلى النصف ، ويتضاعف عدد من يموت منها «وهكذا شطر كل واحد من تلك المخلوقات ذكراً وأنثى ، ومنذ ذلك اليوم جعل الجسمان — وكانا من قبل جسما واحداً — يتحرقان شوقاً إلى الإندماج مرة ثانية فى جسم واحد . هذا الحنين إلى إندماج الجنسين هو ما ندعوه « الحب » .

وتلا هذا التفسير الفكه للحب تعريفات أخرى كثيرة ، حتى طلب إلى ضيف الشرف سقراط أن يبدى رأيه فى الموضوع .

قال سقراط : لقد أذهلتنى كل هذه الفصاحة ، فانعقد لسانى ، وتحجر كيانى . فأين غفلتى من تلك الحكمة السامقة ؟

وبعد أن أورد هذه المقدمة السقراطية ذات الطابع المتواضع الساخر

شرع يفند « حكمتهم بغفلتـه » ، ويمزق حجتهم بسيل من الأسئلة لا يمكن الإجابة عنها ـ فسقراط هو منشىء طريقة الحوار في التربية — حتى إذا فرغ من عملية الهدم ، أتبعها بعملية إنشائية خاصة به ، فقال إن الحب هو تعطش الروح البشرية إلى الجمال المقدس. فالعاشق لا يتلهف على ان يجد الجمال وحسب ، بل ويعمل على تخليـــده ، واستنبات بذرة الخلود في الجسم البشرى الفاني ، وهنا يكمن السر في ميل كل من الجنسين إلى الجنس الآخر ، ليـكرر وجوده ،فيمد زمانه إلى الأبد . ويفسر هذا حب الآباء لأبنائهم ، لأن روح الوالد المحب لا تنجب أطفالا فحسب ، وإنمـــا تنجب كذلك الباحثين والشركاء والأعوان في العمل ، والخلفاء في البحث الخالد عن الجمال.

وما الجمال ذاك الذى نبغى كلنا تخليده عن طريق الحب ؟ هو الحـكمة والفضيلة و الشرف والشجاعـة والعدل والإيمان . وقصارى القول إن « الجمال هو الحق » ، و « الحق هو أقصر طريق مؤديه إلى الله » .

فيضج الأضياف بآيات الإعجاب بما قال الفيلسوف ذو القدمين الحافيتين ، ثم ينتقلون إلى الشطر المادى من أعمال الليلة ، فيبدءون منافسة في الشراب تستغرق الليل بطوله. وجعل المتنافسون الصاخبون

يتساقطون واحداً فى أثر واحد ، حتى أذّن ديك الصباح فلم يكن قد بقى منهم ثلاثة : أرسطوفان وأجاثون وسقراط ، وكانوا يشربون من قدح كبير يُدار عليهم ، ويشرح سقراط لجليسيه الشاعرين وهما بين النوم واليقظة ، أن من ينبغ فى كتابة الملهاة ، ينبغى أن ينبغ كذلك فى كتابة المأساة. وكان أرسطوفان أول من غلبه النوم. وقبل طلوع الفجر اشتمل النوم على أجاثون . فأرقدهما سقراط فى دعة وهدوء ليستريحا . ويعب جرعة أخيرة من الشراب إجلالاً لإله النبيذ ديونيسوس ، ثم ينصرف إلى واجبه اليومى ، وهو نشر الحكمة بين الأثينيين .

وكان ممن شهدوا هذه المأدبة الشهيرة شاب من تلاميذ سقراط ، قدر له أن يُخَلِّد مواهب أستاذه العقلية ، وقوة احتماله الجسمية . واسم هذا الشاب أفلاطون .

أفاءت السماء على أفلاطون نعيمها . فهو — كجيتة — قد أصاب من النعيم كل ما يسع الآلهة أن تسبغه على إنسان، منبت عريق وأب واسع الثراء ، وطلعة مشرقة، وعقل سليم فى جسم رياضى سليم (ويقال أنه لقب بأفلاطون سخرية بعرض كتفيه) ، وميل جارف إلى الحكمة . وفى أثناء بحثه عن الحكمة فتن بسقراط وهو فى العشرين

ووقع تحت تأثيره ، وكان سقراط إذ ذاك فى الثانية والستين ، وكان ذلك فى العام السابع بعد الأربعمائة قبل ميلاد المسيح .

وأحب أفلاطون سقراط من بادئ الأمر حباً بلغ حد التقديس فانتظم فى صف أولئك الشبان اللامعين ، الذين يسيرون فى أثر ذلك المتجول خلال شوارع المدينة ، ويصغون إليه فى دهش وسرور وهو يخز أكبر حكماء أثينة ويسخر بهم ، ويحملهم على الاعتراف بجهلهم. وكان سقراط دميم الخلق ، يشبهه ألقبيادس (Alcibiades) ، وكان من أقدر تلاميذه ، بالتماثيل الصغيرة التى كانت تباع فى سوق أثينا ، لها ظاهر الفلاحين الأجلاف ، ولكنك لا تكاد تفتحها حتى تلقى بداخلها صورة إله .

ولكن سقراط لا يسعى إلى بلوغ حكمة آلهة سامقة تسمو على حكمة البشر . فهو فى تواضعه يقصر جهده على مهمة إنسانية بحتة.. مهمة توجيه الأسئلة .فهو يقول : « أنا لا أعرف غير شيء واحد ، هو أنى لا أعرف شيئاً» ثم يشرع يثبت للناس على اختلافهم أن شأنهم كشأنه ، وأنهم لا يعرفون شيئاً ، فكان همه أن يتعلم ، ويمكن غيره من أن يتعلم . وفى ذلك يقول : « كانت أمى قابلة ، وأنا أحاول أن أتأثر خطاها ، فأنا أولِّد العقول ، أساعد غيرى على أن يخرج آراءه إلى الحياة » .

فهو يجوب شوارع أثينة . . ذلك الفيلسوف العادى فى لفظه الساذج فى ملامحه ، القديس سقراط ذو الأنف الأفطس ، والشفتين الغليظتين ، والعينين الجاحظتين ، والجسم الغليظ السمج ، والآراء العلوية . وهو أينما كان يوجه أسئلته الأولية : ما معنى هذا ؟ .. ما هى التقوى ؟ ما الديمقراطية ؟ ما الفضيلة ؟ ما الشجاعة ؟ ما الأمانة ؟ ما العدل ؟ ما الحق ؟ وما عملك . . وماذا أضفت إلى مهمتك من علم أو حذق ؟ هل أنت من رجال الحكم ؟ إذا كان ذلك فما عرفت عن الحكومة؟ هل أنت محام؟ ما الدراسة التى قمت بها للدوافع البشرية التى تصدر عنها أعمال الإنسان ؟ هل أنت مدرس ؟ ماذا فعلت لتقهر جهلك قبل أن تجرؤ على مكافحة جهل غيرك ؟ تفضل بالإجابة . . .

بمثل هذه الأسئلة كان يختبر العلماء ويكشف جهلهم لا عن حقد أو ضغن ، فهو يتوق إلى كشف جهله قدر ما يتوق إلى كشف جهل غيره ، فقد كان هدفه الوحيد أن يصل إلى الحق عن طريق استبعاد الباطل والتخلص منه . « إنى أسير فى أعقاب الحق وأتلمس آثاره تلمس كلب الصيد للفريسة . وفى غمرة البحث عن الحق أهمل صوالحه ومهنته (فقد كان نقاشاً) وأهمل أسرته . ولم تدع زوجه أنثبى[١]

---

(١) Anthipé

فرصة إلا ذكرته بهذا الاهمال . لقد كان سقراط شهيد الفلسفة .

وما هى الفلسفة ؟ كما كان يسأل هو . إنها العملية العقلية التى تظهرنا على أنفسنا وشعارها « اعرف نفسك » .

على أن معظم الناس إذا ظهروا على أنفسهم أصابتهم خيبة الأمل فيما أصابوا من علم عن أنفسهم جديد . فما كاد سقراط يزيل غشاوة الخداع عن أعين الأثينيين ، ويضع أمامهم مرآة الحق ، حتى أفزعهم المنظر . فالمرآة لم تطالعهم بصور بشرية ، بل طالعتهم بصور الوحوش .

ثم عملوا ما تعمله الوحوش فحملوا على سقراط حملتهم . لقد ظلوا بضع سنين قانعين من اضطهاده بنظرات الزراية والاستخفاف والسباب من حين إلى حين إلى أن أصيبت أخلاق الاثينيين بوباء كأنه النار التى تأكل كل شىء ، فإذا شعورهم الكريم رماد تذروه الرياح. ذلك أن الأثينيين قد منوا بهزيمة فى حرب البلوبونيز (عام ٤٠٤ ق. م.) وهى الحرب التى دارت بين دكتاتورية اسبارطة ودمقراطية أثينة . وأصيبت منها دماثة الأخلاق ، وكرامة الحياة ، ومعنى الحرية بضربات مميتة . فقام الطاغية أقريطاس زعيم الخونة الأثينيين بقلب حكومة أثينة الحرة . فلما دارت الدائرة على أقريطاس وطرد من الحكم اندلعت

فى الدولة ثورة ، انطلقت فيها أحط الغرائز البشرية من عقالها . فلم تعد أثينة بالمكان الأمين لفيلسوف . . وعلى الأخص إذا كان فيلسوفاً لا ينى على المجاهرة برأيه. وهذا سقراط مقبل من السوق فيجد الاتهام التالى موجهاً إليه فى إعلان :

سقراط مدان بارتكاب الجريمتين الآتيتين : أولا : أنه لا يعبد آلهة المدينة ، بل يعبد آلهة من عنده . وثانياً : أنه يضلل الشباب وعقوبة هاتين الجريمتين هى الإعدام .

وكان الذى وجه هذا الاتهام إلى سقراط ، تاجراً من تجار الجلود يدعى انيتس[1] . وكان يحقد على سقراط أنه نصح ابنه بالانصراف عن دبغ الجلود ، وهى صناعة أبيه ، ليتخصص فى الفلسفة . وهذا عند إنيتس إفساد للشباب لا ينبغى أن تقل عقوبته عن الإعدام .

لقد كانت هذه القضية قضية الجلد والعلم . . كسبها الجلد ، وخسرها العلم . وقبض على سقراط ، وقدم للمحاكمة ، وطولب بإعدامه.

وكان يسع سقراط أن ينجو من عقوبة الإعدام لأن القانون الأثينى كان يبيح لمن حكم عليه بالإعدام أن يستبدل به النفى . هذا

---

(١) Anytus

إلى أن بعض الأثرياء من صحابته، ومنهم أفلاطون، قد وفقوا إلى رشوة السجان، فكان سقراط قادراً على الفرار إذا شاء، ولكنه لم يشأ. لقد جاء أجله فتأهب للرحيل. إنه لم يحجم طول حياته عن خوض المخاطر ومواجهة الموت، إذا تطلب الأمر. لقد نال أيام شبابه جائزة الشجاعة فى الحرب، واستطاع فى كهولته ـ وكان عضواً بمجلس الشيوخ ـ أن يتحدى الجماهير الصاخبة التى تطالب بإعدام أمير من أمراء البحر متهم بالجبن. وبعد سنوات عدة تحدى الطاغية أقريطاس بنفس هذه الشجاعة. فقد أمره الطاغية أن يعيد إلى أثينة الثائر الدمقراطى (ليون) الذى فر إلى سلاميس، فرفض الإذعان لأمر الطاغية، وكان من الجائز — كما قال سقراط — أن يلقى حتفه جزاء هذا الرفض لولا أن حكومة أقريطاس سقطت بعد قليل.

والآن وقد قضى عليه بالإعدام فعلا، فهو لا يحجم ولا يجفل بل يؤثر أن يموت الآن، وهو لم يزل صحيح البدن، على أن تمتد به الحياة فيطعن فى السن وتنحل قواه. لقد كان يزهو دائماً بقدرة بدنه على احتمال المشاق، فلم يكن غيره فى أثينة يستطيع أن يسير عارى القدمين فوق الجليد فى زمهرير الشتاء. وهو لا يحتمل فكرة الحياة الكسيحة: « فلنواجه الموت بشجاعة كما واجهنا الحياة.. ليست

المشكلة ياقضاتى فى أن ننجوا من الموت ، بل فى النجاة من الجريمة ، لأن الجريمة أحث من الموت خطوة ، وأسرع بنا لحاقاً .. لقد لحق الموت بى ، ولكن الإثم لاحق بمن وجهوا إلى التهمة . . وسألقى أنا عقابى ، كما سيلقون هم عقابهم .

وفى آخر أيامه زاره فى السجن نفر من أتباعه . ويصف أفلاطون هذا اللقاء فى فيدون ، وهو كتاب يعد من كبريات ملاحم العالم ، فيقول إن تلاميذ سقراط احتشدوا حول أستاذهم المحبوب . فدعا سقراط أحدهم إليه وجعل يمر بيده على شعره وهو يشرح آراءه فى الحياة والموت وخلود الروح. فالموت نسيان خالد حلو لا يفسده اضطهاد أو ظلم أو خيبة أو ألم أو حزن..أو أنه باب نلجه فنمضى من الأرض إلى السماء إنه المدخل إلى قصر الله « وهناك أيها الصحاب ، لا يقتل إنسان من أجل عقائده. .فابتهجوا إذن واستبشروا، ولا تأسوا على فراقى .. وقولوا حين تودعوننى القبر إنكم إنما دفنتم جسدى لا روحى » .

وتوشك الشمس أن تغرب ، فيدخل السجان وفى يده السم ويقول « بربك ياسقراط لا تحنق على.. فأنت تعلم أن غيرى يحمل إثم موتك . . ولا أحمله أنا » .

يقول ذلك ويمد يده بالكأس إلى سقراط ويجهش بالبكاء وهو

عائد من عنده . « ولم يستطع أحدنا أن يحبس دمعه ، فانهلّت شؤوننا برغمنا ، عدا سقراط فقد ظل رابط الجأش يقول لصحبه : ما هذا السخف . لقد صرفت النساء تفادياً لمثل هذا المشهد . السكينة إذن ودعونى أمت فى هدوء » .

فلما سمعنا هذا استجبنا وكفكفنا الدمع . فلما شرب سقراط قدح الشوكران استلقى على السرير كما أمره السجان . وسرى السم تدريجاً من قدمه صوب قلبه . فاهتز هزة عنيفة ، وجمدت عيناه . كذلك كانت نهاية أستاذنا . . الذى أستطيع أن أقول عنه بحق إنه سما فى حكمته ورقته على كل من عرفت من الناس » .

— ٣ —

مات سقراط عام ٣٩٩ ق . م فآثر أفلاطون أن يغادر أثينة لأنه بذل من الجهود لإنقاذ سقراط ما جعله محط الأنظار . فبدأ رحلة « حول العالم » أعنى العالم المعروف فى ذلك الحين ؛ ولا يسعنا أن نحدد فى دقة ما طاف به من أقطار ، ولكن يغلب على الظن أنه ذهب إلى إيطاليا حيث تعلم فلسفة فيثاغورس « منشىء الرياضة ، ومبدع الموسيقى » ويقال إنه رحل من هناك إلى صقلية وإلى قورينة وإلى مصر وإلى بلاد اليهود حتى بلغ شواطىء الكنج . وهو إلا يكن قد

جاب كل هذه الأقطار بشخصه ، فهو لا ريب قد جابها بفكره . فإذا عاد إلى أثينة بعد رحلة دامت اثنى عشر عاماً كان عقله قد حوى جماع حكمة العالم .

ولكن يظل سقراط أستاذه الأكبر ، فيقف حياته منذ ذلك الحين على تعليم الحقائق التى علمها سقراط . وافتتح لهذا الغرض مدرسة فلسفية فى الحديقة العامة بأثينا هى الأكاديمية ، وكانت بقعة ممتعة ساحرة ، وغرست فيها الأشجار ، وزانتها المعابد والتماثيل .

وهنا على ضفة نهر ، حيث تسمع خرير جدول مخبوء ، فى شهر يونية المورق ، يصدح بلحن ساج وديع فى الغابات الساجية الغافية طول المساء ، أسس أكاديميته ، وشرع يذيع فلسفة سقراط ، أوفلسفة أفلاطون كما ندعوها الآن . ذلك أن أفلاطون كان يذيع أفكاره كلها فى حوار يجريه على لسان سقراط ، لهذا نعلم علم اليقين أن الفلسفة كلها عند أفلاطون وسقراط ، ليس لها غير معنى واحد ، ورسالة واحدة ، هى إقرار العدل بين الناس . يقول سقراط « العدل هو السعادة الحقة التى لا سعادة سواها ، وما من تعس غير الظالم » . ويردف أفلاطون وهو يتحدث كعادته على لسان سقراط « لم يندد بالظلم أو يحمد العدل حتى الآن (والظاهر أنه لم يسمع بتعاليم الأنبياء

العبرانيين) . . ولم يهتد أحد بعد إلى أن الظلم أبشع ما تنطوى عليه النفس من شر ، وأن العدل أروع ما تنطوى عليه النفس من خير .

وقد ألف أفلاطون محاوراته الخالدة ليحدد فيها طبيعة العدل . ويشير إمرسن إلى تلك المحاورات فيردد ما زعموا أن عمر قاله فى حديثه عن القرآن أحرقوا المكتبات، فعلمها فى بطن هذا الكتاب[1] . ولعل أفلاطون قد بذ أئمة الفكر العالميين جميعاً شمولا فى الإدراك، وإحاطة بشتات المعرفة . فإليه مرجع كل ما لا يزال رجال الفكر يكتبون فيه ويتجادلون » كما يقول إمرسن . والواقع أنه لا يغادر موضوعا مما يهتم به الناس إلا أحصاه فى بحثه عن أسس العدل وهو المبحث الذى وقف عليه حياته . فالأخوة العالمية بين البشر ، وتحسين النسل، والاشتراكية والشيوعية ، والشئون النسوية ، وتحديد النسل، والحب الحر ، والقول الحر ، والمعايير الخلقية وهل تكون واحدة أو غير واحدة للرجال والنساء وشيوع الثروة والنساء والأطفال . . كل أولئك قليل من المشاكل التى تناولها بالبحث فى محاوراته. ولكن هذه المحاورات كلها تنبعث من أصل واحد هو رغبته الشديدة فى أن يرى الاستقامة — أو العدالة

---

(١) هذه العبارة من المفتريات المنسوبة إلى عمر لتحميله وزر حرق مكتبة الإسكندرية . ويجمع كبار المؤرخين ومنهم بتلر صاحب (فتح العرب لمصر) على نفى نسبة هذه العبارة إلى عمر . (المترجان)

كما نسميها بلغة هذه الأيام — قائمة على وجه الأرض . . الاستقامة فى الفرد والعدالة فى الدولة . فهو يتوق إلى أن يرى دولة لا يقتل فيها سقراط . . بل ينتخب لها ملكا .

فهذه الدولة الخيالية التى يهفو إليها قلبه ، يصفها فى «الجمهورية»، أول كتاب فى التاريخ يصف المدينة الفاضلة .

— ٤ —

وإذا أردنا أن نكون فكرة صحيحة عن جمهورية أفلاطون فعلينا أن نلم بحياة مواطنيها منذ يولدون .

فمواليد الجمهورية ثمرة للتزاوج المشاع ، فيتصل خير الرجال بخير النساء ، تحقيقاً لغرض واحد ، هو إنجاب نسل رفيع . وتكون هذه النسوة لهؤلاء الرجال على الشيوع . فالجمهورية يجب أن تخلو من الزواج الفردى ، والأسر الخاصة . ولا يكاد الأطفال يولدون حتى يعزلوا عن آبائهم ويودعوا محضن الدولة ويجب ألا يعرف الآباء أبناءهم ، ولا الأبناء آباءهم . وبهذه الوسيلة ، دون سواها ، تستطيع الأخوة العالمية أن تنتقل من عالم النظريات إلى الواقع . فكل فرد من هذه الدولة يمكن أن يعد أخاً لكل إنسان آخر .

وليس على الآباء أن يقصروا نشاطهم الجنسى على شركاء حددوا لهم ، فلهم بعد أن ينجبوا أطفالا للدولة أن يتحللوا من هذا القيد بشرط

أن يبذلوا قصارى جهدهم فى إجهاض أى جنين يمكن أن يخرج إلى الحياة من هذه السبيل . فأمر الحب المتحرر متروك إذن لتقدير الفرد، ذكراً كان أو أنثى ، لأن حياة المواطنين الخاصة يجب ألا تكون من أعمال الدولة ، وإنما يهمها ألا يعتدى بعض المواطنين على بعض فى سعيهم إلى سعادتهم الفردية . ولنعد إلى الأطفال .

إنهم لا يكادون يولدون — كما رأينا — حتى يودعوا محاضن الدولة ، ويتلقوا تعليما واحداً حتى سن العشرين. وهذا التعليم التمهيدى يتكون فى معظمه من الألعاب الرياضية والموسيقى . . فالرياضة تزيد تناغم الروح . ولا ثقة بمن خلا روحه من الموسيقى ، فهو كسيح العقل مضطرب العاطفة ، مشوه النظرة أبداً إلى الحق والباطل . فالموسيقى وهى تعنى عند أفلاطون كل توافق وتناغم ، مسموعاً كان أو غير مسموع ، هى المعنى المستور الذى يمسك بالعالم أن يتداعى ويهوى فى العماء والفوضى . والموسيقى هى روح الكون ، كما أن الكواكب والنجوم هى بدنه . ولولاها لاستحالت الأرض جمرة خامدة ، والسماء حفنة من الرماد .

لذا كانت الموسيقى جزءاً أساسياً من تربية كل فرد . فلا يبلغ البنون والبنات سن العشرين إلا وقد تمكنوا من الموسيقى والرياضة

ويختلط الجنسان فى المدارس التى يتلقون فيها هذه الدراسة . وعلى البنين والبنات أن يتخففوا من ملابسهم جميعاً حين قيامهم بالتمرينات الرياضيه . فمواطنوا الجمهورية — كما يقول أفلاطون — يكفيهم ثوب الفضيلة شعاراً . ويجب ألا يستشعروا الخجل الكاذب أو السخرية حين يرون الجسم البشرى .

وتعليم الأطفال إذ يخلو من الحياء المصطنع ، يجب أن يتحرر أيضاً من العسر والإرهاق . فيكون التعليم لذة ومتعة لا تعذيباً وعنتاً . وبفضل المدرس الصالح يصيب الطفل العادى من عقله متاعاً كالذى يصيبه من رياضة جسمه . فينبغى للمدرسة إذن أن تكون ملعباً للعقول ، يحاول فيه كل طفل أن يفوق أقرانه فى اللعبة الشائقة ، لعبة تبادل الآراء .

يسير التعليم إذن فى الجمهورية على هذا الغرار حتى سن العشرين ثم يعقد للطلبة امتحان عام عسير ، ومن ثبت عجزه عن متابعة الدرس سلك فى الطبقة الدنيا ، طبقة الزراع والصناع ورجال الأعمال . أولئك هم « معدن الدولة الخسيس » .

أما من بقوا بعد التصفية فيواصلون تعليمهم ، ويدرسون العلوم فى العشر سنوات التالية ، أى من سن العشرين حتى الثلاثين ، فيتعلمون

الحساب والهندسة والفلك على أن تدرس هذه المواد لتنمية حاسة الجمال، لا لفوائدها العملية . ذلك أن أفلاطون يرى أنه لا يليق بكرامة المواطن الراقى فى جمهوريته أن يستخدم الحساب فى المبادلة التجارية أوفى بناء القناطر أو صناعة الآلات . ويتفق أفلاطون فى هذا مع غيره من الإغريق فى عصره ؛ فقد كانوا لا يكترثون بالمخترعات الآلية أو التقدم المادى ، وكانوا يؤثرون التأمل المجرد على المعرفة المادية . فدراسة الأرقام عند أفلاطون إنما تفيد فى أمرين : تمكين الفيلسوف من رؤية الوحدة الحقة وراء الخلاف الظاهر بين الأشياء ، وتمكين القائد الحربى من تقسيم جنده إلى فرق وسريات وفصائل وبفالق . فالفلاسفة والجنود إذن هم وحدهم الذين يحتاجون إلى التوسع فى دراسة العلوم الرياضية .

فإذا تمت دراسة العلوم فى سن الثلاثين ، عقد امتحان تصفية جديد . فمن نجح فيه واصل درسه ، ومن أخفق سلك فى الطبقة الوسطى ، طبقة الجند حراس الدولة . والجند فى جمهورية أفلاطون يطالعون بواجب خطير ، فهم ليسوا قوة للعدوان بل للذود والدفاع فأفلاطون يمقت الحرب ، لكنه يدرك أن خير وسيلة لاتقاء الغزاة أن نشهر فى وجوههم وتحت سمعهم وبصرهم سيفاً بتاراً لا يفل .

فى الجمهورية إذن طبقة وسطى هى طبقة الجنود والحراس كما يدعوهم هو ، إلى جانب الطبقة الدنيا وهى طبقة الفلاحين والعمال والتجار . ولقد سبق القول إن الطبقة الدنيا تتكون ممن أظهروا فى سن الثلاثين عجزاً عن متابعة النمو العقلى . أما ذوو العقول الأسمى الذين تتمخض عنهم التصفيتان ، فيتخصصون لدراسة الفلسفة من سن الثلاثين . وهم رجال ونساء يدربون على ولاية شئون الحكم فى الدولة. فالجنسان فى الجمهورية يستويان كما رأينا ، فهم يتلقون نفس التعليم ، وتباح لهم نفس الوظائف حتى تكتمل أهبتهم لمواجهة الحياة العملية الجدية . وتدرس الفلسفة خمس سنين تنتهى بعدها الدراسة النظرية التى يتلقاها الممتازون من الجنسين . ولكنهم لا يزالون بحاجة إلى دراسة عملية ، فعليهم الآن بعد إذ تخرجوا أن يبدءوا التدرب على شئون الحكم ، فينزلوا من علياء تأملاتهم إلى ما يضرب فيه الناس فى الحياة اليومية . فيجب أن يخبروا الحياة قبل أن يسمح لهم بالمشاركة فى توجيهها . ومن أجل هذا يقضون خمسة عشر عاماً ، يتحتم عليهم فيها أن يندمجوا فى الحياة العملية. حتى إذا بلغوا الخمسين كانوا قد اكتملوا العدة للقيام بدور الملوك الفلاسفة . فليس يجدر بحكم الجمهورية المثالية غير الفيلسوف « ولن تنجلى غمرة الناس حتى يتولى أمرهم الفلاسفة . أو يدرس الحكام الفلسفة » .

وما الذى يميز الفيلسوف من بنى جنسه ؟ إن الذى يميزه هو قدرته على فهم فكرة الله الكاملة ، تلك الفكرة التى يصورها العالم المادى تصويراً شائهاً ناقصاً . إن فكرة الله ،سر الحياة المقدس، أشبه بنور لامع يتلألأ فى السماء . ولكن عقولنا العادية فى عالمنا ليست إلا شظايا مشوهة من المرايا ، تتكسر فيها الفكرة فتنطمس، وتبدو عجيبة غريبة غير متميزة . فوظيفة الفيلسوف أن يثقف مرآة عقله ويصقلها حتى تتبلج فيها فكرة الله ، السر المقدس «نور العقل» الذى يهدى النجوم فى مسالكها والإنسان فى أعماله . وبعد أن يرى غاية الله واضحة جلية عليه أن يجسدها ، فتكون خير حكومة أخرجت للناس فى هذه الدولة المثالية .

ذلك أن الدولة المثالية يجب أن يتولى أمرها خير الناس. والفلاسفة فى جمهورية أفلاطون ، بفضل ما أصابوا من علم ،وما جبلوا عليه من كفاية ، هم الصفوة المختارة من الرجال والنساء الذين أنجبتهم الدولة . ومن هؤلاء الحكام الفلاسفة تتكون أعلى طبقة ، ولها على الطبقتين الأخريين حق الطاعة فى جميع الأحوال . ويجب أن يحرم اقتناء المتاع على هؤلاء الحكام ، ضماناً لأمانتهم ، فكل مايملكون شائع بينهم وهم يصيبون وجباتهم فى مطاعم عامة ، وينامون معاً فى ثكنات ،

وليس لهم من غرض خاص ، فهم لذلك يمتنعون عن الرشوة ، ولا يطمحون إلا لشيء واحد هو إقامة العدل بين الناس والعمل على بقائه أبد الدهر.

— ٥ —

هذا بناء الدولة المثالية قد اكتمل ، فلننقش على بابها « هذه مدينة العدل » ، ولندلف إليها نخبر نواحي منها أطرف وأشيق .
فنرى بادىء بدء أن الحكام الفلاسفة قد طردوا من مدينتهم شاعر الملاحم « هوميروس » مع مذهبه المشرك الذي يصفه في شعره . . فمن المهانة لذكائهم أن يؤمنوا بقصص كحكايات الأطفال عن آلهة الأولمب ، يسمون ما شاءوا على صفحات الإلياذة دون أن يبرءوا من نقائص البشر . . فلابد للدين أن يتطهر من كل أساطيره الوحشية ومعجزاته الخرافية . وإنما الدين ماوافق عقل البشر .

هذا عن رأي الجمهورية في الآلهة . فما رأيها في معاملة الانسان للانسان ؟ إن قوام هذه المعاملة هو مراعاة العدالة في أدق صورها ؛ والاشتغال بالتجارة هوان ، لأن التاجر يستحيل عليه — في نظر أفلاطون — أن يجمع بين النجاح والأمانة في آن . والجمهورية تشفق على المجرمين ، فهم لا يعاقبون ، بل يمنعون من ارتكاب الجريمة . .

فالرذيلة ثمرة الجهل ، وإنما يقترف الانسان جرماً لسوء تربيته . ومن لا يدرك ما يصلح من أمره أو أمر بني جنسه فهو مخلوق جدير بالرثاء . إنك لن تحيل حصانا جموحاً إلى حصان وادع بأن تلهب جسمه بالسوط . ولن تحيل الهمجي إنسانا دمثاً بنبذه من المجتمع. فإن يكن المجرم مجنونا وجب أن يعالج من جنته ،وإن يكن جاهلا وجب أن يعلّم ، فاقتلع الجريمة بالحكمة ؛ لكن حذار أن تصب على المجرم سوط عذاب .

والمرض الجثماني أثر من آثار الجهل ، شأنه في ذلك شأن المرض الخلقي . والتربية الصحيحة تستأصل الداء إلى حد بعيد ، لكن المصابين بمرض عضال يجب أن تتاح لهم سبل الموت في رحمة ، لأن الموت السريع ، خير من المرض الطويل .

والمحامون في الجمهورية شر منه بد ، لأن التقاضي ينعدم حيث تتوافر المعرفة وتكون القوانين التي تحكم الناس قليلة يسيرة ،ذلك بأن حكام الدولة يعرفون أن كل قانون جديد يثمر طبقة جديدة من المجرمين . وهؤلاء الحكام يعلّمون مواطنيهم كيف يحكمون أنفسهم ، وبذلك تتضاءل إلى الحد الأدنى تلك القيود التي تفرضها عليهم الدولة .

وأول ما تعنى به حكومة الجمهورية هو أن تكفل السعادة للمحكومين وأن تهبهم الصحة والرضى والفراغ ، وفى ذلك يقول إمرسن الأفلاطونى : لئن منحتنى صحة ويوما ، لأجعلن من جلال الأباطرة شيئاً زريا » ، الصحة ، والرضى ، ويوم جميل يظل على الدهر صحواً ذهبياً . . هذه عند أفلاطون هى جماع السعادة البشرية « حياة الجمال ، حياة العدل ، وحياة الحب » . وتكاد هذه الكلمات الثلاث أن تترادف فى فلسفة أفلاطون . فالرجل الفاضل السعيد — لأن الفضيلة هى السعادة — هو الرجل العادل المتناغم ، الذى يعزف خلقه اللحن الصحيح فى سمفونية التعاون الاجتماعى . وهذا الرجل المثالى فى جمهورية أفلاطون المثالية قد وهب نفسه لابداع الجمال وخلقه ، سواء فى سلالته ، أو آثار فنه ، أو نبيل فعاله ، لأن الجمال سر الخلود ، ونحن نقهر الموت حين نبدع أثراً جميلا .

— ٦ —

هذا هو الحلم الفلسفى الذى فتن أفلاطون ، الكاهن الاعظم لدين الجمال . لقد بنى مدينة من المثاليين وأهداها إلى أبيه (أبولو) إله النور ، وأحلها بين النجوم لتكون نموذجا يتأثره المهندسون فى المستقبل إذا حاولوا تقريب الارض من السماء .

على أن أفلاطون لم يقنع بإبداع حلم من الاحلام ، بل حاول — كما حاول الفيلسوف الصينى كنفشيوس — أن يطبــــق نظرياته الفلسفية تطبيقاً عملياً . فقد جاءته دعوة من الملك ديونيشيوس فرحل إلى سرقوسة يحاول أن يعلم ذلك الملك كيف يحكم كما يحكم الرجل العاقل الحكيم . ولـكن ديونيشيوس كان ملـكاً وحسب ولم يكن فيلسوفاً ، ولذلك ارتاع من بعض آراء أفلاطون الحرة وهدده بالقتل على أن وساطة نفر من أصحاب أفلاطون قد حقنت دمه ، وإن بيع بيع الرقيق . كذلك جرت الامور ، فبدلا من أن يجعل أفلاطون من ديونيشيوس ملـكا فيلسوفاً ، جعل من نفسه فيلسوفا عبداً .

وشاء حظ أفلاطون الحسن أن يكون الرجل الذى اشتراه ليعلم أبناءه محبا للحكمة ، بل ومحبا للعدل كذلك ، فأطلق سراح أفلاطون وسمح له بالعودة إلى أثينة .

فلما عاد إلى موطنه جاءته رسالة اعتذار من ديونيشيوس ، ذكر فيها الطاغية أن مرد الأمر كله إلى خطأ بشع ، وأنه يرجو أن يغفره له أفلاطون ويحسن به الظن . وقد رد عليه أفلاطون بأن قال فى إزدراء : « إنى لفى شغل بفلسفتى عن التفـكير فى ديونيشيوس » .

وظل زمنا طويلا يواظب على محاوراته الفلسفية الهادئة فى

حديقة أكاديميته ، وهى محاورات كأنها وحى يوحى ، علمه شديد القوى.

ولـكن أفلاطون مهما يكن أمره بشرفان ، فإنه الآن فى عامه الاول بعد الثمانين يشهد حفلة زفاف شاب من أصدقائه ، فيرهقه صخب الصاخبين ، فيستأذن من صاحب العرس أن ينتقل إلى حجرة أخرى « ليغفو قليلا » كما قال ، ويزداد صخب المهرجين ويعلو . وينسى الاضياف ذلك الفيلسوف المسن المرهق الذى يتلمس الراحة وسط هذا الصخب .

* أخيراً يسير المضيف على أطراف الاصابع إلى الغرفة الاخرى ليرى أستاذه فيجد أفلاطون فى سبات عميق لا تزعجه ضوضاء العالم الفارغة . إن هذا الفيلسوف الملك ، ملك الفلاسفة ، قد دعى آخر الأمر إلى جمهورية الموت ، يرفرف عليها علم السلام .

أرســـطو

٣٨٤ — ٣٢٢ ق . م

— ١ —

فى ذات يوم فى منتصف الصيف من عام ٣٦٦ ، تقدم للالتحاق بأكاديمية أفلاطون شاب أقبل من المدينة المقدونية ستاجيراء فى الغرب البرى من العالم الأثينى . على أن ذلك الشاب الأنيق لا يشوبه شىء مما يشوب الرعاة . فهو آية فى الرقة والدماثة ، لأنه ترعرع فى جو عابق بالثقافة . فأبوه كان طبيباً فى بلاط أمينتاس ملك مقدونية وجد الإسكندر ، وهذا الأب الآن ليس فى عداد الأحياء ، وقد درج أرسطو منذ نعومة أظفاره على النظام العقلى والراحة البدنية .

وأثار وصوله إلى الأكاديمية ضجة فى صفوف الطلبة . فهو شريف من الأشراف ، كيس لبيب رشيق هادىء الصوت دمث مؤدب . إنه مثال لحسن البزة وكمال الخلق . وهو مع هذا لا يخلو من حذلقة ، فهو يتكلف لثغة مصطنعة ، ويعنى بزيه — كما قال أفلاطون — أكثر مما يليق بمن خلصت نفسه للفلسفة .

بيد أنه يتكشف عن عقل تتعددت مواهبه على نحو لا تصدقه . فإنه لأقرب إلى المحال — فيما يبدو — أن يتفتح عقل واحد لكل هذه الألوان من المعرفة . فالسياسة والمسرح والشعر والطبيعة والطب وعلم النفس والتاريخ والمنطق والفلك والأخلاق والتاريخ الطبيعى والرياضة والبيان وعلم الأحياء . كلها بعض من الصحاف التى زخرت بها المائدة الحافلة بشتيت الأطعمة ، والتى شاء أن يشبع نهمه منها إلى العلم . قال أفلاطون يوماً متفكهاً إن أكاديميته جزءان . تلاميذه جميعاً وهم جسمها وأرسطو وهو عقلها .

وحدث ما كان منتظراً . فلم يستطع أعظم أساتذة أثينة وأنبغ تلاميذها أن يعيشا فى وفاق ، فاليونانى إذا لقى يونانياً ، وعلى الأخص إذا تساويا عقلا ، فصدامهما لا مندحة عنه . لذلك كان الفيلسوف الشيخ فى شجار دائم مع الفيلسوف الشاب . وكان كلاهما من صاحبه مع ذلك فى كلف دائم .

فلما مات أفلاطون عام ٣٤٧ ق . م . كان أرسطو فى السابعة والثلاثين ، وكان يتوقع — وحق له — أن ينتخب خلفا لأفلاطون فى رياسة الأكاديمية ، ولكن أمله خاب . فقد تخطاه أوصياء الأكاديمية لأنه « أجنبى » واختاروا أثينيا للرياسة ، فأثار الفشل

ثائرته ، وبحث عن فرصة تتيح له مغادرته أثينة ، حتى وافته الفرصة . فقد دعاه الملك هرمياس إلى بلاده، وكان من زملاء أرسطو فى الدرس، ثم صار إلى هذا السياسى حكم أراض شاسعة فى آسية الصغرى . وكان ديونيشيوس ملك سرقوسة تواقا لأن يجرب قيام حكومة حكيمة ، على ألا يكون للحكمة شأن بثروته لذلك دعا أرسطو يستهديه التوفيق بين العدل فى عالم التجريد ، والنهب فى عالم المادة .

ولكن أرسطو لم يكن يحفل بغير العدل ، فأخفق فيما ابتغاه من صرف صاحبه عن تلمس الثروة إلى تلمس العدالة . ولكنه وفق إلى الزواج من بيتياس ابنة أخى هرمياس وكان قد تبناها . وكان أرسطو قد أحب الفتاة لذاتها ولكنه لم يكن يأبى أن يتقاضى بائنة كبيرة تجلبها معها . فأرسطو — كما سنرى — لم يكن يكره أن يصيب قسطا معقولا من الرخاء واليسر ، بل إنه ليراه ضروريا للحياة السعيدة .

ولهذا تزوج بيتياس ، واستثمر أمواله ، وأمضى شهر العسل يجمع أصداف البحر ليدرسها علميا .

حتى إذا انقضى شهر العسل عاد إلى بلاط هرمياس ، ولكنه

لم يطل مقامه فيه ، فقد أثار هرمياس بمؤامراته حفيظة ملك الفرس ، فغزا الفرس بلاده وأسروا هرمياس وصلبوه .

فعاد أرسطو كما كان ، لا وطن له ولا عمل . وامتدت لإنقاذه فى هذه المرة أيضاً يد صديق ملك ، هو فيليب المقدونى ، ابن أمينتاس وأبو الإسكندر ، فقد دعا أرسطو إلى قصره ليربى الإسكندر .

وبذلك يرجع أرسطو إلى البلاط الذى عمل به أبوه طبيباً للملك فيشعر أنه « سمكة أخرجت من الماء » ؛ فجو مقدونية حينذاك لم يكن يلائم التأمل الفلسفى . . فهو جو أطماع جامحة ، وأبهة همجية ، وغلظة بربرية . فالملك فيليب رجل حاد الذكاء ، قليل الحظ من التعليم ، تشوب لغته الأغلاط النحوية ، وهو يصر على أنه ليس من البرابرة ، ولا يود أن يكون ابنه بربرياً . . إنه يريد الإسكندر فيلسوفاً مهذباً . وهل من المستطاع تحويل دوامة لاتنى عن ابتلاع السفن ، إلى بحيرة هادئة وادعة ؟ فهذا الإسكندر هو الشبل الشكس للأســـد الهائج البطاش . والحق أن البلاط بأجمعه كان أشبه بغابة تسكنها ضوارى الوحوش ، وتقضى يومها بين شجار ومبارزة وعربدة واغتيال . وهذه أولمبياس زوج الملك فيليب توشك على الجنون ، وفيليب والإسكندر غير بعيدين من نفس المصير . فهذا فيليب يحاول فى إحدى المـآدب

الملكية أن يصرع الإسكندر بخنجره لأنه أهانه ، فيرد عليه الإسكندر بهجوم قاتل . ولحسن حظ المتنازعين وسوء حظ العالم وفق الحاضرون إلى التفريق بينهما .

هذا هو البيت الصاخب الذى دعى أرسطو ليهذبه بجمال الحكمة، وهذا عبث لا غناء فيه . فالملك فيليب طالما حلم بغزو العالم ، وهو الآن فى شغل بتنفيذ الجزء الأول من حلمه الإمبراطورى ، وهو إخضاع الدول الإغريقية لحكمه . وكان يجنح للسلم مع كل منها ، فإذا جنحت لها واستنامت مطمئنة إلى وعوده الخلابة ، أخذ يبتلعها واحدة فى إثر واحدة . ولكنه يصرع فى إحدى غزواته المظفرة ، فيهجر الإسكندر تلميذ أرسطو دراسة الفلسفة النظرية ، وينصرف إلى أحلام أبيه الواقعية ، فيكمل ما بدأه من حملات متقطعة على بلاد اليونان ، ثم يأخذ فى غزو العالم ، يصحبه فى غزواته الفيلسوف كاليستينيس ، ليكفكف من غلوائه فى الاندفاع ، وهو تلميذ أرسطو وابن أخيه . على أن كاليستينيس لا يستطيع الحد من أندفاع الإسكندر ، بل لقد وضع الإسكندر لحياة الفيلسوف حداً . فقد أثار حفيظة الإسكندر حين رفض تأليهه ، فأمر الإسكندر به أن يشنق .

فعاد أرسطو إلى مصادره الأولى . لقد جاء مقدونية ينشد المجد

السياسي ، ورجع إلى أثينة سياسياً أكثر حزناً ، وفيلسوفاً أكثر حكمة . حسبه هذا من حياة الواقع ، وهو منذ اليوم خالص للدرس .

واستطاع لحسن الحظ أن يتوسع فى دراساته كل التوسع، ويجازف بالمال فى هذه السبيل ، ففضلا عن ماله الخاص ، وهو ما لا يستطاع إغفاله بحال ، كان لديه ما أصاب من الملك فيليب جزاء له على أبحاثه العلمية وهو مبلغ (٨٠٠) طالنطة . . وهى تبلغ فى قيمتها الشرائية ما يبلغه ٠٠٠ر٠٠٠ر٤ دولار . واستأجر نحو ١٠٠٠ مساعد بعث بهم إلى كل أنحاء العالم ، ليجمعوا المادة والنماذج اللازمة لإعداد موسوعة شاملة فى الفلسفة والعلم .

ولكن أرسطو ليس أستاذ بحث وكفى ، بل هو مدرس قبل كل شيء . وإذ كان لا يزال يأسى على إخفاقه فى بلوغ رياسة الأكاديمية ، فقد أنشأ مدرسة تنافسها يطلق عليها اللسيوم (وقد تسمت بهذا الاسم لأنها تقع فى خميلة مهداة إلى أبولوليسيوس . . . حامى الغنم من الذئاب) .. وفيها جمع قطيع تلاميذه، وأعدهم لمكافحة ذئاب الجهل . وكان فى الصباح يقدم درساً علمياً لطلبته المتقدمين ، ويلقى بعد الظهر محاضرات شعبية على الجمهور .

ويقدم لنا معاصروه صورة حية له إذا حاضر . فهو أصلع الرأس

تنبعج بطنه قليلا (فهو الآن يختتم حلقته الخامسة) يزهى بملبسه الأنيق، نحيل الساقين ، ولـكنه متوقد العينين حاد اللسان . . لا تزال لثغة الطفولة تلازمه . وهو يرشد سامعيه ويسوقهم ويسخر منهم ليهديهم إلى مسالك الحـكمة . وهو بطبعه قلق لا يكف عن الحركة ، ولا يستطيع أن يجلس هادئا . وإذا حاضر تلاميذه ، وعلى الأخص حين يقل عددهم فى الصباح ، فإنه يذرع الأرض غدواً ورواحاً معهم بين الأعمدة ، يشرح لهم آراءه ويجيب عن أسئلتهم . وهكذا دعى لسيومه « مدرسة المشائين » ولا تزال فلسفة أرسطو حتى يومنا هذا يطلق عليها « فلسفة المشائين » .

ولنحضر معه بعض الدروس التى يلقيها فى مدرسته كى نلم إلمامة سريعة بفلسفته . وسوف لا نتعمق ملاحظاته العلمية الـكثيرة ، مهما تـكن شائقة . فهذه الملاحظات تـكون قائمة من الحقائق غير المنظمة ، لا مذهباً متكاملا من مذاهب الفـكر . ولنقل فى إيجـــاز إن قصور المعلومات العلمية عند أرسطو لم ينشأ عن قصور فى عقله بل عن انعدام الأجهزة العلمية الضرورية . فقد كان يستحيل عليه بغير المقرب من جهة والمجهر من جهة أخرى أن يعرف شيئا عن اتساع الـكون ودقة أجزائه ، كان من أثر ذلك أن غدا علم أرسطو وليس له من

قيمة عملية فى هذه الأيام واقتصرت أهميته على الناحية التاريخية .

ولكن لا نكاد ننتقل إلى فلسفته التأملية ، حتى نجد أنفسنا أمام شيء أدنى إلى العالمية ، فهو يناقش ثلاثاً من المسائل الحيوية التى تهم الجيل الحاضر كما كانت تهم جيل أرسطو . هذه المسائل الثلاث هى : الله والدولة والإنسان . ما طبيعة الله ؟ ما خير نوع من الحكم تصلح به الدولة ؟ ما خير سلوك يسلكه الإنسان ؟ ويتحدث أرسطو عن طبيعة الله فى كتاب « ما وراء الطبيعة » وعن نظام الحكم فى « السياسة » وعن السلوك فى « الأخلاق » .

— ٢ —

ليس الله فى مذهب أرسطو هو خالق الكون ، بل هو محركه ، لأن كل خالق حالم ، والحالم شخص غير راض بالواقع ، تتوق روحه إلى ما لم يكن . وهو كائن تعس يبحث عن السعادة . . وهو إذا أوجزنا مخلوق ناقص يسعى إلى الكمال . أما الله فكامل ، وكماله ينزهه عن السخط والتعاسة . فهو إذن محرك الكون لا خالقه .

ولكن ما نوع هذا المحرك ؟ يجيب أرسطو بأن الله محرك لا يتحرك . فكل محرك سواه ، شخصاً كان أو شيئاً أو فكرة ، يحرك شيئاً ويحركه شيء . فالمحراث يحرك التربة ، واليد تحرك المحراث ،

والعقل يحرك اليد ، والرغبة فى الطعام تحرك العقل ، وغريزة حب الحياة تحرك الرغبة فى الطعام . . وهكذا .ومعنى هذا بعبارة أخرى أن سبب كل حركة نتيجة لحركة أخرى . فسيد كل عبد ، عبد لسيد آخر . وحتى الطاغية نفسه عبد لطموحه . لكن الله لا يمكن أن يكون نتيجة لأى عمل ولا يمكن أن يكون عبداً لأى سيد ، بل هو مصدر كل عمل ، هو سيد السادة جميعاً ، مبعث الفكر جميعه .. إنه محرك العالم الذى لا يتحرك .

والله بعد ذلك لا يهمه أمر العالم ، وإن كان أمره يهم العالم ، لأن اهتمامه بالعالم معناه التعرض للانفعالات النفسية ، والتأثر بالدعاء بالخير أو الشر ، واستطاعته تغيير رأيه متأثراً بتصرف غيره أو رغبته أو رأيه . . أى أنه يكون ناقصاً . ولكن الله كامل يسمو على الانفعال والتغير . إنه يحرك العالم كما يحرك المعشوق عاشقه . أرأيت إلى فتاة تسير فى الطريق ، قد أخذت عليها أفكارها كل سبيل، وقد أطرقت إلى الأرض بعينين لا تنظران إلى أحد ، وإن نظر الجميع إليها؟ إن جمالها قد استهوى كل الأعين ، وحفز جميع القلوب إلى العمل ، وكافة العقول إلى التفكير . كذلك جمال الله ، لا يتحرك ولكنه « يبعث الحركة فينا جميعاً بما تنطوى عليه قلوبنا من حبه » .

إن إله أرسطو هذا الذى يحبه البشر كافة ، ولا يهمه من أمرهم شىء ، هو كائن أعظم بارد مجرد ، لا يرضى قط نظرتنا الدينية الحديثة. إنه أشبه بالطاقة الأولى للعلماء منه بالأب العلوى عند الشعراء . قد يستطيع العقل البشرى إذا تجرد من كل عاطفة أن يتصور وجود حاكم لا يهمه من أمر الكون شىء ، ولكن القلب البشرى بما حمل من الأسى ، وما وهب من التعاطف ، يتشبث بوجود إله صديق حبيب فى السماء ، لا بمعنى مجرد خال من الحب كما يصوره فيلسوف إغريقى فى تأملات ميتافيزيقية . ولعل القلب أقرب من العقل إلى السر النهائى للعالم .

أما عن القيمة العلمية لما ذهب إليه أرسطو فى تأملاته من أن الله هو المحرك الذى لا يتحرك ، أو أنه السبب غير المخلوق لكل حركة، فنى وسعنا أن نلخصها فى العبارات التى جرت على لسان بنت صغيرة حين سألت أمها : « لكن من الذى أوجد هذا المحرك يا أماه ؟ ».

— ٣ —

فإذا تنزل أرسطو من السماء إلى الأرض ، غدت أفكاره أقرب إلى المنطق ، وأدنى إلى الفهم ، وألصق بالحقائق المادية . فهو يتناول كل ما جزبه العالم من نظم الحكم واحداً فى إثر واحد . يتناول

الدكتاتورية والملكية والألجركية والدمقراطية ، ويحلل كلا منها ، معترفاً بحسناته ، مبيناً سوءاته . وعنده أن الدكتاتورية شر أنواع الحكم ، لأنها تسخر مصلحة المجموع لتحقيق مطامع فرد واحد. وعنده أن خير أنواع الحكم ما « مكن كل فرد مهما يكن من استغلال أقصى ما وهب من كفاية ، والاستمتاع بأيامه جهد الاستمتاع » وهذا الطراز من الحكم هو حكم دستورى دائماً ، مهما يتخذ من الأسماء . أما الحكم غير الدستورى فهو حكم الاستبداد ، سواء أكان حكم فرد واحد أم حكم قلة أم حكم كثرة . فالسلطة المطلقة التى لا ضابط لها ، سواء مارستها حفنة من الأثرياء ، أو رهط من الفقراء ، لتستوى فى فى استبدادها بالسلطة المطلقة يمارسها الفرد الواحد . فدكتاتورية طبقة من الطبقات لا تفضل دكتارية فرد من الأفراد .

وينتقل أرسطو من هذه النقطة إلى وصف خير نظم الحكم ـ غير الدكتاتورى ـ فى رأيه . وعنده أن هذه الحكومة ينبغى ألا تكون شيوعية كجمهورية أفلاطون . ذلك ان الملك العام للمتاع ، والملك العام للنساء والأطفال خاصية ، يبعث على سوء التفاهم والشجار والجرائم التى لا تنقطع ابداً . والشيوعية تقضى على التبعة الشخصية « فالذى يمتلكه كل الناس ، لا يسهر عليه واحد من الناس » .

«وشيوع المسئولية معناه إهمال الفرد فكل امرىء يميل إلى التحلل من اداء الواجب ، متوقعاً ان يؤدبه غيره» . ولا امل فى أن تجعل الثروة البشرية مشاعة بين الناس كما لا أمل فى جعل الخلق البشرى مشاعاً بين الناس جميعاً ، ويوصى ارسطو بأن يرقى كل فرد خلقه الخاص ، وان يمتلك ما له الخاص .

ولكن إذا فرض علينا توجيه اخلاق الفرد الخاصة صوب الصالح العام ، فإن ثروة الفرد الخاصة يجب توجيهها إلى خير المجموع كذلك «ومن أوجب الواجبات على المشترع أن يعمل على خلق هذه النزعة التعاونية فى الناس جميعاً» ، ذلك أنه ليس لهذا المشترع من عمل إلا تحقيق الصالح العام عن طريق التفاعل بين صوالح الأفراد ، تفاعلا يسوده الإيثار . . وتحقيقاً لهذه الغاية يجب ألا يكون بين الطبقات حد فاصل حاسم ، وعلى الأخص بين طبقة الحكام وطبقة المحكومين. فكل المواطنين يجب أن ينالوا حظهم فى أن يحكموا ويحكموا ، مع مراعاة المبدأ العام الذى يقول إن «الشيوخ أصلح لولاية الحكم ، والشباب اصلح للطاعة» .

وعلى الطبقة الحاكمة ان تعنى اشد العناية بتعليم الشباب تعليما يجب ان يكون عمليا ومثاليا فى آن . فلا نقف عند تمكين الشباب من كسب عيشه، بل نعلمه كذلك كيف يعيش فى حدود موارده. بذلك تطمئن

الدولة إلى تنشئة مواطنين متنورين يعيشون فى رخاء، متعاونين، قانعين.

وعلى الحكام ان يستهدفوا رضى المحكومين اولا ، رضى مبعثه العدل . . فما من سبيل غير هذا لتفادى الثورة . « فليس من إنسان عاقل يطيق حكومة ظالمة ، إن استطاع منها فراراً أولها إسقاطا » ، فهذه الحكومة الظالمة ترفع الحرارة الكظيمة فى الصدور إلى درجة الانفجار وهى مؤدية إلى الانفجار بلا ريب ، قرب أجله أو بعد . « ويبدو أن الدمقراطية » بما تؤديه للناس من عدل « هى اسلم انواع الحكم ، وآمنها من الانفجار » واقرب الأقطار من خطر الانفجار ما تحكم حكما دكتاتوريا « فليس اوهن من الدكتاتورية نظاما للحكم » كما يقول ارسطو .

— ٤ —

وهدف الحكومة ـ فيما كتب أرسطو ـ هو أن تضمن صالح المحكومين . وبذا ينفخ أرسطو فى السياسة من روح الأخلاق . فالدولة إنما وجدت لصالح الإنسان ، ولم يوجد الإنسان لصالح الدولة. فما ولد الإنسان إلا ليسعد .

ولكن ما السعادة ؟ إنها تلك الحالة العقلية التى يبعثها التعود على فعل الخير . ولكن الطيبة وحدها لا تكفى لتحقيق السعادة ، بل يجب أن يتهيأ للانسان أيضاً قدر كاف من الطيبات . . الأبوة

الطيبة والسمات الطيبة والثروة الطيبة والأصدقاء الطيبون. وأول ما يلزم لبلوغ السعادة حياة مديدة صحيحة « فالصيف لا يخلقه عصفور واحد ، أو يوم واحد » فإذا شئنا أن نجعل من حياتنا كلها صيفاً كاملا حقاً ، إحتجنا إلى أيام عدة، وإلى كفاية من ضوء الشمس، ومن الأغانى.

على أن الرجل النبيل يستطيع أن يسعد رغم الحياة القصيرة وفى وسط الخطوب . ذلك أن الروح النبيلة تستطيع أن تعود الجسم الامتناع على الألم ، وهذه نعمة فى ذاتها ، أى أنك تستطيع فى بعض الأحيان أن تبلغ السعادة بالانصراف عنها . يضاف إلى هذا أنه ما من إنسان يمكن أن يقال إنه شقى إذا ما سار على هدى الفضيلة ، لأن هذا الرجل « يتنزه عن أن يفعل شيئاً بغيضا أو دنيئاً . وقوام السعادة هو فعل الخير كما رأينا ، على ان الإنسان الذى اكتملت له اسباب السعادة هو الذى يعمل بما تمليه الفضيلة الكاملة ، وقد تهيأ له نصيب كاف من الثراء ، والصحة والصداقة ، لا إلى أمد محدود . بل على مدى الحياة الكاملة ».

وإذا كانت السعادة ناشئة عن الفضيلة ، فما هى الفضيلة إذن ؟ لم يكن القدامى يعنون بهذه الكلمة سمو الخلق وحده كما نفهم منها نحن، بل كانوا يعنون بها أى نوع من السمو والامتياز . وبذا يدعى

(كازانوڤا) الإغريقي عاشقاً فاضلا ، لأنه عاشق كفء قادر . ويمكن أن يعد القائد القاسى القلب القدير فى عمله جنديا فاضلافى مدينة أثينة . فكلمة الفضيلةعند الأغريق (arete)مشتقة من (ares) وهو اسم إله الحرب .فالرجل الفاضل عندأرسطوهومن تحلى بالقوةالبدنية والكفاية، الفنية ، والإيجابية العقلية . ويضيف ارسطو إلى هذه الصفات الثلاث شرطا رابعاً للسعادة هو النبالة الخلقية . هذا الامتياز المتكامل الجوانب هو الذى لا بدمنهالمحارب السعيد فى نظر ارسطو .

وقد لخص أرسطو ذلك الامتياز المتمدد الجوانب فى نظريته الشهيرة المسماه « بالوسط الذهبى » فالرجل السعيد الفاضل هو من توسط طرفين مرذولين ، فيسلك طريقاً وسطاً بين الرذائل الكثيرة الجاثمة على الجانبين ، والتى تهدد سعادته . ففى كل عمل ، وكل فكرة ، وكل عاطفة ، يمكن المرء أن يكون مسرفا أو مقصراً أو سالكا سبيل القصد . كذلك يكون المرء فى إشراك غيره فيما يملك إما مبذراً ، وهذا هو الإسراف ، أو بخيلا وهذا هو التقصير ،أو كريما وهذا هو القصد . وفى مواجهة مخاطر الحياة يمكن ان يكون المرء متهوراً او جبانا او شجاعا . وفى شهواته يمكن ان يكون نهما أو زاهداً أو معتدلا . فالسبيل السوى فى كل الأحوال هو ألا تسرف فى

شىء ، ولا تقصر فيه ، بل ان نبتغى بين ذلك قواماً . والرجل الفاضل لا يسمو على البشر المعتادين ، ولا يقصر عنهم ، بل يكون إنسانا سوياً متزنا حكيما . فهو « فى الوقت الصحيح يعمل الشىء الصحيح نحو الشخص الصحيح ، بالدافع الصحيح والأسلوب الصحيح » : وهو بإيجاز يلتزم الوسط الحميد فى كل وقت وكل ظرف ، لأن الوسط الصحيح هو الطريق الفسيح المؤدى إلى السعادة .

وبعد أن يمهد أرسطو طريق السعادة على هذا النحو ، يأخذ فى وصف الرجل المثالى الذى هو أجدر الناس بالسعادة . فيقول إن هذا الرجل المثالى هو الرجل المهذب الكامل ، وهو الذى لا يعرض نفسه لأخطار لا داعى لها ، ولكنه لا يحجم عن التضحية بحياته إذا حزب الأمر . وهو يطيب نفساً حين يسدى لغيره الخير « لأن من آيات فضلك على الناس أن تصنع لهم الخير ، ومن آيات فضل الناس عليك أن تتلقاه منهم » . على أن إيثاره غيره إنما هو فى حقيقته نوع سام من الأثرة — الأثرة المستنيرة . فصنع المعروف ليس من ألوان التضحية بل من وسائل المحافظة على الذات ، لأن المرء ليس نفساً فردية بل نفساً اجتماعية . وفوق ذلك فكل معروف يقدم للناس أشبه بمال مدخر يدر ربحاً ، ولا بد أن يرد المال غلته ، طال الأمد أو قصر

فالرجل المثالى إذن يحب الناس لأنه حكيم . . وهو لا يتحدث بشر عن سواه ولو كان من أعدائه إلا أن يواجه مواجهة . وهو لا يشعر بالضغن على الإطلاق ، وهو ينسى دائماً ما يوجه إليه من إساءات . . وهو باختصار صديق لغيره من الناس ، لأنه أخلص الناس لنفسه .

— ٥ —

هذه الصورة التى رسم فيها أرسطو سمات السيد الأثينى ، تبرز فيها سمات أرسطو شخصياً . فهو فى دعته وهدوئه وحكمته لا ينى عن هداية البشر إلى سبيل الوسط السوى بين التهور فى الغزو وبين الجبن والخنوع . ولكن آراءه لم تكن توائم زمانه ، فإن حال الأثينيين لم تسمح لهم بالإصغاء إلى الحكمة ، فاتهموا أرسطو بأنه يتجسس عليهم للمقدونيين . ولم يستطيعوا أن ينسوا أنه كان معلم الإسكندر ، بل لقد صار الإسكندر نفسه ينطوى لأرسطو على البغض . ذلك أن الحكمة والحرب عدوان لا سبيل إلى المصالحة بينهما . والاعتداء والهدوء والوسط الذهبى مبادىء من الخطر أن تتردد والجيوش تصخب وتصطرع ، لقد قتل الإسكندر من قبل كاليشينيس ابن أخى أرسطو وخير للاسكندر أن ينحى أرسطو أيضاً عن طريقه .

وهكذا أحدقت بالفيلسوف الوديع أخطار من جميع الجهات .
وزال احد هذه الأخطار بموت الإسكندر من أثر مجانة مخمورة .
ولكن الخطر الآخر . . .الذى نبت من شك الأثينين فيه ظل ينمو ويدمو حتى كاد أن يقضى عليه .

وكانت مأساة سقراط ماثلة فى ذهنه لا تريم ، فغادر المدينة قبل أن ينفذ السهم ، لأنه ـ كما قال ـ «لن يعطى الأثينين فرصة ثانية للاجرام فى حق الفلسفة » .

لقد فر ارسطو من القضاة ، ولكنه لم يسعه الفـــرار من القضاء ، فهو له فى المنفى بالمرصاد . فما مر عام على مغادرته أثينة حتى مات .

وقبل وفاته ، كتب أروع مؤلفاته ، وهو وصية وجـــيزة ، ولكنها فى التاريخ حدث جليل . . لقد أوصى بعتق عبيده وإطلاقهم احراراً ، فكان هذا اول إعلان للتحرير فى التاريخ كله .

أبيقــــور

٤٣٣ ق . م – ٢٧٠ ق . م

— ١ —

فى كتاب للأخ رابليه قصة خيالية غريبة عن دير (تيليم)؛ وهو دير خيالى لطائفة دينية شعارهـا « افعل ما بدا لك » ، وليس فى هذا الدير غير قاعدة واحدة ، هى ألا تتبع أية قاعدة على الإطلاق وقد خلا الدير من السـاعات التى تنبه الناس إلى وقت الصلاة أو العمل . وليس على رهبان هـذا الدير وراهباته أن يقسموا اليمين الثلاثية على التزام العفة والفقر والطاعة ، بل لهم أن يتزوجوا وأن يحيوا حياة كاملة الحرية . وأبواب هـــذا الدير لا تفتح أبداً لأهل التعصب والنفاق ، والمحامين والقضاة والتجار والصيرفيين والسكيرين والـكذابين والجبناء والغشاشين واللصوص ، وإنما يرحب هـذا الدير « بكل مستهام نبيل يبحث عن قـبَّرة صداحة طروب » . . . يرحب برجال ينشدون المتعة ونساء قادرات على الإمتاع ، بعشاق

أولى مرح وذكاء وطلاقة وطرب ورشاقة ودعابة ووسامة وكياسة وجدارة ودعة ومجانة ؛ ونساء يُشتهين . . . . ممتعات ضاحكات بارعات يسبين العقول ، فاتنات مغريات ناضجات غيد ، نقايات عزيزات رفيعات المكان ، غنجات ، رقيقات جميلات لاغاية بعدهن لمستزيد ، ماهرات متهتكات .

هكذا تكون الأخوة والاخوات فى هذا الدين الجديد « دين الاستهتار النقى » وما عليهم إلا أن يغفلوا حياة الغد المجهول ، وألا يحفلوا بغير هذا اليوم الذى لا ريب فيه

ودير تيليم ذاك الذى وصفه رابليه صورة هزلية لحقيقة أبيقور ، دير السعادة الذى طارت شهرته ، والذى أنشأه أشد فلاسفة أثينة حزناً . لقد كانت حديقة أبيقور كما كان دير تيليم نكوصاً عن دين ذلك الزمن وارتداداً عنه ، ولكنها لم تكن مهداً للاستهتار والمجانة بل كانت على العكس من ذلك مسرحاً للتأمل الهادىء . ولعل الناس لم يظلموا لفظاً كما ظلموا « أبيقورى » . فنحن الآن نطلقه على من حشد نفسه لإصابة شهواته الشخصية ، وأسرف فى إرضاء نزواته إلى الطعام . هيهات لمثل هذا الشخص أن يعد من أتباع أبيقور . . ذلك النبى الذى شاد دينه على العقل . وإنه لمن سخريات القدر أن يغدو علماً على الشهوة اسم أشهر متقشف زاهد فى العالم القديم . ألا ما أبعد الشقة بين أبيقور والأبيقورية . لكن لنلق إلى الرجل نظرة .

— ٢ —

ولد فى جزيرة ساموس (عام ٣٤٢ ق . م) والعدوان المقدونى يصب على حرية الإغريق . وكان أبوه مدرساً أثينياً غرس فى قلبه ازدراء الطغيان ، وكانت أمه من المشعوذات بالطب الروحى، متجولة تتجر بالأدعية ، وتعرض على الناس أن تعالج أمراضهم بالتمائم والرقى وكان عليه فى طفولته أن يصحب والدته من منزل إلى منزل ، وأن يساعدها فى توزيع احتيالها المقدس . ومن هنا نبتت درايته البصيرة بالخرافة .

وقد بدا منه ميل باكر إلى دراسة الفلسفة . وحدث مرة وهو يناهز الثانية عشرة أن كان مدرسه يحاول تفسير خلق العالم ، فقال المدرس « إن كل شىء أتى من العماء » .

فأجاب أبيقور : « نعم ! ولكن من أين أتى العماء ؟ » .

فقال المدرس : « لست أدرى ، ولا يدرى أحد » .

فى هذا الزمان والمكان قرر أبيقور أن عليه هو أن يعرف ، وأن تكون رسالة حياته هى البحث عن أصل العماء .. الذى هو أصل العالم . وقدم أثينة فى الثامنة عشرة من عمره ، وكان ذلك العصر

عصراً مضطرباً ، فأثينة يحكمها من قبل الاسكندر دكتاتور هو مثال الطاغية القديم (أو الطاغية الحديث فلا فرق بينهما) . وقد حاول ذلك الدكتاتور القضاء على الروح الديمقراطى فى أنحاء اليونان كافة ، فأبدل بسكان الجهات المقهورة سكاناً غيرهم ، طرد أهل البلاد « الثائرين » وأسكن بلادهم مستعمرين من المقدونيين ، وكان من اللاجئين الذين أخرجوا من ديارهم والد أبيقور ووالدته ، فاضطر إلى الفرار إلى آسية الصغرى . وهناك قابلهما أبيقور ، بعد إذ أقام فى أثينة فترة وجيزة ، وحاول أن ينسى فى أحلام الفلسفة وطأة الحياة وثقلها ، لقد صار مما ينزع به إلى العمل ، إلى جانب البحث عن العماء ، نازع آخر هو الرغبة فى أن يخلص من العماء .

لـكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلا ، لا فى الشواغل السياسية أو التجريدات الفقهية ، وإن وفق إلى بعض المبادىء فى الطبيعة وماوراء الطبيعة مكنته من أن ينشىء لنفسه واحة سلام بين أعاصير الرمال ، ووجد فى هذا الـكشف غناء ، فعاد إلى أثينة وابتاع منزلا وحديقة فى ضاحية من ضواحيها ، وأقام أكاديمية فى الخلاء يعلم فيها الفلسفة .

وكانت الأكاديمية تنتظم الطلاب والطالبات على السواء ، وأبوابها مفتوحة للناس لا فرق بين طبقة وطبقة ، ولا يستثنى

من ذلك العبيد ولا الفاهرات ، فملكة العلم ـ كما يقول أبيقور ـ لا تعرف فروق الطبقات . وكان الأستاذ وتلاميذه يعيشون معاً فى الأكاديمية ويتبادلون الألفة والاحترام ، وثار بأثينة ـ كما هو منتظر ـ لغط كثير حول الفجور الجسدى والإباحية السائدين فى حديقة أبيقور . ولم يكن لهذا اللغط أساس فى الواقع ، فحياة طلبة الأكاديمية كادت فى بعدها عن النهم والشهوة أن تبلغ حد التقشف والحرمان فطعامهم اليومى لا يعدو خبز الشعير والماء ، لا يتناولون اليسير من النبيذ إلا بين الحين والحين . وكان الجبن ترفاً يدخر للمواسم الاستثنائية . كتب أبيقور إلى صديق من أصدقائه يقول : « إبعث إلىّ ببعض الجبن المحفوظ ، حتى توسع على رهطنا فى الموسم » . وكان الطعام الدسم حراماً على الأكاديمية لأنه لا يبعث على السرور ، بل يبعث على الألم ، ألم الهضم العسير ، يقول أبيقور : « إننى أنتشى من خبزى ومائى ، وإنى لأتفل على التوابل الغالية . . لا لذاتها ، بل لما يعقبها من متاعب » .

لقد كان الخبز والماء ونبيذ الفلسفة عند أبيقور هى مقومات الحياة السعيدة . ولكن ما هذه الفلسفة التى مكنت أبيقور وأتباعه من أن يجدوا الرضى وسط هذا السخط الشامل ؟ إنها الفلسفة

السلبية الأتراكسية ، نسبة إلى أترا كسيا Atraxia وهى كلمة يونانية معناها التجرد من الانفعال ، ورباطة الجأش ، وطمأنينة العقل السليم . وقد شرح أبيقور فلسفته فى سلسلة من الكتب تبلغ الثلثمائة . ففلاسفة الإغريق كانوا إلى غزارة مادتهم ، يسلكون إليها أبعد السبل . وقد عبثت يد الزمن بكتب أبيقور جميعاً ، ولكن لدينا لحسن الحظ موجزاً واضحاً لفلسفته فى ملحمة للوقريطس عنوانها « فى طبيعة الأشياء » . ولوقريطس هذا فيلسوف أبيقورى عاش فى رومة بعد أبيقور بنحو خمسين ومائتى عام . وتعد قصيدته « فى طبيعة الأشياء » من أعجب ما كتب فى تاريخ الأدب . . . . فهى دفاع عن المنطق الهادىء ، وإن صيغت فى عاطفة مشبوبة بيضاء الوهج . وهى قصيدة كافر ينكر إنسانية الله ، لكنه يؤكد قدسية الإنسان . وقد قيل فى وصفها إنها إنجيل من أكبر أناجيل العالم . . إنجيل غير المؤمنين .

ونظرة وجيزة إلى ملحمة لوقريطس ، أو الإنجيل البذىء ، تتيح لنا أن ندلف إلى قصر المسرة . وهو قصر بسيط . . . تهوى إليه الأفئدة ، وهو المعروف بفلسفة أبيقور .

- ٣ -

يرى أبيقور أن الهدف من العيش أن نستمتع بالحياة ، ولكننا لن نستمتع بالحياة مالم نفهمها. يجب أن نفهم العالم الذى نسكنه وندرك طبيعة سكانه ، ومعنى هذا بعبارة أخرى أننا يجب أن نعرف من نكون ولماذا صرنا إلى ما صرنا إليه .

علينا إذن قبل كل شىء أن نفهم فى وضوح من نحن . فالإنسان فيما يرى أبيقور ـ ليس إبناً لإله كريم ، بل ربيب طبيعة لا يهمها من أمره شىء . فليست الحياة خطة رسمتها يد فنان مقدس ، وإنما هى حدث طارىء فى كون آلى . ولكننا نستطيع إذا شئنا أن نجعل منها حدثاً سعيداً ، أو ممتعاً على الأقل . وكيف السبيل إلى ذلك ؟ السبيل إليه أن نحرر أذهاننا من الخوفين الكبيرين اللذين يفسدان الحياة على بنى الإنسان : الخوف من الآلهة والخوف من الموت .

فما من داع للخوف من الآلهة ـ كذلك يسترسل أبيقور ـ فلسنا لهم عبيداً ولا سلطان لهم علينا ، لأنهم لم يخلقونا . بل هم لم يخلقوا شيئاً فى الواقع . والكون لم تصنعه يد الله ، بل جاء نتيجة عارضة لحركة الذرات خلال الفضاء اللانهائى .

وهذا يؤدى بنا إلى نظرية الذرة عند أبيقور . . . وهى النظرية لتى أرهقت بالتفسير الآلى الحديث للكون، وقد أخذ أبيقور فلسفته الذرية عن ديموقريطس، وهو من الفلاسفة الإغريق الذين « يؤثرون كشف حقيقة علمية على امتلاك إمبراطورية » .

وقد وجد أبيقور جواباً عن سؤاله القديم عن العماء فى هذا الفرض القائل بوجود مواد للبناء من ذرات لا نهاية لها ، أى لبنات ذرية لا نهاية لها تبنى منها العوالم . وهذا الفرض لم يفسر له أصل العماء فحسب ، بل فعل أكثر من هذا بأن قضى على العماء أصلا ، فجعله يؤكد أن ليس من شىء يقال له العماء أو اللاشىء . ودعم هذا التوكيد بثلاثة أدلة :

١ — لا يمكن أن يكون العالم ناشئاً عن العماء ، إذ لا يمكن أن ينشأ شىء من لا شىء .

٢ — لا يمكن أن ينحل العالم إلى عماء إذ لا يمكن أن يمحى فيصير لا شىء .

بذلك يكون المجموع الكلى للمادة ، أى مجموع اللبنات التى يبنى منها الكون ثابتاً ، على الدوام لا يتغير .

فلا يمكن أن يضاف إليه شيء من لا شيء ، أو ينتقص منه شيء فيتحول إلى لا شيء .

فالعالم إذن يتركب من لا نهائية خالدة من شيء ما . . أى من الذرات المادية (والذرة عنصر أبيقور ، كما هى فى علم الطبيعة الحديث أصغر ما يمكن أن يتركب منه جسم مادى . والذرات التى يتركب منها بناء العالم هى — فيما يقول أبيقور — لا تولد ولا تموت ولا تتحول . إنها تتحرك أبداً إلى أسفل خلال الفضاء اللانهائى . ولكنها فى حركتها الهابطة تحيد عن الجادة من آن لآخر كما تفعل هفتات التراب فى أشعة الشمس ، أو قطرات المطر التى تدور إذا هبت الريح فإذا دارت معاً ، جعلت تتصادم . وبذا تتكثف فتتكون منها مادة النجوم والأرضين والأقمار والشموس والأكوان .

وهذه الذرات تختلف وزناً وشكلا وحجماً . وهذا الاختلاف يفسر التنوع اللانهائى للأشياء التى يتركب منها العالم ، على أن عالمنا — كما يقرر أبيقور — ليس العالم الوحيد فى الوجود . فهناك عوالم غيره ، تعدله سعة وعجباً . . . فيها الأرضون بجبالها ومحيطها وأجناسها من البشر ، وأجيالها من الوحوش . فلسنا نحن الحضارة الوحيدة على شاطىء بحر اللانهائية ، لأن الذرات تتكثف فيحدث

عن تكثفها نفس المركبات إذا تعرضت لنفس الظروف ، مرات ومرات ، حين تنزل إلى أمام وإلى أسفل خلال المسالك اللانهائية للفراغ .

وهذه الحركة الدائرية تجرى تلقائية ، لا تهديها يد ، لأن الآلهة نفسها مخلوقات آلية نشأت من تكثف الذرات ، وإن كانت ذراتها أدق وأخفى من ذرات الناس ، وهى تحيا فى سماواتها الشاسعة ، وهى الفراغ الصحو بين الأكوان . وهناك تنعم بخلود مبارك ، لا يحفل مطلقاً بسرور البشر وأساه وصراعه .

لم يكن للآلهة فى خلقنا شأن ما . . . ولا يهمها من مصيرنا شىء على الإطلاق . فحياة الإنسان ـ فيما يرى أبيقور ـ مهزلة بالغة الجنون لا يمكن أن تنبت فى ذهن قصاص عاقل ، وهل يأمر إله عاقل بأن يقام لتكريمه معبد ، ثم ينزل على المعبد صاعقة من السماء تدمره ؟ أو يعقل أن إلهاً رحيما يبرىء طفلا صغيراً من مرض خطير ليسلمه إلى موت أبشع فى ميدان القتال ؟

وإنما يستمتع الآلهة بنعيم مقيم فى فردوسهم بين الأكوان ، لأنهم قد تحرروا من هموم البشر وتبعاته وآلامه ، وما هو مبارك خالد لا يستوى بعده عن الابتسام والعبوس ، والعطف والقسوة .

قد برئوا من المتاعب ، فباعدوا بينهم وبين متاعب البشر أقصى ما يكون البعد .

وإذا كان الآلهة لا يحفلون شيئاً بأمر الناس ، فلماذا يحفل الناس بأمر الآلهة ؟ لأن الناس ـ فيما يقول أبيقور ـ إذا حاولوا الاقتراب من الألوهية ، اقتربوا بذلك من الإنسانية . فعبادة الألوهية ـ وكان أبيقور نفسه شديد الحرص على أداء العبادات الوثنية تجعل الناس أشبه بالآلهة ، أى أكثر دماثة ، وأقل احتفالا بلطمات القدر، وصروف الحدثان . فالدين الصحيح إذن لا يقوم على التضحية أو الخرافة أو الخوف ، بل يقوم على محاكاة ورعه للآلهة أى على تأمل طبيعة العالم بذهن مطمئن مستريح .

— ٤ —

وبذلك نعود إلى بحث أبيقور فى طبيعة العالم . إنه يرى أن عالمنا قد خلق نفسه بنفسه نتيجة لدورات الزمان اللانهائية فى عددها ـ دورانا عارضا ـ وتصادمها . لكن كيف حدث اجتماع ذرات المادة مع غيرها دون أن يكون معها ثمة مايهديها ويرشدها وتمخض عن ائتلافهاشجر وزهر وطير ووحش وإنسان ؟ وبأى عملية استطاعت الذرات أن تتمخض عن شاعر كهوميروس وعالم كديموقريطس ،

وفيلسوف كأبيقور ؟ يجيب أبيقور عن هذا السؤال أنها استطاعت ذلك بطريق المحاولة والخطأ ، خلال التطور التدريجى للمادة من أشكالها الساذجة إلى أشكال أرقى ، خلال إبعاد غير الصالح وبقاء الأصلح . وقصارى القول أنها استطاعت ذلك بعملية النشوء والارتقاء . فلقد قدم أبيقور نظرية النشوء والارتقاء قبل أن يقدمها داروں بمائتين وألفى عام. فها هو ذا لوقريطس ناظم قصيدة « طبيعة الأشياء » يقدم لنا صورة شائقة للعالم كما تصوره نظرية أبيقورفى أصل الأجناس ، وأصل الانسان .

فيقول إن الذرات فى دورتها الأبدية ، وبعد أن مرت فى اتحادات وانفصالات كثيرة اتحدت آخر الأمر فيما نسميه « بالعالم » . وكانت الأرض أول أمرها كتلة من الصلصال لا حياة فيها ، ثم بدأ ينبت فيها تدريجاً عشب وشجيرات وأزهار ، كما ينبت للحيوان أو الطير شعر أو ريش . ثم ظهرت الحياة بعد ذلك ، فأخذت الطيور تطير وتصدح بأهازيجها فى الهواء . وجعلت الوحوش تعيش فى الغابات تلتمس الفريسة ، وتملؤها بالعواء . وتطورت بعض هـذه الأجناس لتناسب بيئتها ، وبذا استطاعت البقاء بفضل شجاعتها أو مكرها . وولدت غيرها وليس لديها من البصر أو السمع أو وسيلة الحركة

مايكفى . فكانت نزوة من نزوات الطبيعة ، وضحية من ضحايا التجربة العمياء ، وعالم لا خطة له ، فكان مصيرها الانقراض ، وكان الإنسان وهو بطل هذه التمثيلية التى لا حبكة لأطرافها ، ولا رسم لحوادثها . وكان الإنسان آخر من ظهر على مسرح العالم ، وقد هام على الأرض كما يهيم سائر الحيوان عارياً متوحشاً شديد البأس ، يقتات بالعشب والفاكهة وثمر البلوط ، وينام ليلا فى العراء .

وكانت تهاجمه الوحوش التى تفوقه ضراوة ، فتعلم بعد لأى أن يأوى إلى الكهوف . واجتمع كثير من البشر المتوحشين فى كهف واحد للدفاع المشترك عن النفس ، فأدى ذلك إلى نشأة اللغة تدريجاً وإلى نمو عاطفة الحنان ، ومشاعر الصداقة الفطرية الأولى . وانتهى الإنسان الوحش إلى استخدام المعادن واستطاع بذلك أن يصنع أدوات خيراً مما لديه ، لحماية نفسه وقتل غيره وأخذ رهط من أهل الكهوف يتبادلون البضائع والآراء — والضربات — مع رهط آخر . فتعلم الإنسان تدريجاً فنون المقايضة والتجارة والملاحة والزراعة والشعر الموسيقى وهندسة البناء والسياسة والدبلوماسية والتقاضى والحرب . وجملة ذلك عند أبيقور أن مدنيتنا ليست إلا مرحلة من مراحل التطور تمكن الإنسان من أن يكيف نفسه ليلائم عالماً غير مضياف

وأن يحيا فترة وجيزة فى صراع دائم من أجل البقاء . فالحياة حرب متصلة ولا هدنة فيها لأحد منا إلا بالموت .

والموت فيما يرى أبيقور هو نهاية وجودنا . فالروح تموت كما يموت الجسم ، لأنها كذلك مركبة من ذرات . إنها نوع من الطاقة السائلة تملأ الجسم كما يملأ الماء الوعاء . وتظل الروح متماسكة ما بقى الجسم حتى إذا تصدع انسكبت الروح السائلة ، وانحلت إلى قطرات منعزلة هى ذراتها الفردية . فالروح تولد مع الجسم وتموت بموته . أما خارج الجسم فلا فكر ولا شعور ولا وجدان ولا ذاكرة ولا حياة « إنك من تراب وإلى التراب تعود » ذلك قول يصدق على روح الإنسان كما يصدق جسمه .

حسبنا هذا عن النظرية العلمية لأبيقور . . وهى نظرية طريفة وإن عجزت عن إقناع العقل الحديث ، كما عجزت فعلا عن إقناع كثير من العقول القديمة . لأنها تغفل أمرين هامين : الأول أنها لا تفسر كيف تتمخض حركة المادة غير الواعية عن فكر واع ، والثانى أنها لا تفسر فكرة الحركة نفسها فى بداية أمرها . . ماذا يحرك الذرات ؟ ومنذ الذى يحركها ؟ ولماذا يحركها ؟ أو ، كما قال أحد الأساتذة الأوربيين فى بساطة ، « إذا كان العالم يدور فمنذ الذى يديره ؟ » .

— ٥ —

إن أبيقور يعرض علينا عالماً حزيناً بارداً مجدباً ، هو آلة معقدة بلا عامل يديرها ، ومشهد فوق طاقة البشر لم ترسم حوادثه يد إله . ثم يشرع فى عرض فلسفة فيها ما فى عالمه من الحزن والبرود والجدب إنه مذهب اللذة الخالية من السرور ، وطمأنينة الموت السلبية التى نخرج بها من بلبلة الحياة الإيجابية . ويذكرنا بأن الأرض التى نحيا فوقها إنما أجرت لنا فترة قصيرة من الزمن ، فإذا حل وقت الرحيل أجلينا عنها تواً بلا إنذار . ولكن إذ لم يسعنا قهر الموت ، فلا أقل من أن نقهر خوف الموت . فعلينا ألا نأسى على قصر الحياة البشرية بل علينا أن نقبلها بقلب مطمئن هادىء . فالموت ليس بعده شعور ولا ألم ولا عقاب فى الجحيم على ما عسى أن نكون قد ارتكبناه فى مقامنا على الأرض . فيد الموت البيضاء تهدئ من روعنا ، وتبعث بنا إلى سبات عميق لا تزعجه الأحلام ، لأن الموت هو الحارس الأمين الذى يوقع جواز خروجنا من هذا العالم الذى لا يعدو أن يكون مستشفى لمرضى العقول . وهو الطبيب الوادع الذى يشفينا من شر الأمراض جميعاً .

وحتى إن كانت الحياة مائدة زاخرة بأطيب الأطعمة ممدودة

أبداً ، فهل يستحب أن تنهال عليها فى نهم دائم ؟ أليس الأفضل كثيراً أن تدع المائدة قبل أن تصاب بالتخمة ؟ وأن تنسحب باسماً إلى نوم هادىء كما ينسل الضيف المتعب ولكنه السعيد . إنك تأسى لأن يوماً مشئوماً واحدا سيحرمك من جميع طيبات الحياة ، ولكنك تنسى أن اليوم نفسه سوف يطلقك من أسر الرغبة فى الحصول على هذه الطيبات .

فلنتحرر إذن من خوف الموت ، ولنحتشد لما يمكن أن نصيبه من الطيبات فى الحياة ، ولنبحث عن حياة المسرة لنصيب أكبر قسط منها بأقل ألم وكان أبيقور فى بحثه عن الحياة السعيدة ينحو أول الأمر منحى أنصار اللذة ، المسمين بفلاسفة الجسد . وكانوا لا يحفلون بسعادة العقل الهادئة كاحتفالهم بلذة الجسم الصاخبة . فكان يوصى طلابه — كما كان يفعل أصحاب مذهب اللذة — بأن يغتنموا اللحظات الذهبية فى الحياة ، حتى إذا خفت حدة شهوات جسده ، وزاد عقله حدة ، أدرك أن متعة لحظة قد تنتج عنها شقوة العمر بطوله . وعندئذ اهتدى إلى نظرية اللذة على أساس سلبى ، لا على أساس إيجابى ، فأخذ يعلم الناس نوعاً جديدا من السعادة . . سعادة العقل الهادىء لا يزعجه شىء ، العقل الذى ينظر من بعيد إلى متاعب الحياة وصخبها . فيقول : إياك

والتجارة والسياسة ، وارقب لعبة الحياة من جانبى الملعب . واجتنب الأعاصير التى قد تحطم زورق سعادتك ، وقف على الشاطىء لا تريم ، بينما تتحطم سفن رفاقك بين الأمواج الهوج .

هذه فلسفة لطيفة تناسب ملجأ يأوى المسنين ، ولكنها لا تناسب الحياة العملية التى تفرض على الناس أن يشتغلوا وأن يصوتوا وأن يتعاونوا فى سلوك سبل النجاح . ولو وقف الناس جميعاً ذلك الموقف الأنانى ، موقف المتباعد المادى المحايد ، الموقف الذى يدعو له أبيقور فى الأخلاق ، لو حدث ذلك لوقف العالم عن الحركة . وإذا مضينا بفلسفة أبيقور إلى آخر مداها ، جعلنا من الحياة تجربة للموت ، بالغة النبو فى مذاقها .

ولكن فلسفة أبيقور السلبية فى السعادة ، لها مع ذلك جانب إيجابى واحد ، هو إصراره على الدعوة إلى دين الصداقة . لقد كان عبقريا فى كسب الأصدقاء ، فلئن عاش على الخبز والماء فإنه يحاول أبداً أن يكسر خبزه فى حضرة صديق . وكان يقول « لئن تعرف من تؤاكل ، خير من أن تعرف ماذا تأكل » .

لقد كانت فلسفته أنانية لا مراء فى ذلك ، ولكنه كان يبشر بأنانية لغيره فيها نصيب ، فيقول إن سبيل السعادة إنما هو أن تدعو غيرك

إلى مشاركتك فى سعادتك ، لا عن نبالة منك بل لأن فى ذلك منفعة لك . « فأنت غير ميسر للسعادة ما لم تكن عادلا ، عاقلا ، كريماً » وعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به . اجتنب إيذاء الناس تجتنب أذاهم . . عش ودع غيرك يعش .

ذلك أن حياتنا هذه قد وجدت لتكون بهجة للاصدقاء . فاغرس فى نفسك عبقرية الصداقة . . واتخذها لك دينا وعبادة . فالصداقة معنى قدسى حلو ، والتعاطف الصادر عن الصداقة الحقة هو المثوبة الوحيدة المؤكدة التى نصيبها فى عالم مشكوك فى قدره . وإذا كانت آلا الحياة تصبرنا على الموت ، فإن قدسية الصداقة تستطيع أن تصبرنا على الحياة .

— ٦ —

ولقد كان عطف أصدقائه مما أصبره على آلامه. فالفقر والحرمان والمرض قد تناصرت عليه، وجعلت حياته أمرا يشك فى قيمته. ولكننا نراه وهو على فراش الموت يسطر الكتاب التالى إلى أحد أصدقائه:

أكتب هذه الرسالة إليك وأنا أعبر اليوم الأخير من أيام حياتى فعسر البول (وهو مرض أليم يصيب المثانة) قد تمكن منى ، وأنزل بى من العذاب ما يقصم الظهر وما يجاوز جهد الطاقة . ولكنى أجد

لذتى إزاء كل هذا فى ذكرى الآراء والأقوال التى تبادلناها فى سالف الزمن » .

هذا هو العهد الأخير لذلك الأستاذ الدمث الحكيم ، الذى غدا اسمه علماً على عقيدة حمقاء تجافى دماثة الخلق كل المجافاة . ولم يُعظم فيلسوف قط كما عظم أبيقور ، ولم يخطىء الناس فى فهم فيلسوف كما أخطأوا فى فهمه .

ماركس أورليوس

١٢١ — ١٨٠ م

— ١ —

حين ولى الحكم ماركس أورليوس (عام ١٦١) كانت الإمبراطورية الرومانية القوية قد جاوزت فتوة الشباب ، وأخذت الشيخوخة تدب فى أوصالها دبا حثيثاً . ولئن إزدهت الإمبراطورية فى عهد القياصرة بما أحرزت من انتصارات ، فإنها الآن على عهد أسرة الأنطونيين قد نضجت للفلسفة .

فالفلسفة إنما تزدهر إذا لزمت الحضارة حجرة المرض . والناس إن تنزل بهم كارثة مادية كبرى ،ولوّا وجوههم شطر شئون العقل. فإنما يقبل العالم على التفكير فى أدوار المرض دون سواها ، ولولا التفكير لما استحق العالم البقاء. والفلسفة تبدأ إذا انتهت الإمبراطوريات. كذلك فعلت الفلسفة اليونانية ، فلم يظهر أفلاطون وأرسطو والأبيقوريون والرواقيون إلا بعد أن حلت كارثة كبرى ، هى تدمير الإمبراطورية الأثينية . فقد حاول هؤلاء المعلمون كشف

سبيل للسلوك الخلقى يستطيع الفرد أن يسلكها آمناً ، بينا دعائم حضارته القومية تدك دكا .

فأفلاطون يحلم بدولة مثالية جديدة ، تقوم على أنقاض الماضى ويحكمها ملك فيلسوف . ولو كان لإنسان أن يعيد خلق العالم ، وأن يسمو بمواطنيه فيجعلهم أنصاف آلهة ، لكان هذا الإنسان هو الملك الفيلسوف . فالملك الفيلسوف بفضل ما أوتى من سعة فى الموارد المادية والموارد العقلية . . ومن جيوش البشر تتبعه ، وحكمة الله تهديه ، هذا الفيلسوف الملك قد يتاح له أن يحقق ما صورته أحلام أفلاطون . لكن لا بد له من مادة طيبة يبنى بها عالمه ، لابد للامبراطور العظيم من إمبراطورية عظيمة ، لابد من وجود جسم سليم للعقل السليم .

بذلك كان أفلاطون يحلم . وبدا كأن رومة على عهد ماركس أورليوس ستحقق هذا الحلم ، فالدولة الرومانية التى تنبسط من أقصى الشمال فى إنجلترا إلى الأقاليم الاستوائية بأفريقيا ، ومن المحيط الأطلنطى إلى الفرات ، قد رزقت بعد طول الأمد ملكا فيلسوفاً هو ماركس لورليوس . ولكن حلم أفلاطون يظل بعيداً عن التحقق كعهده دائما ، ذلك أن رومة فى عهد ماركس أورليوس

كانت أشبه بجسم عليل ركب فيه عقل سليم . . لقد كانت رومة قوية ، ولكنها غير سليمة . فهذه الإمبراطورية قد أسرفت على نفسها فى الطموح ، فأهرقت دم حياتها كله فى حروبها العدوانية الطويلة . . لتحرز النصر .

- ٢ -

وقد قرر ماركس وهو لا يزال فى الحادية عشرة أن يكون فيلسوفاً ، فارتدى معطف الكلبيين الرث واكتفى بأبسط الطعام ، ونام على سرير صلب . وقد أثارت خياله شخصيات أساطين الأثينيين القدامى ذوى الأجسام الهزيلة ، الذين نقلوا مدارسهم الفلسفية وجرائيمهم إلى رومة ، والذين كانوا يمشون ورءوسهم منكسة ، وأيديهم متشابكة وراء ظهورهم ، ويلقون محاضراتهم عن عظمة الكون وهوان الإنسان . وكانوا يعملون بما يدعون إليه . فالكلبيون يسخرون بالمتعة ، والرواقيون لا يأبهون للألم . . قد هجروا عالم الناس ، وسجنوا أنفسهم طائعين خلف قضبان نظرياتهم . . ولكنهم ليسوا أباطرة ولم يكن انصرافهم عن العالم ليخسرهم شيئاً غير الأسى والحزن . أما الجديد من الأمر فهو أن دخل فى مذهبهم أمير . . أمير فى أقوى إمبراطوريات العالم القديم .

ولما بلغ ماركس أورليوس سن الثامنة عشرة كان عمه الإمبراطور بيوس أنطونينس قد تبناه واستخلفه على إمبراطوريته الواسعة. ولكن هذا الصبى الباكر النضج اهتدى فى هذه السن المبكرة إلى إمبراطورية أوسع، هى إمبراطورية الروح، فبرم بعجزه عن أن يهب باقى حياته للفلسفة. ولكنه أذعن للقدر، فكشف بذلك عن نزعة رواقية فى طور التكوين.

ولم يدخر عمه جهدا فى إعداده للعرش، فاستحضر له ألمع أساتذة البيان والتاريخ، وراضه على امتطاء خيل الحرب بما فيه من مشقة، وأخذ فى تدريبه على حياة الحكم، ومنحه لقب قيصر. وكان رجال الحاشية فى القصر يتزلفون إلى الأمير الشاب، وكان فى الثكنات يدرب على فنون القتال، ولكنه كان فى هدأة الدرس يتأمل « فيم وجود الإمبراطورية؟ ما مصدر الطموح؟ وما مصير الحياة؟ » ترى أى صدمة كانت تصيب النبلاء المحافظين العمليين لو أنهم ظهروا على ما يجول فى ذهن إمبراطور المستقبل! فالرومان شعب يعمل أولا ويفكر ثانياً. وكان أشد سخريات القدر أن يقوم بينهم ملك فيلسوف.

ورث أورليوس العرش بعد موت متبنيه ... عرش القياصرة..

الذى أقيم على الخديعة والخيانة ، ووهب للقهر والطغيان ، وسلم من الأذى بما أريق على جوانبه من دم . وإنه ليناجى نفسه وقد صارت إليه مقاليد الحكم : « إياك أن تتقيصر » لقد خلا من قبله فلاسفة مثاليون آثروا الفقر ، ونبذوا الثراء ، أما أورليوس فمضطر إلى نبذ الفقر وإيثار الثراء . لقد كان من العسير على الفيلسوف أن يجد لبانته فى تاج ، فذوق العالم ينبو عن الانغماس فى حياة السياسة والمعارك لقد ورث إمبراطورية من الذئاب العاوية ، وكان عليه أن يهب حياته لحل مشاكل ليست من صنعه . فهو موصول بجرائم أجداده ، مشدود إلى حماقاتهم . وكانت قبائل البرابرة فى كل أنحاء الإمبراطورية تئن تحت سوط العسف الرومانى ، الذى صب عليهم مدى خمسة قرون . وهى الآن تتحفز للثورة ، فما أن ولى العرش حتى هبت العاصفة . ذلك أن البرابرة لا يحترمون تأملات الإمبراطور وإنما يحترمون جيشه .

فأرسل جيشا لإخضاع البارثيين المقيمين شرق نهر دجلة ، وكتب للحملة التوفيق بفضل « لوسيوس فيروس » الذى اتخذه الإمبراطور أخا ، وأشركه فى الحكم حين صار إليه أمره ، أملا فى أن يعنى لوسيوس بالشئون العملية للدولة ، بينما ينصرف هو إلى الفلسفة

ولكن لوسيوس فيروس مات ، وترك شئون الحكم لماركس أورليوس وحده . وتلك لعبة خطرة لا يسيغها ذوقه . فرأسه ملىء بالفلسفة ، ولكن يده ملآى بالمتاعب . فهؤلاء البرابرة قد أشعلوا نار حرب جديدة ، فقبائل الكادى والمركومانى قد اقتحمت ولايات الدانوب وهؤلاء الأجناس المقيمون شمال الألب يتطلعون إلى خيرات إيطاليا ويمنون أنفسهم بالأمل فى النهب فأخذ الصرح الرومانى الوطيد يميد ويتداعى ، ولكن ماركس أورليوس أنبرى لهذه الأحداث ، وباع أدوات الفضة الملكية وجواهر القصر بالمزاد العلنى ليجمع بذلك مالا للدفاع . وجند المصارعين والمبارزين ومقاتلى المسرح والرقيق من الأسواق واللصوص والقتلة من كل أركان الإمبراطورية . وسار وكتبه على رأس هذا الجيش الفذ العجيب ، وسار إلى الشرق ، ونصب مخيمه ، وأقام ينتظر هجوم قبائل الكادى ، وجلس فى الليل إلى مصباح زيتى مضطرب ضوؤه ، والرياح تضرب الخيم وتصفر صفيراً ، وللذئاب عواء يأتى من بعيد ، جلس ليسطر آراءه فى مأساة القدر ووحشية الحرب . وقضى جل ما تبقى من أيامه فى مخيم المحارب . . . ليحمى الإمبراطورية التى ألقى عليه عبؤها ، ولكنه كان يهب الكتابة كل ساعة يخلص فيها من شواغل الحرب . وكان من قبله محارب قسم فرقته بين السيف والقلم ، على أن يوليوس قيصر قد استغل مواهبه

الأدبية فى تدعيم باطل مجده . . . أما ماركس أورليوس فعمله أكثر تواضعاً ونبلا . . . هو الكشف عن باطل مجده وعدم جدواه .

— ٣ —

هزمت جحافل الرومان قبائل الكادى ، واعتقد بعض الجنود أن المعجزة إنما حدثت تأييداً لعقيدة التآخى بين المتحاربين . فقد انتظمت قوات الإمبراطور مجندين أمرهم عجب . . . رجالا زعموا أنهم يتبعون تعاليم ناصرى ، وأنهم دعوا زعيمهم فى السماء أن يصد البرابرة . وكانت قبائل الكادى بفضل تفوقها العددى قد أحدقت بالرومان ، وقطعت عليهم طريق الماء ، فما أسرع أن فتحت أبواب السماء بماء منهمر ، فأمسك جنود الملك الظامئين بخوذاتهم فى أيديهم يتلقون الماء وشربوا حتى رويت قلوبهم . ولم تلبث أن وقعت معجزة أخرى ، فقد انهالت الصواعق تصب نقمتها السريعة ، فأنزلت بالكادى مائة حريق لم تمسس رومانيا بسوء ، فيما تذهب إليه الرواية . لقد كان ذلك نصراً مؤزراً أحرزه ماركس أورليوس ، ولكن ثلة صغيرة من المسيحيين أذاعت أنباء هذه المعجزة فى العالم كله ، وقالت إن المعركة انتصار للمسيحية .

ماركس أورليوس والمسيحية : إن يكن هذا الملك الفيلسوف

وثنياً بتعليمه ، فقد كان مسيحياً بقلبه . فهو يرفض أن يعد النصر معجزة ، لأنه لا يؤمن بإله الحرب ، بل يؤمن بإله الحب . يؤمن بأبوة الله ، وأخوة الإنسان . فهو يعطف على الناس ، إخوته وشركائه فى الأسى ؛ ويكتب فى ذلك « لا يسعنى أن أغضب من إخوتى ، أو أن أقطع بينى وبينهم الأسباب فالطبيعة قد هيأتنا ليشد بعضنا بعضاً ، كما تتساند القدمان واليدان والجفنان والفكان » .

على أن إخوة ماركس أورليوس المسيحيين قد نبذتهم الأمبراطورية الرومانية . . فالمسيحية كانت دين المعدمين . . نزلت كرذاذ المطر الوديع على قلوب الرقيق والعانين والكادحين والفلاحين المستيئسين الذين اغتصبت أرضهم فئة المستغلين الموسرين ، وساقتهم قطيعاً كادحاً فى ضياعهم . لقد خذل المجتمع الإنسان العادى ، فلما فقد هذا الإنسان العادى إيمانه بالعالم ، أخذ يبحث فى حماسة وحرارة عن أمل فى العالم الآخر . . ووجد فى المسيحية ضالته المنشودة . .

كذلك كان المفكرون فى العالم الرومانى قد فقدوا إيمانهم . فقد وجدوا بين ظهرانيهم وحشاً ضارياً ، هو الإمبراطورية الرومانية المظفرة وهى قوة تعرف كيف تفرق وتسود ، لا كيف تؤلف وتحكم . ورأوا نظاماً سياسياً واجتماعياً وحربياً لا يبث الولاء فى قلوب الناس ، بل

يبث فيها الحقد والسخر والخوف . ولكنهم يختلفون عن المسيحيين في رغبتهم عن المشاركة في طقوس عاطفية تضع الوحي فوق العقل ، فهرعوا زرافات إلى مدارس الفلسفة يلتمسون فيها مخرجاً ومنصرفاً فظلوا على ولاء فاتر للالهة القديمة التي يبدو أنها لا تكترث لشيء ، وجعلوا همهم الأكبر ما في هذا العالم من حزن لاريب فيه ، لا ما في العالم الآخر من نعيم فيه ريب. إنهم لا يبغون السيطرة على مجرى التاريخ فلا أقل من أن يحاولوا السيطرة على أفكارهم . فهم يسخرون بالمصلحين المسيحيين الذين يحاولون تشكيل الأخوة في الأرض على نحو يقارب تصوراتهم عن السماء . ففلاسفة الرومان لم يكونوا شيوعيين يدينون بمبدأ العدالة الاجتماعية ، بل كانوا فوضويين لا يدينون بمبدأ اجتماعي على الإطلاق ، فانقسموا شيعتين كبيرتين : الأبيقورية والرواقية ، إحداها تقول للانسان أن « أستمتع بحياتك ما أستطعت فقد تموت غداً » وتقول الأخرى أن « أحتمل الحياة ما استطعت ، فقد تعيش غداً لتشقى به » .

ولكن النجار الوديع يسبق الرواقيين خطوة فيقول . «لا تذعنوا للألم ، بل أقبلوه مختارين . تعاونوا على حمل عبء الحياة المشترك ، حتى يخفف بعضكم من أعباء بعض » .

— ٤ —

كان مار كس أورليوس تتنازعه المسيحية والرواقية .. لكل منهما نصفه . فهو فى أمس الحاجة إلى الصبر المسيحى ، وعدم الأكترات الرواقى . فالمتاعب تتكدس فوق رأسه . . فها هوذا يسمع أن قائداً ممن يثق بهم كل الثقة وهو « أفيديوس كاسيوس » قد رفع راية الثورة عليه فى سوريا ، يريد أن يكون إمبراطوراً . وكان هذا المحارب الطموح قد طار صيته على أثر ما أظهر من قوة فى إخماد ثورات بلاد العرب ومصر . وكان الناس يتهامسون بأنه يحلم أن يمثل دور بروتس ، فيحرر رومة من الإمبراطور الطاغية ، وهو جندى لا يهدأ على حال ، أحفظه خموله النسبى تحت إمرة قائد فيلسوف . لقد ولد تحت شمس المشرق الحارة ، فشب رجلا داكن البشرة ، داكن الفكر يستطيع أن ينطوى على الخيانة . ولكن مار كس أورليوس يهز كتفيه حين يسمع شائعة عدم ولائه ويقول : « إنه قائد كفء صارم شجاع لا تستطيع الدولة أن تستغنى عنه » ولم يتقدم أحد بتوجيه اتهام مباشر إليه ، ولم يقم دليل على صدق ما يتهامس به الناس من تهم . فأشاح الإمبراطور الواثق بقائده عن هذا الإتهام ، وأخذ يعنى بغيره من الشئون . فهو يريد أن يقمع طموح النفس البشرية إلى توجيه

الإتهامات التافهة إلى الأصدقاء . فالحياة جد ، لا تسمح بهذا العبث والروح الفيلسوف يجب ألا يتعجل الحكم . وأسر إلى قرطاسه بهذه العبارة « أفعل ما شئت ،وتكلم ماشئت وفكر ما شئت ، وكن على يقين فى خلال كل ذلك أن حياتك قد تنتهى فى أية لحظة » .

وتذهب الرواية إلى أن خيانة أفيديوس قد أخذت فى هذه الأثناء مظهر أكثر خطورة ، وسرى همس بأن القائد الطموح لم تقف أطماعه عند عرش الإمبراطورية ، بل جاوزتها إلى زوج الإمبراطور . سرى هذا اللغط فى أسمار السامرين مسرى النار فى الهشيم ، وبدأ الناس يؤمنون بأن زواج الإمبراطور من أبنة عمه « فوستينا » لم يباركه الحب ، وإن كانت لدى خاصة أصدقاء الأسرة المالكة آيات كثيرة على أن ماركس أورليوس زوج عطوف . ألم يكتب رسائل عدة إلى استاذه (فرنتو) يبين فيها عن حبه لفوستينا ؟ ألم تلد له أكثر من أثنى عشر طفلا ؟ ألم تكن دائما — والإمبراطور فى منزله ـ تحرص على راحته كما يحرص على راحتها؟ والآن وهو فى مخيمه بميدان القتال ترعى عهد الوفاء كأنما هى بنيلوب ، كما يؤكد أصدقاؤه ، وتحيا فى القصر فى أنتظار أوبته .

على أن أفيديوس لا يطيق الإنتظار . فما أسرع أن أذاع أن

الإمبراطور قد مات ، وحشد فيالقه لتؤيد تنصيبه إمبراطوراً جديداً وتبعه أهل أنطاكية أجمعين وأنضم إليهم والى مصر .

فإذا بلغت أنباء الثورة مسامع ماركس أورليوس ، جمع كتائبة فى صعيد واحد ، وخاطبهم قائلا: « زملائى الجنود لقد تآمر على خلمى أخلص أصدقائى ، واضطرنى على كره منى أن أنازله فى الميدان ؛ وإلى لأفتتح هذه الحملة موقناً أنى لم أنزل أى ظلم بأفيديوس ، ولم أحجم عن تقديم كل ما ينبغى لى أن أقدمه من خير » ؛ إنه لا يجد ظلامة يرفعها إلى ، أو شكوى ينطبق بها « ولست أخشى إلا أمراً واحداً أيها الزملاء — ولن أخفى عنكم من الحقيقة شيئاً — أخشى أن ينتحر أفيديوس كاسيوس تفادياً من ذل المثول بين يدى ، أو أن يقدم أحد على قتله علماً منه بأنى بسبيل منازلته وبذا يفلت منى ذلك الجزاء الأوفى ، جزاء المنتصر .. الجزاء الذى لم ينله إنسان من قبل » . وما هو هذا الجزاء ؟ « إنه العفو عن هذا الرجل الذى أساء إلى ، والإبقاء على مودة من خان عهد الصداقة » .

وما هى إلا مائة يوم حتى كانت الثورة قد أخمدت ، وصدقت نبوءة ماركس أورليوس ، فقد قتل أفيديوس بيد أحد أتباعه ، وقال المحارب الفيلسوف « سأعفو عن زوجه وأولاده » ، وبعث برسالة

إلى مجلس الشوح ينهاهم فيها عن إعدام أى جندى اشترك فى الثورة وقال : « دعوا المنفيين يعودوا إلى وطنهم ، والمهـــدرة حقوقهم يستعيدوها .. ليتنى أستطيع أن أبعث من الموت أولئك الضحايا المساكين الذين فقدوا حياتهم » .

فزع ساسة الإمبراطورية القساة من رحمة إمبراطورهم ، وتحيروا فى عفو الإمبراطور عن أسرة الخائن الأعظم ، وتساءلوا هل أنصف الإمبراطور أسرته بهذا العفو ؟ ولـكن ماركس أوريليوس يهدىء روعهم بهز كتفيه . إنه رواقى جبرى « إن كانت أسرتى أحق بالحب من أسرة أفيديوس ، فسيمكن لنا الآلهة فى الملك ما لا يمكنون لغيرهم » .

ولما فرغ من أسرة المتآمر على هذا النحو ، رحل مع فوستينا وابنه « كومروس » ليزور المدن التى ضلعت مع المؤامرة ، ولـكنه جاءها يحمل رسالة العفو لا رسالة الإنتقام . فإذا بلغ قرية هلالا عند سفح جبل طوروس مرضت فوستينا وماتت . ورغم ما سمع عنها من مخاز خلقية ، وما خامره شخصياً من ريب ، فقد أقام على حبه الملـكة ، وصدم بوفاتها صدمة أليمة ، فأنشأ تمثالا ذهبياً لفوستينا يأخذه معه فى غزواته ، وأقام لذكراها ملجأ يأوى الفتيات المعدمات . وكان يقدم

لتمثالها صلواته ودموعه ، لـكنه إن يأس على الموت لا يخافه كما يخاف الحياة ، فلا بد أن يحيا حياته ، وأن يموت ميتته شجاعاً على الحالين ، فعاد إلى الجبهة القديمة لأن البرابرة لم يكفوا عن إثارة المتاعب وهل كان الوجود إلا الحرب والرحلة فى أرض عجب ؟ فثاب إلى معاركه وكتبه ، لا يأبه لألم أو لذة، ولا يكترث لماقد يفعله الآخرون أو يغفلونه . . وهل حياة الجسم إلا نهر ، وهل حياة الروح إلا حلم يغشاه الضباب » .

واستطاع أخيراً (عام ١٧٩) أن يقهر القبائل الثائرة . . لقد أمنت الإمبراطورية الأخطار إلى حين . . على أن الإمبراطور قد أصيب بمرض من طول تعرضه للبرد فى مخيمه . . . فرقـــد رقدة الموت .

— ٥ —

كانت فلسفة ماركس أورليوس رواقية وافدة من الشرق، شأنها فى ذلك شأن المسيحية . ومؤسس الرواقية هو زينون السامى ، وهو أخ روحى للانبياء العبرانيين ، وهو من أمة الفينيقيين ، وفد على بلاد اليونان من جزيرة قبرص ، وأنشأ مدرسة فلسفية فى أثينة . وكان كأشعيا أسمر البشرة ، لا يحفل بآراء الناس وتقاليدهم . كان ثائراً

لفحته الشمس ، شديد الحماسة للعدل ، ساخراً قاسياً وادع العينين ، مواطناً عالمياً يعد من مواطنيه تلك المخلوقات الفانية على الأرض ، والنجوم الخالدة فى السماء ، وكان كأخوته الحالمين فى بلاد اليهود ، يؤمن بوجود إله واحد ، ويتحمس لهذه العقيدة « الله هو الأثير . الله هو الهواء . الله روح النار الأثيرية ، الله يسرى فى كل ما هو كائن غدواً ورواحاً . الله هو العقل ؛ الله هو الروح ، الله هو الطبيعة» أسماه العبرانيون « يهوه » أى الحى القيوم .

وقال متبنى أثينة إنه زيوس ، إله واحد ، أسرة إنسانية واحدة قانون واحد « سيكون لكم جميعاً قانون واحد ، وتقاليد واحدة . . كالقطيع الذى يهش عليه بعصا واحدة ، ويصيب طعامه جماعة » .

وفدت فلسفة زينون الرواقية على المدينة الإمبراطورية كما وفد عليها كثير من المدارس الفلسفية حينما سقطت اليونان فى يد رومة الظافرة . وتبنى الرومان مدارس الفلسفة الأجنبيةهذه كما تبنوا أسرام الأجانب ، وسخروها لخدمة أغراضهم العملية ، فنبذوا ما اشتملت عليه الفلسفات المختلفة من أمور ما وراء الطبيعة ، وأقبلوا على ما بها من الأخلاق ، لأنهم لا يأبهون لأسرار السماء، وأكبر همهم حقائق الأرض .

وصادفت الرواقية هوى خاصاً فى نفوس فلاسفة رومة الواقعيين:
فمن تعاليم الرواقيين أن الإنسان إلا يسعه الخلاص من أحزان العالم وشروره ، فهو مستطيع على الأقل أن يروض إرادته على احتمالها فى شجاعة. يضاف إلى هذا أن الرواقى يستطيع أن ينظر بعين المتفائل إلى ما فى العالم من نواحى العوج ، لأنه يرى أن تجارب الإنسان ليس فيها فى الواقع شر قط ، على خلاف ما يعتقده عامة الناس . فالعالم خير لأنه يسير وفق قوانين الطبيعة « وإنما الحادثات جميعاً عمليات طبيعية ليس لها فى ذاتها قيمة خلقية ، حسنة أو سيئة » ؛ فإذا شعرنا بأن السماء قد أصابتنا بكارثة بالغة الإيلام، وجب أن نذكر أننا لا نستطيع الحكم على أعمال الكون بأسره، من زاوية مصالحنا الفانية وأخلاقنا ليس هناك خير ولا شر ، وإنما ذلك من صنع التفكير . فنحن نشقى بآرائنا وبنظرتنا المحدودة، ونستطيع أن نمتنع على الشقاء باتباع نظرية بسيطة : إذا كانت رغباتنا الخائبة هى سبب شقائنا ، فلنقصر رغباتنا على ما نستطيع تحقيقه . ولما كانت طيبات المادة فى الحياة سريعة الزوال نادرة ، وجب أن نقنع بطيبات الروح . وهى العقل الطيب ، والخلق القويم. ولك أن تسمى هذه «الفضائل الإيجابية» وأن تجعلها المعنى الأساسى للحياة وألا تحفل بما عداها . فالصحة والمرض ، والمتعة والألم ، والثراء والفقر . . كل هذه لا معنى لها . . وحتى الموت

نفسه . . الذى يحطم العقل كما يحطم الجسم ، ويمحو الخلق الطيب كما يمحو الحظ الطيب . . يجب أن يعد حدثاً سالباً ، لأن الموت قد يقضى على الفيلسوف ، ولـكنه لا يقضى على فلسفته . إنه يقتل عقل الفرد ، ولـكنه لا يؤذى جلال العالم. فنظام الطبيعة الرائع باق لا ريب بعد فناء كل هذه العقول الصغيرة التى تحاول أن تحـــدد معناه . فتعلم إذن ألا تأبه لحظك ، لأننا آخر الأمر صائرون جميعاً إلى غاية واحدة . فالبشر ، بلا فرق بين الأعلين والأدنين ، إن هم إلا دمى تستوى فى أنها لا تملك من أمرها شيئاً ، بل تعبث بها يد قدر عادل لا مفر منها .

هذه العقيدة تنـكر كل ما اصطنعه الناس من مقاييس تقسمهم إلى طبقات ، سادة وعبيد ، ملوك ورعايا ، فقراء وأغنياء . . . . وتعزف نغم الدمقراطية ، وتنادى بأن كل الأحداث ينبغى أن تواجه فى غير اكتراث ، وأن كل الناس سواء . ومن الطريف حقاً ان المولى أبـكتتس هو الذى أدخل الإمبراطور ماركس أوريليوس فى دين الدمقراطية الذى تدعو إليه الفلسفة الرواقية . ومما كتب إبـكتتس أن الناس قد ولدوا ليشغلوا مراكز مختلفة فى الحياة ولـكن المعدمين إذا جاءهم الموت عوضهم عما لقوا وأوفى

لهم الجزاء ، فالموت يصيب من الأغنياء أكثر مما يصيب من الفقراء ولو أن الأغنياء أقاموا من الموت بعد إذ أدركوا تساوى الناس فى الحظوظ ، لما ارتضوا أن ينزلوا من ثرائهم عن شىء مهما قل . ولو خير الفقراء لما ارتضوا أن يزيد ثراؤهم بشىء مهما قل ، ذلك بأن الطبيعة الساخرة الممعنة فى سخرها ، لا تتيح للانسان أن ينتفع بتجاربه ، فيظل كل شىء على حاله لا يتغير . والطبيعة البشرية لا تصلح ولا تسوء ؛ ولا تزيد إنسانيتها ولا تنقص ؛ والحق أنه لا يوجد قط مقياس يقاس به التقدم البشرى ، فالانسان يقف حذراً متحيراً فى تلك الدوامة التى تلتقى فيها مياه الحاضر بمياه المستقبل . وليس ثمة شىء يخسره إلا أن يفقد موطىء قدمه . وليس ثمة شىء يكسبه إلا أن يستزيد من صراعه للاحتفاظ بتوازنه قبل أن يكب على وجهه . فلم إذن يحاول تقسيم الأشياء إلى جميل وقبيح ، وطيب وخبيث ، وهو لا يستطيع أن يلاحظ غير امتداد الأرض والسماء ، وليست كلتاهما جميلة ولا ذميمة ، ولا طيبة ولا خبيثة . . . بل هى شاسعة قاهرة خالدة ؟ إنها الطبيعة ، وليس من حقيقة سوى الطبيعة . فلنضع أنفسنا على غرار يلائم هذه الحقيقة ، ولنعش وفق قوانين الطبيعة .

ومن سخريات الحماقة الإنسانية — فيما يرى ماركس أوريليوس — أن هذا الإنسان العاجز يستحث خطاه طموح إلى المجد . لقد جر النسيان ذيله على كاميلس وساسو وفوليسس ولومفاتس ، وجره من بعدهم على سبيو وكاتو وأغسطس وهدريان وأنطونينس . . . وكل شيء إلى نهاية . وسرعان ما يمضى حتى يصبح فى الأساطير القديمة ، يُذكر لحظة ، ثم يطويه النسيان . وروما نفسها ، وعظمة الإمبراطورية ومجدها . . . ستكون كلها سمر السمار ، وحفنة من الحصى والتراب ، ينقب عنها الأثريون فيما ينقبون عنه من أطلال .

أليس للبشر من أمل إذن ؟ بلى — كذلك يجيب ماركس أوريليوس — لهم الأمل الأخير . . . أمل التخلص من الأمل . فالإنسان إذ يخلص من الأمل ، إنما يتحرر من عدوه الألد ، أعنى خيبة الأمل . حقاً إنه ليستطيع أن يزهو بانتصاره ، وعليه أسمال الخيش الرثة . وما عليه إلا أن يترع عقله براح الجمود . فلنكن كالآلهة لا نحفل بلطمات القدر « ارفعنى وأقذف بى حيثما تريد ، فلن تنال من قدسيتى المطمئنة شيئاً » . هذا هو إحراز النصر الأعظم عن طريق السلبية العظمى . ولكن الرواقى نفسه له حد فى إنكار الذات

لا يجاوزه . . . فللتواضع حد يفقد قيمته إذا عداه . وإذا أردنا أن نعرض لفلسفة ماركس أوريليوس صورة صحيحة ، فعلينا أن نذكر أن لهذه الفلسفة ناحيتها الموجبة إلى جانب ناحيتها السالبة . فهو يأبه بواجبه وإن لم يأبه بحظه . وواجبه أن يحكم روحه ورعاياه فى حزم ، ولكن فى عدل ، وأن يعيش متسقاً مع الطبيعة ، أى وفق قوانين المنطق ، لأن للكون عقلا يحكمه . والكون يهدف آخر الأمر إلى التوافق والتناغم ، والتساند والتجاوب . . . أى أنه يهدف إلى العدل إذا أردنا الإيجاز.

وأسمى الفضائل فى فلسفة ماركس أوريليوس هى عدل الناس بعضهم مع بعض . وعدم اكتراث المرء لما يصيبه خاصة ، وكذلك ثبات الجنان فى مواجهة الموت « تخلص من خشية الموت . فلا تنظر إليه وقد تملكتك الخرافة أو الرهبة ، بل كما تنظر إلى إحدى الوظائف الطبيعية فى دورة الحياة : كالأكل والشرب والنوم وشئون الجنس »

وهو يذهب مذهب أبيقور فى أن الموت إن هو إلا انحلال العناصر التى يتكون منها كل كائن حى . أليست المحافظة على الطاقة تبقى على كل ذرة فى الكون ؟ وإذا كانت العناصر لا يصيبها ضرر من تبدلها المتتابع ، فلماذا يتوقع الإنسان أى أذى من تحول الكل

وتحلله ؟ أن الموت أمر طبيعى . . . ولا يستطيع أمـــر طبيعى أن يكون شراً .

هذه أسمى ذروة فى قهر النفس . فحيث ينتفى الشر ، ينتفى الداعى إلى الخوف ، « وما دام الموت يخمد كل حس ، فلا ينشأ عنه إذن إحساس بالخسارة . أما إن كان ينشأ عنه نوع آخر من الحس فالمرء يصبح إذن مخلوقاً غير الذى كأنه . وبذا لا تنتهى حياته » .

ولم يشق الرواقيون على أنفسهم بالتفكير فى مشاكل الحياة الأخرى ، وهذا سبب هدوئهم ، وطمأنينة نفوسهم ، لأنه إلاّ يكن للفرد خلود ، فإن شرور الحياة تقف إلى الأبد ، ولا يدرك الفرد حتى أنه قد سُلب الأمل فى الخلود . أما أن يكون خلود للفرد ، فبها ونعمت . وكان الرواقيون — على خلاف المسيحيين — لا يؤمنون بالحساب فى الحياة الآخرة ، ولا بالثواب فيها أو العقاب ، وإنما يؤمنون بخلود فى قابل الأيام يسوده هدوء واع أو غير واع ، لقد تحرروا من خوف الجحيم فتحرروا بذلك من خوف الموت إلى حد كبير . ومن ثم كان شعورهم الأسمى بالانتصار على النفس . فقد شعر الرواقيون أنهم قادرون على إعدام النفس وإفنائها . . . ولكنهم كسبوا هذا النصر الأرضى بثمن باهظ . . . فقد ضحوا فى سبيله بأملهم السماوى .

— ٦ —

نحن فى شتاء عام (١٨٠) بعد الميلاد ، وهذا ماركس على فراش الموت بمخيمه ، إنه لم يجاوز التاسعة والخمسين . . . ياله من حطام عجيب متناقض حانق مخفق فيما كان يبغيه من أغراض . . . هذا الإمبراطور المحارب الفيلسوف الذى ظل طول حياته داعياً إلى القناعة والرضى ، إنه فى ازدواج شخصيته لأشبه بدكتور جيكل ومستر هايد فهو فى هدوء الدرس ليلا عالم دائب ، وشاعر مرهف الحس يبحث عما ينطوى عليه قلبه ، ويرسم من وحى أفكاره طريقاً يؤدى إلى عالم أفضل ، يسكنه قوم أسعد حالا ولكنه فى النهار وقد اشتبكت الظبى قائد يقتنص النصر ، شعاره شعار الرومان ، لا تسليما ولا رحمة وكانت عقائده تسمو على شجاعته . كتب فى تأملاته : « إن رومة مدينتى ووطنى من حيث أنا ماركس أورليوس ، ولكن العالم بأسره وطنى من حيث أنا إنسان » . ولكنه ينسى فى الحياة الواقعة أنه إنسان ، ويذكر أنه رومانى وحسب . لقد علم بنى الإنسان نبالة الخلق « إن لم يسعك الثبات على موقف الشهامة ، فأنزو شجاعا فى ركن من الاركان تستطيع أن تثبت فيه شجاعا . فإن خانتك شجاعتك فى هذا الركن أيضاً ، فأرحل عن الدنيا لتوك » .

ولكنه كان يعامل المسيحيين على غير ما يدعو إليه من شهامة فهو يعد دعتهم خطراً يهدد أحلام الإمبراطورية الرومانية . ولذلك أمر بزعمائهم أن يُصلبوا . . فياله من رجل طيب يعيش فى رهط من الاشرار . إنه فى رومة فعليه أن يفعل كما يفعل الرومان .

وهو الآن مستلق على فراش الموت فى مخيمه ، يفكر فى الدور الخاطئ الذى أسند إليه فى مسرحية الحياة المتقلبة المضطربة . لقد خلق عقله « لأوقات أنبل من هذه الأوقات ، وقلوب أهدأ من هذه القلوب » لقد كان ينشد القناعة ، فأخطأها وأصاب المجد ، والمجد زائل كالبخار ، والشهرة مصيرها إلى النسيان .

باطل الأباطيل الكل باطل وقبض الريح . . كذلك كانت حياة ماركس أورليوس وأبهته ومطامعه وحروبه وانتصاراته وغزواته . . كلها أباطيل .

لقد طرب الرومان حين قضى ، فهم فى حاجة إلى قائد يقل عنه اهتماماً بالفلسفة ، ويزيد عليه اهتماماً بشئون القتال . وكان ابنه كومودس وورثته الآخرون يحرصون ــ وما أحمقهم وأتفههم ــ على أن يصلوا إلى تراثهم الدنيوى . عرف هذا الإمبراطور المحتضر فزم رداءه حوله وقال : « إنى أغادر حياة يتمنى ارتحالى عنها قومى أنفسهم

أولئك الذين من أجلهم كدحت وصليت ودبرت . ففيم السعى إذن لإطالة العمر ؟ » .

— ٧ —

تذهب إحدى الروايات إلى أن ماركس أورليوس حين مات أقامت آلهة الأولمب حفلة لاستقباله . وجلس عن يمينه الأباطرة أغسطس وتيبريوس وفسبازيان . وجلس عن شماله كبار الأباطرة الآخرين نرفا وتراجان وهدريان ومتبنية أنطونيونس بيوس ، ولم يسمح لنيرون وكاليجولا باجتياز الباب . وأعان جوبتر عن بدء مساجلة تقرر من مِن هؤلاء كان أعظم الرومان . ووقف كل بدوره يزكي نفسه لهذا الشرف بكلمة قصيرة . وأخذ معظمهم يزدهى بانتصاراته وفتوحه ، فلما جاء ماركس أورليوس لم يزد على أن قال : « إنى فيلسوف متواضع ، كان مطمحى ألا أصيب إنساناً آخر بألم » .

وتختتم القصة بأن ماركس أورليوس يتوج على أنه أعظم الرومان لا على أنه أعظم البشر . ذلك أن ماركس أورليوس الفيلسوف قد تحطمت آماله بيد ماركس أورليوس الملك .

القديس توما الاكويني

١٢٢٥ — ١٢٧٤

— ١ —

كان كونت أكوينو يعيش فى قصر حصين على إحدى قمم جبال إيطاليا : وهو رجل حرب ، انحدر من سلالة ملوك اللمبارد وابن أخى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . وكان من فرسان الحياة العملية وشابهه فى ذلك ستة من أبنائه السبعة . ولكن ابنه السابع تومس جلله بالخزى والعار ، فهو يؤثر التفكير على الحروب ، رغم أنه سمى جده الذى كان قائد القوات الإمبراطورية .

وكان تومس اكوينو صبياً قوى البنية ، ذا عينين واسعتين كأنهما عينا ثور ، يكمن فيهما فهم وذكاء ؛ وكان وراءهما رأس ملىء بالإدراك السليم . وإنه ليترك إخوته يلهون بألعابهم الحربية العتيقة ويشارك من يكبرونه فى الاستماع لقصص الرهبان المتسولين الذين يقفون بباب أبيه ، ويقضى أغلب وقته منزوياً بجسمه الضخم فى أحد الأركان ، بعيداً عن سائر أفراد الأسرة مفكراً فى أعمق المسائل .

وهو فى الليالى العاصفة يستلقى على سريره مصغيا إلى قصف الرعد على صخرة روكاسيكا الشاهقة ، ويطيب له أن يتساءل عن الله أبى البشر ، الذى أساء الناس فهمه وحرفوا كلمه ، وتطاولوا عليه . فباسمه يقضى على فيالق من أبنائه بالكد المؤبد فى الأرض ، لينعم ملاك الأراضى ومالكاتها ، وباسمه تذبح جحافل «المؤمنين» من لم يؤمنوا أولئك الذين أقدموا على حب الله بطريقتهم الخاصة . فكان تومس (توما) يرى فى كل ذلك خطأ ونكراً ، ولعله حين يبلغ مبلغ الرجال يستطيع إصلاح هذا الخطأ والنكر .

وذهب إلى نابلى يتلقى علومه بها ، وقضى فيها سبع سنين يجوّد العلوم والبيان واللاهوت حسب المنهج الدراسى المقرر ، فلما عاد إلى مسقط رأسه كانت سنه قد بلغت الثامنة عشرة ، وهى السن التى كان إخوته فيها يمتشقون الحسام ، وينضمون إلى قوات أبيهم الحربية . وكان جسمه أروع من أجسامهم جميعاً . . فما أعظمه من جندى يستطيع خدمة وطنه ومليكه ! وما أعظمها من صدمة أصابت الكونت حين رفض تومس رفضاً باتاً أن يكون جندياً . ياعجباً ! إن القتال غريزة طبيعية فى أبناء النبلاء . . يستوى فى هذا مع الزواج . . . وكان على الإيطالى الطيب الأعراق وقتئذ واجب ذو ثلاث شعب :

أن ينجب أطفالا ، وأن يقود جنداً ، وأن يسيل دمه .

على أن توماس إن يرغب عن الحرب ، فلا أقل من حصوله على درجة فى اللاهوت ، فيصير بها مطرانا ، وكان العمل فى الكنيسة من الأعمال الرفيعة كذلك ، فالمطرانية تجلب الهيبة والمال وكل ألوان الشرف . وإن من الكوارث التى تتعرض لها أسرة أكوينو وهى سليلة الملوك ، ما هو أبلغ من إبدال مفاتيح كنيسة القديس بطرس بصولجان الملك وسطوته . والحق أنه كان للأساقفة من القوة ، ما ليس للملوك فى ذلك العالم الذى يقوم حكمه على الدين ولا يستمع فيه الله إلا إلى رجال الدين .

ولكن توماس كان فى مدرسة بنابلى يطيل البصر ولا يحيله عن الجانب الآخر من الخليج ، وجعل سنين عدة يمتع بصره بمنفسح الماء ، وكان يتراءى له شبح متسول نحيل وادع ، هو فرنسيس الأسيسى راعى الفقراء ، وكان فرنسيس هذا كتوماس الاكوينى .. فكلاهما ولد لابوين ثريين ، ولكنه سخر من عراقة الاصل ، ذلك العرض السخيف التافه . . ونزل عن ثروته .

فقال توماس حين عـــاد إلى وطنه « أبتاه ! أريد أن أكون راهبا » .

— ماذا ؟ راهب رث الثياب حافى القدمين ؟

— نعم يا أبت

— وتقسم على أن تحيا فقيراً ، وتهجر عملك ، وتمضى جائعاً تستجدى الصدقات ، وأنت من آل أكوينو ملوك روكاسيكا ؟ هذا محال .

— « ليس ذلك محالا ، فقد أستطاعه فرنسيس الأسيسى » فصاح به الـكونت « لقد كان معتوهاً » . فعقب على أبيه مصححاً « بل كان قديساً » .

— ٢ —

وبعثت أمه بكتب إلى البابا تستحث قداسته أن « ينقذ ابنها من جنونه » . ووعد كبير أساقفة نابلى أن يبذل جهده ليمنع الدمنيكيين من قبول تومس . فأحفظ الشاب أن تتدخل أسرته لتحول بينه وبين عمله المختار . فغادر وطنه ، ويمم شطر باريس مع جماعة من الرهبان قد وثق معهم عرى الصداقة . وبينا هو يستريح يوماً من أيام الرحلة على جانب الطريق ، إذ أقبل عدد كبير من الفرسان يركض نحوه ، ويحاول اختطافه ، وعرف إخوته فى المهاجمين ، فأجفل قائلا . « ماذا تريدون بالله أن تصنعوا ؟ » .

— « بالله لتردن عليك عقلك ... تقدم ... إن لنا أعراقاً نحميها » .

— « إن أسرتى لتسمو على أسرتكم » بذلك جبههم تومس . وحاول بكل قوته الجبارة أن يدفعهم عنه ... ولكنه لم يفلح ... لقد قهروه وحملوه إلى برج قريب من روكاسيكا ... وفيه سجن . وجاء أبوه يحاوره ، فقال الشاب . « رد قلنسوتى » فقال الكونت فى حذر « احفظ عليك قلنسوتك ، وأحى حياة الرهبان إن أردت ، ولكنى أرجوك أن تقبل — من أجلى — منصب رئيس دير فى مونت كازينو » .

ولكن تومس عنيد شديد المراس . « إنى لا أعبأ بأن أكون إماماً ، بل أريد أن أقضى حياتى تابعاً متواضعاً للمسيح » . وجاءته أمه والدمع فى عينيها يترقرق . « تذكر يا بنى أنك سليل أمراء ... وأن من أبناء عمومتك هو هنستاوفن » .

— إنه كافر .

ورقت له أسرته قليلا فقدمت له كتباً يقرؤها ، لأنهم لم يطيقوا أن يشهدوه يعذب بلامبرر . ولا شك أن « ميتافيزيقا » أرسطو ، « وجمل » لومبارد ليسا مما يصدهما عن غايتهما ، فجاءوا إليه بشىء

أحب إلى النفس من الـكتب ... امرأة ... إذ كانوا يأملون أن رؤيه وجه جميل تستطيع أن ترد عليه عقله ، والمرأة مثال رقيق لما يستطيع العالم الخارجى أن يقدمه لغواية شاب .

أقبلت الشابة فى يوم بارد ، وكان تومس فى شغل بنبش النار فى المدفأة ، ورأى وجهها من خلال اللهب ، إنه وجه لا يمكن أن ينتمى لغير الشهوة السحرية ، التى لا تجلب غير الشر ، فجذب حزمة وقود من المدفأة ، وهزها أمام الزائرة ... فانسحبت على عجل . ورسم تومس فى غيبوبة عاصفة رمزاً على حائط سجنه الانفرادى ، وكان هذا الرمز — فيما تذهب الرواية — هو صورة الصليب .

وزارته إمرأة أخرى هى شقيقته ماريتا وقالت له : « سأعينك على الفرار من البرج ، لقد ألنت قلوب إخوتك ... وإنا لمعجبون بشجاعتك » .

وجاءوا إليه بسلة وحبل ، وأنزل إلى الأرض فى جنح الظلام ، وتمنوا له رحلة ميمونة .

— ٣ —

أخذ معه كتاب الصلوات ، وحزم لفافة من الخبز والجبن والفاكهة ، وعاود رحلته فى الطريق المترب صوب باريس . وكان

السفر يمضون حشوداً فى تفكير هادىء ... فتمضى مواكب النبلاء على صهوات جيادهم فى أبهة رائعة ؛ بينما المتسولون يجلسون على جانب الطريق يمدون أيديهم يستجدون كسرة من الخبز . وهذا الشاب الراهب الهارب من ثروته يضرب فى سهول لومبارديا ، تتفرى قدمه ، ويقسم مع الجائعين خبزه ، وينام فى بيادر الحبوب وأخيراً بلغ باريس بعد رحلة طولها (١٥٠٠) ميل ، ولكنه لا يكاد يبلغ المدينة الجامعية حتى يعلم أن الأستاذ الشهير ألبرتس ماجناس الذى كان توما يتوق إلى ورود منهله ، يحاضر فى كولونيا ، فعبر الرين ، وواصل رحلته إلى كولونيا ،ودخل قاعة المحاضرات المزدحمة،وجلس عند قدمى ألبرتس .

وقلما اجتمع فى التاريخ من معارف زمانه لرجل واحد ما اجتمع لألبرتس ، فهو رجل جمع فى صدره ثقافة العصور الوسطى كلها،وسار على نهج أرسطو العظيم ، فبحث فى السماء عن أبراجها ، وفى المياه عن أسماكها ، وفى الهواء عن أطياره ، ولكنه يخالف أرسطو فلا يعنى بدرس الطبيعة البشرية للبحث عن الحق والباطل ... فهذا عنده لا داعى له ، لأنه ولد مسيحياً ، وتقبل تعاليم المسيح بلا جدال ، وهرعت جموع الطلبة من كافة أنحاء أوربا لسماع محاضراته ... تهفو

إليه أرواحهم ، ولم يشذ تومس عن هذا الإجماع ، كما هو متوقع ، ولـكن إخوانه من الطلاب يخالونه خارجا على هذا الإجماع ، فإنه ليجلس الساعات هادئا منصتا ، لا يشارك فيما يأخذ فيه الطلبة من نقاش عام ، ولا يبدى اقتراحا ولا تعليقا على موضوع المناقشة .

وكان كل طالب يعرض علمه مباهياً به ، إلا تومس ، فهو أقل نجوم ذلك الفلك ضياء ولألاء ، فهو ممعن فى العزلة ، وهو نور يتعثر باهتاً خافتاً ، بينما أضواء لا تسمو إلى ضيائه ، تسطع وتتلألأ فى غير خجل ولا حياء ، وإنه ليعلو عليها بأمد بعيد ... وإن زملاءه من الطلاب ليعجزون عن أن يظفروا منه بكلمة واحدة . وهم يعجبون لرأسه الضخم وهيكله البالغ الثقل ؛ فهو ضخم كالثور ولذلك لقبوه بالثور الأبكم . وحدث يوما أن طالباً عرف بدعابته رأى أكويناس يطل من نافذة فيما يتخلل المحاضرات من وقت ، وصاح فى إخوانه : « أنظروا ... أن ثوراً يطير فوقنا » ... وأطل تومس أكويناس برأسه من النافذة ... فحيته عاصفة من الضحك الصاخب ، فواجه الجمع فى وقار ، ووجهه ناطق بالزراية والسخر . قال « لست من الغفلة بحيث أصدق أن ثوراً يطير فى الهواء ، ولـكنى لا أصدق أن رجلا من رجال الدين يهون أمره حتى يكذب » .

واستدعى ذلك الشاب الصامت نظر ألبرتس ، فدعاه ذات يوم إلى مكتبه ووجه إليه بعض أسئلة . وناقشه فى اللاهوت والنحو وما وراء الطبيعة والمنطق . وقال فى محاضرته التالية للجمع المحتشد « إنكم تدعون أخانا تومس ثورا أبكم . أليس كذلك ؟ إنى لأنبئكم أن العالم سيصغى يوماً إلى خوار هذا الثور » .

— ٤ —

وقويت أسباب المودة بين تومس وألبرتس ، فلما انتقل ألبرتس إلى جامعة باريس ، تبعه الأكوينى . وواصل دراسته بها حتى حصل على درجة بكالوريوس فى اللاهوت . فهو يتوق إلى الجمع بين تواضع القديس فرنسيس ؛ وعلم القديس أوغسطين ، لقد اتخذ مسوح الرهبان آية على أنه يهب نفسه لله ، ولكن حياة القلب الطيب لا تكفيه فإن به كذلك شوقاً إلى أن يهب نفسه لحياة العقل الطيب . لقد ألهب فرانسيس خيال الناس بقصة المسيحية ، ويريد توما الأكوينى أن ينير أذهانهم بفلسفة المسيحية .

وعين فى الثالث والثلاثين من عمره أستاذاً للدين بجامعة باريس ؛ وهنا وجد نفسه محوطاً بالجو الدينى الذى كان يغمر كل شىء فى ذلك الزمن ، وكان علم اللاهوت هو الحصن المنطقى الحصين الذى

أقيم لحماية روح الإيمان الرقيقة . فكان الدين الكاثوليكى مدرعاً بشبكة معقدة من الأقضية المنطقية ، والتأويلات العقلية ، خرجت باللاهوت من نطاق الفلسفة إلى نطاق العلم . فالكتب المقدسة أصبحت تؤيدها تعاليم أرسطو « ذلك المسيحى الميتافيزيقى العظيم الذى لم يسمع بالمسيحية قط » . لقد فسر أرسطو العالم بأنه نتاج الجوهر والصورة . فالجوهر هو المادة التى صنع منها العالم ، والصورة هى الطاقة الكامنة التى تدفع بالعالم إلى تطور متصل ومحاولة مستمرة للسمو بطرائق التعبير . وقد وجدت الصورة أو طاقة العالم قبل أن توجد المادة ولما دخلت الصورة فى المادة وجد العالم .

لقد جيء بفلسفة أرسطو من العالم الوثنى إلى العالم المسيحى ، لتثبيت العقيدة الأساسية للفقه الكاثوليكى .. إن الأقنوم الثانى (الكلمة) قد تجسد فى المسيح ، فالصورة عند أرسطو هى ألوهية المسيح ، والمادة عند أرسطو هى لحمه . واطمأن الأساتذة المدرسيون إلى هذا التفسير المسيحى لفلسفة أرسطو فقصروا همهم على لون من الجدل المنطقى ، ولم يعدلهم هم غير الذود عن فلسفة أرسطو ، وجعلوا يفسرون آراءه ويبسطونها ويرددونها دون أن يضيفوا إليها جديداً مبتكراً ، فقد كان هؤلاء الفلاسفة المدرسيون فى القرن الثالث عشر نوابغ فى التدريس أوساطاً فى التفكير .

ولـكن توما الأكوينى صاحب ذهن مبدع خلاق ، يثور به على الأساليب المدرسية السائدة فى عصره ؛ إن رسالته أسمى من أن تقصر على تفسير أرسطو ، فحاول جهده أن يفيد من عقله القوى فى نطاق مهنته ، وأخذ يجهر بآراء شخصية بدت لبعض معاصريه ثورية ، ولـكن أفواجاً من النـاس كانت تهوى إليه عرفاناً بسمو مكانته ... إنه ليستحق اسمه « تومس » وهى كلمة معناها العمق ... فهذا الرجل كان أعمق مدرس فى عصره .

إنه عميق الفهم ، ضخم الحجم . وهو حين يسخر الساخرون من كبر بطنه يجيبهم فى تفلسف « كذلك ينمو الـكرنب بلا غذاء » . فهذا الرجل الذى « يحكى برميلا من النبيذ ممتلئاً » من أهل الزهد والتقشف ... وإنما اتفق له بناء مترامى الأبعاد ، يفوق أبنية الناس ، ففاقهم جسما ، وفرعهم فـكراً ، وبهرهم عطفاً ، ما كان أجدره أن يولد فى أرض (بول بنيان) فيتخذ من جبال ركى مذبحاً ، ومن الخالق العظيم معبداً ، ومن الحرية كتاباً . إنه رائد قوى ، متأهب لأن يضرب فى آفاق لم تشارفها أفـكار معاصريه ، حتى لـكأنه جلفر الـكبير القلب ، يبدأ مغامرة روحية بين أهالى لليبت .

— ٥ —

ودعى مرة لتناول العشاء مع مئات من الضيوف فى قصر ملك فرنسا . وفى أثناء المأدبة كان الملك يتحدث فى طلاقة واسترسال ، وإذا قبضة تضرب على المائدة فى وسط القـــاعة ، فى قوة مارد الغابة ، وإذا رجل يتمتم من خلال لحيته فى صوت سمعه الجميع « هذا سيخرس الـــكفار » . فهوم الصمت فجأة على القـــــاعة الـكبرى . منذا الذى جرؤ على مقاطعة حديث الملك ؟ لقد أطل لويس من عليائه ينتظر من تومس أكويناس تفسيراً لمـا حدث . فقال الراهب الجرىء : « كنت فى حلم ياصاحب الجلالة . . . فنسيت مكانى إلى حين . . . وكنت أفـكر فى أدلة تدعم فلسفتى وتفحم الـكفار » . فابتسم لويس بابتسامة سمحة وهو يقول : « سآمر أمنائى بتسجيل أدلتك لترجع إليها أنت إذا نسيتها مستقبلا — فلا ريب عندى فى أنها أدلة قيمة » .

— ٦ —

إنه ليدعو ربه متوحداً فى صومعة « أيها الخالق الذى سما على تقولات البشر . . . إيه يا معدن الحياة ومعدن الحـكمة . . . هبنى حدة الذهن حتى أفهم ، وقوة الذاكرة حتى أحفظ ، وامنحنى اللهم

الوسيلة إلى التعلم سهلا ميسوراً ، والقدرة على تعليم ما أعلم، وأطلق اللهم لسانى فصيحاً ذلقاً » .

وهو أبداً يذرع الأرض غدواً ورواحاً ، ويداه وراء ظهره . وعيناه تشيان بغياب الوعى . إن فى ذهنه لمعارك كبرى يخوضها. وإذا تحدث من منصة المحـــاضرة ، فهو مرفوع الرأس ، مغمض الجفن .

وإنه لا يدخر وسيلة للدفاع عن العقيدة المسيحية إلا استخدمها. فامتشق قلمه ، وكانت كتاباته أشبه بالبرق أومض فى سماء المعرفة . ولـكنه الآن قلق غاية القلق ، فإنه ليتلفت حوله فلايكاد يجدللايمان من أثر ، فهو يشهد مواكب المطارنة العظيمة ، وقد تحلوا بمعاطفهم القرمزية ، ويسمع الألفاظ الفخمة الرنانة يدعو بها بعضهم بعضاً ، ويعجب أهذا دين المسيح المتواضع ؟ إنه ليشعـــر أن كل مراسم الـكنيسة ، بما فيها من آثار ورموز ، قد استحالت مظهراً يعرض على الناس . لقد استحالت الـكنيسة من سلطة روحية،إلى سلطة طقوس ومراسم ، أهذا ما بشر به الآباء الناس فى فجر المسيحية ؟

« يا لهم من مساكين خاطئين لا يدرون ما ارتكبوا من إثم، أولئك الذين يفسدون مبادىء الـكتاب المقدس ويشوهونها ؟ »

لقد غدت أعين المسيحيين لهفى على رؤية المسيح لحماً ، حتى نسى القلب المسيحى لهفته على رؤية المسيح روحاً ، فقد مجد الناس عظام القديسين الفانية ، ولكنهم لم يفهموا روحهم الخالدة ، ولقد آن للناس أن يثوبوا إلى روح المسيحية الحق . لقد خلت من قبله أصوات تتردد فيها نبرة الحب أو نغمة الحكمة ، أما توما الأكوينى فيسعى إلى ضم النغمتين فى لحن واحد ، فيصمم على أن ينسج من أقوال الآباء المقدسين ومن الكتاب المقدس مذهباً فلسفياً واسعاً ، ينتظم الحياة العقلية والخلقية والدينية فى العالم الكاثوليكى . ألم يضطلع بنفس هذه الرسالة فى العالم الوثنى القديسون : سقراط وأفلاطون وبوذا وكونفوشيوس ؟

وتحقيقا لهذه الغاية ألف كتاب « الكامل فى الفقه » وهو كتاب دق حجماً ، وعظم قدراً ، يبحث فى الأخلاق والدين ومابعد الطبيعة . . . يؤكد وجود الله ، لا عن طريق الإيمان القلبى ، بل عن طريق العقل ، ويشرح فلسفة الكتب المقدسة كلها الإجتماعية والخلقية فى سلسلة من القضايا المنطقية التى تذكر القارىء بالطريقة التى عالج بها أسبينوزا فيما بعد فلسفة الإيمان فى كتاب « الأخلاق » فالمخلوقات التى أبدعتها يد الله حقيقة ناصعة . وما كان لغير الله أن يأخذ فوضى

المادة فيشكلها ، ويودعها المعنى ، ويمنحها الصورة ؟

والكون هو أرغن الله ، ونحن لوحة المفاتيح ، نحدث النغم إذا مستنا أصابع الموسيقى المعبود ، ذلك الفنان الأعظم الذى يعزف ألحان الوجود ، فى قاعة الخلود ، وقد اكتظت بروادها من الملائكة. ونحن أبناء العالم الأرضى ، ألا نحس بهذه الأنغام الموسيقية فى كل واحد منا ؟ أليست لنا عقول تهتز لخلجاتها ، وعقول تفقه تناغمها ؟ .

ويحلل توما الأكوينى هذا التناغم فى كتابه العظيم ، فيتناول فيه كل ما يتصل بالله والحياة والسلوك والعقل . ولنذكر بعضا من رءوس موضوعات الكتاب ، لنقدم لك فكرة عن اتساع مجاله . فهو يعالج المسائل التالية ، ويقيم عليها الدليل ، ويرد على ما وجه إليها من اعتراضات : وجود الله ، بساطة فكرة الله ، بر الله الخالد الأسمى ، علمه وإرادته وحبه . . . ثم يتناول خلق العالم ومشكلة الشر ، وحاجات السلوك البشرى وطبيعة السعادة . وبعد هذه التحقيقات العامة يضيق نطاق بحثه فيقصره على ميدان الخلق الإنسانى ، ويتحدث عن مقومات السعادة البشرية . . . أهى الثراء أم الشرف أم الشهرة أم المجد أم السلطان أم اللذة أم هى فى هذه كلها مجتمعة ؟

ويعالج بنوع خاص مشكلة العواطف الإنسانية ، وعلى الأخص عواطف الحب والبغض والرغبة والألم والحزن والخوف والغضب . ثم ينتقل إلى درس منظم لعادات البشر والقانون المدنى والأخلاق والحرب والسلم ، والفتنة والقتل ، والسرقة والنهب والربا ، والغش فى البيع والشراء ، والأمل واليأس ، والملق والنفاق ، والتهيب والشجاعة ، والنبالة والاستشهاد والبر والتعاطف والإيمان. وأخيراً ، وبعد أن يعرض أعمال البشر بكل نواحيها لنور التحليل الهادىء ، يختم كتابه خاتمة مثيرة ، فيلخص أسلوب الحياة الخيرة ، ويشرح الطريق المتواضع الذى يجب على الناس أن يسلكوه فى رحلتهم الأرضية إذا كانوا ينشدون طريقا إلى مملكة السماء .

هذا هو كتاب الكامل فى الفقه . . . وإنه لموجز لكلمة الله تجرى على لسان فيلسوف .

— ٧ —

ويحك يا تومس إنك تشارف النهاية ، وإن اليوم عيد الفصح من عام ١٢٧٤ بعد الميلاد والثلج يساقط فيما يلى أسوار الدير ، وقد تقبض قلب العالم بردا ... والرهبان يأتون بحزم الوقود إلى المدفأة ليوقدوا نارا . . . إنك لم تجاوز الخمسين ياتومس ، ولكن جاء

أجلك ، وأخذ العرق يتصبب من وجهك . أى تومس ، إنك ضعيف ، ومن المؤكد أنك لن تمتنع عن الطعام . أتريد سمكا مملحاً ؟ ... إنه طعام نادر جىء به من فرنسا .

ولكن ها هى ذى شمعة تبعث بضوئها ليطارد الظلال الزاحفة ، وتومس غارق فى حلم متقطع . لقد أمسك بشعلة النور والدفء . خذوها من يده المرتعشة . فستقع من يده فتضرم النار فى الدير كله .

ويجتمع حوله قوم من الأتقياء المكتئبين ، فيحتضنه الراهب رجنالد أقرب صحابته إليه وهم يرتلون « إنا لنجلك ونقدسك ، يامن تجلّ الله وتقدسه » .

لكان هذا الفيلسوف القديس نهر رقراق من المعرفة رويت منه الكنيسة المقدسة جميعاً . لقد جاب إيطاليا على صهوة بغله ، يذود عن الدين بقوة البراهين الفلسفية ، وأفنى حياته يحاضر ويكتب . . الكامل ضد الكافرين ، مقالات المسائل ، الجامع فى اللاهوت . . منطق ، ومنطق ، ثم منطق أيضاً .

وهذا هو يصيح فى فراشه « أين أنا من هذا الشرف ! أيحمل رجال الدين الوقود لإشعال نارى » ؟ الصمت الصمت ياتومس .

إن الجو بارد« نعم ! ولـكن خدم الله لايصح أن يوقدوا لى النار... أنظروا إلى الشمس مشرقة ساطعة » ، عجيب منك هذا يا تومس... إننا فى الشتاء ، وليس فى خارج الدير غير الثلج . فيتحرك حركة مضطربة وهو يتمتم لنفسه « بل هو الربيع . . . إنه الربيع » .

ويطبق جفناه ، حين تخيم ظلال الشتاء ، ولـكن فى قلبه صوتا واضحا يتردد : « إنه الربيع طبعا أيها الحبيب ... أقبل ... ولننطلق إلى الحقول » .

فرانسيس بيكن

١٥٦١ - ١٦٢٦

- ١ -

كانت بريطانيا على عهد الملكة الطيبة بس (اليزابيث الأولى) تعج بأهل المرح ، والمتخففين من سلطان الخلق ، يحيا فيها الحاشية والأشراف حياة ليلة فى منتصف الصيف . فكم من سياسى طموح قد ركّب له رأس حمار ليبلغ به السلطان ، ومثل دور بوتوم للملكة الشقراء[1] . وقد أسف رجال الأدب فى كتاباتهم إسفافاً قذراً فريداً ، تقرباً إلى رجال الحاشية وزلفى ، فهو عصر بك . . . . عصر الخبث والشر والمرح . يمارس الفرد الأذى بكياسة تنطوى على الحقد ، ويمارس الخداع وسط مباهج الجمال ، ويخفى السم فى أريج المسك ، ويحدث بالخيانة فى همس مهذب ، ويضرب حول العالم

---

(١) الإشارات هنا إلى مسرحية حلم ليل فى منتصف الصيف لشكسبير وأشخاصها وما غشيها من تهريج وملق .

نطاقاً من سفن القرصنة . . . إنه عصر الوقيعة والتآمر . . أشبه شيء بالحنظل المر ، قد دس فى جفنه أسمار التاريخ .

فى هذا العالم ، وهذا العصر ، وهذه الغابة تغشاها الأحلام الأنيقة، والنعيم الأثيم وُلد رجل من رجال العلم .

- ٢ -

كان أبو فرانسيس بيكون من رجال السياسة ، وكان أميناً على خاتم الدولة ، وكانت أمه من أهل العلم ؟ أمينة على تراث الإغريق والرومان . فبينما كان سير نيكولاس يحمى قوانين العالم الحديث ، كانت ليدى آن تحيي وتترجم مخطوطات العالم القديم . فلا عجب أن يصبح فرانسيس ، الشاب الذى نشأ فى أحضان هذين الأبوين ، سياسياً وعالماً ومدعياً متعالياً . فهو لا يكاد يلتحق فى سن الثانية عشرة بكلية ترنتى بجامعة كامبردج حتى يستعلى ذكاؤه على المنزلة العلمية التى عرفها للكلية خمسة عشر قرناً . وفى السادسة عشرة يعلن جهاراً أن أساتذة كامبردج يخطئون خطئاً مبيناً إذ يعتمدون فى كل دراساتهم على أرسطو . وآفتهم فى رأيه علم ساذج ، قائم على ملاحظاتهم الطبيعية ملاحظة بدائية غير مستقصية .

وأحس فرانسيس أن عليه « رسالة » يجب أن يؤديها فى الحياة ، هى تحرير العالم من « لاهوت أرسطو » الذى يحسبه الناس علماً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولكن سرعان ما شغلته رسالة أخرى هى تحرير نفسه من الدين ، فأبوه سير نيكولاس قد قسم أملاكه بين أبنائه عدا فرانسيس . ومات حين صح منه العزم على أن يخص ابنه السادس بنصيب من ماله : وهكذا يجد فرانسيس وهو فى سن التاسعة عشرة أنه لا يكاد يمتلك شروى نقير .

وكانت صدمة بالغة أصابت شاباً قرع الكئوس مع الأمراء ، وعبث هواه بقلوب كبار وصيفات الحاشية ، فالتمس أن يعين فى إحدى وظائف القصر ، ورأى أن يتشفع بعمه سير وليم سسل رئيس وزراء إنجلترا ليحرز هذا المنصب ، ولكن سسل له ولد ، أراد له هذا المنصب فلم يفعل لابن أخيه شيئاً .

وها هو ذا فرانسيس الآن يواجه مشكلة عملية ، وليس هو بالشاب الذى يتفادى المشاكل ويتجنبها . فهو إما أن يختار الفلسفة فيواجه الفقر والحرمان ، وإما أن يتخصص فى القانون فيغدو صاحب

مهنة يشق بها طريقه فى الحياة ، فقرر أن يجمع بين الفلسفة والقانون ، ليملأ بالقانون جيبه ، ويشبع بالفلسفة روحه .

فالتحق بمعهد جراى وتخرج فى القانون، وكان من مواهبه صوت جهورى ، وأسلوب قضائى ناصع ، ولم يلبث أن أصاب مقعداً فى البرلمان . وهو على سرعة تصعيده ، ذو خيال يسبق ما ينال بأمد بعيد . فيرى نفسه وقد تربع فى كرسى قاضى القضاة وجاوزه إلى مقعد فى مجلس مشورة المملكة .

وإنه لينتمى إلى أمه العالمة ، قدر انتمائه إلى أبيه السياسى . فهاهى ذى مشكلات المعرفة النظرية تعاوده وتلح عليه . ألم يشهد الدور فى مملكة العلم ؟ ألا يستطيع رد الإنسانية إلى جادة الحق ؟ ولكن نوراً ينبعث من ثريات القصر ومن عين دوقة حلوة لأبلغ من الفلسفة متاعاً لنفسه . « فمع إيمانى بأنى ولدت لخدمة البشر ، وقدرتى على أن أغمر بالنور كل مسالك الحياة ومساربها ، فإن السلطان السياسى هو ما أنشد ، سلطاناً على الناس والمرافق » وخاتم الإنجليز العظيم فى يده ، ومائة خادم رهن إشارته . . . . ألا بُعداً لحياة التأمل . فعلى الناس أن يعلموا أن الأرباب والملائكة

الأطهار لا شأن لهم بشئون الناس . وليس لهم إلا أن ينظروا إليها من بعيد » .

- ٣ -

وظل اثنى عشر عاماً يحاول أن يجد له فى الحاشية مكاناً ، ولكنه لا يجد ، وبين الحين والحين يهدد عمه ، وكان يستطيع بكلمة واحدة أن يحقق حلمه ، بأنه سيعتزل القانون ، وينقطع للعلم فى كامبردج ، ولم تثر مثل هذه التهديدات حماسة عمه سسل فكان يرد على ابن أخيه رداً بارداً . . . وينصرف عنه إلى شئون أخرى .

على أن بالقصر طغمة تنافس عمه فى نفوذه ، وعلى رأسها لورد إسكس ، ذلك الرجل المتسرع المندفع الأثير إلى الملكة . فقدم بيكن نفسه إلى هذا النبيل القوى الرقيق الحاشية ، واستطاع بكياسته ولباقته وموهبته البيانية أن يكسب قلب إسكس .

وكان بيكن ينظر إلى صداقة إسكس نظرة عملية ، شأنه دائماً فى نظره إلى الأشياء ، فعقله يحدث بأن العالم تندر فيه الصداقه ندرة شديدة ، وخاصة بين الأنداد « ولكن من الصداقة صنفاً يؤدى إلى غاية كالصداقة بين رئيس ومرءوس . . تحقيقاً للنفع المتبادل » .

وهكذا تهيأ للسيد الحصيف خادم أمين ، وتهيأ للخادم الداهية رئيس يستطيع بدهائه أن يجعله معبراً إلى آماله الكبار .

وما كان أحوج بيكن إلى قنطرة حينذاك. فهو دائم الاستدانة لأنه يسرف على نفسه فى المأكل والمظهر . فكان لورد إسكس يمنحه الهبة تلو الهبة ، فخفتت بذلك ضجة دائنيه . فقد استعبدت الفلسفة ثراء اللورد ، ولكن فرانسيس بيكن لم ينل حتى الآن منصباً رسمياً ، فكتب أحاديث يتملق بها غرور الملكة وزهوها ، ونشر بحوثاً سياسية تمجد عهدها . فقالت الملكة : « لقد أخذ مستر بيكن يتشكل على النحو الذى نريد » ، ولكنها تتخطاه حين تخلو وظيفة رئيس السجلات ، وتختار غيره رغم ما كان من احتجاجات إسكس إنها لخيبة أمل بالغة ، فقال الفيلسوف فى حسرة «علىّ أن أحمل النير» وأراد إسكس أن يخفف عنه ثقل النير فمنحه مزرعة واسعة .

وظن بيكن أن النجاح خليق بأن يتلوه النجاح . لقد منحه إسكس منزلا غنياً ، فينبغى لآخر أن يمنحه زوجا غنية ، فزيجة طيبة قد تتيح له الثراء . وها هى ذى أرملة واسعة الثراء ، يجرى فى عروقها دم النبلاء .. فأسرع إلى طلب يدها ، وأراد أن يكون شفيعه إليها لورد إسكس ، ولكنها رغم هذه الشفاعة ترفضه وتقبل غيره ، سير

إدورد كوك ، وهو محام من منافسيه اختير من دونه ليكون مدعياً عاماً . فهز بيكن كتفيه هزة فلسفية ، وإن لم يستطع أن يفهم كيف فضلت عليه الأرملة الثرية الأريبة ذلك الرجل الذى علت به السن شيئاً ما ، والذى يتندر السامرون بأن سبعة اعتراضات تقوم ضده : « أبناؤه الستة وهو نفسه » .

وشاء أن يتخفف من ألمه المرير . فكتب مقالا عن الظلم . وأوغل فى الإسراف حتى سجن وفاء لديونه . وأنقذه إسكس من السجن على مألوف العادة .

وظل مع ذلك يحاول أن يحرر الروح البشرية من سجن المدرسية الأرستطالية ، ففلسفة الميتافيزيقا اللاهوتية يجب أن تمزق كل ممزق . ويجب أن يتهيأ لأبناء الجيل الجديد تعليم حر جديد . يجب أن تتسع آفاق المعرفة ، ويعاد بناء علم الطب ، ويستأصل المرض من جذوره . « إن رسالتى هى ترقية الإنسان ، وواجبى هو إنشاء حضارة عقلية جديدة . هذا ما ينبغى لى ان أؤديه إذا توافر لى الوقت والفراغ والطمأنينة المالية » . عليه ان يعلم الإنسان كيف يرسم الخطة المؤدية به إلى النجاح .

— ٤ —

أخذ عطف الملكة على إسكس يفتر رويداً رويداً ، وتنشب بينهما خلافات عنيفة ،فيرسل إسكس كارها إلى إرلندا ليقود الجيش ويخشى أن ينزعه منافسوه من قلب الملكة فى غيبته ، فإن بسمات القصر له قد غدت خلابة خاوية. وكان مصيره معلقاً إلى أهواء الملكة بخيط رفيع فإن هبت ريح مهما ضعفت سقط من فوره إلى الحضيض . فهرع عائداً من إرلندا ، ولم تكن الملكة قد أذنت له بذلك ، فسجنته ثم أطلقت سراحه بعد قليل ، ولكنه لم يستعد مكانه منها قط . وصار جلياً أن النبيل لم يعد يملك من أسباب النجاح سبباً واحداً.وأخذ أعداؤه الأقوياء يأتمرون به فأخذ يفقد قواه العقلية وأجمعت النذر على أنه سيفقد رأسه عما قليل .

ترى أين كان صديقه بيكن ؟ وما هى النصيحة التى أسداها إليه ؟ وما هو العزاء الذى قدمه له ؟ إن قلب الملكة لموغر عليه إيغاراً لا صلاح له . وسرى همس فى دوائر القصر « أن مستر بيكن هو الذى يوغر عليه صدر الملكة » .

فقد رأى بيكن أن من حسن السياسة أن ينضم إلى جانب الملكة ،بعد أن صار إسكس لا يملك له نفعاً ، لقد استنزف بيكن

عصارة إسكس ، وتركه عوداً جافاً لا خير يرجى منه : وآن أن يولى وجهه قبلة أخرى ، ليصيب مالا جديداً . ولم يصدق هذه الشائعات بادىء الأمر غير قلة من الناس ، حتى لقد روعت القصة لورد ربرت سسل ، وهو ألد أعداء إسكس السياسيين ، فكتب إلى بيكن يقول : « يا بن العم ، لقد سمعت — وإن لم أصدق — أنك تخون لورد إسكس » ولكنه نبأ صادق لامين فيه ... والعمل سليم جـــداً من ناحية العلم .

ولما تأهبت الدولة لمحاكمة إسكس بتهمة خيانة الملكة ، طلب بيكن أن يكون فى هيئة الإتهام ... لأن فى هذا ما يعلو بقدره فى عالم القانون علواً كبيراً ... ولكن اليصابات لا تجيبه إلى هذا الملتمس القاسى ، كياسة منها .

وكان واضحاً أن الذنب الذى لم يجن إسكس سواه هو حدة مزاجه . فقد حشد أقاربه حوله ، ليلقى درساً على من حرموه ابتسامة الملكة « التى تشرق كما تشرق الشمس » . وبلغت مسامع الحكومة أنباء الاجتماعات التى تعقد فى منزله ، فأحبطت مؤامرته ، وقبض عليه ، وأودع برج لندن . وأخذت مسألته هذا الوضع : هل ما قارفه إسكس إن هو إلا اندفاع أهوج من خصومه السياسيين ، أو هو محاولة أشد

خطراً ، هدفها اغتيال الملكة ؟ ولم يشك أحد فى أن التهمة الأولى هى الصحيحة . لقد فقد صوابه ، وكان من المستبعد — فى رأى الناس — أن توجه إليه تهمة الخيانة عن عمد وإصرار .

وجىء بإسكس إلى ساحة القضاء ، ونهض فرانسيس بيكن على قدميه ، ونظرت إليه هيئة المحكمه متسائلة ، فليس هو من هيئة الإتهام رسمياً ، ماذا عساه يقول ؟ وبأى وصف يتكلم ؟ ولم يلبث أن تبين للمحكمة أنه شاهد متطوع من شهود الدولة ، سيما وهو أخص أصدقاء المتهم ، فهو محيط كل الإحاطة بمراميه ونوازعه . إنها شهادة لها خطرها لامراء . لقد خيم الصمت على ساحة القضاء ... هذا خطيب يتألق ... محام دمث مهذب ... يأخذ أدبه بمجامع القلوب .

فند الرأى القائل بأن جريرة إسكس هى الإندفاع الطائش ، وإنما جريرته التآمر العمد لاغتصاب العرش ، وهى جريمة عقوبتها الإعدام . وجعل يشرح القضية فى أسلوب الخطيب العالم ، تغذوه مواهب عقلية لا ينضب لها معين . قال إنه لا يتكلم أمام مجلس من جهلاء المحلفين فى الريف . . . ممن ينساقون مع العاطفه ، بل أمام هيئة من القضاء النزيه الراسخ فى العلم . ورجاهم أن يبحثوا المسائل

بحثاً موضوعياً . أيستطيع إسكس أن ينكر نية الغـــدر بشخص الملكة ؟ « حضرات القضاة ! إن سفاكنا الأول ، قابيل نفسه ، قد بلغ من القحة أن أنكر جرمه » ثم عرض بيكن مجموعة رائعة من القضايا المشابهة ، انتقاها من محيط ثقافته التاريخية الواسع . ألم يجرح الخائن بيزستراتس[1] نفسه ، ويندفع فى المدينة دامى الجراح ، يدعو الناس إلى الرحمة به فى حين كان قومه يضعون أيديهم على مقاليد الحكم تنفيذاً لأمره ؟ « أنا لا أتكلم بوصفى مدعياً واسع العلم من هيئة الإتهام ، بل بوصفى صديق المتهم » كذلك قال فى صوت تخنقه العاطفة .

وبوصفه صديق المتهم — كما يؤكد — يرى نفسه مضطراً إلى الاعتراف برغمه بأن إسكس قد دبر مؤامرة لقتل الملكة واغتصاب عرشها ، فلا يحق له إذن أن يلتمس تخفيف العقوبة . سخر من الرأى القائل بأن إسكس كان فاقد الصواب فترة من الزمن ... فكان لا يدرى ما يفعل . واختتم حديثه قائلا : إن إسكس خائن ، ويجب أن يجزى على خيانته بالإعدام .

واقتنع القضاة بهذه الشهادة ضد إسكس يدلى بها رجل قد منحه

(1) Pisistratus

المتهم مزرعة ، فحكموا على إسكس بالإعدام .

ترى ما الذى دعا بيكن أن يدفع بخير أصدقائه إلى الموت ؟ لقد أصاب من الدولة مائتى ألف من الجنيهات ... جزاء ما قدم لها من خدمات . وقال محزوناً وهو يضعها فى جيبه « قدمت إلى الملكة شيئاً ولكنه يقل عما كنت أرجو » .

ثم جلس يكتب بحثاً طبياً فى وسائل إطالة العمر .

— ٥ —

إن بيكن لصاحب ذكاء خصب شتى ألوانه ، يستطيع أن يستخدم ذكاءه فى الخير والشر على السواء ، فإنه إن يلجأ إلى الغدر يمهد به سبيله فى الحياة ، ليجد لذة فى خوض بحار الفلسفة ، وتعمق أغوارها . وهو فى هذا يفوق كل من مضوا قبله ، حين يستوى للفلسفة مزاجه « إن كلفى بالبحث لم يتهيأ لإنسان من الناس . . . وأنا أحيط من سوابق القانون بما لم يحط به أحد فى انجلترا . ومهذا يناقشنى فى علمى باللاتينية أو الإغريقية ؟ إنى لموسوعة علم . . لقد كشفت كل ما يشوب علم الإنسان من خطأ منذ أيام أرسطو » . لقد كان خطأ الإغريق فى خلطهم بين الغايات الخلقية والوظائف الآلية المحضة . فوصفوا العاصفة المطرة وصفا لا يقوم على الظروف الجوية

وحدها ، بل يعتمد على اللاهوت أيضا . وقالوا إن الماء يبخر فى الهواء : وينزل على الأرض ، لأن الله يريد أن يروى المزروعات وأن تخرج الأرض ثمارها للانسان . وهذا التعليل البدائى غير العلمى يجب أن يوضع له حد ، فيجب أن نفصل بين آرائنا فى الله وبين الكون المادى ، ويجب أن نحكم على الأشياء من حيث وظائفها الطبيعية ، يجب أن نتواضع فى أهدافنا ، ونتخصص لأبحاثنا . يجب أن نبدأ بالشك لا باليقين . يجب أن نحشد جيوشا من البشر فى كل الجامعات الكبرى فى العالم ، كل منها يتعمق بحث ما تخصص له وبهذه الوسيلة وحدها ، بالتعاون العام مع جنود مجهولين لا يحصى لهم عدد ، يمكن أن نحيط بالحقيقة كلها خبراً . ولقد رسمت خطة تكفل هذا البحث العلمى وسأفرع العلم الطبيعى إلى فروع مختلفة وأعهد إلى مساعدى بالبحث فى المشاكل المستغلقة فى كل فرع . سنضع الطبيعة على الخلعة ، لنحملها على البوح بأسرارها . إن مجرد الفكرة تذهلنى . . لكن أنى لى الوقت الذى يكفى لأنظم هذا كله ؟ »

وزج به فى السجن مرة أخرى وفاء لديونه ، وأطلق سراحه هذه المرة أيضا بفضل تدخل القصر ، ولكن لا يمضى على إعدام

لورد إسكس عامان حتى تموت الملكة إليصابات ، ويلى عرش إنجلترا ملك اسكتلندى هو جيمس ، وكان صديقا حميما لإسكس فما أحرجه من موقف على من أوقعوا باللورد المسكين ، ودفعوا به إلى الموت . ولكن بيكن لا يراع ولا ينزعج . فقد آن الأوان لكى يحل وجها محل وجه ، فهو من أفهم الناس بخبايا القلب البشرى ، فلا يكاد يطمئن إلى أن الملك الجديد ممن يزهون بطول باعهم فى أدب اليونان والرومان ، حتى يبعث إليه بتهنئة تبدأ بسطر من الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس ، وتنتهى ببيت لأوفد ، ويكتب فى صلب الرسالة : « إنى لأشد رعيتك تلهفاً على أن أفتديك بالنفس . . . فأقدم أضحية محروقة على مذبح خدمتك » إنه ليرنو ببصره إلى وظيفة محامى الملك .

فلما أغضى الملك عن ملتمسه ، ولى وجهه شطر ابن عمه الغنى ربرت سسل ، فأخبره أنه غارق فى الدين مرة أخرى وطلب إليه قرضاً صغيراً ، وأكد أنه قد ودّع السياسة وداعاً لا رجعة فيه ، ولم تعد تراوده إلى السلطان أدنى رغبة . فلسوف يصرف جهوده إلى البحث عن « عروس ثرية لتستقر حاله ، ويحيا حياة مطمئنة مريحة » . واقترح ـ عرضاً ـ شيئاً يخفف عنه ما أحسه من وطأة

الفشل فى إصابة وظيفة فى القصر ، فقال إنه يستطيع أن يصبر نفسه على قبول لقب الفارس ، ذلك اللقب الذى « كاد يصيبه الدنس » ، على أن يطلب هذا اللقب له لورد ربرت سسل . ثم يستدرك قائلا « إنه يكره ما جرى به العرف المبتذل من الإنعام باللقب على جموع كبيرة من الناس فى وقت واحد . فهو يؤثر أن يمنح اللقب مفرداً . فهذا أليق بمكانته . وجاء حفلة تتويج الملك جيمس الأول « مستر » فرانسيس بيكن ، وانصرف عنها « سير » فرانسيس بيكن . . فقد أنعم عليه باللقب مع ثلثمائة غيره .

على أنه أصر على أن يعقد بين الملك وبينه صلة شخصية مهما كلفه ذلك ، وكان الملك شديد الطرب للصوت المتملق ، فأمطره بيكن صيِّباً من الرسائل يشبه فيها هذا الرجل العادى « بالله تعالى محرك الكون الأول » ، كذلك لم يدع فرصة تمر فى البرلمان ـ وكان من أعضائه — إلا انتهزها للدفاع عن سياسة الملك المناهضة للحرية المجحفة بالعدالة المتصامّة عن صوت الشعب والقانون العام ، وعن ضرائبه غير المشروعة التى أتخمت خزائنه ، وجعلته فى غنى عن ممثلى الشعب . وأسرف بيكن فى اقتراح أساليب علمية تفضل الأساليب المستعملة لكبح جماح حكومة الشعب . وتزوج فى هذه

الأثناء من ابنة أحد العمد . ولما هنىء بهذه المناسبة السعيدة ، أجاب إجابة جافة بأن « أحواله المالية تحسنت بعض التحسن بفضل هذه الصفقة » . أما الحب ، فما كان لمثل هذه العاطفة أن تلج إلى عقله . فهو يقول فى إحدى مقالاته « إن عظماء الرجال يسمون بأنفسهم دائماً على هذه العاطفة الضعيفة » .

وتمكن آخر الأمر ، بفضل عقله الانتهازى ، من أن يلفت نظر الملك إليه . فعين مدعياً عاماً لإنجلترا ؟ وكان أشد ما راع الملك من آرائه ، رأيه الفذ أن الحرب الخارجية تستطيع أن تخلص البلاد ممن زاد على حاجتها من السكان ! . إن مشرب بيكن من مشرب الملك إذن .

وتتمثل فى شخصية بيكن المتناقضة أغمض الأسرار وأمعنها استخفاء . . . . ألا وهو العقل البشرى ؛ فهو يزيد فى منح التعليم بجامعتى اكسفورد وكامبردج ، توسعة على شعب إنجلترا فى فرص التعليم . وهو يرأس مجلس النجم الملكى للتعذيب والبطش ، وهو يكتب مقالا بارعاً عن الإحسان ، وينشر كتاباً رائعاً عن تقدم العلم ، وهو يشير فى مقال قصير إلى أن الوسيلة التى « يسخر » الإنسان بها صديقه هى أن يضع يده على « نقط ضعفه ونواحى قصوره » ،

ثم يكتب دون ما خجل أو تورع بحثاً عن فضيلة الخير والحق جاء به « ليس من رذيلة تدمغ الإنسان بالعار كما يدمغه كشف كذبه أو غدره » .

وإنه ليجد دائماً ما يبرر طموحه الجامح . فيقول إنه يعول على هذا الطموح فى إصابة طمأنينة مادية تتيح له الحرية . فتمكنه من أن يقدم إلى بنى الإنسان هذه الفلسفة . ويقول : « سأحرر الإنسان من خطأ التفكير ، وسأبين للناس طبيعة الحرارة ، وقوانين الحركة ، وأصول التغذية . ولكن على أولا أن أجمع ثروة تهيىء لى الفراغ الذى تتطلبه تجاربى . . تريث ولا تحكم على قبل أن ترى النتائج ، دعنى أبلغ قمة السلطان ، فإذا اعتزلت الحكم بعد أن أنشأت الجامعات ، واستحدثت كراسى جديدة ، سأكتب وقتئذ وأبحث وأفيد بنى الإنسان ، فهل أهدافى تلك عديمة القيمة ؟ إن من كانت هذه غايته ، وجب عليه ألا يحجم عن الوسيلة مهما تكن .

—٦—

وكلما علت به السن ، زاد عقله قوة . فقد كتب فى شيخوخته أشهر أثر نثرى ظهر فى عصره وهو كتاب الطريقة الجديدة[١] ،

(١) Novum Organum

فلطالما احتاجت الفلسفة إلى أسلوب جديد فى البحث العلمى . . وهذا هو الأسلوب الجديد المنشود .

يقول فى هذا الكتاب إن علينا قبل أن نستطيع البحث عن الحقيقة أن نحطم عدداً من الأوهام أو المغالطات التى تعوق العقل البشرى فى سيره ؛ أولها أوهام القبيلة ، وهذه الطائفة من الأوهام تشمل المغالطات القبلية أو العالمية التى تجعل من الإنسان مقياساً لكل شىء . فالإنسان يحلل الكون كأنما الكون قد خلق ونظم لراحته. « إن الفهم البشرى ، جرياً على طبيعته الخاصة ، ليفترض فى بساطة ويسر أن فى الأشياء قدراً من النظام والاتساق ، يزيد على ما يبدو منه فعلا ، وإن قامت أمثلة كثيرة تنقض هذا الغرض » .

وطائفة أخرى من الأوهام يقال لها أوهام الكهف . فلكل إنسان فى نفسه كهف أو غار يكسر نور الطبيعة ويشوهه « فمن العقول ما هو محلل يميل إلى تقسيم العالم إلى أشتات من الأشياء ، ومنها ما هو مركب يحاول أن ينظر إلى العالم نظرته إلى بناء متماسك وينتمى العلماء للفئة الأولى ، وينتمى الفنانون للفئة الثانية . ولكن علينا جميعاً أن ندرك أن الحق يقف مستقلا عن كلا الجانبين ».

والطائفة الثالثة أوهام السوق ، وهى تنشأ عن « اتصال الناس

واجتماعهم بعضهم ببعض » . فإن الفساد فى تركيب بعض الكلمات يعوق العقل تعويقاً عجيباً . فالعلماء ورجال الشارع يتكلمون عن الكون فى تعميم سريع ينبغى أن نحذره . ويجب أن تبرأ لغة العلم من مثل هذه التعبيرات الغامضة المضللة ... السبب الأول غير مسبب المطلق ، الجوهر الأول ، اللانهائية . . ويجب أن نبلغ غاية الدقة فى تحديدنا لمعنى الألفاظ ، دقة لا تساهل فيها ولا تجوز . فعلينا أن نبدأ من جديد فى دقة صارمة .

وتدعى الطائفة الرابعة والأخيرة بأوهام المسرح ، وهى أوهام انحدرت إلى العقل من عقائد الفلاسفة التحكمية ، فكل ما تقبلناه من مذاهب الفلسفة « إن هو إلا مسرحيات كثيرة ، تمثل عوالم خلقتها بطريقة تتابع فيها المشاهد بعيداً عن الواقع » فالعوالم التى تقوم فى أخيلة المفكرين لأشبه بما نحب أن يكون ، منها بالقصص الواقعى . . المأخوذ من التاريخ » .

والآن وقد شققنا طريقاً داخل غياهب الجهالة ، وصرنا على اهبة إنشاء طريق فسيح يؤدى بنا إلى المعرفة ، فما هذا الطريق الجديد؟ إنه طريق الشك ، والتجربة والخطأ .. التصنيف وإعادة التصنيف ، طريق التجربة البسيطة « فالتجربة الحقة تضىء كالشمعة أولا وعلى

ضوئها يستهدى الطريق » فعلينا بادىء بدء أن نجمع بالبحث الدائب الفروض الصالحة ، ثم علينا ترتيب هذه الفروض التى تعلمناها من تجاربنا فى نظام يسير الهضم ، نستطيع أن نكون منه البدهيات ، ثم نتطرق من هذه البدهيات إلى تجارب جديدة ومن التجارب الجديدة هذه يمكن أن نستنتج الحقائق آخر الأمر . هذه إذن طريقة الفرض والتجربة والإستنتاج . وعملية الإستنتاج التى تبدأ بالفرض وتنتهى بالنتيجه عن طريق التجربة ليست من هين الأمور . وتيسيراً لهذه العملية اقترح بيكن طريقة للعمل بمقتضاها ، فأنشأ جدول « الأكثر فالأقل » . وبفضل هذا الجدول يمكن أن تصنف كل الفروض ، وتستبعد فرضاً بعد فرض حتى تبقى الحقائق الرئيسية المتصلة بالموضوع بارزة واضحة . ويوضح بيكن طريقته فيطبقها على فحص طبيعة الحرارة . فيبحث عن ظاهرة من الظواهر تزيد دائماً إذا زادت الحرارة ، وتقل دائماً إذا قلت الحراره . ويختبر الظواهر الطبيعية ذات الصلة بالحرارة واحدة واحدة ، حتى يقع صدفة على العامل الوحيد الذى يزيد بازدياد الحرارة ، والذى يؤدى عدم وجوده إلى انتفاء الحرارة . . هذا العامل هو الحركة . وعندئذ يستنتج بيكن أن الحرارة شكل من أشكال الحركة .

وثبت آخر الأمر لسوء الحظ أن جدوله العبقرى غير عملى ، فقد ظهرت مصاعب لم يتمكن بها . ومع ذلك فإن طريقة الاستقراء هى إعلان للاستقلال العلمى لأن طريقته فى التنحية والإقصاء عن طريق التجربة لا تزال هى الطريقة العلمية حتى يومنا هذا . ولقد فتحت طريقة العمل طريقاً جديداً إلى المعرفة . ذلك أن بيكن لم يسم عليه أحد علماً بأسباب الخطأ البشرى وعلاجه .

— ٧ —

لم يكن الملك فى هذه الآونة يقفز به صعدا بالسرعة التى يطمح إليها . لقد قفز بغيره ، فلماذا لا يقفز به ؟ فقال بيكن لنفسه فى غير ما حياء « يجب على حبى أن يلجأ إلى الزحف حيث لم يستطع السير » . وقلّ من الناس من هانوا كما هان ليصل إلى السلطان . فها هو ذا يهوى عند قدمى صاحب الجلالة ويقول « أيسعد جلالتكم أن تروا كيف أوليتم من الناس فوق ما أوليتمونى ، ومنهم من هم دونى » « حفظ الله جلالتكم . . . » « تقبل صلاة الحمد ، التمس بها عطفك ورعايتك ... » « مولاى . . . ألا تستأهل كلماتى أن أصير منك بمكان أحمدك منه أبد الدهر ؟ » « مولاى تداركنى أن أغدو هشيما تذروه الرياح ، لأنك تحبس عنى رضاك وعطفك .. »

« أيؤذن لى أن أقدم نفسى الآن قربانا وضيعاً ؟ » « سأكون بيد قاطيعاً ، يذهب أيان شاءت يد مولاى الملك » . . . وكثير مثلها من الضراعات .

وأخيراً ينهض الملك سير فرانسيس من ركعته ، ويعينه نائباً عاما بمرتب حسن . فزاد خدمة ، وزاد راحة ، وزاد نفوذاً وطموحا ويصاب كبير القضاة بالمرض ،وهو أرقى الموظفين السياسيين فى الدولة فيهرع بيكن إلى مخدع المريض يدعو له صامتا بموت عاجل ، يرقب المريض مظهراً غاية الجزع ، ويبعث إلى الملك بتقارير يومية عن حال الرجل الذى أشرف على الموت ... ثم يكتب إليه أخيراً فى أسى « أخشى أن يكون هذا آخر أيام كبير قضاتك يا مولاى ... والآن أستميح جلالتكم أن أعرض الموقف الراهن عرضا صادقا . فإذا عين مولاى الملك لورد كوك (وكان أكبر منافسيه) كبيراً للقضاة ، فلن يلحق بجلالته غير الشر ... وإذا عين لورد هبارد ، تحطمت سلطته الملكية . . . ولكن إذا عينتنى أنا . . . اضطلعت بواجبات أقلها أن أكون قاضيا نزيها يقضى بين الناس بالعدل . سأكون رقيبا أمينا فى خدمتك حواريا لك مؤمنا بين رعيتك ، سأكون أداتك فى دعم حقك الإلهى » .

ولكن كبير القضاة يرفض أن يموت . فكتب بيكن يقول : « لبثت معه أمس نحو نصف الساعة ، وكان يعاملني بمنتهى العطف. فبكيت ... وإن لم يكن البكاء من عادتي » وعاد كبير القضاة إلى وظيفته ، فجعل بيكن يبحث حوله عن منصب آخر .

ولكن الموت يخترم كبير القضاة آخر الأمر ، وتتحقق آمال فرانسيس بيكن . فقد عين الكبير الجديد لقضاة إنجلترا .

ويتولى منصبه بين مجالي الأبهة والفخامة . ومنح لقبي بارون فريولام ، وفيكونت سانت أولبنز . لقد كتب في مقال له « إن الدراسة يندد بها الخبثاء ، ويستخدمها العقلاء » وإن المعرفة إذا أحسن استخدامها أدت إلى السلطان « وما أسعد من يحيط بعلل الأشياء » . لقد عرف أسباب الشهرة ، والنبع الأصيل للنفوذ السياسي . لقد حلق حتى بلغ ذرى المجد . . . وهو الآن موشك أن يعرف مغبته .

فما أسرع ما ضربت المأساة ضربتها ، فلم تمض أعوام ثلاثة على تعيينه كبيراً للقضاة ، حتى كان مجلس العموم قد قدم إليه تهماً مثيرة . إنه يتهم فرانسيس بيكن بأنه يقبل الرشوة في المحكمة فوقفت البلاد ذاهلة شاردة . لقد كان ماضيه السياسي معروفا حق

المعرفة ، وكذلك كانت آثاره الفلسفية العظيمة . . . ترى من هو ذلك الرجل ذو الشخصيـــة المزدوجة . . . ذلك الشيطان ظهر بلحمه ودمه .

وتقدم للشهادة كثيرون وأكدوا أن كبير القضاة من عادته « قبول الهدايا » ، فكتب النواب عريضة اتهام رسمية . فلما جاء الرسل بها إلى بيكن ، وجدوه طريح الفراش . فكيف أجاب عن هذا الاتهام ؟ لقد صعد ببصره إلى السماء ، وهو يقول : « سادتى . لقد ارتحل ذهنى عن شئون الدنيا ، وإنى لأفكر فى حسابى وما أجيب به أمام محكمة أعلى من محاكم هذا العالم » .

وقامت قيامة البلاد بأسرها ، وألقيت الخطب فى كل مكان ، من فوق المنابر ، وفى الشوارع ، تطالب بعقاب كبير القضاة . ترى هل يستطيع إنكار التهم ؟ وما دفاعه ؟ إن فلسفته كلها لا تغنى عنه اليوم شيئاً .

ويتناول الرجل المريض قلم العليم ويكتب . . الرشوة ثلاث مراتب : أولاها ، وهى أقلها شأناً ، الرشوة لمخالفة العدل والقضية لم تزل منظورة ، والمرتبة الثانية حين يرى القاضى أنه قد انتهى من نظر القضية ، والثالثة . . » دعك من هـذه المماحكة اللفظية وهذا

النفاق ! ! إنك لا تحلل عناصر كيمائية . أجب عن هذا السؤال :

هل أخذت رشوة ؟ .

فيواصل الحديث قائلا « أما النوع الاول من الرشوة الذى تحدثت عنه فإنى برىء منه براءة الطفل المولود فى يوم عيد القديس إنسنت . أما النوع الثانى ... فيصرخون به أن يجيب إجابة واضحة صريحة . فيجيبهم فى كثير من الحصافة « أقر وأعترف بعد إذ سمعت تفاصيل الإتهام،لا بطريق رسمى من المجلس ، ولكن حسبى ما سمعت منبها لضميرى وذاكرتى ، إن الأمر قد أوفى على غايته ، ويدعو إلى أمرين ، أن أتخلى عن الدفاع عن نفسى وأن تقوموا حضراتكم بإدانتى ولومى » . ثم يضيف إلى ذلك فى مكر خبيث ... إن لوما هينا يغنى فى ردعه عن الرشوة غناء عقوبة صارمة . ويذكر قضاته بأن الزمن يعمه الفساد . وقد يتفق يوما أن يحاكم أحدهم بنفس تهمته ... وحينئذ لا يندم على ما أسلف من رحمة . ثم يكتب إلى الملك مداعباً « إن الرجل الذى يأخذ الرشوة ، حرى بأن يقدم رشوة » وإنه لذلك سوف يهدى إلى جلالته تاريخا يمجد حكمه على الزمان .

إنه يرفض الإجابة تفصيلا عن الإتهام ، وقد نجا من الإعتراف

بوقائع محددة . ولـكن القضاة لا يكتفون باعتراف عام هادىء بالجريمة ، بل يطالبون إليه أن يوقع اعترافا مفصلا محدداً . . . ويضطر فرانسيس بيكن أخيراً أن ينزل على ما أرادوا .

وزاره اثنا عشر قاضياً من قضاة المملـكة ، وسمعوا اعترافه . فقد سألوه : « هل هذا توقيعك ؟ » .

ـ « نعم ياسادة . إنه عملى . إنها يدى . وإنه قلبى » .

ـ « أعد إلينا إذن خاتم منصبك الـكبير » .

فحنى رأسه وهو يقول « لقد تسلمته بفضل من الملك كبير ؛ وفقدته بخطأ منى كبير » .

وها هو ذا جالس فى برج لندن ، سجيناً ذليلا كسيراً ، فتنبرى ناحيته العلمية لتؤكد أنه على الأقل لم يصدر حكما خاطئاً نتيجة الجهل بالقانون . . . . . وفى ضوء منطقه العجيب يرى نفسه بريئاً « إنى أعدل قاض عرفته إنجلترا طيلة الخمسين عاماً الأخيرة » ثم يردف فى خبث « وإنه لأعدل حكم أصدره البرلمان طيلة المائتى عام الأخيرة » .

- ٨ -

ومضت سنوات خمس . وكان بيـكن قد أطلق سراحه عقب

دخوله السجن . . . . على أن يعيش أبداً بعيداً عن البرلمان ، وعن محاكم إنجلترا ، وألا يقلد أية وظيفة فى البلاد . . ولكن المتفائل الخالد لم يتخل عن مطامحه السياسية بعد أن حل به ما حل . فأرسل إلى الملك سيلا من الرسائل . . . يتملقه بالمدح الكاذب ، ويضرع إليه بكل ما لديه من حجة . . . ولكن ذلك لم يجده نفعاً . لقد ولى يومه . ولم يسعه ان يتملق شيخوخته لترد عليه شبابه وفتوته ، ولا أن يتملق وصمة العار فتنجلى عن جبينه .

وبينما هو يمتطى جواداً ذات يوم ، فيجيل الفكر فى طريقة لحفظ الجسم البشرى من البلى بعد الموت ، فينزل عن جواده ، ويذبح دجاجة ، ثم يملؤها ثلجاً . وهو يزمع أن يحملها معه إلى منزله ليلاحظ ما يحدث لها . ولكن قشعريرة باردة تتمكن منه ، فيقف بمنزل قريب ، ويرسل كلمة إلى أحد أصدقائه « يغلب على ظنى أنى سألقى ما لقى كيس پليفس الأكبر . . . الذى فقد حياته أثناء القيام بتجربة » ، ثم أوى إلى فراشه ينتظر أعظم التجارب طراً .

إنه لهادىء مطمئن ، يعلم أنه إذ يلقى فى خضم الموت سيكون فى انتظاره جزيرة عظيمة من جزر النعيم والسعادة ، لا يزعجها مد

الزمان وجزره ، هى أطلنطس الجديدة — أحد أحلامه الفلسفية — تتلألأ تحت شمس الأبدية . . . إنها الأرض الموعودة ، يقطنها قوم سعداء مشرقون ، وتدبر أمرهم حكومة من الحكماء المستنيرين ؛ ليس فيها ساسة ولا طلاب مناصب ولا أصفياء ملوك أرهقتهم المطامح ، بل حكومة من العلماء والكيميائيين وعلماء الأحياء والطبيعة والمهندسين وعلماء الاجتماع والفلاسفة والفلكيين . . . لا تشغل وقتهم خطب المحافل ، أو اصطياد الأتباع بالوعود السياسية . بل هم يرقبون النجوم ، ويسخرون قوة الماء ليفيدوا منها فى الصناعة ، ويدرسون التشريح ، وينهضون بصناعة البلاسم لشفاء الجروح ومقاومة الأمراض ، وينشئون سفناً تجوب الهواء . ومراكب تمرق تحت الماء ، ولا يصيبون ببضاعتهم ذهباً ولا فضة ولا حريراً ولا توابل ، « وإنما يصيبون أول ما أبدعت قدرة الله » . . يصيبون النور .

وتقدم إليه الموت على استحياء ، فصعدت إلى عينه عبرة .

رينيه ديكارت

١٥٩٦ ـ ١٦٥٠

ـ ١ ـ

لم يمض على ميلاده بضعة أيام ، حتى ماتت أمه بمرض السل ، وتنبأ الأطباء للمولود رينيه بموت عاجل ، فقد ورث عن أمه لونها الشاحب ، وسعالها الجاف . وكان أبوه من موظفى الريف فى بواتييه ، فعهد به إلى مربية تقية منعته أن يمارس الألعاب التى يمارسها أطفال القرية . وترعرع فى ظل الدلال ، فنشأ ذا عقل « نسوى » ، رقيقاً ، متفكراً ، عزوفاً عن الناس . وكان أبوه يدعوه ضاحكا : « فيلسوف الصغير » .

والتحق فى عامه الثامن بمدرسة اليسوعيين فى لافليش Lacleche . وفيها واصل مدرسوه تشجيعه على راحة الجسم ونشاط العقل . فكانوا يسمحون له بالبقاء فى فراشه حتى ساعة متأخرة ، يجيل الفكر فيما درس ، بينما يضطر رفاقه الصغار فى حجرة الدرس

إلى تلاوة دروسهم من الذاكرة . وأتاح له هذا الفراغ العريض أن يجاوز الدروس المقررة ، وأن يزدرد قدراً كبيراً من المعرفة . وكان ذا كلف خاص بقراءة الأدب القديم ليقوم « بأسفار ذهنية إلى الماضى » على حد قوله ، و « ليحدث أنبل الناس فى سالف العصور » .

غادر مدرسة اليسوعيين فى السادسة عشرة ، ثم رحل فى الحاضر بجسمه ، فألم بباريس ، والتقى فيها بشباب عصره الفارغين،فتعلم كيف يكون العشاء الطيب ، والشراب والميسر . وكان مجدوداً فى الميسر خاصة . وكان مرجع ذلك فى رأى رفاقه « أنه يبنى حدسه على علم واسع بالرياضة ، لا على قوانين الصدفة » .

لقد نما فاجتاز خطر السل ، وما أسعده إذ يجد نفسه فجأة صاحب جسم صحيح إلى جانب عقله المتألق . وبلغ من سروره بهذا الكشف الجديد أن هجر نشاطه العقلى برهة من الزمن لينصرف إلى نشاطه الجسمى ، فتطوع (عام ١٦١٧) وهو فى سن الواحدة والعشرين فى جيش الأمير موريس أورنج فى الأراضى الواطئة .

بيد أنه ليس بالجندى المطبوع ، فهو يستمتع بالعمل فى الجيش من حيث هو مدرسة للرياضة البدنية ، ولكنه زاهد فيه من حيث هو

أداة حرب . ويقول فى هذا : « إن نزعتى الحربية نشأت عن حرارة موقوتة فى كبدى ، بردت مع الزمن ». ورفض أن ينال أجر الجندى فأعفى من واجبات الجندية ، وتجنب الأعمال الحربية ما أمكن . والواقع أنه ظل طول حياته يجتنب الحرب ، بدنية كانت أو عقلية.. لأن الشجاعة لم تكن من فضائله .

لبث عامين يمارس هوايته : الحياة العسكرية ، عمل أثناءها فى الجيوش الهولندية والبلغارية والمجرية على التوالى . ثم ترك حياة الحرب إلى حياة التأمل ، لأن فيضاً من النور قد غمره فجأة عام ١٦١٩ « فى هذا العام طاف بى حلم نزل على من السماء ؛ فقد سمعت قصف الرعد . . وكان هو روح الحق نزل ليملكنى » . وفى صباح اليوم التالى دعا الله أن يهبه النور ، لأن حياته منذ اليوم مكرسة للبحث عن الحق .

ولبث يبحث عنه عشرين عاماً ، يتنقل من قطر إلى قطر ، يدرس الناس ، ويقرأ الكتب ، ويتصيد خيوط اللانهائية ، محاولا أن يتعقبها إلى مصدرها ، ويسجل نتائج درسه فى مذكراته . ثم ذهب إلى هولندا حين بلغ سن الثالثة والثلاثين ، وعاش بها هادئا وحيداً لينسق أفكاره ويجعل منها كلا متسقا . وعاش فى

عزلة تامة عن العالم، وأخفى مكان إقامته عن الناس جميعا وفيهم أصدقاؤه .

لقد كشف — فيما يعتقد — جزءاً من الحقيقة ، أسره إلى صفحات كتابه الأول « العالم » La Monde ثم أحجم عن طبع الكتاب خوفا . فهو يعرض فى الكتاب تلك النظرية الثورية التى تقول بدوران الأرض . وإنه ليذكر ما نزل من اضطهاد بغيره من الفلاسفة والعلماء أمثال برونو Bruno وكمبانلا Campanella وفانينى Vanini وجاليليو Galiiio . . أولئك الرجال الذين أقدموا على إعلان آراء ثورية من هذا القبيل. وأرسل بمسودات الكتاب إلى جهة نائية فى الريف ليقى نفسه أن يغرى بنشره . ولم ينشر الكتاب إلا بعد وفاته ، وحتى فى ذلك الوقت لم ينشر إلا جزء منه ؛ ذلك أن الحقيقة التى سلكت ديكارت فى عداد الحكماء ، قد عجزت عن أن تسلكه فى عداد الأحرار .

— ٢ —

ورغم ما اتصف به من جبن وتهيب ، ناشئين فى غالب الظن مما لقيه من تذليل مسرف فى فجر حياته فقد كتب لديكارت أن يقلب الفكر العالمى رأسا على عقب ، فهو قد فطر على التشكك

ودرب على التدين ؛ ولذلك طلع على الناس بلون جديد من الفلسفة ، هو معبد لليقين قائم على دعائم الشك . وتيسيراً لفهم فلسفته المتناقضة ، نلقى نظرة سريعة على مبدأين خلقيين وضعهما ديكارت نصب عينيه ، وسار على هديهما فى حياته .

١ — « إنى أتبع أفكارى أينما قادتنى . . مثلى فى ذلك مثل المسافرين إذا ضلوا الطريق فى الغابة ، فهم يعلمون أن الخير فى مواصلة السير فى خط مستقيم ، متجهين وجهة واحدة ما أمكنهم ذلك ، لا ينحرفون يمنة ولا يسرة . . فإن أخطأهم أن يبلغوا المكان الذى ينشدون على التحديد . . فهم على الأقل بالغون مكاناً هم فيه أحسن حالا مما كانوا فى وسط الغابة » .

٢ — « إنى أطيع قوانين بلادى ، وأستمسك بدين آبائى وأستهدى بأحكم من اتصل بهم من الناس » .

وبين هذين المبدأين كما ترى شىء من التناقض . فالمرء قلما يسعه أن يتبع أفكاره أينما قادته ، إذا قرر سلفا أنها مؤدية به إلى طريق السلف دون سواه : ولكن ديكارت رغم هذا التناقض المعوق الذى بدأ به ، قد وفق إلى ابتكار مذهب فكرى سما بصاحبه ، وجعله يعرف « بأبى الفلسفة الحديثة » .

ذلك أن فلسفته كما يعرضها فى « حديث عن الطريقــــة » و « التأملات » تقوم على دعامة علمية (وقد أسماها ديكارت نفسه بالطريقة الرياضية مطبقة على الفلسفة) . وتبدأ بالفرض العلمى القائل بأننا يجب ألا نقبل شيئا ما على أنه حق ، وأن ندخل إلى مملكة الطبيعة وما وراء الطبيعة بعقل متشكك مرتاب، لا نصدق ولا نكذب بل نقف موقف الحياد ، نريد أن نشاهد ، فيؤدى بنا باب الشك إلى كنز السر المكنون . وماذا نراه فى هذا الكنز ؟

لا نرى فى أول الأمر شيئا غير الظلام ، فنحن أشبه بمن ضل طريقه فى الغابة . لكن علينا إلا نتردد . . بل نسير قدما فى خط مستقيم ... نشك ونفحص ونحقق ونبحث عن الحق

علينا قبل كل شىء أن نشك فى كل شىء . « ولما كنت قد أردت أن أهب » نفسى للبحث عن الحق ، فقد رأيت من واجبى أن أنكر أتم الإنكار أى شىء يمكننى أن أرى فيه أقل سبب للشك . وإذا كان يطوف بنا فى اليقظة أحيانا نفس ما يطوف بنا فى النوم من أفكار وتخيلات ، دون أن يكون أيها صحيحا فى الوقت ذاته ، فقد اعتزمت أن أفترض أن كل ما يفد على عقلى لا يعدو فى صحته أضغاث الأحلام .

ولكن هذه الأحلام نفسها تؤدى بديكارت إلى حقيقته الأولى ، لأن الحلم بحاجة إلى حالم . وكونى أفكر يكشف لى عن شىء يفكر فما هو هذا الشىء ؟ إنه أنا . . . إنى أفكر ، فأنا موجود . وارتيابى نفسه يثبت وجودى بوصفى مرتابا ، وإلا لما كان الإرتياب نفسه .

وهكذا يؤدى الشك إلى حقيقة واحدة . . هى أنى موجود . لكن من أنا ؟ وما أنا ؟ يجيب ديكارت عن هذا السؤال إجابة منطقية بسيطة . أنا ذلك الشىء الذى يشك ، أو بعبارة أخرى أنا شىء مفكر أو عقل . قد أشك فى أنى جسم ، أو فى وجود عالم مادى أعيش فيه ، ولكنى لا أستطيع الشك فى أنى أشك ، أو فى وجود تفكيرى ، « وأعلم من ثم أنى جوهر جماع طبيعته أن يفكر ، ولا يحتاج وجوده إلى مكان ما ، ولا يتوقف على أى شىء مادى لذا كانت « ذاتى » أى الروح التى جعلتنى من أنا ، هى شىء يتميز تماما من جسمى ، وإدراكها أكبر من إدراك ذلك الجسم ، ولن تكف الروح عن أن تكون ما هى ، حتى ولو لم يكن جسم » .

وهكذا يوفق ديكارت عن سبيل الشك البسيط فى كل

الأشياء ، إلى إثبات شىء واحد (فى اعتقاده على الأقل) هو وجود الروح .

ولنسترح قليلا لنلقف أنفاسنا . لقد هدانا ديكارت إلى حيث السر المكنون عن طريق باب الشك ؛ ولكنه باب يدور على نفسه ؛ فدار بنا دورة أصابتنا بدوار ، ولم تتح لنا غير نظرة سريعة مختلسة إلى طبيعتنا كما تبدو فى الزجاج الأسود الذى يغشى نظرته إلى ما وراء الطبيعة . ثم دفع بنا إلى الخارج فى سرعة لم تتح لنا الدخول .

وهذه طبيعة الميتافيزيقا ، أو دراسة « الحقائق الغائية » ، فهى محاولة لرسم صورة مادية لفكرة معنوية ، هى البحث فى الظلام بعين عشواء عن نبراس الحق . وفى ذلك يقول عمر الخيام « كان حجاب لا أرى ما بعده . . . . ودار لحظة حديث قصير عنى وعنك ثم لم يعد حديث عنى وعنك » .

والآن وقد أفقنا شيئاً من دوار جولتنا الميتافيزيقية الأولى ، نعود إلى ديكارت فى كلامه القصير على أنا وأنت . فهو يقول : « أنا شىء مفكر ، لكن كيما أفكر لا بد أنى موجود ، لذا فأنا كائن ، روح حى . وهذا أول شىء أستطيع أنا — وقد بدأت

شاكا - أن أدرك فى وضوح وجلاء أنه صواب . . . هذه إذن هى أولى الحقائق الثابتة . . . روحى الحى .

وهل من حقائق أخرى ثابتة . . . أعنى أشياء يسعنى إدراك صوابها فى وضوح وجلاء ؟ يجيب ديكارت أن نعم ، توجد حقيقتان من هذا النوع : وجود جسمى ، ووجود الله .

فجسمى كما أرى فى وضوح جوهر حى ، وهو جوهر مادى كما أن الروح جوهر مفكر . وإذن فالشيء المسمى « أنا يتكون من جزأين متميزين : الآلة التى تتحرك أو الجسم ، والعامل الذى يفكر أو الروح .

وتعرف فلسفة الآلة والعامل بالمذهب الثنائى ، أى المذهب الذى يقسم العالم وحدتين منفصلتين : الجسم والعقل . لذا فهو يصح أساساً للنظرتين الفلسفيتين المتعارضتين فى الزمن الحديث : المادية والمثالية . فالماديون من أمثال تومس هكسلى يعتقدون أن العقل جزء من الجسم ، وإذن فالعالم لا يعدو أن يكون ترساً فى الآلة : وفى هذا يقول هكسلى « إنى لأذهب مذهب ديكارت فى أن الجسم البشرى آلة ، شأنه فى ذلك شأن سائر الأجسام الحية ، وأن سائر عملياته (الجسمية والعقلية) ستفسر عاجلا أو آجلا على أسس آلية » ،

فليس للعالم روح إذن . أما المثاليون فيصرون على أن الجسم جزء من العقل . فيذكر بركلى مثلا وجود المادة ، ويؤكد « أن لا وجود لشيء ما خارج العقل ، الذى يدرك هـذا الشيء . . . . فأنا أقول بوجود النضد الذى أكتب عليه لأنى أراه وأحسه . . . . أما مايقال عن وجود الأشياء وجوداً مستقلا عن إدراكنا إياها ، فهذا مالا أعقله قط ، فإن وجودها نفسه يتوقف على أنها مدركة » . . . فلا جسم للعالم إذن .

مسكين ديكارت . . . إنه أبو المادية الحديثة الخشنة ، والمثالية الحديثة الوديعة . . إنه أبو عيسو ويعقوب .

ولنعد الآن إلى بحث ديكارت عن راحة الإيمان فى بيداء الشك ، لقد أثبت حقيقة عقله ووجود جسمه ، وأرضى نفسه بهذا الإثبات ثم تطرق من ذلك إلى إثبات وجود الله ؟ فيقول « إن كل ما أدركه فى وضوح وجلاء هو حق ، فإذا ذكرت ذلك ، وفكرت فى أنى يعرونى الشك ، أدركت أن وجودى ليس كاملا كل الكمال « لأنى أعرف فى وضوح وجلاء أن المعرفة أكمل كثيراً من الشك .
« ولكن كيف تأتى لى أن أفكر فى شيء أكمل منى ؟ تأتى لى طبعاً من طبيعة أكمل منى فعلا ، طبيعة تتصف بكل نواحى الكمال

التي يمكن أن تخطر على بالي ، وهي ، الله ، إذا أردنا الإيجاز . ولا يمكن أن يتصف الله بغير الكمال ، ولا يمكن أن يعتوره أي نقص ، فلا يمكن أن يتصف بالشك والاضطراب والحزن والغضب والبغض ، لأنها صفات لو خلا الإنسان منها لكان أسعد حالا . ومعنى ذلك أنها صفات « غير كاملة » ، وأنها من سمات الإنسانية لا الألوهية . فالله كامل ، أي أنه خالد لا نهائي ، بصير بكل شيء ، لا حد لقوته ، قادر على كل شيء ، قدسي . ويؤكد ديكارت أن وجود الإله الكامل يبلغ من اليقين ما تبلغ بدهيات الهندسة . . . أو يزيد . فالله هو الكمال الذي يهدي خطانا المتعثرة ، فتتجه اتجاهاً غريزياً نحو النور .

ذلك إذن هو تصوير ديكارت للانسانية . . . . جسم آلي من داخله روح حية ، ومن فوقه روح الله تمسكه وتهديه .

- ٣ -

لقد كان من السهل نسبياً على ديكارت أن يتجه صوب النور عن طريق التأمل الهادىء ، لأنه نجا من حُمى التنافس الاقتصادي من أجل الحياة فقد ورث عن أبيه دخلا يكفل له حياة طيبة . . .

إن لم نقل مترفة . . . وهو لم يتزوج قط . . . فكان نسيم حياته يسرى رخاء ، لا يتخلله إعصار ، فهو يصيب من الطعام أجوده، ومن النوم أشهاه ، وهو لا يصحو من نومـــه إلا إذا ارتفع الضحى . . . ويعيش عيشة رغدا . . . وهو يرحل إلى الخارج بين الحين والحين . ولـكنه يقضى جل وقته فى منزله ، ويتحدث إلى أصدقائه بالبريد ، فينبئهم نبأ ما كشف من الفلسفة ، وما يستشعر من المتعة فى وحدته بمنزله ، وما قدر له من طالع سعيد إذ نجا من تلك الأمراض المختلفة التى « تصيب معظم بنى الإنسان » . إنه يزدرى بيجراند وبتى وروبرثو وكاباقلا وجاليليو وغيرهم من فلاسفة ذلك العصر وعلمائه الذين « يخالفون رأيه » . فهو يدعوهم فى كتاباته « تلك الـكلاب النابحة الصغيرة ، التى لا تستحق التفاتاً من أحد » . والظاهر أن ديكارت كان يؤمن باستباحة كل سلاح فى « حب » الإفحام ، و « حرب » الأفهام .

وهكذا قضى أيامه المسترخية المتأملة . . . . التى يغشاها مع ذلك شىء من الشراسـة ، باحثاً عن الحقيقة ، «محباً للحياة . . . . وإن لم يرهب الموت » على حد تعبيره . فهو يرى نفسه الآن وهو فى الرابعة

والأربعين قد صار أبعد عن الموت مما كان فى شبابه . كتب إلى بعض أصدقائه يقول « إن صحته وأسنانه فى خير حال ، وإنه طوال هذه الثلاثين عاماً لم يشعر بأى مرض بمعنى الـكلمة » .

ثم كانت أول صدمة حقة أصابته فى حياته . فقد غدا أباً غير شرعى لطفلة تدعى فرنسين . . . كان كلفه بها لا يعدله كلفة بأى شىء فى الحياة . وكان يدبر الأمر ليرحل بها إلى فرنسا ، لتنشأ الطفلة نشأة مهذبة راقية ، وإذا القضاء يعصف بها فجأة . وكان ديكارت يستطيع فى مشهد الموت أن يضيف دليلا جديداً على حقيقة وجوده فيقول : « أنا أتألم ، وإذن فأنا موجود » ويقول بابيه Baillet وهو من كتاب سيرته أنه بكى طفلته بكاء رقيقاً حنوناً ... فكان ذلك آية على أن فـكرة الخلود يمكن أن تختفى أحياناً وراء حزن اللحظة .

ولا يمضى حزنه الوقتى حتى يعود إلى قلعته الفـكرية . ويشترى مزرعة جميلة فى الريف غير بعيد من ليدن ، لا يفصلها عن البحر إلا مسيرة ساعتين . وهنا كان يقوم على خدمته عدد وافر من خدم مختارين . وكان يجلس فى حجرة الدرس ذات الأضلاع

الثمانية ، مطلا على حديقة شعرية قديمة ، يحلم أحلامــه المتدينة المتشككة . إنه فيلسوف لبيب ضئيل ، صغر جسما ، وكبر رأساً ، شعره أسود ، يكاد يصل إلى حاجبيه ، ولونه شاحب ، له فى الشفة العليا ثؤلولة ، والشفة السفلى مطوطة شيئاً لفساد نظام الأسنان، لحيته سمراء داكنة مقصوصة على النمط الفرنسى . وله لفاعة حريرية سوداء يلف بها عنقه ليتقى بها البرد ومعطف أسود وسروالان قصيران وجوربان من الحـــــــرير الأسود . . . إنه لتمثال صغير ميتافيزيقى . . . ترتسم ابتسامة غامضة على شفتيه ، ويبدو نور مبهم فى عينيه . وكان إذا خـــرج ، اتخذ شعراً مستـــعاراً ، وشد جورباً صوفياً فوق الجورب العادى ، لأنه كان يخشى « أن يتفاقم الضعف الموروث فى صدره » إذا حدث أيسر تغير فى درجة الحرارة .

وخوفاً من تفاقم هــذا الضعف الرئوى ، جعل يزداد اعتكافاً فى منزله كلما عات به السن . لذا كانت عواطفه موزعة متباينة حين تسلم كتاباً من كرستينا ملــكة السويد ، تدعوه فيه إلى أن يحضر إلى بلادها ليدرس لها الفلسفة . وإن رد السويد لأشد بمراحل

من يرد هولندا، وقد يكون شديد الخطر على صحته؛ ولكن مَنذا الذى يستهين بأن ترعاه ملكة . . . مهما يكن فيلسوفاً ؟ وكانت الملكة كرستينا تعرف من أين تؤكل الكتف . فقد فقدت أباها جوستاف أدولف وهى فى السادسة ، وتعلمت كما يتعلم الرجال ، لأن جوستاف قال حين حضرته الوفاة إنه يؤثر أن تحكم بلاده ملكة كالرجال على أن يحكمها رجل كالنساء . وكانت ابنته فى الواقع ملكة كالرجال فى كل جزء من قامتها المليئة التى تبلغ خمس أقدام . فهى تزدرى الافتنان النسوى فى المقصورات ، كما تزدرى أناقة الزى. وكان شعرها أشعث لا يزينه تاج ، وترتدى تنورة قصيرة، ومجولاً قصيراً، وحذاء مفلطحاً منخفض الكعب. هذا ملبسها داخل القصر. أما خلقها فقد كان صارماً كالفولاذ، وأما جسمها فكان قوياً كخلقها. . وكانت تأكل قليلا وتنام قليلا وتتدرب كما يتدرب الجندى استعداداً للمعركة . وكانت تستطيع أن تركض بالحصان عشر ساعات دون أن يدركها التعب ، وتستطيع احتمال الحر والبرد على السواء دون ضجر ، وكانت لا تخطىء الرمية ، راجلة كانت أو راكبة .

وهى إلى جرأتها البدنية ، صاحبة عقل نادر فى تنوع مواهبه. فهى فى اللغة من الثقات ، تستطيع أن تتحدث فى طلاقـة

بالسويدية والإيطالية والأسبانية والألمانية . دعك من اللاتينية والإغريقية . وكان إلمامها بالعلم الطبيعى لا بأس به . وكانت صادقة الحب للفلسفة . وهذا المزاج الفريد من الدم والعضل والعقل ، تحكم وثاقه إرادة جبارة لا تقهر . وقد اعتذر ديكارت عن دعوتها مرات ، وكتب إليها رسائل من المديح المسرف ، يؤكد لها « أن جلالتها قد صيغت فى صورة الله على نحو لم يبلغه أحد فى العالمين » ، ولكنه يرجو أن تعفيه الملكة من «الاستمتاع باجتلاء شمس طلعتها» ، ويؤكد لها أن شرف استدعاء الملكة إياه يغلب النفس على أمرها. ولكنى. « بعد أن اعتزلت العالم عشرين عاماً ، وبعد أن تقدمت فى السن ، أضرع إلى صاحبة الجلالة أن تعفينى من سفر يكلفنى عناء لا داعى له » .

ولكن جلالتها لا تنوى إعفاءه منه . لقد قررت إحضار الفيلسوف الشهير إلى « أرض الدببة بين الجليد والصخور » . وكان لها ما أرادت ، فرحل ديكارت إلى السويد فى شهر سبتمبر من عام ١٦٤٩ .

ورحل عن الدنيا . فقد كان عليه حين بلغ استوكهلم أن يحتمل — إلى برد السويد — عناد الملكة كرستينا وصلابتها . .

فهى تعتقد أن عقلها يكون أشد تقبلا للفلسفة ساعات الصباح الباكر ، فأصرت على أن يحضر إلى القصر قبل مشرق الشمس من كل يوم . وهذه اليقظة الباكرة فى الشتاء وسط صقيع الشمال كانت فوق ما يحتمله فيلسوف أخذ نفسه بترف التأمل الطويل صباحاً فى فراشه الدفىء . فإنه ليقول فى شكواه « فى هذه البلاد يتجمد دم الإنسان كما يتجمد ماء الأنهار سواء بسواء » .

ولم يقو على احتمال هذا اللون من الحياة غير بضعة أسابيع . وحدث ذات صباح فى منتصف الشتاء أن كان ديكارت فى طريقه إلى القصر ، فأصابته قشعريرة عنيفة ، ولم يمض إلا يومان حتى تمكن منه التهاب رئوى ، فأرسلت إليه الملكة طبيباً ألمانياً ، ولكن ديكارت لا يثق به ، فإذا عرض عليه الطبيب أن ينزف منه بعض الدم ، اعترض ديكارت قائلا . . . « لن تريق قطرة واحدة من الدم الفرنسى ! » . ولا يخضع لنزف دمه فى النهاية إلا بعد فوات الأمل .

نحن فى الحادى عشر من فبراير عام ١٦٥٠ ، وهذا ديكارت يفتح عينيه ، ويلقى بهذا السؤال فى همس لا يكاد يسمع : « ما الساعة الآن » .

ـ « إنها الرابعة صباحاً » .

ثم يجاهد نفسه ليستوى على قدميه . فهذا أوان اليقظة ، والملكة تنتظر ، ثم يقول لنفسه همساً وقد ارتمى على سريره : « لقد آن وقت انطلاق الروح » ، لقد كان يقول « أنا روح حى يبحث عن الحق » وها هو هذا ينطلق ليلقى الحق وجهاً لوجه .

باروخ اسبينوزا

١٦٣٢—١٦٧٧

- ١ -

كان مصير اسپينوزا فذاً فى تاريخ الفلسفة : فقد أنبتّ عن اليهود لأنه من العقليين ، وأنبتّ عن العالم لأنه من اليهود . ولم يشهد التاريخ إنساناً عاش فى مثل عزلته ووحدته . على أن هـذه العزلة كان لا بد منها لإقامة صرح فلسفته الفذة .

كان أبوه من التجار الناجحين ، يرجو لابنه أن يكون رجلا ناجحاً من رجال الدين ، ولـكن باروخ ـ وهو اسم عبرى معناه المبارك ـ كان أشد كلفاً بالحقيقة منه بالنجاح . وأدى به بحثه عن الحق إلى مسالك وعرة ، تبعد عن الدين ، وتبعد غاية البعد عن عالم المال والعقائد . لقد وقف فى طفولته أمام قبر أريل أكستا ، ذلك اليهودى المتشكك الذى نبذه بنو جلدته علناً لأنه ألحد ، فوضع لحياته حداً ، متأثراً بما لحقه من خزى أمام الملأ . فيخلف ذلك

المشهد فى نفس اسپينوزا أعمق الأثر . . . فيتساءل ماذا يفرق الناس شيعاً فى الفكر ، فيصب بعضهم العذاب على بعض من أثر هذه الفرقة ؟ وفى هذا اليوم بالذات كرّس الصبى اليهودى نفسه لحياة البحث ، دون أن يدرى معنى ذلك حق الدراية .

فلما كبر توفر على دراسة التوراة والتلمود وشعر القدامى وعلم المحدثين . وتوفر بنوع خاص على تعمق ما ساد عصره من الآراء الفلسفية العظيمة . فسلط ضوء عقله الناقد المحلل على الميتافيزيقا الخلقية التى شاهدها الفلاسفة اليهود من أمثال فيلو وابن ميمون، ليفى بن جرسون وابن جبرول وحسداى . وسلطه كذلك على الأخلاق الميتافيزيقية للفلاسفة من غير اليهود ، كأفلاطون وأرسطو وأبيقور وچيوردانو برونو وديكارت : وشاء أن يوسع آفاق بحثه فى فلسفة غير اليهود فدرس اللاتينية على الأستاذ الهولندى فان دن إندى ، وهو فقيه لغوى لامع ، وهو متشكك ثائر ، احفظ قلب لويس الرابع عشر بعد بضع سنوات من ذلك الوقت ، ونال شرف الشنق علناً .

وكان للأستاذ « فان دن إندى » ابنة تعاونه فى التعليم . . . علّمت اسپينوزا الحب كما علمته اللغة اللاتينية . ونسى الرجل

وقتاً ماأنه فقير ، وأنه يهودى ، وطلب يدها ، ولـكنهـــا أذكرته بمــا نسى ، ومنحت يدها تلميذاً آخر من تلاميذه هو كركرنج وهو يفضل اسپينوزا من وجهين : أنه غير يهودى ، وأنه غنى .

وكان اسپينوزا قد تحول وقتئذ من عاشق إلى فيلسوف .

وترامت فى هـذه الأثناء أنباء زيغه إلى أحبار الـكنيسة اليهودية ، فدعوه لسؤاله . فلما تأكدت شكوكهم فى أنه صاحب آراء خطرة ، عرضوا عليه (٥٠٠) دولار فى العام ، مقابل سكوته عن إذاعة آرائه ، والتمسك الظاهر بعقيدتهم الدينية ، فرفض العرض . وفى ٢٧ يونية سنة ١٦٥٦ تقرر طرده من رحمة الديانة اليهودية . ومنذ ذلك اليوم ، صار هذا الإنسان المصاب « بالجذام الخلقى » ـــ كما حكم الملائـكة وقرر القديسون ـــ محروما لعيناً بغيضا طريدا من طوائف بنى إسرائيل » . « لا يسمح لأحد أن يكلمه ، أو يقدم له يداً ، أو يحيا معه تحت سقف واحد ، أو يقرأ شيئا كتبه أو أملاه » .

ومهما يكن من قسوة هذا الحرمان ، فإن أحبار اليهود لم يخالجهم شك فى أنهم على حق فيما أتوا معه من الأمر . ذلك بأن

اليهود المضطهدين فى كل مكان ، قد وجدوا ملاذهم الوحيد فى عقيدتهم . فكل من يقدم على مهاجمة هذا الحصن من اليهود فهو عندهم خائن لطائفته ، ولكن اسپينوزا يشعر بأنه يخون الحقيقة لو أنه أمسك عن مهاجمة عقائد اليهود . فكان على طائفة اسپينوزا إذن أن تقصيه عن الحياة اليومية إلى مملكة الفلسفة المنعزلة . وكانت سن اسبينوزا قد بلغت حينذاك أربعة وعشرين عاما .

— ٢ —

وكان من أثر قرار الحرمان أن تبرأ منه أبوه . ولمامات الأب بعد ذلك ، أرادت أخته أن تحرمه حقه فى تراث أبيه ، ودافع اسبينوزا عن حقه أمام القضاء ، وحكم له ، ثم نزل عن ميراثه لأخته . فهو لا يبغى المال ، وإنما إقرار العدل . فما أتفه صالحه الشخصى فى مسرحية الحياة ، التى يحاول الظهور على غوامضها .

وسعياً لتحقيق هذه الغاية آوى إلى حجرة علوية فى « أوتردك » من ضواحى أمستردام . وتسمّى بندكت — وهو الترجمة اللاتينية لكلمة « المبارك » — بدل باروخ . واحترف صقل العدسات ليصيب عيشه ، واشتغل بالفلسفة ، وجعل منها رسالة حياته . وكان هذا يتفق مع تقاليد أسلافه . فالمعلمون العبرانيون الأوائل كانوا

يؤثرون أن يتعلم المرء حرفة يدوية من حيث هى ضرورة من ضروريات التوفر على حياة العلم . فعندهم أن العلم أسمى من أن يُتكسب به . وكانوا يقولون : « اشغل يديك ببضاعة الأرض ، ورأسك ببضاعة السماء » . وكان كهؤلاء المدرسين القدامى يذهب مذهب علية القوم فى الإيمان بهواية الرياضة ... ولكن هوايته كانت رياضة العقل لا رياضة العضل .

لذلك عاش فى حجرته فى أعلى المنزل ، يصقل العدسات ، ويهب فراغه للتفكير ، ويكتب عن سر الله ومعنى الحياة . ولما بلغ الثامنة والعشرين انتقل إلى رينسبرج (١) القريبة من ليون . واعتكف فيها ، كأنه دودة القز فى الشرنقة . فهو قلما يخرج لغير النزهة أو شراء طعامه البسيط من اللبن والدقيق ، وحفنة من الزبيب يتناولها بين الحين والحين . وكان يلى استمتاعه بمحادثة مساكينه متعته بملاحظة ألعاب العنكبوت ، فيرقبها كما يرقب الملائكة ألعاب البشر . إن مشاهد حرب العنكبوت لتقفز بالدمع إلى عينيه من إسرافه فى الضحك . وهو لا يقترب من الغضب إلا حين تنظف صاحبة المنزل جدران حجرته من نسيج العنكبوت.

وإنه لينسج خيوط فلسفته ، وهو جالس لشهود نسيج

---

(١) Rhyns urg

العنكبوت . وأول تواليفه كتاب في اللاهوت هو « رسالة في الدين » ، انتقد فيه التفسير المألوف للكتاب المقدس ، ثم رفض الإيمان بالإله كما يصفه العهد القديم ، وآمن بإله أوسع رحمة في عهد جديد من لدنه . والعهد الجديد لأسپينوزا هو كتابه الشهير في الأخلاق ، وهو من أغرب ما خطت يد إنسان من الكتب : فهو لاتيني في لغته ، هندسي في نظامه ، إغريقي في مثاليته ، إيطالي في مادته (فهو يقوم على وحدة الوجود التي يقول بها چيوردانو برونو) فرنسي في أساسه (فهو يرتكز على نظرية ديكارت الآلية) ، عبراني في عقيدته (فهو يقول : إن عقيدتي في أساسها هي نفس عقيدة الأنبياء العبرانيين الأوائل) .. فهل شهد العالم إنساناً بلغ في عالميته هذا الحد ؟

فلنجل قليلا في تلك العقيدة العالمية التي تهيأت للفيلسوف النشوان بخمر الله .

— ٣ —

فأسپينوزا كان مهتما أشد الاهتمام بمسائل ثلاث ، هي التي تهمنا جميعاً :

١ — ما نوع العالم الذي نعيش فيه ؟

٢ — من أوجدنا هنا ؟

٣ — ولماذا وجدنا !

وتلمساً للاجابة عن هذه الأسئلة أخذ يختبر : (١) بناء العالم (٢) طبيعية الله (٣) حياة الإنسان .

فيلاحظ اسپينوزا أن العالم لانهائى ... ليس له بدء فى المكان . فلو فرضنا جدلا أن للعالم بداية ، وتخيلنا أننا نحن فى هذه البداية ، ونظرنا إلى ما وراءها ، فماذا كنا نرى ؟ لا شىء ؟ ولكن اللاشىء لا يستطاع تخيله . فلا بد إذن من شىء وراء بدايتنا المتخيلة . . . مساحة لا نهائية من العالم تتجاوز أبعد ما يتخيله الفكر البشرى من آفاق . وبمثل هذه الطريقة — كما يقول اسپينوزا — نستطيع إثبات أن العالم ليس له نهاية فى المكان .

والعالم إلى ذلك خالد ، لا بداية له ولا نهاية فى الزمان ، لأن اللاشيئية لا تعقل فى الزمان ، كما لا تعقل فى المكان . إن للأشياء الفردية فى العالم حدودها المادية ، ونموها وانقراضها ، وبدايتها ونهايتها ولكن العالم نفسه شامل خالد كامل .

وليست الأرض والكواكب وكل المجموعة السابحة من الشموس والنجوم . . . . إلا بضع ذرات رملية تجمعت فى ركن

صغير مغمور من هذا العالم الخالد اللانهائى . وما نسميه عالمنا لا يعدو أن يكون ذرة مجهرية فى الكون اللانهائى بأسره . وعدد العوالم التى يشملها هذا الكون الفسيح المترامى الذى ندعوه الكل ، لانهائى . . . كلانهائية العالم فى المكان والزمان .

ولانهائية العالم وخلوده ـ أى كليته أو كماله ـ هى ما يطلق عليها اسپينوزا « جوهر العالم » ، وهو يعنى بالجوهر الروح ، الكيان ، الوجود . فالعالم موجود إلى الأبد . وهـذا القول ينسحب على الماضى والحاضر والمستقبل . لم يحدث أن بدأ خلق العالم ، ولن يحدث أن ينتهى ، وإنما هو موجود . . . فى بساطة وعمق وأبدية.

حسبنا هذا عن بناء العالم ، ولننتقل بعدئذ إلى السؤال الثانى : من أوجدنا هنا ؟ وجوابه : الله . ومن هو الله ؟ يجيب اسبينوزا عن هذا السؤال جواباً فريداً ، يبدو عجيباً لأول وهلة . فهو يؤكد أن الله هو العالم . إنه كامل خالد على الزمان ، وفى كل مكان . هو موجود ، وكل شىء فى العالم إن هو إلا فكرة وقتية أو موقف عارض من مواقف الله . وكل منا جزء محدود من أجزائه ، هو خلية فى جسمه ، وفكرة فى عقله ، ومقطع فى ملحمة الحياة . ولـكننا

بحواسنا الخمس الضئيلة ، وذكائنا المحدود ، لا يسعنا أن نفهم غير جزء صغير من هــذه الحقيقة . مثلنا مثل من ينظر إلى البحر والسماء من خلال كوة ضيقة من جدار السجن . فنحن فى أسر الجسم لا نحظى ببصر كاف . وكما أن الأعشى لا يستبين إلا بعض الألوان القاتمة ، كذلك لا ترى حواسنا العشواء العدد الـكبير من صفات الله . فالدودة الزاحفة على الأرض لا يسعها أن ترى غير جزء صغير من العالم الفسيح الذى هى جزء من أجزائه . ونحن لا نجاوز منزلة الدود الزاحف حين نحاول فهم الله ، الذى نحن جزء منه ، وليس لدى أعظم الفلاسفة غير فـكرة فجة ضئيلة عن طبيعة الله الحقة . . . أى صفاته الحقة .

على أن هــذه الفـكرة الفجة ذاتها ـ كما يقول اسبينوزا — تلهمنا أن الله فى كل شىء ، وأن كل شىء فى الله . إنه العقل الذى يهدى العالم ، والعالم الذى يهديه ذلك العقل . إنه الفنان الخالد الذى ينسج « على دولاب الزمن الصاخب » رداء من الـكواكب نراه عن طريقه . فالعالم المرئى هو جسم الله ، والطاقة التى تحرك العالم هى عقله . وفى هذا يختلف اسبينوزا عن ديكارت . فالفيلسوف الفرنسى يرى أن الحياة تتكون من وحدات ثلاث : جسم آلى

وعقل مفكر وروح الله من فوقهما . أما اسپينوزا فيجمع الوحدات الثلاث فى واحدة : فالله ليس فوقنا بل هو فى داخلنا . والجسم والعقل والروح إن هى إلا مظاهر ثلاثة لحقيقة واحدة : العالم المرئى وهو جسم الله ، والفكرة التى تتأمله وهى عقله ، والطاقة التى تحركه وهى روحه . ومعنى هذا بعبارة أخرى أن الله مادة العالم اللانهائية ، وفكرته اللانهائية ، وحركته اللانهائية ، إنه العالم . فكل عود من العشب ، وكل قطعة من الطين ، وكل زهرة تتفتح ، وكل كائن يحيا مهما يصغر شأنه . . . . كلها تشترك سواسية فى روحه القدسية . . . . . فأروع أبراج السماء ، وأهون متسول فى الأرض . . . . لفظان فى ملحمة الحياة ، يتساويان فى الأهمية .

فكل جسم بشرى إذن هو جزء من جسم الله ، وكل فكرة بشرية جزء من عقل الله . ولكن علينا ألا نخلط بين ذكائنا المحدود ، وذكاء الله غير المحدود . فالعالم لا يُحكم وفق رغباتنا الفردية ، بل وفق مشيئة الله التى شملت كل شىء ، ووسعت كل شىء علماً . والقصة التى تدور تمثيلية الحياة وفق حوادثها ، أسمى مما يبلغه إدراكنا . فليس لنا نحن أن نصدر حكمنا عليها ، لأنها

لم تؤلف لتحقيق منافع لنا . وإن اعتقادنا أن العالم قد خلق لإمتاعنا ليستوى فى سخفه بالاعتقاد بأن الأيدى والأرجل إنما خلقت للبعوض ليلدغها ، أو أن الأنف قد خلق للإنسان ليرتكز عليه منظاره . فالفرد والجنس البشرى ليسا إلا جزءاً ضئيلا من خطة الله اللانهائية ، ولا تعدو الأرض كلها أن تكون خلية مجهرية فى جسمه .

ولكن علينا إذا تحدثنا عن الله أن نحذر عن أن نضيف إليه شكلا إنسانياً أو عواطف إنسانية . فليس الله شيخاً متقلب الرأى ، طويل اللحية ، يجلس فى السماء ، ويتأثر بضراعتنا فيعيننا ، أو ضراعات عدونا فيؤذينا . فهو لا يعنيه ما يبدو لنا ـ أفراداً ـ أنه خير أو شر ، لأن عقلنا وإن كان جزءاً من عقل الله ، جزء متناه فى الصغر . ولكل شىء نصيب فى ذكاء الله لامراء وإنما تتفاوت الأنسبة من هذا الذكاء . فعقل الشجرة مثلا لا يكاد يشبه عقل الكلب فى شىء . وعقل الكلب لا يكاد يشبه عقل الإنسان العادى فى شىء ، وعقل الإنسان العادى لا يكاد يشبه فى شىء عقل سقراط أو شيكسبير أو ديكارت . ولكن عقل ديكارت إذا قورن بعقل الله ، كان كعقل الشجرة إذا قورن بعقل

ديكارت . ولعل اسپينوزا كان يتفق مع إمرسن فى قوله حين يطل من علاه على حقد البشر وغضبهم وطموحهم : « فيم هذه الحرارة أيها الصغار ؟ » .

ومع ذلك فإن قدارنا أقل مما نظن — وهذه ناحية التفاؤل فى فلسفة اسپينوزا . فكل منا ، وأن يكن جزءاً صغيراً من الله ، جزء يعدل سواه أهمية . فمقامنا على الأرض كما أشار (والت وتيمان) أحد تلاميذ اسپينوزا ، إنما هو مرحلة من مراحل تقدمنا النهائى . فأنت وأنا والفلاح خلف محراثه ، والفنان أمام لوحته ، والشاعر خلف مكتبه والمتشرد فى حمأته . . . . كلنا أسرة يجمعها نسب ، وتضمنا مدرسة ، هى مدرسة الخلود . لقد شاءت الصدف المحضة أن تتفاوت أقدارنا بتفاوت حالتنا العقلية أو الروحية فى هذه اللحظة الخاصة ، ولكننا سنبلغ معاً آخر الأمر — مهما تكن درجتنا ومركزنا فى هذه اللحظة — سنبلغ مكاناً علياً ، مكان المصطفين الأبرار. وهذا الرأى من آراء اسپينوزا ، كما يفسره شعر (والت وتيمان) ، هو صميم الروح الديمقراطى.

ولنضرب مثلا آخر إيضاحاً لرأى اسپينوزا فى الدور الذى يؤديه كل منا فى نظام الحياة للقدس ، فنشبه العالم بالسمفونية . . . .

كل منا نغم فيهـا ، إن يؤخذ وحـده فهو لا شيء ، ولـكنه فى بناء السمفونية كل شيء. وحتى من تدعوهم بالفاشلين فى الحياة لهم أهمية فى بناء الحياة مجتمعاً . ولنعد إلى التشبيه بالسمفونية فنلاحظ أن الملحن يضع نغمة ثم يستبعدهـا ليستبدل بهـا نغمة أكثر انسجاماً مع تلك المقطوعة الخاصة ، وأن هذه النغمة التى أثبتت ثم نحيت كانت ضرورية وهامة فى نماء فـكرة الملحن . وهو يجوّد سمفونيته .

ولنضرب النقش مثلا آخر . فـكل ما خطته الفرشاة قد أدى دوره فى نماء فـكرة الفنان ، سواء بقى أو محى ، فـكل ما خرج إلى الوجود من رسم أو تلوين لم يذهب عبثاً .

كذلك لم تذهب بدداً حياة أى إنسان مهما تقصر وتشق ،فـكل منا خيط أساسى فى بساط الحياة اللانهائى ، ونغمة هامة فى سمفونية الله وخط موفق جرت به الريشة فى لوحة الله . . . وقصارى القول أنه جزء من الله عزيز أثير .

الله إذن هو العالم . وجسمه النجوم والـكواكب والأشجار والأزهار والمحيطات والجبال والسحب . وعقله الروح التى تشكلها وتلونها وتحركها وتجملها ، وكل جسم بشرى جزء من جسم الله ،

وكل عقل بشرى جزء من عقل الله . وتعرف هذه العقيدة الفلسفية بوحدة الوجود .

وهكذا أنبأنا اسپينوزا نبأ العالم الذى نعيش فيه ، ومن أوجدنا به . وبقى السؤال الثالث : لماذا أوجدنا الله فى العالم ؟ وجواب ذلك عند اسپينوزا أنه أوجدنا فيه لنسعد .

ولكن ما السعادة ؟ هى توافر المسرة وانتفاء الألم . فواجبنا فى الحياة أن نلتمس المسرة ، ونجتنب الألم · وينصحنا اسپينوزا — إذا أردنا تحقيق هذه الغاية — أن نحاول فهم قصورنا ، فنحن تروس فى آلة الكون ، والإرادة التى تحرك هذه الآلة هى عقل الله اللانهائى الخالد ، وعقل الله هو قانون الطبيعة . فالضوء يسرى من نجم إلى نجم ، ويسلك المرء طريق الشعور بين نوم ونوم ، لأن كليهما يتبع إرادة الله . . . أى الطريق الضرورى للنور والحياة . . . وإرادتنا البشرية تتبع أيضاً قانون الضرورة . . وليس من شىء يقال له الإرادة الحرة .

فقد خلقتنا الظروف ، وأثمرتنا البيئة : يقول اسپينوزا « ليس فى العقل إرادة حرة أو مطلقة ، وإنما يجبر العقلَ على أن يريد ذلك الشىء أو ذاك سبب من الأسباب ، يفرضه سبب آخر . . وهكذا

إلى ما لا نهاية » ، ومعنى هذا بعبارة أخرى أن مثل أعمالنا جميعاً كمثل ملامح وجوهنا وعضلات أجسامنا سواء بسواء . . . كلها تقوم على قوى طبيعية ظلت تعمل منذ حقب لا يحيط بها الخيال ، فقد رسمت القوانين الطبيعية الثابتة من زمن لا تعيه الذاكرة أن يولد إنسان يدعى شيكسبير ينشىء مسرحيات رائعة ، وأن يقوم فى الناس سقراط يموت من أجل جنسه . إن أعمالنا ليست أكثر حرية ، ولا أوصل بالإرادة من سقوط المطر من السماء ، أو مروق السهم من القوس . . . . وليس من فرق بين مروق السهم وعمل الإنسان غير أن الإنسان يشعر بما يعمل ، ويخدع عن نفسه فيحسب الشعور إرادة .

فنحن نشعر بما نفعل ، ولكن ليس لدينا حرية أو قوة تكفل لنا أن نفعل غير ما فعلنا ، فنحن مشدودون إلى أقدارنا . وإنما يسمح لنا بأن نشهد فى شغف تلك المسرحية الصغيرة ، مسرحية حياتنا . ولكن لا يد لنا فى توجيهها . فنحن نستطيع شهود أدوارنا ، ولكننا نخطىء إذا حسبنا أن لنا يداً فيما نريد . فليس ما نقرره أثراً من آثار حياتنا الماضية وحدها ، بل هو أيضاً من آثار الحياة الماضية لكل أسلافنا .

فلندرك إذن قصورنا ، ولندرك أننا لسنا كائنات حرة ، بل نحن تروس فى آلة مقدسة . . . تفكر وتعمل وفق قوانين الطبيعة الخالدة . إذا فهمنا ذلك ، كانت لنا عودة إلى الهدف الذى نعيش من أجله ، إن هدفنا ـ كما رأينا ـ أن نكون سعداء ، أن نبحث عن المسرة وأن نجتنب الألم ، فلينصرف جل اهتمامنا فى الحياة إلى حب أنفسنا . ويقول اسبينوزا فى هذا المعنى : « على كل إنسان أن يحب نفسه ، وأن ينشد ما يعود عليه بالنفع » .

ويبدو هذا للنظرة الأولى تناهياً فى الأثرة ، ولكن اسبينوزا يثبت أنه تناه فى الإيثار ، فلكى تحب نفسك ـ كما يقول ـ يجب أن تحب غيرك ، فالحب والمسرة والسعادة . . . . هذه الكنوز الروحية تعود بأوفر متعة كلما شورك فيها مشاركة كريمة متناهية فى الكرم . ولقد عرضت لنا نظرية الأثرة المستنيرة فى فلسفة أرسطو ، ويتوسع اسبينوزا فى هذه النظرية ، ويطبقها على الحياة الحديثة ، فيعلن أن الرجل الحكيم يدرك أنه لا يستطيع معونة نفسه إلا بمعونة غيره . فهو يدرك أن سعادة الفرد هى السعادة المتبادلة ، فهو يتجنب الحسد لأن الحسد يورث الألم ولا يورث السعادة ، ويجتنب الكراهية لأنها تورث الكراهية ، ويتفادى إيذاء غيره

علماً منه أن جزاء السيئة سيئة مثلها . وصاحب العنف والسيف سيصرعه السيف والعنف ، وهو يجتنب الغزو الحربى لأنه يعلم أن كل نصر حربى بذرة حرب انتقامية فى المستقبل ، « وأعظم انتصاراتنا — فيما يقول اسپينوزا — إنما تنال بعظمة الروح ولا تحرز بالسلاح » .

فالرجل الخير حقاً ، أى الرجل السعيد حقاً ، هو الرجل الحكيم حقاً ، إنه كريم سمح مع غيره ، لعلمه أن فى ذلك غاية الكرم مع نفسه ، فهدفنا النهائى فى الحياة إذن هو أن ننشد السعادة عن طريق المعرفة ، عن طريق كسب الحكمة ، وفهم العلاقة بين الإنسان والإنسان فهماً مستنيراً ، واللبيب من لا يكره شيئاً ، ولا يزدرى شيئاً ، ولا يؤذى شيئاً ، ولا يخشى شيئاً ، ليست حياته طموحاً فردياً ، بل تعاوناً متبادلا . وهو يعض بالنواجذ على تعاليم الأنبياء القدامى ومبدأ القاعدة الذهبية ، وهو لا يحب لنفسه إلا ما يحب للبشر كافة .

وإذا كان كل الناس أجزاء من الله تتساوى فى الأهمية، كان عليك

إن شئت السعادة أن تحب نفسك . ولـكن حبك نفسك حب لبنى الإنسان ، هو حب الله ، وهذه هى الغاية التى من أجلها أتينا إلى العالم .

- ٤ -

ويعلن اسپينوزا أن الحب هو ما يحول حياتنا الموقوتة إلى نشوة خالدة . إنه العاطفة العليا التى تضفى على وجودنا معنى خاصاً . وإذا وجد الحب ، اختفى ألم الموت ، لأن من أحب بنى جنسه نجا من خوف الموت « فالموت ليس إلا حدثاً يسيراً ، ولحظة انتقال » أو جسراً بين الحياة الفانية والحياة الخالدة ، فالجسم فان ولـكن الروح باقية أبداً ، لأن روح الإنسان جزء من روح الله ، وكل حياة إنسانية أشبه بانعكاس الشمس فى بركة ماء . إذا غاض الماء فإنك لا ترى ضوء الشمس منعـكساً فيه ولـكن الشمس لم تنعدم ، فهى لا تنفك تتلألأ بكل روعتها فى السماء . وعلى هذا النحو يموت جسم الفرد ، وتخلد الروح العالمية « فالروح البشرية ـ كما قال ـ لا تفنى بفناء الجسم ، بل يبقى منها شىء خالد » .

وما هـذا الشىء الخالد ؟ إنه الروح الإلهية التى تقطن الجسم

وليست منه . إنه الفكرة المرئية للمحمة الله المقدسة مطبوعة على صفحة الزمن . . . كما تطبع فكرة مرئية لهومر على صفحة كتاب . فإذا ألقى بالكتاب وبليت الصفحة ، لم تفن القصيدة ، بل فنيت نسخة منها مطبوعة . إن فكرة هومر قد طبعت صفحات كثيرة ، ولك أن تمزق الصفحات ولكنك لا تستطيع بذلك تمزيق الفكرة. ولنضرب لذلك مثلا آخر ، فنقول إن كلامنا أشبه بقطعة من الزجاج الملون فى إطار الحياة الذى يضم شتيت الألوان ، فإذا كسر الزجاج لم يضع اللون ، بل ذاب فى لألاء الخلود الأبيض .

فكل إنسان إذن جزء ، ينتمى إلى وحدة مقدسة . فإذا مات كانت روحه أشبه بقطرة ماء عائدة إلى المحيط ، أو نغمة واحدة ذائبة فى جلال السمفونية ، أو فكرة سامية نزعت من ملابساتها العرضية ، ووضعت فى إطار الخلود .

وفى إطار الخلود هذا دون سواه ، نستطيع قياس أبعاد وجودنا الحقة . فلنذكر مصيرنا المتحد ، ولنتعلم القناعة بالقليل ، وأن نقابل الكراهية بالحب ، و نرتضى فى شجاعة باسمة ما يواجهنا به القدر ، هذا لباب الحياة السعيدة وحقيقتها الكاملة التى تدين بها حكمه الإنسان الأسمى . أنه يدعوك قبل كل شىء أن تستمتع بأسباب

القربى بينك وبين باقى العالم ، ولا يغربن عن بالك قط أن وجودك ووجود جارك — على ما يبدو من تفاهتهما — خيطان ضروريان فى نسيج الحياة العالمية ، فالخير الأسمى هو إدراك الوحدة التى تجمع بين العقل والطبيعة كلها « وإذا كان العالم لم يخلق لك ، فانعم بالتفكير فى أنك قد خلقت للعالم . وأنك صفحة هامة فى كتاب الحياة ، كان يفتقدها لو لم توجد » .

— ٥ —

وكانت صفحة اسپينوزا نفسه صفحة جميلة ، ولكنها غير ذات تأثير فى معاصريه — إنه مؤلَّف قيِّم ظهر فى طبعة رخيصة ، فالعين تقتحمه ولا تأبه له . . . جسم صغير ، بشرة سمراء ، شعر أسود مجعد ، حاجبان طويلان أسودان ، عينان محمومتان يشع منهما السقم العليل . . . وكان مهملا فى زيه ، وهو يقول عن نفسه إنه بضاعة عادية لا تستحق غلافاً ثميناً . وكان لا يحفل بأن يغمط حقه إلى حين ، مادام واثقاً من خلود قدره .

قضى حياته مغموراً ، وإن استطاعت قليل من الأرواح الملهمة أن تدرك عظمته ، واستجاب لرجاء أصدقائه المعجبين به فانتقل إلى لاهاى ، وفيها أنفق بقية حياته .

وظل يعيش فى حجرة واحدة كما كان يعيش من قبل . . . .
كانت له متجراً ومسكناً وقاعة استقبال يلقى فيها حفنة من الزائرين الذين قدموا يحيون عبقريته . ومن بين من شرفوه بالزيارة فون تشرنوس المخترع الألمانى ، ومنهم هنرى أولدنبرج أمين الجمعية الملكية البريطانية ، وهيجنز العالم الهولندى ، وجوتفريد ليبنتز الفيلسوف وسيمون دى فريس من أثرياء تجار أمستردام ، وحاول هؤلاء الرجال أن يخرجوه من غمرته ، ويحموه من فاقته ، ولكنهم لم يفلحوا فيما أرادوا لأنه لم يساعدهم بشىء . فلما عرض عليه (دى فريس) أن يمنحه ألف دولار ، رفض اسپينوزا هذا العرض . فلما عرض عليه بعد ذلك أن يوصى له بكل ثروته ، رفض « الحكيم الأبله » للمرة الثانية ، وأخيراً لما أوصى هذا التاجر ساعة وفاته بمنح اسپينوزا معاشاً سنوياً قدره مائتان وخمسون دولاراً ، أصر اسپينوزا على تخفيض المبلغ إلى مائة وخمسين . وحول هذا الوقت رفض منحة أكبر من هذه المنح كثيراً ، فقد رفض معاشاً يخصه به لويس الرابع عشر ، على أن يهدى اسپينوزا كتابه التالى إلى عرشه السامق المتألق وقال اسپينوزا هادئاً وهو يرفض المنحة إنه عاجز حقاً عن تملق شخص لا يثير إعجابه .

وأخيراً سنحت له فرصة الاعتراف المشرف بفضله . فقد عرض عليه منصب أستاذ كرسى الفلسفة فى جامعة هيدلبرج . وقطعت له العهود على أن يكون له فى هذا المنصب « الحرية الكاملة فيما يلقيه من دروس الفلسفة » وليس عليه إلا الوعد بألا يستخدم هذه الحرية للتشكيك فى دين الدولة الرسمى . وهذا العرض أيضاً رفضه اسپينوزا شاكراً ، لقد اختار الجوع والجهر بما يراه حقاً .

ذلك أن ما تمنحه الحياة من مال وجاه لا يزن جناح بعوضة فى ميزان هذا الرجل ، الذى عقدت عيناه بالخلود . لقد اعتصم من آرائه بموفأ أمين ، فأصبح لا يأبه للعواصف التى تزعزع عقول معاصريه ممن لم يسموا إلى سمائه الفلسفية . وكانت الحرب تستمر بين هولندا وفرنسا ولكن اسپينورا لا يهمه من أمر الصراع شىء . . . إنها حرب حمقاء كحرب العناكب . ونهاية هذه الحرب ، مهما تكن ، هى بداية الاستعداد لحرب جديدة . . . لم يكن يحتفل بالمطامع والمنافسات والأحقاد التى تقتل أبدان الناس ، إنما يحفل بأرواحهم الخالدة ، يستوى عنده الصديق والعدو . وكاد أن يُعدم يوماً بلا محاكمة ، فهو فى براءة الطفل ـ أو العالم الحكيم ـ قد

ذهب إلى معسكر الأعداء إجابة لدعوة قائدهم الأمير كونديه ليتحدث وإياه فى الفلسفة .

ولكنه لحسن الحظ وفق إلى إقناع مواطنيه بأنه غير خائن ، وإنما هو محب للحكمة ، برىء القصد ، وبذا نجا بحياته .

ولكن لم تطل نجاته ، فقد اشتبك فى حرب جديدة مع المرض ، وخسر المعركة ، وتركته هذه المعركة كما تركته كل معارك الحياة ... لا يحفل ولا يكترث ، لأن « الروح البشرى لا يفنى بفناء الجسم ، بل يبقى منه شىء خالد » .

ولبث هذا الشىء الخالد منه يشهد فى شجاعة ذلك الجسم الهش يتداعى ويتساقط سريعاً . وجاء شتاء عام ١٦٧٧ أشد قسوة من أن تحتمله رئتاه المنهوكتان . فمات فى يوم الأحد ، الثانى والعشرين من فبراير ، بينما كان صاحب المنزل وصاحبته فى الكنيسة ، ولم يكن معه غير طبيبه ، فأمسك هذا بالنقود التى وجدها على النضد ، وبسكين ذى مقبض فضى وترك الجثة بلا حياء . . ما كان أشد هذا المشهد إضحاكاً لاسپينوزا لو أنه رآه .

— ٦ —

لم يكن اسپينوزا صاحبُ عقل من أعظم العقول عالمية فى العصور الحديثة وكفى ، بل كان إلى ذلك صاحب قلب من أعظم القلوب عطفاً وأكثرها عمراناً بالرحمة . . . . . قال فيه إرنست رينان وهو يختتم مراسم التحية بعد إزاحة الستار عن تمثاله « هنا تراءت — فى غالب الظن — أصدق نظرة إلى الله » . ولعله كان يحسن صنعاً لو أنه أردف هذا بقوله « فهنا — فى غالب الظن — تجلى أصدق حب لبني الإنسان » .

جون لوك

١٦٣٢ — ١٧٠٤

— ١ —

كتيب جون لوك عن مولده يقول : « ما كدت أحس بوجودى حتى وجدتنى فى زوبعة» . وقد هبت الزوبعة فى بلدة رنجتون الصغيرة ، إلى الشمال من سومرست شير . وكانت فى الواقع زوبعة عاصفة بل كانت إعصاراً من الاضطراب السياسى إجتاح ريف إنجلترا المشمس . . . . . منبعثاً من هويتهول . ذلك أن الملك شارل الأول — الأول فى التعصب والخيلاء والطغيان — قد حل البرلمـــان الإنجليزى ، وحاول أن يحكم وحده. وجاوز نطاق النظريات ذلك الصراع المروع بين الحق المقدس للملوك ، والسلطان المقدس للحق . كان وقتاً أزهقت فيه النفـــوس ، وحطمت الرءوس .

وكان أبو جون لوك محامياً فى الريف يؤمن بالحرية ، امتشق الحسام لمحاربة الملك ، وانتظم فى سلك الفرسان ، واكتسح الثوار إنجلترا ، وأنزلوا بشارل عن عرشه ، وأراحوه من رأسه . وكان لسقوط التاج عن المشنقة دوى سمع فى كل أرجاء العالم . فهـذا شعب حر جرؤ على أن ينهض وأن يتحدى قدسية القانون الذى يتمثل فى شخص الملك ، فدعاه إلى المحاكمة ، واتهمه بالإجرام فى حق سيادة الشعب ، وأنزل به جزاءه . . . جزاء افتئات الفرد عمداً على سلطان الكثيرين ، فروع الأشراف فى كل أنحاء أوروبا فى عليائهم ، وجعلوا يتحسسون رقابهم فى وجل . وكان فى منفسح رحيب من الأراضى البور ، على بعد أميال عدة ، جموع من الرواد المتطهرين ، قد شردوا من ديارهم على عهد شارل نكالا بمعتقداتهم الدينية . فأخذوا يفركون أيديهم البـاردة إلى جوار مدافئهم فى إنجلترا الجديدة مطمئنين إلى نجاتهم .

كذلك كانت الأوقات مضطربة إبان طفولة لوك . فالصراع وسفك الدماء كانا يحوطانه من كل وجه . فلما أقصى شارل عن الأحياء ، ذلك الاقصاء المهين ، كان كل ما فعل أوليفر كرومويل أن أحل لوناً من الطغيان محل لون آخر ، فرسفت إنجلترا فى أغلال

الدكتاتورية العسكرية أحد عشر عاماً . وقضى لوك فى المدرسة أياماً تعسة ، فقد درب على تشدد المتطهرين ، وكان على رأس الدولة « نخبة مقدسة » وإن لم ينتخبها الشعب ، قمعت حرية الغريزة فى التعليم وكبتتها كبتاً . فكانت حياة الطالب لا تعدو موعظة حزينة فى إثر موعظة حزينة ، وكان القساوسة فى كل أنحاء أنجلترا يكيلون الصفعات القدسية للطلاب ، إذا لم يسعهم أن يخلعوا على خلاصهم الأسى الجنائزى الواجب .

كانت فى كل مكان فى إنجلترا عقيدة تبتلع عقيدة أخرى ، وأصبح التعصب قانون ذلك الزمن . ولكن چون وجد تسامحاً حقاً فى أسرته ، فقد كانت أسرة لوك تعيش فى تعاون حر وفى مساواة ، فهذا أبوه يدعوه فى شبابه إلى مكتبه ، ويقول له : « بنى . . . . إن علىّ أن أقدم إليك اعتذاراً » .

— « عم يا أبت ؟ » .

— « أذكر أنى ثرت عليك مرة وضربتك منذ سنوات عدة .

—٢—

والتحق لوك فى سن العشرين بكلية « كنيسة المسيح »

بأكسفورد ، ولكنه لم يجد فى الدرس متعة ، فتعليمه لم يكد يفضل النفى الاختيارى ، فمنهج التعليم كان فى جفافه أشبه بعصا معلمه القديم ، وبلغ من الإيلام حداً لا يقل عن إيلام تلك العصا . قال لوك عن دراسته الجامعية بعد سنوات « لم أكد أحس بأيسر قدر من النور يدلف إلى فهمى » . إنه يشك فى أنه يحرز أى نجاح فى الكلية ، ولكنه مخطىء فى ظنه ، فلقد نما فيه إزدراء بصير لتلقين العقائد ، وانتقض على هذا التلقين انتقاضاً عنيفاً ، وأرسى — دون أن يعلم — أساس نظام للمعرفة جديد . وكان هذا هو الأثر الطيب الذى خلفه نظام التعليم الفاسد فى عقل المفكر .

وما هو إلا زمن قصير بعد تخرجه ، حتى عين مدرساً للغة اليونانية فى تلك الكلية نفسها ، وصار له إلى جانب واجبه العلمى ولع بالسياسية العملية ، والبحوث الطبية ، وهى بداية لا بأس بها لشاب قد ازدرى دروسه أيام الطلب .

ولا ينتصف العقد الثالث من عمره حتى يجد أن الموت قد حرمه جميع أفراد أسرته . فقد ماتت أمه إبان طفولته ، ومات أبوه بذات الرئة بعد تخرج جون من الكلية ، وقفّا بعد زمن

وجيز أخوه الوحيد ، فصار الفيلسوف الشاب فى مسيس الحاجة إلى فلسفته .

على أن الله قد أسبغ عليه نعمة كبرى ، هى القدرة على كسب الأصدقاء ، وأحال أصحابه الكثيرون حياته إلى « موسم دائم من مواسم السرور ، والمودة العملية المتبادلة » . وكان من أقرب صحابته إليه لورد أشلى[1] ، وكان ذا نفوذ واسع فى المملكة ، تعرف إليه لوك أيام الطلب فى أكسفورد عام ١٦٦٦ ، بعد مرور بضع سنين على سقوط كرمويل وأنصاره المتزمتين ، وعودة العرش إلى أسرة استيورات ، يتزعمها الملك المرح شارل الثانى ، فعاد المجتمع المكبوت إلى سابق لذاته كأنما شاء أن ينتقم لنفسه . فقد غدا الفجور فناً جميلا ، ونظمت الحاشية ألوان الخلاعة . . . . . إلى حد جاوز أحلام العانس (تيودور بس) فى أشد لحظاتها فجوراً ، وهى التى لم تكن أحلامها بعيدة عن مطنة السوء .

لجأ شارل إلى الإباحة ليعيد بها حكومة آبائه غير الشرعية ، وكانت أفعى الاستبداد العجوز تزحف تحت شجرة المعرفة

---

(١) Lord Ashley

وتحرض الناس على مقارفة الخطيئة ، إنه وقت الحصاد الدفىء فى إنجلترا المرحة . . . . ولكن الشتاء لن يلبث طويلا حتى يعود .

وكان لورد أشلى ، صديق لوك الجديد ، فى طليعة السياسيين المناهضين للملك وإباحيته وحقه المقدس ، والذائدين عن مزايا الحكومة النيابية . وكان صدام جديد يوشك أن يقع بين الملك والطبقة الوسطى ، وكان من حظ لوك أن أتيحت له أحسن الفرص ليرقب تلك المسرحية السياسية العظيمة التى أوشك أن يرفع عنها الستار .

ولكن لوك يعزف عن موقف المتفرج ، فهو ممثل بطبعه . وإذا كان فى ذلك الوقت قد ضرب فى دراساته بالسهم الأوفى ، فهو لم يكن رجل علم وكفى ، بل كان من العلماء العاملين بعلمهم . إن معظم الناس إذا أصابوا المعرفة ، خسروا سلامة الإدراك . . . إدراك المصالح المشتركة بين الناس . فهم يركنون إلى العزلة والترفع والابتعاد عن الخلق وينظرون إلى معارفهم كما « ينظرون إلى الطيب النادر ، السريع التطاير . . . الذى يجب أن يحكم سداده لئلا يتسرب فى الهواء . أما لوك فكان يتيح لكل الناس أن ينشقوا عبيره الطلق ويدعو كل ذى شم سليم أن يملأ صدره بالهواء الطلق

النظيف . وكان شعاره : « فلننعم جميعاً بأريج المعرفة ولنفد منه أجمعين » .

وكان فى طليعة المنتفعين بمعارف لوك الفذة لورد أشلى وأسرته فقد غدا لوك مشير اللورد وزوجته ، ورائد أطفالهم ، وطبيبهم جميعاً . فلما بلغ ابن أشلى الأكبر سن الزواج ، هداه لوك إلى عروس . وحين أوشكت على الوضع تطوع بتوليدها . ولم يكن فى ذلك الوقت قد نال إجازة فى الطب ، أو خبر الطب عملياً ، بل كانت معلوماته الطبية كلها نظرية ، ولكنه لم يتحرج من توليد السيدة ، وأفلح فيما أراد ولم يمض على ميلاد الطفل وقت قصير ، حتى أجرى عملية شاقة لجده لورد أشلى ، وأزال من صدره ورماً ، وكان نجاح هذه العملية أيضاً معجزة المعجزات . ولو حدث ذلك الآن لذهلت أسرة الأطباء ، ولكن لوك كان عالماً عالمياً ، مثله كمثل بيكن ، فكان يعالج كل شىء . . . . وتدخل فروع المعرفة جميعاً فى نطاق محيطه النظرى . وكان يطبق علمه على الحياة كلما أمكنه ذلك ، ولعله كان يردد مع الشاعر اللاتينى ترنس[1] قوله : « إنى إنسان ، وما من شىء إنسانى إلا دخل فى مجال نشاطى » .

---

(١) Trence

ويشهد بكفايته الطبية أن طبيباً فى طليعة أطباء هـذا العهد هو الدكتور سدنهام كتب إلى أحد أصدقائه يقول : إن لوك ليس أصدق الناس حكماً وحسب ، بل هو أيضاً أعظمهم مهارة ولم يكتف بذلك بل تجاوزه إلى القول بأن مهارة لوك تجعله من الثقات فى فنه « إنك لتعلم كيف أيد لوك طريقتى فى علاج الحميات تأييداً تاما » .

وكان متعدد الـكفايات ، مثـله مثل فرنسيس بيكن . وكان يفضل الفليسوف الأليصاباتى فى صفه ... هى صفة الشرف . لقد اشتغل بالسياسة كما اشتغل بها فرنسيس بيكن ، ولـكنه كان على عكس بيكن سياسيا شريفا . وقد أعانه لورد أشلى فمين فى المـكتب الادارى لـكارولينا ، إحدى مستعمرات التاج ، وشارك فى إعداد دستور المستعمرة ، فأبرز فيه مباداىء التسامح السياسى والاجتماعى والدينى ، وكـانت حاجة إنجلترا إلى مثل هذا الدستور ماسة كحاجة المستعمرات .

وكـان لوك حتى ذلك الوقت يحيا فى الجانب الشمس من الحياة ، فأصدقاؤه ذوو نفوذ ، وعقله قوى ، وسمعته طيبة . ولـكنه أصيب فى أواخر العقد الرابع من حياته بمرض فى الرئتين ، فظل إلى

آخر حياته يشجه سعال يضعف قوته تدريجياً . وكان فى مرضه مستبشراً لحسن حظه ، فحياة لورد أشلى السياسية ، ومصيره هو ، قد أشرفا على محنة قاسية .

وكان لورد أشلى على ما عرف عنه من انتماء للأحرار ، قد صعد إلى أسمى مناصب الدولة . . . منصب كبير القضاة . وصار يعرف فى التاريخ منذ ذلك الوقت باسم إيرل شافتسبرى(١) . وغدا أول زعيم كبير لطبقات التجار فى إنجلترا . وأدى قيام طبقات التجار هذه إلى تطور فى السياسة البريطانية من الاستقراطية إلى الدمقراطية ، ودالت دولة الحزب الواحد . . . التى تتكون من الحزب الواحد وأعوانه . . . . وأخذت مكانها حكومة الحزبين ، حزب الأعيان وحزب التجار ، وكان شافتسبرى زعيم حزب التجار المسمى « حزب الأحرار » والذى يناهض الحزب المؤيد للملك . . . والمسمى « حزب المحافظين » .

وكانت حياة شافتسبرى السياسية تعلو وتهبط كأنها البحر العاصف ، فهو لا يكاد يعين كبيراً للقضاة حتى يرتاب فيه الملك ،

---

(١) Earl Shaftesbury

ويقصيه عن منصبه ، ويرسل به إلى البرج ، ويغلب على الظن أن لوك سوف يشاطر سيده المصير ، ساء المصير أو حسن ، فآثر أن يلتمس جواً دفيئاً . . . . يصح به سياسة وبدنا . فرحل إلى جنوبى فرنسا ، حتى إذا عاد إلى إنجلترا . . . كان لورد أشلى قد استعاد مكانه من الملك ، بل وعين رئيساً للمجلس الملكى . ولم يمض إلا عامان ، حتى كان شافتسبرى قد أعيد إلى البرج متهما بالخيانة العظمى .

وصارت حياة شافتسبرى فترة سجن تليها فترة سجن ، وصارت حياة لوك فترة رحيل إلى القارة تليها فترة رحيل . ولكن الإيرل أفاد من حياته ما لم يفد الفيلسوف نفسه ، فإذا كان لوك قد وجد لدى عودته من المنفى أنه حر فى تأمل ريب الزمن ، فقد وجد شافتسبرى لدى إطلاقه من البرج أنه قد تحرر حتى من ضرورة التأمل . . . . لأنه انتقل من سجنه إلى سجن آخر . . . هو القبر .

ومهما قيل فى سجن شافتسبرى ، فنحن نعلم أن لوك قد أحسن الانتفاع بعزلته . ذلك أن العظمة تنمو من العزلة ، وطالما أصاب المجد الشامخ للبلاد ، من لفظتهم البلاد من رحمتها ولم يجدوا فى صدرها مكاناً ، ولطالما أنقذ البشرية من نبذتهم البشرية . إلا

أن موكب مجرى الرأى فى التاريخ هو موكب الأبرار والشهداء والقديسين .

لقد مات شافتسبرى ميتة الهوان . . . ولوك كان رجلا ملحوظ المكان ، وصديقاً حميماً لشافتسبرى . فسرت شائعة أنه كاتب رسالة تدعو إلى الثورة على الطغيان . فعد فى الأحرار المتطرفين الخطرين ورصدت عليه الحكومة الجواسيس فى أكسفورد يرقبون كل حركاته . وسئلت إدارة الكلية عنه فأجابت بأنها لا تعلم ما يدبر من مؤامرات الأحرار . . . فجعل الجواسيس يستدرجونه إلى حوار آملين أن يبدرو منه لفظ مريب ... ولكن محاولتهم ذهبت سدى فهو « لا ينبس بكلمة واحـــدة تكشف شيئاً مما يدبر فى خبيئة نفسه » .

ولكن الملك — أخذا بالأحوط — أمر بعزله من كلية أكسفورد ، وأدرك لوك حرج موقفه ، فرحل إلى هولندا ، ملاذ جميع اللاجئين الأحرار . وأرسل الملك عماله فى إثره ليخرجوه من ملاذه ذاك . . . واتخذت إجراءات تسليمه . وتأهبت حاشية الملك لمحاكمته . ولكن حال بين الملك والانتصار حائل ، فقد

استحال العثور عليه « لقد تبخر فى الهواء فلم يعد له وجود » . والواقع أنه كان مختبئاً فى منزل صديق له فى امستردام .

وأتيحت له وقتئذ فرصة طيبة ليوازن مزايا الحكومة الحرة فى الأراضى الواطئة ، بعيوب الحكومة البطاشة فى إنجلترا . فشعر بأن العالم بحاجة إلى فلسفة جديدة ، ومقياس خلقى جديد ، ودين جديد . « لا بد للانسان من الحرية » ويجب أن تكون هذه عقيدته ، ولا عقيدة سواها .

— ٣ —

« هكذا يتأمل جون لوك مشا كل العقل البشرى ، كان لوك قد كتب هذه العبارة فى يومياته منذ حقبة من الزمن ، حين تطرق النقاش فى ندوته إلى سر الذكاء البشرى . وطالما كانت هذه المشكلة الفلسفية تشوق لوك وتستهويه . ولكنه لا يزيد علماً بعمليات العقل البشرى ، إلا زاد منه يأساً ، ففى فرنسا كان سواد الشعب يكدحون ويجوعون ليرفعوا مجد قلة من الأشراف الكسالى ، وفى إنجلترا بطلت الحرية الدينية ، وحق على من حاول إرجاعها أن يخشى القتل ، وفى طول أوربا وعرضها يعيش

اللايين كما تعيش الأغنام . . . تطعمهم قلة من الرعاة الماكرين من مرعى التعصب ، ويدع اللايين للرعاة أن يقصّوا فراءهم ويغصبوه ، وكان المجتمع مقسما — بأمر السماء — إلى طوائف ، وتنتمى غالبيته لطائفة المنبوذين . ولعل شيئاً من إدراك كان — مع ذلك — يكفى لتغيير هذا كله .

وبدا له أن فى هولندا وحدها قدراً من الإدراك ، فالطبقات الوسطى الهولندية لم تزل قائمة تنتظم الصيرفيين والتجار الذين يطبقون حذرهم التجارى الحصيف على شئون الحكم . . . . فقد تعودوا وزن سياستهم كما يزنون بضاعتهم ، والتجارة عندهم أخذ وعطاء ، كذلك يجب — فى اعتقادهم — أن تجرى تجارة الحكم ، وكما تقوم التجارة على التعاقد بين البائع والمشترى ، كذلك الحكم يجب أن يقوم على التعاقد بين الحاكم والمحكوم ، وليس للملك حق مقدس يفرض به سلطانه على الشعب . . . وإنما له حق تجارى فى أن يبيع سلطانه بثمن يرضى المشترى ، فعلى الملك — باختصار — أن يعقد مع شعبه ميثاقاً يقبله الطرفان ، ورأى لوك فى الفلسفة التجارية للطبقات الوسطى الناهضة مفتاحاً لفلسفة أعظم . . .

فلسفة للحياة الإنسانية أسلم أساساً . . . الإجهاز على التعصب بقوة الإدراك السليم .

وبينما كان لوك يعد مذكراته عن التعصب البشرى . . . ذلك الموضوع الفائق فى أهميته ، إذ يخلص العالم من أحد ألوان التعصب ... تعصب آل استيورت ، فقد دار الفلك دورة ميمونة ، وإذ إنجلترا يرقى عرشها الملك الهولندى وليم أورنج ، وكان يعاونه سراً أحرار البريطانيين وطبقة التجار النامية لعزل آل استيورت ، أولئك المتعصبين ، وتنصيب نفسه ملكا عليهم . وكانت ثورة إنجلترا الكبرى عام ١٦٨٨ ثورة الطبقة الوسطى . ونزل وليم بشاطىء إنجلترا ، وأثار ثورة فى الطبقة الوسطى لم يرق فيها دم ، ورفعوه إلى العرش ، بعد إذ قيدوه بعقد ، كما يفعل التجار الأخيار .

لم يجد لوك حينئذ حرجا فى العودة إلى وطنه ، ونشر « مقالة عن العقل البشرى » . وكان قد كتب فى منفاه ، ولفظة « مقال » تعبير متواضع عن هذا الكتاب ، فهو أثر ضخم ، يعدل فى ضخامته ما كان يجرى وقتئذ من أحداث .

وكان لوك قد أدرك منذ أمد قريب ما أصاب فلسفة العالم من أخطاء . فالناس راغبون عن اختبار آرائهم الخلقية كما تختبر آراؤهم

التجارية والسياسية ، لقد شكوا فى الحق الملكى المقدس ، ولكنهم لم يزالوا على إيمانهم المطلق بحق التعصب المقدس. فقد كان المدرسون والفلاسفة المتعصبون المتعسفون يؤكدون قدرة العقل البشرى قدرة غير محدودة على بلوغ حقائق تسمو على الشك ، فالإنسان — فيما يفرضون — ولد وقد انطبعت فى عقله آراء عن الله والإنسان . . . آراء لا سبيل إلى تعديلها أو معارضتها ، ومن يكفر بهذه الآراء ، سواء فى الدين أو العلاقات الاجتماعية ، فقد حق عليه الإضطهاد. هذا هو أساس الصرح الضخم المتين للاضطهاد والتعصب والحقد ، الذى سجن العقل البشرى بين جدرانه الذل والاسترقاق .

— ٤ —

ترى ماذا كان أصل ما يدعى عند بنى الإنسان « حقائق لا يرقى إليها الشك » ؟ أجاب لوك عن هذا السؤال إجابة هوت على العالم كما تهوى القنبلة : « إن عقولنا لم تخلق كبيرة كالحق، ولا ميسرة لإدراك الأشياء جميعا » ، فلنكن صرحاء مع أنفسنا ، ولنعترف بكل هذا « والأخلق بنا أن نتدبر ضعفنا وحاجتنا جيداً ، وفيم كان خلقنا وماذا يسعنا أن نعمل » . فلنبدأ على هذا النحو المتواضع وقد تخلينا عن فكرة المعلومات الفطرية المثبتة فى خبايا العقل ، ولنواجه

الحقيقية الوحيدة الأكيدة، وهى أننا لا نستطيع أن ندرك من الأفكار الصحيحة إلا ما يقع منها فى تجاربنا .

« ليس للعقل البشرى آراء فطر عليها إنما هو مرآة تعكس ما يعرض لها من خلال الحواس ، أو لعله أشبه بطبقة من الشمع ، تأخذ شكل الآراء التى تتلقاها ، وليس للعقل قوة مبدعة . . . حتى أنه ليعجز عن إدراك فكرة الله ، فوجود الله مستقل عن العقل البشرى ، استقلال العالم الحسى عن العقل البشرى ، ولكن إدراكنا لفكرة الله يأتينا بطريق يخالف طريق إدراكنا للعالم الخارجى ، فالواقع أن للعقل طريقين يستقبل بهما آراءه، الأول طريق الإحساسات البسيطة . . . بإدراك الأشياء فى العالم الخارجى ، والثانى طريق التفكير ، فيمثل العقل الآراء التى تقدمها إليه الحواس ويصنفها ، وللعقل طريقة فى ضم الآثار الحسية بعضها إلى بعض وتكرارها ، والعقل حين يضم هذه الآثار ويكررها ، أى حين يتأمل عمله ، ينشىء ما يعرف بالشك والإرادة والتفكير والاعتقاد .

« والعقل إذ يمثل آراءه ويحيلها نظريات ، إنما يدرك صواب هذه النظريات أو خطأها عن طريق اللقانة ، فهى فى الواقع أساس كل معلوماتنا الأساسية ، وهى قوة لا تُقاوَم ، وهى كنوز الشمس

الساطع؛ تقتحم طريقها فجأة لتدرك. فنحن إنما نعرف أنفسنا عن طريق اللقانة دون غيرها ، وعن طريق علمنا بأنفسنا نعرف الخالق » .

فالآراء إذن عند لوك نوعان : آراؤنا البسيطة عن الحرارة والبرودة ، وهى تنبت من تجاربنا مباشرة ، وأفكارنا البسيطة عن الإرادة والشك ، وهى تنبت عن تفكيرنا فى تجاربنا ؛ وهذه الآراء البسيطة هى المادة التى لا سلطان لنا عليها « فنحن لا نملك خلقها أو دمارها ، وإنما نستطيع أن نضم بعضها إلى بعض ، ونضع بعضها إلى جانب بعض ، كما يفعل البناء بالآجر . ولكن من أين تأتى أفكارنا المعقدة عن الجمال والاستسلام والعدل والحب ؟ من التجارب أيضاً ، لأن هذه الأفكار المعقدة تتألف من مركبات من الآراء البسيطة التى يقدمها الحس أو التفكير . فنحن مثلا نستقبل فكرة بسيطة عن شىء يمنحنا متعة جمالية ، ونستقبل فى تجاربنا أفكاراً أخرى تشبه تلك الفكرة فى طبيعتها ، فيمثل العقل كل هذه الآراء ويضمها فى وحدة متسقة نسميها بعد التفكير « جمالا » ؛ وإن لم نرى « الجمال » قط ؛ وإنما أصبح لدينا فكرة مجردة . فالإحساس بأشياء أو أحاسيس جميلة . هو من التجارب الواقعة ، ولكن العقل فى تأمله يأخذ الحقائق المنفصلة ويحيلها معنى مجرداً واحداً . وهذا هو سبيلنا

إلى تكوين أعقد مدركاتنا جميعاً . . . . كإدراك الخلود ، واللانهائية . . . فنحن فى حياتنا اليومية تمر بنا فترات محدودة من الزمن ، فنأخذ هذه الفترات المحدودة — من ثوان ودقائق وساعات وأيام وسنين وقرون — فنستخدمها مقاييس ، ونمدها من كلا طرفيها إلى مالانهاية فى الماضى وفى المستقبل . ويصدق هذا كذلك على إدراك المكان . فالعقل يميل إلى ضم الوحدات المادية التى يخبرها فى تجاريد لانهاية لها ، فيضم الثوانى ليكون منها الخلود ، والبوصات ليكون منها اللانهائية ، والود الفردى ليكون منه الحب العالمى .

وإذن فالمعرفة كلها تعتمد على خبرتنا — فعلمنا بالله يعتمد على خبرتنا بأنفسنا ، والعقل لا يستطيع أن يسمو على بيئته ، لأن العقل وليد قوى البيئة . وهو من البيئة جزء لا يتجزأ . والعقل يتردى فى الخطأ لا محالة إن حاول وضع نظريات تجاوز حدود المباشرة . فهو يتغذى من نفسه ، شأنه فى ذلك كشأن بعض أنواع الضفادع .

فلنقصر إذن عن تفكيرنا فى التجريدات المستحيلة ، والحقائق « المفضومة » ، ونواحى الكمال التى لا يدركها الحس : فنحن

لا يسعنا أن ندرك العصمة من الخطأ أو الكمال فى هذه الحياة أكثر مما لا ندرك اللانهاية والخلود . نعم إن من النتائج المنطقية أنه مادام الله موجوداً ، بوصفه حقيقة خالدة ، وشاهداً خالداً على قوانين العقل ، فكذلك المبادىء الخلقية المطلقة التى تعتمد على إرادة الله ، لا بد أن تكون هى الأخرى موجودة بوصفها حقيقة معقولة . ومع هذا فإن من الحقائق المعروفة أن العين البشرية لم تشهد أية صورة من العدل المثالى أو الخير الكامل . والسلوك فى عالمنا مسألة نسبية ، وقد علمتنا التجربة أن الناس يلتمسون الخير ، ويجتنبون الشر . . . وتدفعهم دوافع نفسية خالصة ، فما جلب للانسان أكبر السعادة أسماه خيراً ، وما عاد عليه بأوجع الألم دعاه شراً .

ويخلص لوك إلى أنه إذا كان العقل البشرى عاجزاً عن أن يدرك الحق المطلق ، فالأخلق بنا ، باسم الإدراك السليم ، أن نسمح لكل إنسان بحقه فى أن يتقرب إلى الله بطريقته الخاصة ، ويجب على المجتمع ألا يحاول فرض المقاييس على الضمير الخاص بالفرد . . . ما بعدت أعمال الفرد عن إيذاء الصالح العام . فليصنع كل امرىء الخير بطريقته الخاصة ، على أن يقوم سلوك المجتمع فى مجموعة على الصالح العام ، فما أعان على إسعاد أكبر عدد عد قصارى الخير ، فليندع كل إنسان

لضميره الخاص ، فكل فرد من الأفراد ، بروتستانتياً كان أو كاثوليكياً أو يهودياً يحاول أن يعمل مايريده الله . ذلك بأن ماتعجز العين عن قياسه ، لا يعجز القلب عن إحساسه . وللقلب البشرى طاقة على الخير والتقوى تكاد تبلغ مرتبة الكمال .

— ٥ —

بهذه الألفاظ رسم لوك أول تصميم هندسى ساذج لبناء صرح الفكر الحديث ، والتسامح الحديث . . . فكر تحده حدود متواضعة ، وتسامح واحترام متبادلين بين كل العقول التى تنشد فى ضعفها بصيصاً خافتاً من النور . والاحترام المتبادل يورث الحرية المتبادلة ، حرية الدين وحرية الضمير . « والتسامح بعد هذا من ثمرات الإدراك السليم » الإدراك الملقن الملهم الذى يستمتع به الفرد العادى .

صحيح أن ما كتب لوك فى الفلسفة أصبح مما كتب فى علم النفس ، فقد أنكر علماء النفس نظرية لوك التى تشبه العقل بلقيط عليل شريد ضال فى عالم غريب عنه . ويميلون إلى أن يضيفوا إليه قدراً من النشاط والإيجابية والجرأة فى تشكيل مصيره . ونحن

الآن ندرك أن العقل أجل من مجرد وعاء يتلقى الآراء حيثما اتفق ، فهو شخصية فاعلة خالقة ، ولكن « مقال » لوك فى العقل البشرى ، برغم أخطائه فى علم النفس ، لا يزال فى تاريخ الفكر الإعلان الخطير للحرية .

وهو فى ملحمة الدمقراطية استهلال الملحمة الرائع .

لقد كان القرن الذى عاش فيه لوك من القرون العظيمة فى التقدم البشرى . فقد قام فيه ثلاثة من المتسككين الأحرار ، كلهم من الإنجليز ، يقدمون للبشر طرائق التفكير الجميل القائم على العقل ... شيمتهم البساطة والقوة والتواضع والصراحة ... فقد برئوا من كل إحساس بأنهم شهداء أبرار بعثوا لتخليص العالم مما فيه من فساد وزانهم رواء العظمة ، وكان الثلاثة أصدقاء يثنى بعضهم لبعض . وأولهم وليم بن ناقل النور إلى العالم الجديد ، وثانيهم إسحق نيوتن محدد قوانين الكون ، وثالثهم چون لوك وهو من مهد سبيل التفاهم بين الإنسان وأخيه الإنسان .

وظل لوك حتى آخر صيف من حياته جندياً مستبسلا فى ميدان المحبة البشرية . وكان قد عاد إلى نشاطه فى الحياة العامة حين ولى وليم ومارى عرش إنجلترا ، فعين عضواً فى مكتب التجارة .

دافيد هيوم

١٧١١ – ١٧٧٦

– ١ –

كان دافيد هيوم صبياً نادر الطيبة ، وكان ثالث أبناء ثلاثة لمولى نين ويلز . وكان منزل الأسرة من معالم الريف البارزة ، يقوم على مسافة تسعة أميال غربي بيروك قريباً من سفوح لا مرمير على أرض يقال لها مرس تقع غير بعيدة من نهر تويد الأدنى .

وكان المنزل رثاً لأمراء ، فجدرانه عطل من الورق ، وأرضه عطل من البسط ، ولا يكاد يحوى من الأثاث شيئاً ، إلا قليلا من المناضد والمقاعد صنعت من البلوط ، وسرراً تدخلت فى الجدر . وكان للرياح السافيات صفير فى انسرابها من شقوق زجاج النوافذ واندفاعها داخل المدخنة . وكانت بقرتان وقليل من الدجاج، وكانت ليدى هيوم فى معطفها الصوفى السنجابى ، وجوربها الثقيل ، تساعد خدمها الحفاة فى تنظيف المنزل . وكان الأطفال ينهضون من النوم

فى الساعة السابعة ، ويسيرون متثاقلين إلى البيدو يتلقون فيه دروسهم وكان المولى يجمع الإيجار ، والأوانس ينسجن الكتان . وفى المساء تجتمع الأسرة كلها فى حجرة النوم المريحة الوحيدة ، متدثرين بالأغطية الثقيلة . وما كان غيرها ليحفظ على أفراد الأسرة حياتهم ودفئهم ، وكان دفئاً كئيباً مؤذياً ، ولكنهم كانوا قوماً سعداء . . . أولئك الأساطين فى الشح . ولم يقل عنهم سعادة من رق عنهم حالا من الناس .

على هذه الوتيرة جرت الحياة فى اسكتلندا عام ١٧٢٥ فيما يروى مؤرخو ذلك العصر .

جن الليل ، وهذا داڤيد يدرس واجبه المنزلى فى حجرة نومه ، وهذه صورة أبيه الجليل الذى طواه الردى وشيكا ، تحوقل فى وجهه من جدار غير ذى طلاء . وتجلس إلى جانبه أمه الأرملة الشابة تهمهم بلحن اسكتلندى وهى تنسج بإبرتها لفافة عنق لابن من بنيها . وهذه رائحة قوية تنبعث من ذبالة شمعة ترسل الضوء ، وتنسج الخيالات ، ويرتكز داڤيد بمرفقيه على نضد رطب معوج ومكباً على مقطوعة لاتينية عويصة كتبها ذلك الأديب المغرب داڤيد ، ويجلس قبالته أخوه چون يدرس قواعـــــد النحو .

وهذا العم هوم أسقف القرية بأساريره المفرجة قد أقبل على كأس رخيصة ، يشرب منها ، ويقبس من الإنجيل آيات . وفى أحد الأركان عدة مجلدات منها نزاهة القديس[1] ، وكتاب فى قراءة الكف . . . وكتاب ترانيم . . . إلى جانب الإنجيل وشيكسبير بطبيعة الحال .

وتقول ربة الدار ، والدة دافيد : سوف تحتاج ياعم هوم إلى شيء من الشمير غير المطبوب . ولدينا (كلاريت) لطيف نرطبه لك به » وكانت ليلة تتجمد فيها المعدة ، وتتسرب فيها الريح من ثقب فى الحائط يتدغدغ عظام الكعب . وكان أصغر الأبناء فى المهد نائما .

وجيء بالكلاريت ، وجيء برغيف ناصع البياض ،وكان ذلك ترفا قل أن يصيبه الناس « إلى المخدع يادافى ... فالغد موعد الكنيسة » .

والغد يتلوه الغد كئيبا عابساً اوأصبح الأبناء مبكرين ، ولبسوا أحذيتهم . فهم فى الستة الأيام الباقية من الأسبوع يمشون حفاة .

---

(١) The Saint's Recreation

أما هذا فيوم الرب . . . أنظر . . . إنها جيني جالسة على المقعد الوطىء ، والجمع كله يتأملها دون احتفال بالموعظة . . . وإنما ينظر الناس إلى قوامها المضخم . . . ما أبهجها من فضيحة أضاءت جوانب هذا لأحد الكئيب ! ونرى جيني مطرقة إلى الأرض ، والدمع فى عينيها يترقرق ، وشفتاها ترتعشان . ولا يكاد مستر هوم يفرغ من حديثه عن « أرز لبنان » حتى يوجه إليها اللوم فى صوت تقشعر منه القلوب . وكانت عيون النسوة تسترق النظر فى أثناء الصلاة تنتظر أمراً . وتنتهى الموعظة . وأخيراً يؤمى الأسقف الجليل (هوم) إيماءة عابسة إلى المذنبة ، ويدعو الله أن يصب عذابه على جيني جزاء ما ارتكبت من إثم . فلتمت بآلامها لتكون عبرة لفتيات القرية جميعاً . ولا مكان للرحمة ، فهى قد امتهنت العهد المقدس . . . آمين .

ويبرح الجميع الكنيسة ، ويرجع الأطفال إلى منزلهم . وكان بالقرب منه تل جميل لا بد من تسلقه . ولكن داڤيد يجب عليه ألا يدع أمه وعمه چورج يعلمان أنه ينوى قضاء يوم الأحد فى اللعب . ولذا فهو ينسل فى هدوء من المنزل وقت الشاى ، ثم يجرى مسلماً قدميه للريح ، ويلقى بنفسه على يديه وركبتيه . إن على قمة السفح

غاراً ، هو غاره ، فجعل يقول لنفسه « إلهى . إن العالم مكان جميل تحلو به الحياة ، حتى فى يوم الأحد » .

-٢-

ها هو ذا يسير مرحاً فى الشوارع المزدحمة بإدنبره عاصمة الاسكتلنديين . وهو شاب وسيم فى الثالثة والثلاثين ، وكانت أمه تريده أن يتعلم القانون فنزل على رأيها بعض الوقت ، ولكنه شخصياً كان يؤثر الحلم على الدرس ، يحلم بالغيد العاليات الكعب ، ذوات الأحذية القرمزية ، يتمايلن فى شوارع يغشاها الدخان ، أو يركبن الخيل فى المتنزهات ، مجدفات كأنهن الصيد الصناديد ، ويدغدغن أنوفهن بالسعوط . وكانت الآراء تتوافد على ذهنه سريعة بينما هو يمر بفضلات الطعام منثورة أمام عتبات المنازل . مضطرباً فى زحمة التجار والمؤلفين والمحامين والكتبة . هؤلاء تجار سعداء يجمعون ثروة مادية ، وأولئك قساوسة سعداء يجمعون رصيداً من الحسنات عند الله ، وهذه نسوة سعيدات يجمعن العاشقين ، ولكن داڤيد هيوم يستشعر القلق . . . . ترى ما وجهته ؟ وماذا عساه يعمل ؟

إنه لا يعرف كالشراب مهدئاً للرأس ، فهو مشوق إلى قدح من الشراب يحتسيه مع ميشيل فى غارة الشعرى على وست بو[1] . وهو الآن يحتسى قدحاً من الـكلاريت فى تلك الحالة الرطبة . وهذا ميشيل مصلح الآبية ، الذى يتخيل أنه المسيح ، ينظر إليه من تحت أهداب قوية .

« كيف أنت الآن ؟ أتـكتب مقالات ، أم تنسل من ميناء برستول فى سفينة تجارية ، تاركا عشيقات وراءك حسيرات » .

وضحك دافيد . فمصلح الآنية إنما يشير إلى إحدى حماقاته التى أثارت عليه أخيراً أمام أصدقائه . « كلا يادكتور ميشيل ، لم أنشر أى مقالات منذ العام الماضى . لقد بلغت بى الحماقة أنى هاجمت مكتبات لندن ونقادها فى غرور غرير . أما الآن فلا أعد نفسى فى الـكاتبين » .

ـ « تبصر يا رجل . . . لم تصب محاولة أديب بالفشل كما أصيبت محاولتك (بحث فى الطبيعة البشرية) . أنا أعلم أن الناس لا يقبلون على فلسفتك ، كان ينبغى لك أن تظل رجل قانون .

---

(١) West Bow

فهذا أليق باسكتلندى شريف . . . هـذه مدينة تعج بالحياة أيها الرجل . . ألا تستطيع أن تهتدى فيها إلى مكانك الخليق بك ؟ »

وفرغ داقيد من شرابه قبل أن يجيب « هذه المدينة . . . هذا القطر الذى ننتمى إليه . . . قاسية ، وضيقة ومتعصبة وبارعة الكفاية . لقد كنت يوماً جزءاً من هـذا القطر . فقد ربيت إلى جوار الكنيسة بين قوم مقتصدين يثقون بدنياهم أعجب ثقة . ألم يوقع آدم مع الله عهداً على خلاص اسكتلندا وسلامتها أبد الدهر ؟ وهل من صفقة تفضل هـذه الصفقة ؟ لقد كان الله مقتصداً كخيار أهل هـذا البلد ، فلم يلق بالخلاص إلى الشوارع يمنة ويسرة ، بل استبقاه لنخبة من المتدينين الاسكتلنديين . ونحن من هـذه النخبة ، هـذا ما علمنا قساوستنا ، فقررت أن أمضى فى الشوط إلى مداه . فإذا كنت مديناً بوجودى إلى صفقة تجارية ، فهلا يجد ربى — على الأقل — أن أقوم بدورى بنفس طيبة ؟ فهجرت القانون ، وأبحرت من برستول صبياً تتلمذ لأحد التجار ، ثم عدت من رحلتى وكتبت بحثاً فى طبيعة الإنسان . . . طبيعة الإنسان حقاً ! ! فسرعان ما أدركت يا ميشيل أن عالم أجدادى لم يعد عالمى . وبدأت أرى حقيقة خاصة لم تدركها إدنبره » .

« أتدرى هذه الحقيقة ؟ » .

ـ « أى حقيقة يابنى ؟ » .

ـ « هذه الحقيقة هى ألا حقيقة » .

ـ « لست أفهم منك ما تريد » .

ـ « قل من الناس من يفهمنى يا ميشيل . لكن أنظر . إن معى خطاباً من مركيز أننديل . إنه يريد أن يأخذ على الفلسفة براتب قدره ثلثمائة جنيه .

ـ « هذا عرض طيب جداً ياداڤيد » .

ـ « لقد أعجب بمقالاتى فى الأخلاق والسياسة يا ميشيل . . . إنه المعجب الوحيد بى . . . وهو بعد مجنون لا أمل فى شفائه » .

- ٣ -

شتاء فى (ولد هول) مجنون وفيلسوف فى منزل كبير منعزل للماركيز چورج قوى مالا ، ضعيف عقلا ، أعلنت المحاكم أنه معتوه وعينت له أوصياء ثلاثة شتى ألوانهم ، أحدهم مدعى إنجلترا العام ، وثانيهم عين من أعيان الريف بليد الإدراك ، والثالث سكير قوى العقل ، يعمل ربانا فى بحرية الملك . . . وهو يهدف إلى

نهب أملاك المار كيز . وهذا فيلسوف مستأجر للتسرية عن المار كيز . فعقدت الآمال بأن يموت المار كيز فى الشتاء . . . فإن يمت بفلسفة هيوم كان فى هذا الخير كل الخير .

وكان المار كيز متقلب المزاج ، لا يمكن التكهن بما سوف يعتوره ؛ فهو يوماً يضم هيوم إلى صدره ، ويبكى فى حضرته من فرط وجده ، وفى اليوم التالى يطرده من حجرته . . . كان يصخب مرحاً ويثور غضباً ، ويهدل كاليمامة ، ويقبل على الدرس فجاءة ، فيسهر الليالى باحثاً منقباً ، ويوصد باب المكتب عن دونه ليكتب قصة خيالية . وتمضى أيام لا يستطيع أحد أثناءها أن يقترب منه ، فقد كانت حالته تنحدر مع الزمن من سىء إلى أسوأ .

وكتب هيوم إلى الأوصياء يقترح نقل المار كيز من منزله الريفى إلى المدينة . . . خاصة والشتاء يقترب . وسيغدو منزل (ولدهول) أشد وحشة . وما كان الأوصياء ليعبئوا بما سمعوا ؛ وأقبل شتاء قارس البرد ، وكانت حجرات (ولدهول) ثقيلة الستر ، لا تنفذ إليها الشمس وكان الخدم جميعاً يصيبون رواتبهم من الضابط البحرى ، الذى تكفل بأماتة چورج . وكانوا يسيرون على أمشاطهم فى الدهليز ليل نهار ، يتناقلون رسائل سرية بينما الأطباء المشرفون على المار كيز يقررون

له ألوانا من الطعام تبعث بالحمى إلى رأسه ثائرة صارخة، وتصيب عقله المسكين بتشويش وارتباك ليس له بمثلهما قبل. ولـكنه إن يضعف عقلا، فقد ظل جسمه قويا رشيقا . فهو يقفز فوق الأرائك ، ويهبط منزلقا على سياج الدرج ، ويزحف على البسط فى خبث النمر ، ولا يلبث أن يقفز على الناس فى ضحكة كضحك الأشباح. ويخمش أعين خدمه ويقرع رؤوسهم بكتل من الخشب . وأخيراً أحكموا عليه الرتاج ، فرجا أن يأتوه بدافيد هيوم ، وجعل يتناقش وإياه فى الأخلاق والسياسة . وكان چورج فى مثل تلك الفترات يتحدث إلى دافيد حديث الطفل إلى أبيه .

وكانت أم المركيز تقيم فى دمفريسشير[1] بعيداً عن ابنها. وكانت أرملة رفيعة المقام ، نفضت يدها من أمر ابنها كله . ولئن كانت تبعث بكتب رقيقة إلى ابنها « المحبوب » ، فهى لم تقدم له أى عون . وكان مدعى إنجلترا العام منشغلا بشئون وظيفته ، وكان عين الريف يجمع أشتات فـكره، وكان ضابط البحرية فى شغل بالغ . . . بابتزاز أموال المار كيز .لقد غدت حياة(ولدهول) جحيما أليما يصلاه هيوم. لم يدخر هيوم جهداً فى مواساة للمار كيز ، والمغالاة فى إرضاء نزعاته . لـكن

(١) « Dumfriessire »

صبره نفد آخر الأمر ، فتنفس الصعداء حين فصله ضابط البحرية من عمله .

والآن إلى لندن . . . إلى استراند وهو لبرن ، إلى الأطفال المشردين . . . وأبناء السفلة الساخرين ، إلى كوفنت جاردن . . . إلى المتحف الوطنى والألعاب النارية وسانت كلير وقائد الجيش بشعره المستعار ، وسيفه إلى جانبه ، وآثار من سعوط على سترته الحربية .

— « ألا تصحبنى وتحيا الجندية يا دافى ؟ إنى ذاهب إلى كندا مع فصيلة من خيرة الإنجليز لنمحو الفرنسيين من الوجود » .

— « إنى فيلسوف أيها القائد . . . وقد آن لى أن أستقر »

— « هـــذا هراء ! إن فى الرحلة الحربية ما يفيد دمك الاسكتلندى . تعلم يادافيد كيف يحيا الشجعان ويموتون ، شم بارود المعركة ، وقابل الموت وجهاً لوجه . أريد أن أتخذك أميناً لأسرارى » .

وفكر دافيد برهة . إنه يتأهب لكتابة تاريخ لإنجلترا . فهل أصلح لتحقيق هذه الغاية من الاشتراك فى حملة حربية ؟

ولم تصل الحملة قط إلى أمريكا ، لتنضم إلى الثمانية الآلاف من جنود المستعمرات فى زحفهم على كويك . فقد تراخت وزارة الحرب

البريطانية فى إمداد الحملة بالمال ، وكانت وزارة الحرب هذه فرعا من الحكومة ساءت سمعته ، وسينفذ إلى هذا السر بعد بعد بضع سنين رجل يقال له جورج واشنجتن .

واقترب الصيف من نهايته . وظلت السفن راسية فى الميناء ، وعليها رجالها أكداسا. وكان من المأثور عن وزير الحرب «أنه يضيع كل صباح نصف ساعة،ثم يضيع باقى اليوم بحثا عن هذا النصف كيف ضاع » . وقال الوزير لماأدبر الصيف ، وفات أوان الإبحار إلى كندا « سنقوم بحملتنا الصغيرة رغم ذلك ـ سأبعث بهؤلاء الشبان فى ملابسهم الرسمية الحمراء القانية وأزرارهم اللامعة إلى مكان ما . ولئن عجزوا عن طرد الفرنسيين من أمريكا، فلا أقل من طردهم من فرنسا».

ثم صدر الأمر التالى من وزارة الحرب :

« إذا هبت أول ريح مواتية فأبحروا معها إلى ساحل فرنسا، وحاولوا النزول فى لاروشيل ،أو امضوا فى النهر إلى باريس ، أو أى مكان من الساحل الغربى » .

واعترض المسكين... الجنرال سانت كلير فقال فى جرأة : «لكن يافخامة اللورد ، ألا يمكن أن تصدر إلينا أوامر أدق من هذه ؟ » .

— «لا يهمنى البتة أين تذهب السفن،وإنما يهمنى أن تغيب عن البصر».

« ليس من رجال الحملة من يعرف السواحل الفرنسية . . . وكل ما لدينا أدلاء من الهنود لهدايتنا فى برارى نيوإنجلند » .

— « أمر بالغ السوء . لكن ليس منه مفر » .

— « ألا تعطينا — لصالح حملتنا — خريطة لفرنسا على الأقل » .

— « أنها فى الجانب الآخر للمانش مباشرة ، وأنت لا تستطيع أن تخطئها » .

واستطاع أحد الوطنيين أن يبتاع خريطة صغيرة من إحدى المكتبات . . . خريطة تصلح لدرس الجغرافيا فى المدارس الثانوية وأقلع هيوم وصحبه من بليموث ، ووقفوا فى تهيب عند باب لوريان الفرنسية . وحاولوا أن يتسللوا إلى الداخل كأنهم الجرذان فلم يفلحوا ، فنكصوا على أعقابهم فى جرأة بالغة ، وأبحروا يبحثون عن ميناء آخر . وهبت عاصفة فرقت شمل الحملة ، ولكن الفيلسوف والقائد بلغا خليج كيبيرتن ومعهما أكثر الجند . وكان الكثير منهم يشكون تقلصاً فى العضلات من أثر تكدسهم الطويل فى أماكن ضيقة من السفينة . ثم كانت معركة — لم ترق

فيها قطرة دم من ألف رجل . وانتحر أحد رفاق هيوم تقززاً واشمئزاز ! .

وما مضى عام حتى كان هيوم قد عاد إلى إنجلترا ، وتزيى بزيه المدنى ، وصار على تمام الأهبة لـكتابة تاريخه الضخم .

— ٤ —

واشتغل رئيساً لمكتبة كلية الحقوق بإدنبرة . وهو منصب حسن ، لا يمنح مرتباً عالياً ، ولـكنه يتيح قراءة كثير من الـكتب ، وفراغاً عريضاً للـكتابة . وجعل يـكدح فى كتابه « تاريخ حكم آل استيورت » . ولقد تضخم جسمه جداً من طول الجلوس إلى عمله . وكان قد استغل أمواله فى حذق ، وأصاب مالا وفيراً . وأصبح فى المجتمع علماً . . . أو أسداً كما يقولون . . . ولـكنه أسد غاية فى الوداعة والسلاسة والبدانة والبطنة الجليلة . وكان إذا سافر فى عربة فمالت إلى جانب ، مال بجسمه على رفاقه فملئوا رعباً . ولما ذهب فى زيارة دبلوماسية فرنسا ورأته حاشية الملك ، أعفته من المواضعات التقليدية ، كالانحناءات والمسير يظهره حين الإنصراف « أيها السيد ! لا عليك من آداب

المواضعات ، أنت لم تتعود هذه الحركة . . . والأرض ملساء لا يؤمن معها الانزلاق » .

ولـكنه لقاء كل هذا العطف لا يعامل الدنيا إلا بشموخ فائق فهذا الجيل الآدمى يبدأ ويبدع أسراباً من النظريات تنطلق كالجراد لتأتى على نبات المثل العليا . . . ذلك النبات الذى يحل من قلوب الناس فى أعز مكان » . يقول أصدقاء هيوم عنه « إن داڤيد على كرم سجيته يجب أن يصدم الناس فى آرائهم » . وسرى همس بأنه غير مؤمن ، وحضر مرة للعشاء فى منزل صديق له من الأتقياء فغادر المـائدة فجاءة مصراً على ألا يتناول طعامه فى حضرة عدو .

— « عدو ؟ » .

— « نعم » بذلك أجاب فى إصرار ، مشيراً إلى الـكتاب المقدس وكان فوق النضد « خذه بعيداً » .

— « ولـكنك ياداڤيد اسكتلاندى ، وكنت غاية فى الاعتدال والطيبة ، وكنت إنساناً هادئاً معتدل المزاج » .

فأجاب داڤيد « لازلت رجلا طيباً معتدل المزاج عاقلا ،

أريباً ، فاضلا ، مقتصداً ، منظماً ، هادئاً ، طيب النفس . . . سيء الخلق .

وأكمل تاريخ أسرة استيورت ، وهو كتاب تنبو به العقائد المألوفة ، ولم يسبق أن كتب مثله فى التاريخ . فقد أغضب شتى الطوائف التى يحتمل أن تقرأ الكتاب.أغضب الأحرار والمحافظين ، والملكيين والثوريين ، والعقلاء ، والمجانين والمغرورين . « لقد قررت أن أصم أذنى دون صيحة التعصب الشعبى » .

وجعل أوغاد القصة هم رجال الصناعة ، الذين أطاحوا بعرش شارل وجيمس استيورت . وجعل من الملوك الطغاة أبطالا ، وهاجم الإصلاح البروتستنتى ، والحرب الأهلية الإنجليزية ، وكتب عن كتابه متهللا « الواقع أنى قلما سمعت عن شخص واحد أطاق هذا الكتاب فى الممالك الثلاث ـ إنجلترا واسكتلندا وإيرلندا » . ولم يحدث لكتاب من قبل أن آثار مثلما آثاره هذا الكتاب من العداء . فشجعه ذلك تشجيعاً كبيراً ، فتابع رحلته إلى عصر اليصابات فى إنجلترا — وفى هذا البحث أهان الأحرار بتهجمه على الدستور البريطانى ، كما أهان اليعقوبيين أتباع جيمس الثانى بتهجمه على مارى ملكة الاسكتلنديين .

وحينئذ ذكر فريق من الناس أنه ذلك الاسكتلندى الخطر الذى كتب من بضع سنوات رسالة فى الطبيعة البشرية ، أنكر فيها أنه يمكن إثبات وجود شيء طبيعى أو إنسانى فى العالم . ولم يكن الكتاب وقت صدوره قد استرعى غير قليل من الانتباه ، ولكنه منذ ذلك الحين قد تابع كتابة مقالاته فى مثابرة وإصرار حتى أصاب كثرة من الأعداء وقلة من الأصدقاء حذرين . وكان بعض من يريدون به الخير يقول همساً : لقد فشلت فى أن أجعل منه إنجليزياً . لماذا يلوّح فى وجه الجمهور بعلم أحمر ؟ لقد مجه كل العلماء » فعلق هيوم على هذا بقوله مبتهجاً « هذه بشائر الشهرة الأدبية » وهل ينتظر غير ذلك من اسكتلندى لازم مجنوناً طيلة عام كامل فى ولد هول ؟!.

وكان قد ألف كتابين هدامين جهد الهدم ، أحدهما مقالة يدافع فيها عن الانتحار ، والآخر مقالة ينكر فيها خلود الروح . فرجاه أصدقاؤه ألا ينشر هذين الكتابين ، ونزل على رجائهم ، ونشر بدلا من ذلك رسالة مطولة فى « التاريخ الطبيعى للدين » وفيها تعقب الحجج التى تؤيد الخلود فى تفصيل لم يُسبق إليه ، فدحضها واحدة بعد واحدة ، وأعلن « أن العالم كله إنما يمثل فكرة طبيعية

عمياء . . . تُلقِى من حجرها دون تمييز أو رعاية أبوية بأبنائهـا المشوهين والمجهضين » . وقد سار فى هذا الكتاب على مألوف عادته فلم يظهر أى احترام للمسيحية ، بل ذهب إلى أن خير وسيلة يصير بها الانسان مسيحياً حتى أن يكون متشككا . أما عن الله ، فعلى فرض وجوده — كما يقول هذا المتشائم المتهلل — فمن التناقض أن تنتظر منه أى عطف ، لأنه إن كانت له ميوله بشرية، فلابد أن به عيوباً بشرية . وأهم هذه العيوب « الاغضاء التام عن المخلوقات التى تقل عنه شأناً » وبهت الجمهور الانجليزى لهـذه الكلمات . وقال أحد المطارنة متعجباً : « أظن أنى لم أر قط عقلا أوفر من هذا شراً ، أو أمعن إصراراً على الشر » .

— ٥ —

على أن هيوم إن مقته الإنجليز ، فما أسرع أن مالت إليه نفوس الفرنسيين ، وعدوه ڤولتير الإنجليز ، فسروا حين سمعوا أنه قبل وظيفة بمكتب سفير إنجلترا بفرنسا . وكان الكافر العملاق ، وتربة اسكتلندا عالقة بأظفاره ، يضطرب فى قلعة الكفر . وقال متباهياً : « إنى أحمل معى أربعة كتب فقط ، هى كتاب لفرچيل ،

وثان لموارس ، وثالث لتاسو ، ورابع لتاسيتوس » فعلق العقليون الفرنسيون على ذلك بقولهم « هذا يشرف سمعته ، فلو أنه كان أقل شأناً لحل معه الإنجيل » .

وقدم المملاق المتشكك النابه الذكر إلى الأسرة المالكة . وتعرض لنا بعض الكتب التي بعث بها هيوم من باريس صورة طريفة لاستقباله فى البلاط الملكى . فهذا كبير أحفاد الملك دوق برى ، وهو صبى فى العاشرة ، يقول فى حلاوة حلوة « أيها السيد إن لك فى هذا القطر ذكراً نابهاً ، واسمك ذائع هنا جداً ، وأنه ليسعدنى أن ألقاك » ثم ينحنى الطفل الثانى ، كونت بروفانس ، وهو صبى فى الثامنة ، ويقول سيدى . كنا ننتظر قدومك إلى هذا البلد بصبر نافد ، وإنى لأتعجل اليوم الذى أتمكن فيه من قراءة كتابك البديع تاريخ إنجلترا ، ثم تقدم كونت آرتو وهو فى الخامسة ، وانحنى وهمهم بكلمة فى منتهى الأدب عن تاريخ هيوم . وتلته أخته الطفلة الصغيرة فلم تزد على الانحناء . . . ولم تقل شيئاً فقد كانت أصغر من أن تستظهر كلمتها .

وبينما هو يتناول الحلوى الشهية ، يتلقى بسمات السيدات فى

ندوة (كاتر جلاس) وكبار الأشراف يقامرون خلف الستر كان عليه أن يكرر حقائقه الأساسية مرات .

ـ « نعم يا أستاذى الفيلسوف » .

ـ « ويا أستاذى فى الآداب ، أتقول أن ليست لنا عقول ، وليس لدينا شىء نفكر به ؟ ما أعجب قولك ؟ .

فيقول هيوم عابساً « سيدتى ، إنى لا أقول شيئاً من هذا القبيل » ويعلق دى بوفيه على ذلك قائلا « إنه يعبس لسخف اعتقادنا بأن الأشياء والناس لا بد لوجودها من سبب ضرورى . كيف يكون للعالم سبب إذا لم يكن ثمة علة قط » .

ـ « عفواً ولكن شيئاً واحداً له علة . . . الحب » كذلك يقول نبيل من النبلاء وهو ينحنى ليقبل يد محبوبته .

وتهمس آنسة فى أذن صاحبتها : « وإذا أمسك الزوج بتلابيب الحبيب ، كان ثمة علة لمروق السيف فى أحشائه » .

فتقول مدام بوفيه « إنها تقاليد . . . مجرد تقاليد سخيفة . ما أصدق قول مسيو هيوم : ليس فى مثل هذا الإجراء منطق »

فيقول أمير كونتى فى صوت خفيض رتيب « إن مسيو هيوم يقول: أن ليس فى أى شىء منطق » .

« لا ريب أن سلوكه الشخصى خال من المنطق » كذلك قال شاب خبيث ، فى صوت منخفض .

والواقع أن مسلك هيوم لم يكن مما يناسب كرامة فيلسوف . لقد اندفع فى حماقه فأحب خليلة أقوى نبلاء فرنسا « تستطيعين أن تمزقينى إربا ، ولكننى سألقى الموت على عهد الهوى » على هذا النحو كان يبكى لما مُرّ البكاء . وكأنه صبى من صبيان المدرسة .

ووقع المتشكك العظيم فى شباك حب آخر أشد من هذا عجبا ، فهو يحتضن روسو صائحاً : « إنى أومن بچان جاك » وكان روسو فذاً فى سوء سمعته ، فقد بذ فى هذا المضمار كل مجانين الفلسفة فى هذا القرن ، وأخذ معه ذلك المتنبىء فى سترته الأرمنية إلى لندن ، كما أخذ معه عشيقته وكلبه وسرعان ما تشاجر الملحد المرح ، مع المعجب الأمين ، وكان لهذا الشجار صدى دَوّى فى أرجاء العالم . .

- ٦ -

وكان ربيع عام ١٧٧٦ ، فكتب الفيلسوف ترجمة حياته ، وكان قد بلغ الخامسة والستين من عمره ، وهى ترجمة إنسان أصابته الحياة بحيرة أليمة . وكانت سيرته آخر وصايا مؤمن يستعرض أطوار نمو ما يطيب للناس أن يسموه « كفرانه » . لقد ولد تقياً ، ولكنه فى سياق الأحداث فقد تقواه وكسب دينه . ذلك أن عقله القوى لم يسعه قبول تعاليم الكنيسة الجامدة ؛ بيد أنه ظل إلى آخر أيامه متمسكا بفلسفة إيمانية يتضاءل أمامها اللاهوت التقليدى الذى شاع فى تلك الأيام .

لم يفهمه من أحبوه ، ولم يفهمه من كرهوه لأنه لم يقتصر على مهاجمة سخف الخرافة ، ولكنه كذلك نسف أسس العقل .

لماذا يبحث الناس عن الأسباب والنتائج ؟ أهى ضربة لازب أن توجد علاقة فى عالم الأشياء ؟ الواقع أننا نشعر بتتابع فى التأثرات فنربط بعضها ببعض ، لأن الذاكرة واللذة تميلان بنا إلى ذلك ، فنكون منها ما يلذنا أن نحسبه قوانين العلة والمعلول . فإذا لاحظنا طائفة خاصة من الحوادث ، تتبع دائماً طائفة أخرى منها أخذنا فى

فتراض وجود سر ورابطة لا بد منها بينهما. ولكنا مهما نحاول لانستطيع مطلقاً أن نرى الرابطة المستكنة. فإذا فرضنا أن هذا الشيء أو ذاك نتيجة العلة سابقة، وجب أن نفترض أن هذه العلة السابقة إنما هي كذلك نتيجة العلة تسبقها. وهكذا إلى مالا نهاية.

وهكذا نضطر إلى الرجوع إلى الوراء فى سلسلة لا تنتهاية من الأسرار الغامضة إذا أردنا أن نفهم علة أى شىء من الأشياء.

ويقول هيوم مؤيداً نظريته: « الواقع أن أى تجربة لا يسمها أن تسبب تجربة أخرى كما لا تستطيع حقيقة أن تنتج حقيقة أخرى تخالفها تمام المخالفة. ويتساءل: كيف يمكن مثلا الاحتجاج بأنه مادام حرف (ب) يلى حرف (ا) فحرف الباء هو لذلك نتيجة مباشرة لحرف الألف. لماذا نغفل الخطوات بين الحرفين... ا١ ا٢ ا٣ ا٤... وهكذا... وهكذا... أنى لنا أن نعرف أن هذه السلسلة اللانهائية بين الحرفين سلسلة محكمة الحلقات من العلة والمعلول؟ لهذا فإن ما يدعونه « قوانين السببية... لايفسر شيئاً على الإطلاق ».

إن التجربة تتركب من أحاسيس عشوائية، ونحن ندرك

كل إحساس حين يصل إلينا ، وإن أطوار العقل البشرى الشاذة هى التى تفترض وجود وحدة باطلة بين الظواهر الخارجية التى تقع على حواسنا .

والواقع أننا نفترض أن العالم كما عرفناه بالأمس سيكون هو بذاته عالم الغد ! نفترض أننا وقد رأينا كرة من المطاط تعود إلينا كلما قذفنا بها فى الهواء فى الماضى ، فإن كرة المطاط ستسلك نفس السلوك مستقبلا . ذلك لأننا صغنا فى عقولنا قانوناً عاماً للكرة . ولكن الحقيقة أنه ليس ثمة علاقة بين قانون الأزلية ؛ وبين التجربة الواقعة فى هذه اللحظة . فنحن إنما نجد أشياء مفردة فى علاقات وقتية ولا ندرك آراء مجردة ذات علاقات دائمة .

من أين إذن تأتى أحكامنا العامه ؟ إن أحكامنا فى الواقع أدوات لتصنيف التجارب وتحليلها على أساس من التماسك يشتد ويضعف ، وعلى أساس من الاحتمال يشتد ويضعف كذلك . فالعالم كما نعرفه ليس سلسلة من أسباب ماضية لا ريب فيها ، ونتائج لاحقة لا سبيل إلى اجتنابها . . . إنما هو تتابع الاحتمالات فى الماضى والمستقبل .

وقد أحدثت فلسفة هيوم هذه ثورة فى الخواطر بطبيعة الحال .

فكشفه عن قصور العقل على هذا النحو ، قد جر عليه ثناء غير متعقل ، وهجوماً غير متعقل كذلك . فإذا كان العقل مجرد أثر من آثار المادة ، وإذا لم تكن هناك علاقة ضرورية بين الأشياء نفسها فما مصير معلوماتنا الوثيقة ؟ إنه لا يمكن فى هذه الحال أن يتهيأ « علم وثيق » بشىء من الأشياء ، وإنما هى مجرد استنتاجات لا تنتهى ، وليس من شىء « أكيد » غير الأحاسيس العرضية الاتفاقية غير المتصلة .

وكان لوك قد قرر أن كل معلوماتنا إنما تأتينا عن طريق خبرتنا الحسية « وأن العقل ليس به غير ما كان فى الحواس أول الأمر » . فذهب هيوم خطوة أخرى فقال « إن علمنا بأنفسنا وعقولنا يصلنا أيضاً عن طريق الحواس . فما حقيقة العقل ، الذات الشخصيه التى تسمى « أنا » ؟ إنها حزمة من الخواطر والمشاعر والعواطف تتجمع بالاستنتاج حول شىء ثابت بعينه . وكل خاطر يتلوه أبداً خاطر جديد ، وكل إحساس يتلوه دائماً إحساس جديد . . . ففى لحظة تكون الذات غضباً ، وفى اللحظه التالية تكون رضى ، وتكون فى ثالثة أسفاً . وندرك هذه الآراء والذكريات والمشاعر منفصلا بعضها عن بعض ، ولكن لا ندرك وحدة تسمى العقل .

فنرجح أشد الترجيح أن بين الخواطر والمشاعر علاقة دائمة هى « أنا » الخالدة ، التى تكمن وراء ما تتجلى به الذات من مظاهر دائمة التغيير . . نرجح هذا ولا نؤكده .

ونحن إن نفصل الصور والألوان مما نسميه عقائدنا « الوثيقة » فماذا يبقى ؟ كومة من الأحاسيس الاتفاقية الفارغة ، تدور حول نفسها فى اللاشيئية إلى مالا نهاية ، كما تدور فقاعات الصابون الجوفاء فى حوض الهباء .

وكان إنكار هيوم للعقل البشرى مثيراً لخواطر الناس جميعاً . « من أنا ؟ » سؤال شدِه له عالم الفلسفة كله ، فقاموا كالأطفال إذا خاب أملهم يصبون جام غضبهم على الرجل الذى سلبهم أوهامهم الحلوة ، وسلكوه فى عداد الخونة والملحدين الأوغاد . . . ورفضوا أن يستمعوا إليه .

لكن البشر إن يفقد إيمانه بهيوم ، فقد ظل هيوم الشهم أبعد ما يكون عن فقد إيمانه بالبشر ، فقد صمم على إنقاذ العالم من أوهامه .

لكنه لم يكن دائم الثقة بنفسه . « إنى أتعشى وألعب النرد وأتناقش وأمرح مع صحابتى ، فإذا عدت إلى تأملاتى بعد ساعات

الذى يحمل أرواح الموتى فى قاربه إلى الضفة الأخرى . أى عذر أستطيع تقديمه لأطيل بقائى على هذا الشاطىء بعض الوقت ؟ لسوف أقول مستعطفاً « أتوسل إليك يا كارون الكريم أن تترفق قليلا . دعنى ألبث برهة . لقد انقضت السنون الطوال وأنا أحاول أن أفتح عيون الناس ، فإذا مد فى عمرى سنوات قليلة أخرى ، فلعلى أسعد بوقت انهيار الخرافات التى حاربتها » . ولكن كارون سوف يثور بى لا محالة ، ويتفجر غضباً « أيها الحالم الذى لا يصحو من حلمه ، إن ذلك لن يحدث ولو بقيت ألف سنة ... أتحسب أنى أمنحك مهلة فى الحياة طويلة إلى هذا الأمد ؟ هيا إلى قاربى تواً ، أيها الوغد الكسول المتسكع المتفائل الأحمق » .

— ٧ —

وكتب هذا المؤمن المفكر فى ترجمة حياته فى ربيع عام ١٧٧٥ « أصبت باضطراب فى أمعائى استعصى على العلاج ، وأنا أعول الآن على انحلال سريع » . كذلك كان ينتظر آخرته فى هدوء . إنه ليصعب على الإنسان أن يفوقه زهداً فى الحياة « ولأسدل الستار على شخصيتى تاريخياً أقول إنى رجل ـ أو بالأحرى كنت رجلا (فإن علىّ الآن أن أستخدم صيغة الماضى حين أتحدث عن نفسى) هادىء المزاج ، مسيطراً عل شعورى . . . ولا أستطيع الزعم بأن إلقاء خطاب الرثاء هذا يخلو من الزهو ؛ ولكنى أرجو أن يكون صادقاً » .

ولما علم صحابته أنه قد أشرف على الموت ، هرعوا جماعات ليقدموا إليه تحيتهم الأخيرة . وكان بأغلبهم شوق خفى إلى أن يروا كيف يتأهب للموت فى تعقل ، ذلك الرجل الذى غض من شأن العقل . ولو قد ظنوا أنه سيعروه تغير لخاب ظنهم . لقد رأوا حطاماً هزيلا أشبه بالشبح ، لمن كان يوماً رجلا ضخماً بديناً ، ولكن اللألاء المرح لا يزال فى عين الفيلسوف على عهده .

قال لأصحابه : « إنى لأتساءل كيف أستطيع لقاء كارون ،

الذى يحمل أرواح الموتى فى قاربه إلى الضفة الأخرى . أى عذر أستطيع تقديمه لأطيل بقائى على هذا الشاطىء بعض الوقت ؟ لسوف أقول مستعطفاً « أتوسل إليك يا كارون الكريم أن تترفق قليلا . دعنى ألبث برهة . لقد انقضت السنون الطوال وأنا أحاول أن أفتح عيون الناس ، فإذا مد فى عمرى سنوات قليلة أخرى ، فلعلى أسعد بوقت انهيار الخرافات التى حاربتها » . ولكن كارون سوف يثور بى لا محالة ، ويتفجر غضباً « أيها الحالم الذى لا يصحو من حلمه ، إن ذلك لن يحدث ولو بقيت ألف سنة ... أتحسب أنى أمنحك مهلة فى الحياة طويلة إلى هذا الأمد ؟ هيا إلى قاربى تواً ، أيها الوغد الكسول المتسكع المتفائل الأحمق » .

فولتير

فرانسوا مارى أرويه

١٦٩٤ — ١٧٨٨

- ١ -

كان ڤولتير الماجن الهازل فى بلاط فلاسفة الملوك فى العالم . بدأت حياته بنكتة ، فهو حين ولد كان أقرب إلى الموتى . فكان على الممرضات أن يلطمنه حتى تدب إليه الحياة . وقدرن لحياته أربعة أيام على الأكثر . لكنه سخر منهن جميعاً وعاش أربعة وثمانين عاماً. وختمت حياته بنكتة ، فإنه وهو على فراش الموت أقبل القس ليسمع إلى اعترافاته ، ويغفر خطاياه ، فإذا هو يسأل القس : « من بعث بك إلى هنا أيها السيد ؟ » فأجاب القس : « أرسلنى الله نفسه ياسيد ڤولتير » فكان رد ڤولتير عليه « أى عزيزى . . . أين أوراق اعتمادك إذن ؟ » .

وجعل ڤولتير همه طيلة نصف قرن أن يحطم بسخريته ما فى

العالم من ادعاء ونفاق . فهتك أستار الدبلوماسية التى كانت تستر النظم السياسية والاجتماعية لذلك الزمان . فتكشفت الأستار عن الحقيقة المرة ، التى يعبر عنها بقوله : « إنى أضحك ... لأتقى الجنون » .

— ٢ —

وكانت حياته كلها تناقضاً . فهو يزدرى بنى الإنسان ، لكنه شديد الكلف بأفراد هذا الجنس . وهو يهزأ برجال الكنيسة ، لكنه يهدى أحد كتبه إلى البابا ، وهو يسخر بالملكية لكنه يقبل معاشاً من الملك فردريك الأكبر . وهو يمقت التعصب ، لكنه تعصب فى عدائه لليهود . وهو يتهكم على باطل الثروة وعدم غنائها ، لكنه يجمع ثروة طائلة (بأساليب ليست شريفة دائماً) . وهو كافر بالله ، لكنه يحاول طول حياته أن يجد الله . وهو لا يحترم الدين أى احترام ، لكنه يخلق دين « التهكم الجديد » . وهو قاس كالنمر إذا أسلم زمامه للغضب ، لكنه إذا ثارت عاطفته ، وخاصة حين يرى ظلماً ، ألقى بصوالحه الشخصية جانباً ، واندفع

سنوات كاملة متصلة يؤدى ذلك الواجب الخطر ، واجب إعانة الضعيف على القوى .

وإنه فى نحوله لأشبه بهيكل العظام ، طويل الأنف ، مجدور البشرة ، خرزى العينين ، ساحر متهكم . وهو فى غالب الظن أقبح الباريسيين خلقاً ، وأقربهم إلى نفوس الناس مكاناً ، وخاصة النساء . وهو على ضعفه الجثمانى الذى لازمه طول حياته ، آية فى النشاط والحركة . حاول حين إعداد الممثلين لأداء مسرحية ميروب Merope أن يبعث السرعة فى حركات إحدى الممثلات ، فقالت له شاكية « لكى أمثل على النحو الذى تريد ، يجب أن يتقمصنى الشيطان » فرد عليها فولتير قائلا « هذا ما أريده على التحديد . يجب أن يتقمصك الشيطان إذا أردت النجاح فى أى فن من الفنون » .

وكان هذا سر نجاحه هو . فالشيطان كان فى جسده كما قال سنت بيف . حقاً كان فولتير مزاجاً من الشيطان وأرسطوفان وربليه وغير قليل من القديس فرانسيس .

كان أبوه ينسنياً ، وفى هذا نفسه تناقض ، لأن الينسنيين طائفه من الكاثوليك البروتستانت ، تأخذ على الكنيسة تزمتها

فى التزام العقائد المقررة ، وتصر على أن يدرس الإنجيل دراســة شخصية ، وأن يفسره كل امرىء لنفسه . وكانوا كالمتطهرين الإنجليز يحتقرون ملاذ الدنيا ، ويبشرون بنظرية العالم الآخر . وكان دأبهم — كما أوضحه تقى من مؤرخيهم — أن يجلوا الناس عن الأرض ، وأن يعمروا السماء بجديد من المواطنين .

فى هـذا الجو مضت أيام الطفولة الأولى لڤولتير — وكان اسمه الحقيقى فرانسوا مارى أرويه . ماتت أمه فى طفولته ، وفرض عليه أبوه عقيدته فى التصوف المجرد ، واشتط فى هـذا ، فشب ڤولتير وفى نفسه ظمأ ثائر إلى الحقائق المادية . إنه يكره الينسنية كراهة أصيلة .

لـكنه شب وفى نفسه كراهة أخرى ، كـكراهة اضطهاد الينسنيين ، وكراهة أى نوع آخر من الاضطهاد . فعنده أن احتقار الفـكرة شىء ، ومعاقبة معتنقيهـا شىء يختلف عن الأول كل الاختلاف . كان ڤولتير فى الخامسة عشرة حين حطم لويس الرابع عشر كلية الينسنيين فى بورت رويال ، وأمر بمحراث لحرث مقابر « القديسين من موتاهم » وإن ڤولتير ليـكره القديسين ، ولـكنه يثور على البغاة الذين ساموهم العسف والقهر . وإن ڤولتير

ليهتدى إلى رسالته الآن فى الحياة، فقد كرسها لإنزال البغى بالباغين ، بسلاحه القلم والبيان .

على أن أباه كان رغم عقيدته الينسنية ، محاميا على النزعة وكان هذا من نقائض تلك الأسرة العجيبة . فحاول أن يثنى عزم ولده عن حرفة الأدب وقال له : « إن حياة الأدب لا غناء فيها ، فهى طريق إلى الموت جوعا » وبعث بڤولتير إلى مدرسة الحقوق فور تخرجه فى كلية لويس الأكبر للجزويت (وكان فى السادسة عشرة) ، فأهمل فولتير دراساته القانونية ، ووهب وقته كله للشعر والميسر والحب . وبذل أبوه جهداً أخيراً لرد ابنه المتلاف إلى الروية والتعقل ، فهيأ له عملا فى خدمة ماركيز سانت إنج ، وهو سياسى مسن ، يعرف من الناس كل من تغنى معرفتهم . وكان إلى ذلك يختلف إلى قصر الملك لويس الرابع عشر ... يدلف إليه من مدخل خلفى ، إن صح هذا التعبير . وكان يزهو بدقة علمه بشئون الحياة جميعاً ، العام منها والخاص ، وصلته الوثيقة بجلالة الملك العظيم ، أو « الشمس المشرقة » كما كان يدعوه الناس. وكان يحلو له أن يتحدث بحكمة سيده الملك وحماقته . وبينما هو يتحدث كان ڤولتير يقيد بعض ما يسمع . فقد كان أساس كتاب تاريخى يصدره فى قابل الأيام .

وحذر الماركيز ذلك الشاب الذى يعيش فى حماه من أن يتخبط فى سيره بين المطامع والمنافسات والأحقاد التى يضطرب بها القصر. وكفل لڤولتير ألا يصيبه سوء من خارج نفسه ، لكنه عاجز عن حماية ڤولتير من شىء واحد ... هو لسان ڤولتير الحاد اللاذع .

ولا يكاد الموت يطوى لويس الرابع عشر عام ١٧١٥ ، ويغدو فيليب لورليان وصياً على العرش ، حتى يصبح الوصى غرضاً لكل تهكم كبته العهد الجائر ، عهد الملك الشمس . ويشترك فولتير مع العابثين فيهجو الوصى هجاء يجزى عليه بأحد عشر شهراً يقضيها فى الباستيل .

وتسمى بڤولتير فى أثناء هذه الشهور . وصار يعرف بهذا الاسم فى عالم الأدب . وكتب فى أثنائها أول تواليفه الأدبية ، وهو ملحمة شعرية تتناول حياة هنرى ملك نافار .

وأعقبت مدة السجن عقوبة أخرى ، هى النفى من باريس مدة عام . وكتب فى أثناء المنفى مأساته الأولى « أوديب » ، وظلت تعرض فى ملاعب التمثيل خمساً وأربعين ليلة ... وهى مدة فريدة ، فاقت ماحظيت به مآسى كورنى وراسين نفسها .

وليس كالنجاح باب إلى النجاح . فالوصى لايكتفى بالعفو عن فولتير ، بل يمنحه وساماً ، ويقرر له معاشاً ، عرفاناً بكفايته المسرحية

فيشكر ڤولتير للوصى عنايته بأمر مسكنه ، ويرجوه ألا يعنى بهذا الأمر فيما بعد ، لأنه يؤثر خشونه بيته على « وثارة » الباستيل .

وكتب بعد أوديب عدداً من المآسى الناجحة ، درت عليه مالا غير قليل! فاستثمر هذا المال فى مهارة وتوفيق كأنه بعض وسطاء الأسواق المالية . وقامت الحكومة يوماً بإصدار أوراق اليانصيب ؟ فما كانت أشد دهشة القائمين عليه وهزيمتهم حين اشترى ڤولتير الأوراق جميعها جملة ، ونال الجوائز جميعاً .

وتتابعت التمثيليات ؛ وتتابع النجاح ، وزاد الثراء ... ثم يجد نفسه فى الباستيل من جديد ... وهاك تفسير ما كان : كان فى الأوبرا ذات مساء يفىء على الصحب ما تعود من دعابة ومرح وإذا أحد الأشراف يسير إليه فى توقح ويقول « أرويه ، ڤولتير ، ما اسمك الحقيقى ؟ » وكان المتحدث هذا فارس روهان ، يحمل اسماً من أنبل الأسماء الفرنسية ، وإن لم يفعل شيئاً يشرف هـــذا الاسم فألقى ڤولتير على الفارس نظرة عجلى ، وعاد إلى ما كان فيه من حديث دون أن يجيب الفارس عن سؤاله . ولـكن روهان ليس ممن يسهل إهمالهم على هذا النحو ، فصاح فى قحة « أسمعت سؤالى ؟ أريد أن أعرف من أنت » . وكان ڤولتير حاضر الجواب هذه المرة

فقال « الإسم الذى أحمله مغمور يامولاى ، بيد أنى — على الأقل — قد أضفيت عليه الشرف » فاحتقن الدم فى وجـــه الفارس ، ثم استدار وانصرف .

وفى الليلة التالية هاجمت ڤولتير عصابة من أشرار روهان المأجورين وانهالت عليه ضرباً . فتحدى ڤولتير الفارس أن يخرج لمبارزته ، ولـكن الفارس كان يخشى أن يكون سيف ڤولتير حاداً بتاراً كلسانه فطلب إلى رئيس الشرطة أن يحميه ، واتفق أن كان من أبناء عمه ، فقبض على فولتير ، وبعث به إلى الباستيل ، ليجزى على « حديثه الخائن ، وسلوكه الشائن » .

ولا يكاد يطلق سراحه من الباستيل عام ١٧٢٦ حتى يغادر باريس بألقابها وأشرارها ، ويلتجىء إلى إنجلترا . ويبلغ لندن يوم ميلاد الملك ؟ وقد أقيم له احتفال على أمواه التيمز ، ومر موكب الزورق الملـكى تصحبه « الموسيقى المائية » فيسير ستة أميال بين سفن « منشورة الشراع » . فاهتزت مشاعر فولتير لهذا المشهد .. مشهد هذه الجزيرة الحرة القائمة على باب قارة مستعبدة ... لقد اهتدت عبقريته المرهفة إلى مكانها اللائق بها فى هذا الوسط الجديد ، فتعلم اللغة الإنجليزية فى يسر كعادته ، ولم يمض عام حتى كان قد ألمّ بكل أدبها عدا شيكسبير . فالفيلسوف الفرنسى الضاحك لم يسعه قط أن

يفهم العقل الإنجليزي حين يوفى على غايته، كما عجز الفلاسفة الإنجليز دائماً عن فهم العقل الفرنسي حين يبلغ أوجه فهذا ڤولتير يعد شيكسبير فى الهمج ، وهذا كارليل يثأر لشيكسبير بعد قرن من الأمان فيدعو ڤولتير بالمجنون .

أن ڤولتير لم يقدر أعظم الإنجليز مكانة فى الماضى ، ولكنه وجد بين إنجليز الحاضر من يوائمه . فهو تعجبه حريتهم فى التفكير، وشجاعتهم فى عرض آرائهم . وتعرف بالكويكريين وأعجب بمحاولتهم « رد بلاد المسيحيين إلى المسيحية » حتى لقد بلغ من أمره أن فكر فى اتخاذ إنجلترا دار إقامة . وكتب إلى صديق باريسى يقول « يستطيع المرء فى هذا البلد أن يفكر حراً دون خوف من الإذلال والامتهان . ولو طاوعت نفسى لجعلت فيه مقامى ... إن لم يكن فى ذلك ميزة غير تعلم التفكير الصحيح » .

لقد بدأ فعلا يفكر بالإنجليزية ، ودعم تأملاته الفلسفية بذخيرة علمية ... وأولع أشد الولع بالحكومة الدستورية ، وأبغض الملكية المطلقة أشد البغض . وكان لجوناثان سويفت فضل تحوله من مراهق متهكم ، إلى ساخر ناضج .

ولا مراء فى أن الآلهة قد طربت لسماع أكبر ساخرين فى ذلك

القرن يتبارزان باللسان . وكتب ڤولتير أمتع رواياته الخيالية Micromégas (الصغير الكبير) متأثراً برحلات جلڤر . ولم يبلغ ڤولتير من لاذع التهكم ما بلغ سويفت ، فقلمه كان يدغدغ ، بينما قلم سويفت يصرع ويردى . ولكن خياله كان أخصب من خيال صاحبه . وكتابه هذا يسخر فى مرح وادع بزهونا حين نعتقد أننا نؤدى فى الكون دوراً خطيراً. فالصغير الكبير أحد سكان الشعرى اليمانية، يبلغ طوله نصف مليون من الأقدام، يقابل أحد سكان زحل، وهو قزم لا يجاوز طوله خمسة عشر ألفاً من الأقدام . ويتفقان على جولة يجولانها فى الفضاء . وكان الزحلى قريب عهد بالزواج، فتعترض زوجه على ترحاله، ولم يمض غير شهر عسل غاية فى القصر ، لم يجاوز المائتى عام .. بيد أن الزحلى يعزيها عن رحيله فيؤكد لها أنه عائد عما قريب. ويقفز الصاحبان فوق ذيل نجم مذنب، ويسبحان عليه بعيداً بين النجوم .

وأخيراً يهبطان ... فلا ينزلان من كل بقاع الكون إلا بذرة تافهة تدعى الأرض .

ويسيران فى البحر المتوسط ، وهو عندهما لا يعدو بركة من الوحل ، فيبصران سفينه فوقها نفر من الفلاسفة ، عائدة من رحلة

قطبية . وتبدو السفينة لساكن الشعرى غاية فى الصغر ، يحتاج تبينها إلى المجهر فيخرجها من البحر ، ويضعها على أظفره ، ليبحثها عن كثب . ولا يكاد يتأمل السفينة بعض الوقت حتى تأخذه الدهشة حين يستبين فوقها ذرات حية، ثم تتحول دهشته إلى متعة ، حين تخبره هذه الذرات أنها مخلوقات بشرية ، خالدة الروح ، وأنها صيغت على صورة الله ، وأنها تعتقد أنها مركز الكون .

ويوجه ساكن الشعرى إليهم أسئلة ، يستبين بها شيئاً عن حياتهم ، فيعلم أن هذه الديدان المضحكة ، تقتتل معظم وقتها على الأرض . قال له أحد الفلاسفة إنه « فى هذه اللحظة يقوم من جنسنا مليون من المقبعين بذبح مليون من بنى جلدتهم المعممين » ويردف المتحدث من بنى الإنسان « وقد نشب هذا الصراع على كومة صغيرة تسمى فلسطين » . ولا يدعى أحد من هذين المليونين المقتتلين أنه صاحب أى حق فى أقل ذرة من تراب فلسطين. فالمسألة ليست إلى من تؤول فلسطين من هؤلاء المحاربين ، بل هل تؤول إلى شخص معين يقال له السلطان ، أو إلى شخص آخر يكرمونه باسم الملك (ولست أدرى سبباً لمنحه هذا اللقب) .

ويختتم الفيلسوف حديثه قائلا : « وهذه المذبحة الحمقاء لا زالت

ناشبة فى كل بقاع الأرض من زمن قـــديم لا تحيط ببدايته ذاكرة أحد » .

هذه إذن هى حال تلك الذرات المجنونة التى تقطن ذلك العالم الصغير المضحك ، كما تراءت للمسافرين السماويين ، ثم يناقشان بعد ذلك فيلسوفا صغيراً (من أتباع لوك) ، فيجدانه مخلوقاً ضئيلا لا يخلو من ظرف . لـكن كان بالسفينة لسوء الحظ عالم غر يلبس قبعة عريضة وجلبابا ، فيقطع الحديث على الفلاسفة ، ويتأمل الزائرين السماويين ، ويطيل التأمل فيهما . ثم يعلن أنهما وعالمها وكواكبهما وشموسهما ونجومهما إنما خلقت كلها من أجل الإنسان « ولا يكاد المسافران يسمعان هذا الحديث ، حتى يطلقاها قهقهة عالية لا تخمد ... كالتى يعزوها هومر إلى لآلهة . وكانت أكتافهما وبطناهما تهتز جيئة وذهاباً ... وهما فى هذه التشنجات . وإذا السفينة التى يحملها ساكن الشعرى على ظفره ، تقع فى جيب سروال ساكن زحل » .

وأخرج الزحلى السفينة من جيبه ، وأعادها إلى البحر ، وبدأ مع زميله رحلة العودة إلى موطنيهما فى السماء . لقد فهما أن الأرض بيمارستان ، يأوى إليه من جن من سكان الـكواكب الأخرى .

—٣—

ولم يكن (مكروميجاس) الكتاب الوحيد الذى أثمرته رحلة ڤولتير إلى إنجلترا ، فإن « رسائله عن الإنجليز » لتفوقه خطراً بمراحل ، وإن قصرت عنه إمتاعا وتسلية . وقد حاول فى هذه الرسائل أن يقابل بين حرية الإنجليز وعبودية الفرنسيين ، على أنه سلك فى ذلك طريقاً غير مباشر ، فعرض حقائقه مغلفة فى شطائر من الفكاهة ، فلم يشر إشارة مباشرة إلى استبداد الملكية فى فرنسا ، لكنه أبرز حكمة النظام البريطانى فى الحكم « إذ يدع للملك كامل السلطة فى أن يصنع الخير ، بيد أنه يغل يده إن هو حاول أن يصنع الشر » . وأطرى مجلس العموم فهو ، وإن كان فى المكانة الثانية ، صاحب النفوذ الأول . وأثنى على نظام الضرائب البريطانى « فكل أمرىء فى إنجلترا يدفع ، وكل امرىء يعطى ، لا على أساس الطبقة التى ينتمى إليها ، بل على أساس دخله » . ووجه الأنظار إلى ما ينعم به الفلاح البريطانى إذا قورن بأخيه الفرنسى « فقدم الفلاح البريطانى ليست مرضوضة من ضغط الحذاء الخشبى ، وهو يأكل الخبز الأبيض ، ويلبس لباساً حسناً ، ولا يحجم عن تغطية سقف داره بالقرميدخشية زيادة الضريبة المفروضة عليه فى العام

التالى . . . ولا يستنكف أن يفلح الأرض التى يجنى منها الثروة ... فهو يعيش فوقها إنساناً حراً » . وأثنى فوق كل شىء على ما يسود إنجلترا من حرية نسبية فى القول « فلكل امرىء حق الكلام علنا ونشر آرائه فى الشئون العامة » .

ولكنه على إعجابه بالإنجليز يشعر بالسعادة حين يلغى نفيه ، ويسمح له بالعودة إلى باريس ، لأن ضباب لندن قد تغلغل فى عظامه فهو يتوق إلى مد أطرافه الذابلة مرة أخرى تحت الشمس الدافئة فى باريس .

وكذلك رجع إلى باريس بعد أن فرض عليه النفى ثلاث سنين . . . وسرعان ما وجد نفسه فى غمرة جديدة . فرسائله عن الإنجليز ، التى لم يقصد إلى نشرها ، بل كتبها لتوزع على بعض أخصائه ، قد نشرها دون علمه ناشر غير أمين . ووقعت نسخة منها فى يد بعض رجال الحكومة ، فرأى فيها ما عناه ڤولتير فى حقيقة الأمر . . . رأى فيها شحنة من المفرقعات أخفيت فى قارب للنزهة . وكان هذا النوع من المفرقعات شديد الخطر على الاستبداد الفرنسى ، فأحرق الكتاب علناً ، وصدر أمر بالقبض على فولتير .

ولكن فولتير عازف عن زيارة الباستيل مرة أخرى . . . ففر من يد الشرطة إلى ذراعى خليلته مباشرة .

وكانت هذه شابة متزوجة تدعى « ماركيزة شاتليه » لكنها أنجبت لزوجها ثلاثة أطفال فأدت بذلك واجبها الزوجى ، وهى الآن على استعداد للعناية بملاذها غير الزوجية ، وهذا تصرف ينسجم كل الانسجام مع أسلوب عصرها . وكان الماركيز وجنده فى مكان بعيد ... فاغتنم فولتير فرصه غياب الماركيز الشيخ ، وجعل من نفسه سيداً لزوجته وقلعته . ولعل هذه الماركيزة كانت من أعجب نساء عصرها ، فهى طويلة مهيبة جليلة ... وهى إذا ارتدت الملابس الحديثة الطراز بلغت من الإغراء مبلغ فينوس . لكنها تغدو وتروح أغلب الوقت وأصابعها ملوثة بالمداد ، تغدو وقد ادثرت بميدعة قديمة ، تنقب عن أسرار الكيمياء والطبيعة والفلسفة والرياضه ، وطالما أنفقت الليل بطوله ترصد النجوم بمرقبها . وكانت فى أوقات فراغها تترجم كتاب المبادىء principia لنيوتن والإنياذة لفرجيل . . . إنها مخلوقة نادرة ذات عقل رائع ، ركب فى جسم رائع . وأصبح منزلها الريفى فى سيرى الذى يسوده فولتير كبير العباقرة ، معبد المرح الديونيسى والمساجلة الفلسفية .

هنا كان فولتير والمركيزة يستضيفان ألمع عقول هذا الزمن . ونستطيع من رسائل بعض هؤلاء الزوار إلى أصدقائهم أن نلم

بالحياة المتعددة الألوان فى سـيرى . كان الفيلسوف وعشيقته يستيقظان من باكر الصباح ، فيدرسان حتى موعد الإفطار ، وهما يتناولانه عادة فى الساعة العاشرة والنصف . وبعد الغداء يدعو فولتير أضيافه إلى مشاركته فى حوار حر ببهو مكتبه . ويستمر هذا السمر نصف ساعة على التحديد . ينحنى فى نهايتها فولتير لأضيافه فينصرفون . ويعود المضيفان بعدئذ إلى ما كانا فيه من دراسة ، ويلبثان كذلك حتى التاسعة مساء فيعلن موعد العشاء . وكان المفروض فى أثناء النهار ، والمضيفان يدرسان ، أن يمتع الأضياف أنفسهم ، كل على طريقته . فإذا تهور أحدهم واقتحم على فولتير مكتبه لم يجد به مقعداً يقتعده ، فهذه حجرة عمل ، لا حجرة لعب . فإذا كان العشاء ، عادت نفس فولتير الخصبة اللعوب فاتسعت للناس . ولم يشهد العالم منذ مجالس أفلاطون شيئاً بلغ من السمر والروعة ما بلغت حفلات العشاء فى سيرى ، فكان فولتير يمتع أضيافه بخير ما لديه من نبيذ ، ويعرض عليهم أجمل تمثيلياته ويُكد حناجرهم ضحكا عاصفا من رواياته التهكمية . فقد بدأ فى سيرى يكتب للساخرين الحكايات السهلة اليسيرة ... فكتب كانديد ، والعالم كما يسير ، وزاديج (أى صادق) ، وتلميذ الطبيعة وأميرة بابل .

والشخصيات الرئيسية فى هذه الروايات ليست أناسى من لحم ودم ، بل هى مجرد أعلام وضعها ڤولتير لتمثيل ما يرى من الآراء . . . . وما أروعها من آراء ، وما أمتعه من ثوب خيالى كساها إياه .

وكتب (كانديد) أمتع هذه الروايات فى ثلاثة أيام ، وكان قلمه يضحك حقيقة وهو يركض على صفحاتها . ويثبت ڤولتير فى هذا الكتاب أن العالم الذى نعيش فيه قد أوفى من السوء على غاية لم يبلغها غيره من العوالم . وهذا موضوع قصة لا يكاد يجد ڤولتير ما يفوقه ظلاماً وتشاؤماً . ولكن « اليأس » نفسه إذا مسه قلم ڤولتير السحرى ، استطاع أن يصير نديماً محبوباً يبعث على الفكاهة . إن (كانديد) وهى إنجيل التشاؤم لتعد من أبهج الكتب التى عرفها تاريخ الأدب . وتبعث رواياته الأخرى على الضحك كذلك . فهو يدعو الناس إلى أن يضحكوا من مشهد آلامهم وغبائهم . وهو فى (تلميذ الطبيعة) يقارن بين البساطة البريئة فى عقل الهمجى ، والتعقيد والتضليل فى عقل المتمدين . فقد جىء بأحد الهنود الحمر من أمريكا إلى فرنسا ، وحاول

المبشرون ... تحدوهم رغبة مخلصة فى إنقاذ روحه ... أن يدخلوه فى دين المسيح . فيدرس الهندى الأحمر العهد الجديد ؛ ثم يقدم نفسه للختان والعماد ، لأنه يلاحظ أن كل شىء فى العهد الجديد مختتن ... فمن الجلى إذن أن على المرء أن يصبح يهودياً قبل أن يدخل فى المسيحية .

ويؤول له مالم يفهم . فيستعد للخطوة التالية ، ويندفع فى النهر حتى يبلغ المـاء عنقه ليتعمد فإذا أخبره معلموه أن المسيحيين قد كفوا عن التعميد على هذا النحو ، هز كتفيه ، وارتدى ملابسه ، وانطلق إلى القس ليعترف . ولا يكاد يفرغ من اعترافه بخطاياه ، حتى يجذب القسيس من مقعده الذى يتلقى منه الاعتراف إلى كرسى الاعتراف نفسه ، ويأمر الأب الطيب أن يعترف بدوره ، لأن الإنجيل ــ كما يصر الهمجى الهندى ــ ينص فى صراحة على أن « من واجبنا أن يعترف بعضنا لبعض بما ارتـكب » .

ويؤول له ما خفى عليه أيضاً ، فيعقب الهندى المشدوه بقوله : « إنى لأرى أعمالا لا تحصى تؤدى فى بلادكم ، وليست واردة فى الإنجيل . أما أوامر الإنجيل فلا يكاد ينفذ منها شىء . ولا بد لى من أن أعترف لك بأن هذا يذهلنى ويؤلمنى » .

وتمضى القصة خفيفة سريعة ، فتروى ما يلقى الهمجى من مخاطر ، وما يصيبه من نحس من أثر اتصاله بالمدنية ، حتى يخلص إلى أن الشيطان وحده هو الذى غرر به ، وزين له أن يكون عضواً متمدينا فى المجتمع . فيشكو حاله قائلا : « إن مواطنى الهنود فى أمريكا لم يعاملونى قط بمثل ما عوملت به من وحشية . ولعل الهنود همجيون فطريون ، أما أهل هذه البلاد فمحتالون مهذبون » .

وعلى هذا النحو تمضى حكايات فولتير ، التى لا يشبهها شىء فى الأدب مشابهة حقة . فهى قصص لا عقدة بها ... أو هى ، إذا أردنا الدقة ، تشتمل كل واحدة منها على عقد كثيرة غير متصلة ، وإن كان ينتظمها جميعاً خيط فلسفة فولتير . وأبطاله يتزوجون من فلاحات ووارثات وملكات. وهم يفقدون أبصارهم فينعمون بقدرتهم على أن يفلسفوا هذا الحرمان . وتخيب آمالهم فى الحب فتشتمل عليهم التعاسة ، لأنهم عاجزون عن أن يفلسفوا هذا الموقف . وهم يساعدون الناس إن ألمّ بهم خطب ، فيجزون شراً بما قدموا من خير ويرتكبون الجرائم فيجزون عنها شرفاً ومالا . وهم — إذا أوجزنا — يرقصون فى الوجود الإنسانى ، وكأنهم الدمى مشدودة إلى أصابع فولتير الرشيقة ، فيحركها كيف شاء . وكان عقله دافقاً أشبه بنبع

لا يغيض ، لكنه نبع يسقيك النبيذ لا الماء . لقد أسكرته فكاهة الحياة ، فأدار ذهن العالم كله — مع ذهنه — دورة مرحة .

لكن فكاهته كانت تنطوى دائما على نواة الفلسفة الجادة . وهذا يصدق خاصة على كتابيه فى التاريخ اللذين كتبهما فى (سيرى) ، وهما « قرن لويس الرابع عشر » ورسالة « تاريخ المدنية » . وفولتير فى طليعة كتاب السير الذين آثروا الجد فيما يكتبون ، فاستبعدوا المالات الزائفة عمن يرسمون . فهو فى كتاباته التاريخية — كما قال — إنما يهدف إلى إنزال أدعياء العظمة عن عروشهم ، وأن يرقى بأصحاب العظمة الحقة إلى هذه العروش . إنه يزدرى المستبدين والطغاة والغزاة والمعتدين والبغاة فى الأرض ، ويرثى للمؤرخين الحمقى الذين يقدمون هؤلاء للناس ليستثيروا منهم الإعجاب . . « فقد بلغ من غباء البشر أنهم يضفون الجلال على من قارف الشر فى ذكاء ومقدرة » . على أن فولتير من جانب آخر يعد البابا اسكندر الثالث أعظم رجل ظهر فى العصور الوسطى ، « لأن أمير الكنيسة هذا — على النقيض من أمراء القصور — قد حاول أن يحرر الرقيق ، لا أن يستعبد الأحرار » ، فالتاريخ كله إنما يهدف إلى تحرير البشر جثمانياً وعقلياً وخلقياً . وسلاحنا الذى يكفل تحقيق هذه الحرية هو

العقل البشرى « لقد أودع الله فينا العقل ، كما كسا الطير ريشاً ، والحيوان فراء . . وللعقل الغلبة دائماً على الطغـاة آخر الأمر » . وكان فولتير يؤمن بالمبدأ الأساسى للدمقراطية وهو أن صوت الخلق أقلام الحق ، ويستطيع الناس آخر الأمر أن يُركن إليهم فى تقرير ما هو خير لهم .

وكان وهو يزيل الهالات الزائفة عن العظماء قادرا على أن يرسم شخصية فى جملة واحدة جامعة ... كمن يثبت الفراشة على اللوحة بدبوس . فهو يقول عن مزران ، ذلك الوزير الدساس الذى استعمله لويس الرابع عشر ، « هذا رجل مدين بـكل الخير الذى نكل عن أدائه » . ويرسم فى جملة واحدة قصيرة صورة خالدة لشعب يموت جوعاً بينما ملـكه يحتفل بانتصاراته الحربية فيقول (مات الناس جوعاً ، على نغمات تصدح : « نحمدك اللهم) . وطالمـا أنذر الطغاة بأن طموحهم مفض إلى ثورة » فإنك لتخسر كل شىء إن حاولت أن تسوق الناس كما يُساق قطيع من الثيران . فالناس صارعوك ، طال الزمن أو قصر » .

— ٤ —

إلى ذلك الحين كانت نظرة فولتير إلى الحياة نظرة خيال متقلب

الأطوار ، لا نظرة عمق . كان أغنى من أن يحس مرير الألم ، وأحب إلى الناس من أن يحزن . ولم يعش من الأيام بعد ما يكفيه لفهم الحياة فهماً صحيحاً ، فكان الصبى الهازل بين مفكرى أوربا . لكن عقله لم يكن قد اكتمل نضجاً ، فلم يكن قد استوى فى حجم الرجل العظيم ، لأنه حتى ذلك الحين لم يصدمه حزن عظيم ، فهو فى حاجة إلى أن يتلقى على الألم درساً قبل أن يحسب فى قادة العالم الحقيقيين .

لقد ماتت مدام شاتلى عام ١٧٤٩ ، ولأول مرة فى حياته نسى أن يضحك من الحزن ، وأخذت صحته تنهار ، وزادت حاله سوءاً ، أنه نفى من باريس .

وفى عام ١٧٥٥ ترددت أنباء زلزال لشبونة ، الذى أطاح بثلاثين ألفاً من البشر ، وطمر كثيراً من الضحايا ، لقوا حتفهم تحت الأنقاض وهم يؤدون الصلاة . فقد حدث الزلزال يوم جميع القديسين ، يوم تغص الكنائس بالمصلين ، وأخذ فولتير ينظر إلى العالم فى ضوء جديد ... وأخذت كتاباته لوناً أكثر قتاماً . لقد نضج عقله الرائع آخر الأمر ، فأدرك أن الحياة أجل من أن تكون هدفاً

للعبارات الرشيقة ، والتهكم المستهتر ، ونظم ملحمة شعرية صور فيها تطور فكره من النزق إلى الفلسفة :

شدوت بالأمس أغنية السرور فى ترانيم فاتنة .

بمرح لا يحفل بشىء .

وحال الزمن ، فعلم الدهر عقلى .

أن آخذ بنصيبى من مآسى البشر .

وابتاع مزرعة فى ترنى بسويسرا ، فيما يلى الحدود الفرنسية مباشرة واشترك فى حملة عنيفة يجاهد فيها آلام البشر . فقد هاجم كل أنواع الظلم ، وأصدر حمما من الكتب والرسائل كتبت جميعاً فى حرارة بالغة الوهج . هذه التواليف ، يضوىء فيها وهج إيمان نبيل متين صبت نارها على شرور الظلم الاجتماعى ، والتعصب الدينى ، واتخذ له شعاراً « طهر عار ظلم الإنسان للإنسان » .

ولم يصب ناره على عقائد البشر الدينية ، بل صبها على الأحقاد الخرافية . فهو لم يختصم عمد الكنيسة ، وإنما اختصم ديدانها وحشراتها « فلننبذ هذه المخلوقات التى تنخر قلب أمها ، ولنوقر من يناصبونهم العداء » . ولم يكن فولتير ملحداً كما يحسب الناس عادة ، فهو مؤمن بالله ، حسن إيمانه به » ومما قال : « لو لم يكن الله موجوداً

لـكان علينا أن نخترعه » ، لـكن الله عند فولتير لا يؤثر مذهباً كنسياً على مذهب آخر للعالم أجمع عقله السابق ، الذى تناهت إليه القدرة ، وتناهى بعداً عن التحيز والهوى . وليس لله شعب مختار ، ولا بلد مختار ، ولا كنيسة مختارة ، لأن العـابدالحق من آمن بعقيدة واحدة هى المساواة فى العدل ، والمساواة فى التسامح بين البشر جميعاً .

وبذل فولتير جهداً كبيراً ليخفف من حدة التعصب الدينى فى العالم ؛ فأقام للأجيال مبـدأ حرية العبادة الدينية ، وطهر الـكنيسة من التخاصم ، وأحل مكانه الأخلاق . كان شعار سنيه الأولى « اضحك ودع غيرك يضحك » أما الآن فقد تخلى عنه واتخذ له شعاراً أسمى « فـكر ودع غيرك يفكر » .

— ٥ —

وبينا هذه الثورة ناشبة فى عقل فولتير ، كانت حياته الخارجية مضطربة على عهدها ، فقد دعى إلى بلاط الملك فردريك الأكبر ، فذهب إليه ليكون أمينه الأدبى رسمياً ، وأستاذه فى المناظرة العقلية حقيقة ، ونعم فولتير بمرونة عقل فردريك ، لـكنه نقم على طموحه المسرف ، وأشفق على نفسه منه . وحدث أن روى أحد رجال الحاشية لفولتير ملحة ملـكية . قال الملك « سوف أكون بحاجة

إلى ڤولتير مدة عام على الأكثر ... فإنما تعصر البرتقالة ، ثم يُلقى بقشرها بعيداً » . وضحك ڤولتير من الملحة ، لكنه لم يدع لفردريك أى فرصة لإنجاز قوله . « إنه ليجدر بى أن أنجو بجلدى ، قبل أن تعصر البرتقالة وتذوى » . فترك الملك ومطامحه ، وعاد هو إلى الفلسفة وانضم إلى نفر من محطمى الخرافات : ديدرو ودالمبرت وكوندرسيت ومن إليهم ممن عبدوا سبيل الثورة الفرنسية . وشاركهم فى إعداد « موسوعة الفكر الحر » العظيمة . وقد اتهمه أصحاب الموسوعة بأنه مسيحى ، واتهمه المسيحيون بالكفر ... وبين الطرفين كانت شواغله لا تنتهى .

ومهما تسكن شواغله فى مجادلاته ، وتأليف مآسيه وحكاياته وتاريخه وقاموسه الفلسفى وغيرها من آثاره الكثيرة ... وقد بلغ مجموعها المائة ... فإن هذه الشواغل كلها لم تصرفه مطلقاً عن أن يأخذ بنصيبه فى كل كفاح ، منتصفاً للمظلوم من الظالم . فأنفق وقته وماله وجهده وقدرته فى جهاد متصل لإنقاذ ضحايا الظلم الاجتماعى والتعصب الكنسى . وبنى المنازل النموذجية لفقراء فرنى ، وأقام منسج حرير ومصنع ساعات يعمل فيهما العاطلون ، وكان يشرف بنفسه على بيع منتجاتهم — فقد كان من دهاة التجار — ويرد

الأرباح كلها على العمال . وبنى لهم كنيسة نقش عليها هذه العبارة (بنى فولتير هذه لله) ، فهو يؤمن بمنح غـــيره حرية العبادة ، كما ينتظر منه أن يمنحه حرية عدم العبادة . وقصارى القول أنه لم يعد مبشراً بالإدراك السليم وحسب ، بل صار راعياً وحامياً للرجل العادى أيضاً . ومما كتبه سانت بيف عنه « إن كل امرىء من قريب أو بعيد كان يلتمس عنده العون ، فـكان الناس يستشيرونه ، ويروون له ما نزل بهم من ظلم ، ويلتمسون منه العون » ولم يخيب لأحدهم رجاء .

وكان لقاؤه ميسوراً إلا لتلك الشرذمة السخيفة من الناس التى لا هم لها إلا التمسح بالعظماء . لهؤلاء كان ڤولتير يدخر ألذع سخريته وأحدّ تهكمه . أقبل يوماً رجل إنجليزى يبغى لقاءه ، فقال ڤولتير للخادم : « أخبره أنى أموت » فلما أصر الإنجليزى على اللقاء قال ڤولتير « أخبره أنى ميت » ، وصمم الزائر على تقديم تحية أخيرة لجثمان الفقيد العظيم : « أخبره أنى دفنت فعلا ، وأنى الآن فى ذمة الشيطان ، وإذا كان لا يزال مشوقاً إلى لقائى . . . فقل له أن يذهب إلى سقر » .

— ٦ —

إنه الآن فى الثالثة والثمانين ، ولا يزال على عهده قلقاً لا يهدأ ،

وهو يدرك أن آخرته قريبة ، فيلم بباريس إلمامة أخيرة ، ويستقبل هناك بترحاب يعد حدثاً فى تاريخ ذلك القرن ، لكنه كان فوق ما تطيق صحته ، وذهب رغم تحذير الأطباء ليشهد تمثيل إحدى مسرحياته ، وكانت هذه آخر مرة ظهر فيها أمام الناس . ثم آوى إلى فراشه . . . ليبقى به لا يبرحه .

واستقبل قبل موته بنيامين فرانكلن سفير أمريكا فى فرنسا حينذاك فشكا إليه ڤولتير أنه لم يعد نشطاً كما كان يرجو وقال « لكأنى تمثال قدماه من الطين » فأجابه فرانكلن « نعم ولكن قلبه من ذهب » :

وكان السفير الأمريكى قد أحضر معه حفيده ، ورجا الفيلسوف الفرنسى أن يباركه ، فوضع ڤولتير يده على رأس الصبى وقال « الله والحرية » . . إلا أن فلسفة ڤولتير كلها لتجتمع فى هذين اللفظين .

عمانويل كانت

١٧٢٤ — ١٨٠٤

— ١ —

كان ظرفاء كونجزبرج طريقة فى ضبط ساعاتهم لا تخطىء أبداً، ففى عصر كل يوم ، فى الساعة الثالثة والنصف تماماً ، كان عمانويل كانت يغادر منزله ليبدأ نزهته اليومية . وكان ضئيل الجسم ، قصير القامة ، لا يكاد طوله يبلغ خمس أقدام ، صدره مسطح ، بطنه منبعج ، كتفه اليمنى ملتوية إلى الخلف ، وكتفه اليسرى منخفضة ، رأسه مائل إلى جانب ، يرتدى قبعة رمادية، وسترة رمادية ، ويمسك بعصا رمادية ، يطرق بها على الأرض طرقاً لطيفاً حين تنحرف خطاه إلى طريق الزيزفون ، وهو الذى يدعوه أهل البلدة « نزهة الفيلسوف » وكان خادمه المسن لامب يسير وراءه فى جد وكد وأمانة ، ممسكا بمظلة يحمى بها سيده إذا هبت عاصفة ممطرة على حين بغتة . وكان لامب يعبد كانت ، وخلق له سيده — كما سترى — ديناً وإلهاً .

وكان عالم كنجزبرج الكسيح يسير على نظام مطرد دقيق كأنه الشمس ، فكان يستيقظ ويرتدى ملابسه ، ويشرب قهوته ،

ويكتب ، ويحاضر ، ويتغذى ، ويمشى . . يفعـــل كل ذلك يومياً فى ميقات معلوم لا يتغير . قال أحد كتاب سيرته « مثل حياة (كانت) كمثل الفعل الذى لا يشذ عن قاعدته أبداً » ولـكنه فعل جامد لا ينصرف . فهو لم يتزوج قط ، وما كان هو بالرجل الذى يشيع الخيال فى ذهن المرأة.

على أنه فى محاضراته كان يشيع فى سامعيه روحاً أشبه بالتقديس فهو يقف خلف مكتب يحجب جسمه المزيل ، ويبدو لطلابه رأساً وحسب . . . رأساً قوياً عريض الحاجبين ، عالى عظام الخدين ، ذا عينين واسعتين نفاذتين ، ووجه أحمر ، وفم فصيح يفيض « بأعمق لغة نبست بها شفتا إنسان » — كما قال هرور.

— ٢ —

إن النار — كما يقول المثل الشرقى القديم — تتلف الخشب ، ولـكنها تقوى الحديد . وهكذا زادت صلابة الحديد الذى صيغت منه روح كانت من أثر طفولة محرومة . كان ميلاده عام ١٧٢٤ فى أوربا حين اجتاحها الفقر والصراع والوباء . وقتل ما يزيد على ستين فى المائة من السكان فى سلسلة من الحروب لا تـكاد تعرف لها نهاية ، وأشرف من نجا بحياته على الموت جوعاً . وكانت أسرته

ممن أزرى بهم الدهر ، فكان أبوه يقطع شرائط الجلد ، ولم يكن دخله يوازى نفقته قط . بيد أنه كان « من أولى العـــــزم الاسكتلنديين » ؛ فقد قدمت أسرته من اسكتلندا فى القرن السابع عشر ، وكان يعرف كيف يربى بالمال القليل رجالا أخياراً . فهو ، إن قصر عن إمداد أبنائه الأحد عشر بغذاء جثمانى كاف ، قد أمدهم بغذاء دسم عقلى وخلقى . كان الخبز الأبيض يبدو (لـكانت) وإخوته حلماً من الأحلام . أما الفـكر النبيل ، والود الخالص فهما الحقيقة مبذولة لهم كل يوم . فقد شبوا على دين عملى دعامته الـكتاب المقدس ، وهم ينتمون إلى فـريق بالغ التزمت من الألمان المتطهرين يطلقون على أنفسهم « جنود السلام » .

فى هـذا الجو الدينى تلقى عمانوبل تربيته المنزلية ، وتعليمه المنزلى الأول . قد رُسم منهاج المدرسة خاصة ليرقى بجوانب الخلق عند الطفل ، أكثر من رقيه بجوانب العقل . وفى ذلك يقول أحد المتزمتين من مدرسيه « إنى لأوثر إنقاذ روح واحد على تخريج مائة عالم » . ولعله لم يمر بخاطره وقتئذ أنه فى مدرسته هـذه كان

ينشىء عالماً واحداً سوف يبعث العلم والنور فى آلاف الآلاف من الأرواح .

وكان (كانت) يبغض تغليب الجانب الدينى على الجانب العقلى فى تعليمه . فهو يمج التعليم بطريقة الجدل الذى لا ينتهى ، والمراسم الشكلية ، والساعات الطويلة تنفق فى تعليم الدين والصلوات المتصلة من ساعة الإفطار حتى ساعة النوم . فلقد أورثته أيام طفولته مقتاً لشكليات الدين ومراسمه ، فامتنع طوال سنى نضجه عن حضور الصلاة العامة فى الكنيسة .

على أن (كانت) لم يكن يغفل القيم الخلقية لمذهبه الدينى ، ومن أقواله « فلتقل ما تشاء فى هذه العقيدة . . . ولكن منذا يستطيع أن ينكر الفضل الكبير لمن كذبتهم من الرجال » . لا مراء فى أن هذه العقيدة كان لها فى (كانت) أثر غير يسير ، لأن معلميه من هذه الطائفة قد منحوه « أسمى شىء يبلغه إنسان . . . ذلك الاطمئنان ، وذلك الروح المرح ، وذلك التناغم الباطن بينه وبين نفسه ، الذى لا يزعجه انفعال ولا اندفاع » .

ولبث فى هذه المدرسة التى تبنى الخلق ثمانى سنوات ، التحق بعدها بجامعة كنجز برج . وظل طول حياته الجامعية مفقود

شعوره هـذا أنه لم ينشط لزيارتهن بعد أبداً . . . ويالها من شائبة تشوه صورته .

ولبث يعمل مربياً لدى أعيان بروسيا تسع سنين . . . وهى مدة استطاع فى أثنائها أن يتعلم « مسالك الحياة » . ومن عجب أن فيلسوفاً لا يجد فى هذه المسالك ما ينبو به ذوقه . وكان ممن خدمهم فأعجبوا بعلمه ، وإن ازدروا مكانته ، الكونت فون كيزرلنج وزوجه. فاستطاع بفضل رعايتهما الكريمة أن يتعرف إلى الأوساط الإجتماعية الراقية ، وفى هذه الأوساط وجد أنه فى البيئة التى تناسبه « كأنه السمكة فى الماء » . وما كانت أشد دهشة الناس جميعاً لذلك ، فكسا جسمه المعوج الصغير ملابس غير باهظة الثمن ، وبعث الحياة فى أسمار ندوات كبار السيدات ، وصار إليه زمام السمر غير الضار ، يديره حيثما شاء ، وحذق لعب الورق والبليارد ، وصار محدثاً لبقا طروباً . وجملة القول أن ابن قاطع الجلود ، قد شق له طريقاً فى مجتمع ذلك اليوم .

ولا تدوم هذه الحال طويلا . فهو بمزاجه أكثر تهيؤاً للمتعة النفسية أكثر من المتعة الخارجية . فبعد رحلته القصيرة التى قام بها جثمانياً واجتماعياً فى عالم الناس ، يعود فينكمش فى محارته العقلية ،

الأستاذان Knutzen و Teski ، وهما فيما يحدث أهل زمانهما ، علمان محيطان بشتات الفنون . لم يقصرا عنايتهما على الفلسفة ، بل عنيا بالعلم كذلك . وكان من أثرهما الذى يفسح الآفاق أن (كانت) لم يقتصر على الغوص فى تجاريد الميتافيزيقية ، بل غاص كذلك فى حقائق الطبيعة والهندسة والجبر وعلم النفس والفلك والمنطق وصفوة القول أنه ألم إلماماً وجيزاً ، ولكنه واع بصير ، بالعالم أجمع ، كما عرفه أهل هذا العصر .

فرأى العالم مزرعة لا تعرف حدودها . . . صاحبها غائب . . . وهو الله . فصمم (كانت) على أن يقف حياته على اختبار المزرعة ، والبحث عن صاحبها . وقال فى هذا « لن يصرفنى عن ذلك البحث شىء » .

لكن كان عليه قبل كل شىء أن يصيب رزقه . لذلك شرع يؤجر نفسه مربياً فى الريف ، وهو مركز يؤذى كرامة فيلسوف شاب ، لكنه لا يبلغ فى هوانه المركز الذى اضطرت أخواته أن يهوين إليه ، فقد اشتغلن خادمات فى المنازل ، وكان (كانت) يعد نفسه فى الواقع أسمى من أخواته مركزاً ، وبلغ من قوة

شعوره هـذا أنه لم ينشط لزيارتهن بعد أبداً . . . ويالها من شائبة تشوه صورته .

ولبث يعمل مربياً لدى أعيان بروسيا تسع سنين . . . وهى مدة استطاع فى أثنائها أن يتعلم « مسالك الحياة » . ومن عجب أن فيلسوفاً لا يجد فى هذه المسالك ما ينبو به ذوقه . وكان ممن خدمهم فأعجبوا بعلمه ، وإن ازدروا مكانته ، الكونت فون كيزرلنج وزوجه . فاستطاع بفضل رعايتهما الكريمة أن يتعرف إلى الأوساط الإجتماعية الراقية ، وفى هذه الأوساط وجد أنه فى البيئة التى تناسبه « كأنه السمكة فى الماء » . وما كانت أشد دهشة الناس جميعاً لذلك ، فكسا جسمه المعوج الصغير ملابس غير باهظة الثمن ، وبعث الحياة فى أسمار ندوات كبار السيدات ، وصار إليه زمام السمر غير الضار ، يديره حيثما شاء ، وحذق لعب الورق والبليارد ، وصار محدثاً لبقاً طروباً . وجملة القول أن ابن قاطع الجلود ، قد شق له طريقاً فى مجتمع ذلك اليوم .

ولا تدوم هذه الحال طويلا . فهو بمزاجه أكثر تهيؤاً للمتعة النفسية أكثر من المتعة الخارجية . فبعد رحلته القصيرة التى قام بها جثمانياً واجتماعياً فى عالم الناس ، يعود فينكمش فى محارته العقلية ،

فما أن عين مدرساً فى جامعة كنجزبرج (١٧٥٥) حتى استقر فى حياة الدرس ، ولم يقم بعد ذلك برحلة خارج حدود هذه المدينة تزيد على أربعين ميلا . وسارت مغامراته منذ ذلك الوقت فوق جبال التخيل البشرى ، وفى تيه الفكر الإنسانى .

-٣-

بدأ (كانت) حياته الفكرية عالماً لا فيلسوفاً ، فكتب بحوثاً فى النار والريح والتاريخ الطبيعى وعلم الإنسان ونظرية الأجرام السماوية وعمر الأرض . وكانت كتاباته إرهاصاً بنظرية لابلاس فى السديم ، ونظرية داروين فى التطور . على أن جل عنايته انصرفت إلى التأمل لا إلى التحليل ، فمال بذهنه تدريجاً من الطبيعة إلى ما وراء الطبيعة .

وكان جدول تأملاته الفكرية يغذيه كثير من الغدران ، نخص منها بالذكر أربعة : مثالية بركلى ، ومادية هيوم ، وعقلية ڤولتير ، وعاطفية روسو ، فبركلى قد حطم المادة ، وهيوم حطم العقل ، وقال ڤولتير « سحقاً لهذين المذهبين ، لننس التجريدات ولنعتمد على العقل » ، وقال روسو « لننس العقل ولنعتمد على

الشعور » ، فصمم (كانت) فى دقته الألمانية على أن يختبر كل واحدة من هذه النظريات المتضاربة على حدة، وأن ينفذ — إذا أمكن — إلى عنصر مشترك ، يضم شتات كل هـذه النظريات الجزئية فى وحدة من الحقيقة المتماسـكة . ونشر نتائج بحثه فى ثلاثة مؤلفات خطيرة الشأن « نقد العقل المجرد » و « نقد العقل العملى » و « نقد الحـكم على الأشياء » . وتشبه هذه الـكتب الثلاثة معبداً ذا ثلاث طبقات: طبقة تحت الأرض مظلمة ، تقوم بها الأصنام الميتة ، وقاعة الاجتماع الديرى يتسرب إليهـا ضوء صوفى غامض من خلال زجاج النوافذ الملون ، وقبة سامقة تحف بها السماء الزرقاء الجميلة . فلنلق نظرة عجلى على هذه الـكتب الثلاثة .

— ٤ —

إنه ينذر القارىء فى مقدمة كتاب « نقـد العقل المجرد » بما سيلقاه فى الـكتاب من صعاب ، فيقول : « نحن هنا مرهقون بمشاكل لا سبيل إلى تجاهلها . أو حلها » فطبيعة الموضوع غامضة ولم يكن من هذا مفر . ولـكن (كانت) يضيف إلى غموض الموضوع غموضاً فى الأسلوب كان منه مفر . ذلك بأن الفلاسـفة

الألمان قد تعودوا — إذا صح المجاز — أن يدلكوا أذنهم اليسرى بيدهم اليمنى . لماذا اليسر إذا أمكن التعقيد ؟ لماذا تسعد القارىء إن أمكنك أن تشقيه ؟ لقد اخترع (كانت) معجماً كاملا من العبارات المبهمة . وكانت عبارته كثيرة التلافيت ، حتى إنه كان لا يفسر معناه ، بل كان يحصنه ضد التفسير . ولما أتم تأليف نقده الأول ، أرسل بالنسخة الخطية إلى — « ماركس هرز » زميله فى الميتافيزيقا طالباً رأيه فيه . فأعاد إليه هرز مخطوطه ولم يجاوز فى قراءته النصف ، وفسر هذا بقوله : « إنى لأخشى أن يصيبنى الجنون إذا أتممت قراءة الكتاب » .

ولكن الرجل غير المتخصص نفسه يسمه أن يجتلى هنا وهناك بصيصاً من النور فى ظلمات تأملاته ، وعلينا قبل كل شىء أن نترجم عنوان الكتاب إلى لغة الحياة اليومية ، فنقد العقل المجرد ليس معناه الانتقاص من قدره ، بل امتحانه . والعقل المجرد لا يعنى العقل الخالى المجرد من الخطايا ، بل العقل المستقل ، أى الفكر أو المعرفة التى لا ترد عن طريق الحواس ، بل تكمن فى عقلنا .

وفى ضوء هذا التفسير للعنوان نمضى مع الكتاب . إن

معلوماتنا — فيما يعتقد (كانت) — لا تأتى كلهـا من طريق حواسنا ، لأن حواسنا ليست إلا مقاييس غير دقيقة للحقيقة ، فهى لا تستطيع إدراك عالم ذى نهاية ، ولا عالم غير ذى نهاية . فهى من جهة لا تستطيع أن تتصور الزمن بداية ونهـاية ، ولا تستطيع من جهة أخرى تصور زمن لا بدء له ولا انتهاء . وعلى ذلك فالعالم فوق فهمنا الحسى ، ولـكنه ليس فوق فهمنا العقلى . فنحن نستطيع أن « نرى » العالم بعيننا « الباطنة » ، ونستطيع أن نفهمه بغير معونة تجاربنا .ويقول(كانت) بعد ذلك : «والسؤال الذى أسأله (إذن) هو : ماذا يسعنا أن نرجو بلوغه بالعقل ، إذا لم يزود بمادة التجربة وكل ما تعين عليه ؟ » ويجيب (كانت) عن هذا السؤال مؤكداً أننا نستطيع أن نرجو استخدام عقلنا — أى فكرنا — لا مستقبلا للمؤثرات فحسب ، بل مبدعاً للآراء كذلك. إننا نستطيع تسخير حواسنا لخدمة عقلنا ، وإننا لنسخرها فى ذلك فعلا « فالعين ما أعجزها وأعماها إن لم يهدها العقل ».

لذا وجب أن نحاول فهم العالم الحق « لا بطريق الإدراك الحسى بل بطريق الإدراك الذهنى » ، لا عن طريق تأثراتنا الحسية بل عن طريق عقلنا . ذلك أن عقلنا لا يلاحظ وكفى ، كما يفعل العلماء ، بل

هو يصنف أيضاً كما يفعل الفلاسفة . ولا بد من العلم والفلسفة إن أردنا الاهتداء إلى الحقيقة.

وإلى أى غاية تسوقنا هذه الحقيقة ؟ إلى الاعتقاد بأن العالم كما هو ، أو الشيء ذاته ، يختلف كل الاختلاف عن العالم كما يبدو ، أى عن الظاهر . وعند شوبنهور « أن أجل ما قدمه (كانت) إلى الفلسفة هو التمييز بين العالم الحق وعالم الظواهر الطبيعية . فآراؤنا فى الإنسان والطبيعة والحياة والموت ـ لا تعدو كلها الإدراك الحسى ، ولا تبلغ التصور العقلى . ولا ندرى بالضبط ما كانت تصير إليه هذه الأشياء إذا وقفت بمفردها ، بعيداً عما تسجله الحواس . ويصدق نفس هذا على آرائنا فى الإراده الحرة والروح والله . فنحن لقصور حواسنا لا يسعنا أن نثبت وجودها ، ولذلك لا يحق لنا مطلقاً أن نجزم بشىء من الأشياء . فعلينا أن نتخلص من كل عقيدة تحكمية .

ومن الطريف أن نلاحظ روح الجزم التى اصطنعها هذا الفيلسوف فى نتقاضه على روح الجزم . فهو عميق الإيمان ، عميق الإيمان بالدين العقلى أو باللا إيمان ، وهل يفل سيف التحكم بسيوف تحكمية.

- ٥ -

ولما أن فرغ (كانت) من تحطيم الإيمان بالله فى عقله ، شرع بخلقه فى قلبه . وقام هذا الفيلسوف الوادع بعملية الخلق فى كتابه « نقد الفكر العملى » وقام بها - كما أشار هين بين الجد والمرح من أجل خادمه (لامب) . وفى هذا يقول هين : « كان عمانويل كانت حتى ذلك الحين يبدو محطِّم العقائد لا تأخذه بها رحمة . فقد هاجم السماء ، وانبرى يتحدى حاميتها كلها بسيفه ، فلا رحمة هناك ولا رعاية أبويه ولا ثواب فى المستقبل على الحرمان فى الحاضر . فها هو ذا الموت يصخب ويئن ، وهذا لامب العجوز قد انتحى ناحية ووضع مظلته تحت إبطه كأنه المتفرج الأسيف وإنه ليتصبب عرقا من الألم ، والدمع يتحدر على خديه ، فتتحرك الرحمة فى قلب (عمانويل كانت) فإذا هو إنسان طيب ، لا فيلسوف عظيم وحسب يقول : إن لامب العجوز لا بد له من إله ، وإلا لما استطاع المسكين أن يسعد . والحق أن الناس ينبغى لهم أن يسعدوا فى هذا العالم . فالإدراك العملى السليم يتطلب (وجود الله) . فليعترف الفكر العملى بوجوده إذن ، وفى ضوء هذه الحجة ، يميز (كانت) بين الفكر النظرى والفكر العملى . وهو بالفكر العملى - كأنه يسحر

ساحر ـ يعيد الحياة إلى الإيمان بالله بعد إذ قتل الفكر النظرى هذا الإيمان .

فكتاب « نقد الفكر العملى » هو إذن نقض لكتاب « نقد الفكر المطلق » . ففى هذا الكتاب الأخير يقول كانت : إنك لا تستطيع أن تقيم الدين على أساس العلم ، بل على أساس الأخلاق . فاقبل الإيمان بالله لأنك بحاجة إلى هذه العقيدة ، وحاجتك العملية أجل شأناً من تأملاتك النظرية . وإذا كان فى هذا العالم حقيقة مطلقة فإنما هى حاستنا الخلقية أى واجبنا الخلقى . وهذا الواجب الخلقى يهدى ضميرنا إلى التمييز الحاسم بين الحق والباطل ، والضمير ليس من العلم ، بل من اللقانة . وليس هو فكراً مجرداً ، بل هو فكر عملى ، والفكر العملى فى فلسفة (كانت) وثيق الصلة بالشعور ، إن لم يكن هو الشعور نفسه .

فشعورنا يكشف أولا عن وجود الله هادياً لضميرنا وملهماً لنا بالواجب ، ومنظمنا لحياتنا الفردية والاجتماعية ، وشعورنا بعد هذا يثبت لنا وجود الإرادة الحرة ، لأنه لولا الإرادة الحرة لما تهيأ لنا إدراك أى واجب خلقى . فنحن لا نستطيع الشعور بأن علينا أداء عمل من الأعمال ما لم يكن فى مقدورنا أن نؤديه . وشعورنا يكشف

انا عن وجود حياة بعد الموت ، لأننا نتبع ما يمليه علينا ضميرنا حتى حين ندرك أننا لن نجزى عما نفعل فى هـذه الحياة . فنحن نسير فى هدى المبدأ الفطرى القائل بأن الخير يُرجى لذاته . لماذا ؟ لأننا نشعر — فنعلم — أن قصة حياتنا الحاضرة ليست إلا حلقة من فصل فى رواية أكبر وأشمل ، ومهما تـكن حوادث القصة مضطربة فى هذا العالم كما يبدو فإنها صائرة إلى عاقبة منطقية مرضية فى الحياة الأخرى . وقد أحسن تنيسن Tennyson التعبير عن هذه الفـكرة فى قصيدته الفلسفية (فى الذكرى) ، حين يردد مع كانت حين يستوحى فـكره العملى لا المجرد :

إن شيئاً فى الوجود لا يضرب فى الأرض عبثاً لغير غاية .

إن حياة واحدة لن يدركها الدمار ،

أو تلقى فى السماء كأنها بعض الهباء ،

حين يتم الله صرح البناء .

فالله والارادة الحرة والروح الخالد . . . هذه حقائق عالم القلب الواقعى ، تقابل أوهام عالم العقل الخيالى .

— ٦ —

أنـكر (كانت) وجود الله فى كتابه الأول من ثالوثه الفلسفى ، وأكد وجود الله فى الـكتاب الثانى . وهو فى الـكتاب الثالث « نقد العدالة » يجد الله . فأين وجده ؟ فى نظام الطبيعة الجميل ، وهو نظام يقوم على « المثال الذى رسم فى السماء » . وإن وراء الجمال لغرضا من الأغراض على الدوام . فالأثر الفنى يتضمن وجود الفنان ، والانسان حين يحس بالشيء الجميل يشعر فى نفسه بقوة غير محددة ، شبيهة بقوة خارج نفسه غير محدودة . وما تشابه من الأشياء ائتلف . لقد كلم الله الانسان ، فقال الانسان لربه « إنى أفهم عنك » . فالعبقرى ـ نقاشاً كان أو مثالا أو موسيقيا أو شاعراً ـ يعيش معظم حياته ماثلا أمام هـذه الرؤيا . ولـكن الرجل العادى أيضاً له أوقات تتـكشف له فيها هذه الرؤيا الداخلية السامية . وهو فى تلك اللحظات يدرك وجود الله ممثلا فى السرين الـكبيرين للعالم : السماء المزدانة بالنجوم فوقه ، والقانون الخلقى داخل نفسه .

ومع ذلك فان فى العالم قبحاً كما أن فيه جمالا ، وفيه هدم كما فيه خلق ، وفيه باطل كما فيه حق . وهنا يبتعد (كانت) عما هدته إليه بصيرته السامية ، ويسمح لنزعته العلمية أن تنقلب مرة أخرى على مداركه الفطرية . فالطبيعة لا تبالى بما تتلفه فى سبيل الوصول إلى أغراضها . فـكم من بذرة ضاعت لتنبت زهرة واحـــــدة ، وكم

من آلام يقاسيها الكائن الحى لكى يخرج إلى الوجود حياة واحدة . فإذا كان جمال العالم يوحى إيحاء لا لبس فيه بوجود إله رءوف رحيم، فهو لا ينهض دليلا قاطعاً على رحمة الله ، أو على مجرد وجوده . وهكذا ينتهى كانت إلى حيث بدأ تماماً : على الإنسان أن يحاول حل (لغز الله) ولكن الله لغز لا يحل . ويفصح تنيسن عن هذه العقيدة الكانتية شعراً . فيقول :

أنظر . . . إننا لا نفقه شيئاً
وإنما يسعنى أن أومن بأن الخير آت
للجميع . . . آخر الأمر . . . بعيداً
وكل شتاء صائر إلى ربيع

* * *

بهذا تهجس أحلامى ، ولكن من أنا ؟
طفل صارخ فى الليل ،
طفل صائح يطلب النور :
وليس له من لغة غير الصياح .

— ٧ —

هـــذا عرض شديد الإيجاز لمذهب (كانت) الفلسفى ، وهو مذهب أثار ثورة أى ثورة فى الدوائر الفلسفية والدينيـة لذلك الزمان . فقال المتشككة إن كانت رجل مثالى حقير أبله ، ورآه المثاليون متشككا كثير الشحناء . . أما رجال الدين فمنهم من لقبوه بالكلب ومنهم من أطلقوا على كلابهم اسم (كانت) . ولكن كانت — وقد جاوز السبعين — ظل على عهده يشرب قهوته فى جد ، ويتنزه نزهته اليومية ويواجه العاصفة غير مبتئس . وأمر وزير المعارف (فولنر) وكان من غلاة المتزمتين المتعصبين ألا تنشر كتب (كانت) فى بروسيا بعد اليوم . فأرسل الفيلسوف آخر كتبه وهو مقال فى الدين إلى يينا لينشر فيها ، وكانت مدينة لا تدخل فى سلطان ملك بروسيا القضائى .

فثارت ثائرة الملك لتهور الفيلسوف الأحدب ، وكتب إليه :
« إن أسمى مقام فى البلاد قد ساءه كثيراً أن يلاحظ كيف تسىء استغلال فلسفتك ، فتغض من شأن الكثير من أقدس عقائد

المهد المقدس . وإذا سدرت فى غيك كان لك أن تتوقع حدوث ما يسوءك » .

وكان (كانت) قد أصدر آخر أحكامه على الدين ، فأجاب الملكَ فى هدوء بأنه لن يعرض على الناس آراء دينية بعد ذلك .

لكنه ظل يعرض على الناس آراء سياسية : فقد هلل للثورة الفرنسية ، وقال والدمع يترقرق فى عينيه : لقد استطعت آخر الأمر أن أردد مع سميون قوله : « إلهى ! دع خادمك ينصرف فى سلام ، فقد رأت عيناى الخلاص » .

لقد اعتقد — وما أكثر ما يخفى الغد عن الناس حتى فلاسفتهم أن الثورة الفرنسية ستنجلى عن عصر من السلام .

ولم يسعه أن يتنبأ بسطوع شمس نابليون الحمراء بُعيد بزوغ فجر اليوم الجديد . لكن لعل بصره قد نفذ وراء هذا الشروق إلى يوم آخر . . يوم يرد حكم الشعب إلى الشعب ، « ولا تشن فيه حرب بغير استفتاء جميع المواطنين » . وإنه ليسعنا أن نؤمل فى تحقيق السلم العالمية إذا طويت صفحة المستبدين والحاكين بأمرهم « الذين يحسبون الدولة ضيعة من ضياعهم ، ليس لهم فيها من

شريك ، وإذا احتُرم كل امرىء من كل قطر بوصفه غاية نهائية فى ذاته ، وإذا عرفت الأمم أن من الجرم فى حق الإنسان أن نجعل منه أداة يتكسب بها غيره من الناس » .

لقد بلغ (كانت) آخر الأمر غاية بحثه الفلسفى . لقد بحث عن الله فوجد الإنسان . والإنسان ـ فيما تحدثنا أسطورة شرقية ـ قد حسرُ اللثام عن إلهه (سايس) فلم ير غير نفسه .

جوهان فلفجانج فون جيته

١٧٤٩ — ١٨٣٢

كان شباب القرن الثامن عشر من كلا الجنسين من أنصار الأفكار الجديدة ، كانوا كشباب اليوم ساخطين على العالم الذى وجدوا فيه أنفسهم ، يحاولون أن يخلقوا مكانه عالماً أقرب إلى أمانى نفوسهم . واتجهت الثورة فى فرنسا وأمريكا وجهة سياسية . غير أن الثورة على التقاليد كانت فكرية محضاً فى الأقطار الأخرى وفى ألمانيا خاصة ، فجنود الثورة الألمانية ألقوا عنهم بالأفكار العتيقة التى كانت أمتهم تعتنقها للحكومة العتيقة ، فكانت ثورتهم ثورة القلم ، لا ثورة السيف ، فقد حرروا عقول مواطنيهم لكنهم كانوا قليلى العناية بالتحرر المادى . فهم يؤمنون بالفكر الحر لا بالعمل الحر ، وهؤلاء هم الأحرار المحافظون فى القرن الثامن عشر . كان زعيم تلك الثورة الفكرية جوهان وفلفجانج فون جيته ، فهو فى عامه السادس يثور على الله ، وفى عامه السابع يشك فى عدالة الناس ، وينشر فى عامه الثامن مقالا باللاتينية يوازن فيه بين حكمة الوثنيين وحكمة

المسيحيين . ويكتب فى الحادية عشرة قصة عالمية ، ويشترك فى عامه الثانى عشر فى مبارزة ، ويقع فى عامه الرابع عشر فى غرام عنيف لأول مرة ويقع فى عامه الرابع والسبعين فى غرام عنيف لآخر مرة ويتم فى عامه الثانى والثمانين كبرى قصائده ، وهى الجــزء الثانى من فاوست .

— ٢ —

ولد جيته عام ١٧٤٩ وكان جده الأعلى حداداً ، وكان جده المباشر خياطاً . لـكن الخياط أحسن تنشئة ابنه يوهان ياسپر فغدا هـذا الابن مستشار الممثل الأمبراطورى لفرانـكفورت . وسرعان ما نسى جيته تواضع منبته ، فلم يجر لسانه قط بذكر الحداد والخياط بين أجداده ، وقد ولد نصف ميت كما فعل الفيلســوف الفرنسى الـكبير فولتير ، ولـكنه على خلاف فولتير يستمتع بصحة طيبة طيلة الشطر الأعظم من حياته. فهو طول عمره الذى بلغ ثلاثاً وثلاثين سنة، لا يصيبه غير ثلاثة أمراض خطيرة فكان من المجدودين القليلين الذين وهبوا العقل السليم فى الجسم السليم .

تعلم فى المنزل على يدى أبيه . فقد كان أبوه عالماً كلاسيا شيئاً ما ، فرض التشدد عليه منهجاً للدرس يدرب العقل أكثر مما يدرب الخيال أما أمه فكانت فتاة بسيطة عطوفاً واسعة الإطلاع . وكانت سنها عند ولادة جيته لا تعدو الثمانى عشرة . فجعلت تحفز كفايته الشعرية بأن تروى له قصصاً من تأليفها ، وتشجعه على مساعدتها فى إحكام خيوط القصص ، ورسم الأشخاص ، فهو يقول (أنا مدين لأبى بنظرتى الجادة إلى الحياة . ومدين لأمى الصغيرة بحبى لرواية القصص) كان أبوه يريده على دراسة القانون وأن يصبح استاذاً فى الكلية . ولكن جيته كان زاهداً فى القانون والتدريس جميعاً. وقد التحق بجامعة ليزج عام ١٧٦٥ ارضاء لأبيه ، لكنه ارضاء لنفسه أصبح طالباً يدرس الحياة أكثر مما يدرس الكتب . كان يأتيه المال وفيراً فابوه ميسور الحال . فشرع يخرج من بيئته المنزلية ويجوب مسالك الحياة فى غير حذر . لم يكن يحمل لمدرسيه أقل احترام « فقد كان يخيل إلى أنى أعرف عن الله والعالم قدر ما يعرف الأساتذه انفسهم » وكان يشعر أنه يستطيع أن يزيد من علمه بالحياة لو أنه أهمل حجرة الدرس ، وذهب إلى حيث الناس . فى المجتمع ، فى الحفلات الموسيقية ، والمسرح وفى مآدب الناس ونزهاتهم (يمرق الزمن مروق السهم . . ويمرق

رائعاً . لكنه أيضاً يكلف المرء غالياً . . والشيطان أعلم بما يرهق جبينى من هذه المجتمعات) . ويكتب أحد زملائه عن سلوك جيته فى ذلك الوقت « أن التأثير فى الأشجار والصخور لأيسر من رد جيته إلى عقله » . لكنه يرتد إلى عقله من تلقاء نفسه . فهو طوال حياته كان يجرب الخمر والنساء ثم يحيل خبرته أغنيه فإذا عرف كل مايهمه معرفته عن مجتمع ليبزج ، تركه إلى المعزل حيث أطال التجوال وهو يطالع شكسبير وهومر . . ويحلم أحلامه الشاعرة ذلك بأنه كان يعيش ليغنى . لقد بدأ حياته الأدبية وهو طفل فحسب وهو الآن فى السابعة عشرة من عمره يخط مسرحيته الأولى الهامة . فلا يتخير لها من كل موضوعات العالم غير جرائم المتزوجين وموبقاتهم. فقد كتب « الزملاء الخاطئون » بوعى لمسالك الحياة تدهش له من شاب فى عامه السابع عشر. صحيح أنها تشبه مسرحيات المراهقين فى حرصها على أن يكون لها مغزى — أو كما يقال بلغة اليوم — أن تكون هادفة . . . أى هدف والسلام .

لكن الواقع أن مغزى مسرحية جيته كان فى غاية العجب ، فهو ينطوى على الحكمة المركزة التى تتهيأ للرجال العجائز المحزونين الذين ارتكبوا الخطيئة ، ثم قاسوا من اجلها العذاب . ويختتم شاب

ليبزج المستهتر الفيلسوف كلامه بقوله : « وإذا كان أغلبنا من الخاطئين . . . . فليس أحكم لنا من أن ننسى ، وأن نصفح » .

— ٣ —

وقد أوشك استهتاره فى أيام ليبزج ولياليها أن يقضى على حياته فقد أصيب فى صيف ١٧٦٨ بمرض تناسلى خطير وكان يشك فى شفائه ، ولكنه شفى بعد وقت غير طويل ، واستطاع مغادرة فراشه آخر الأمر فعاد إلى منزله . . . . إلى أم لهفى وأب خاب أمله ، لقد حاول الهريوهان ياسبر أن يجعل من ابنه محامياً ، فإذا بالصبى يتمخض عن شاعر . . . مجرد شاعر . وبذل المستشار محاولة جديدة لرد ابنه إلى جادة الصواب ، فبعث به فى هذه المرة إلى استراسبورج ليتم دراساته بغير مزيد من التهريج لينال درجة الدكتوراه فى التشريع . ولكن جيته هنا أيضاً ــ كما فعل فى ليبزج ــ يهمل دراسة القانون ، ويستأنف دراسته للحياة ، ولكنه فى هذه المرة ينغمس فى حياة الفن ، فيتعلم العزف على القيثار ، ويتداول الأدوية ، ويتفلسف ويتشبب ، ويغدو زعيم المثقفين باستراسبورج . لقد استرد صحته الآن تماماً . فهو يمشى خلال شوارع المدينة كأنه إله من آلهة اليونان . دخل

مطعماً ذات مرة فألقى الطاعمون سكاكينهم وشوكهم ، واتجهوا بعيونهم إلى الدخيل الشاب الرائع . كان على حد تعبيره (منتشياً بالشباب) وما اتصل به أحد إلا أصابته العدوى من روحه ، لقد أدار رءوس كل نساء استراسبورج بنبوغه فى الفروسـية ، وترنمه بعبارات سـحرية لم تسمع ألمانيا بمثلها ، وكان رأسه يدور أيضاً . لكنه على سهولة وقوعه فى الحب كان سهل النسيان له أيضاً ، وسواء أكان فى الحب خادعاً أو مخدوعاً ، فقد كان يترجم إحساسه فى قصيدة ، ثم يتجه إلى مغامرة تالية . وكان شغوفاً بتقصى الحياة من كل زاوية ممكنة ، فخالط كل أنواع الناس من أصحاب الفنادق الريفية ، وبنات أصحاب هـذه الفنادق ، والمبشرين ، وأساتذة الرقص ، والتجار ، والصناع ، والعمال ، والأحبار ، والقسس كان يشبه اسپينوزا فى أنه يجد شيئاً محبباً مبجلا فى كل ما يلقاه . وكان ذا ولع خاص بالمسرح ، معجباً بشكسبير على الأخص .

فحاول أن ينقل إلى المسرح الألمـانى الضعيف بعض الدم القوى من عروق المسرح الاليزابيثى ، شرع فى تفاؤل الشباب الزاهر يحدث ثورة فى فن أمته بل وفى فكر الأمة ذاته . وكذلك بحث تاريخ ألمانيا يلتمس لمسرحه مادة تتسع لعبقريته المتحررة من القانون .

فكتب مسرحيه بطلها أفاق ألمانى. يحاول — على نحو ما يروى عن روبن هود — أن يجدع أنف المطارنة والبارونات من أجل الفلاحين البسطاء فجاءت من أروع المسرحيات الألمانية وأشدها تحرراً. وقد صارت هذه المسرحية فترة من الزمن انجيلا للجيل الشاب، فقدموا فروض الولاء لجيته، بوصفه نبي الدين الجديد. ولم يغضب أبوه هذه المرة فقد استطاع جيته أن يدخر من نشاطه غير القانونى وقتاً كافياً للحصول على درجة دكتور فى القانون. وتفاءل الأب بما آل إليه حال ابنه من الصلاح فبعث به إلى المحكمة العليا فى فتزلار ليستزيد من المران. ولكن جيته يلاحظ حين وصوله أن ٢٠٫٠٠٠ قضيه تنتظر أن يحكم فيها قضاة الامبراطورية، فيلزمهم مدة لا تقل عن ٣٣٣ سنة كى يفرغوا من كل هذه القضايا، كان هذا فصل الخطاب فى قضيته هو، ففقد كل احترام للقانون وتحول نهائيا إلى الاشتغال بالأدب وكان أثناء مقامه القصير فى فتزلار قد غرق فى الحب إلى قمة رأسه كعادته.

وكان الموقف فى هذه المرة معقداً لأن الفتاة الشابة التى اصطفاها كانت قد خطبت لغيره من قبل، فمر به وقت راودته فيه فكرة الانتحار، وكان يحتفظ بخنجر تحت وسادته فكان يحاول فى ليله أن يستجمع من الشجاعة ما يكفى أن يدفع الخنجر فى قلبه. لكنه قرر

آخر الأمر أن يؤلف قصة عن حبه المنكود ، وأن يقتل البطل فى القصة ، بدلا من قتل نفسه . وتمخض ذلك عن (آلام فرتر) وهو كتاب من لغو الخيال والجمال .. إنها نوبة جنون تتحدث عن نفسها .. فنان حساس لا يشعر بالراحة بين رفاقه ، ولا يجد الألفة إلا فى وحشة الحقول . إنها قصيدة رثاء تصف أسى الحياة وهى ترنيمة تتغنى ببهجة الموت .وقد كان لآلام فرتر أثر ضخم فى الجمهور الألمانى . فكل الشبان قد حاكوا سترة فرتر الكحلية وصدريته الصفراء ،وارتدت الفتيات فستان البطلة لوتشن الأبيض ذا الرباط الوردى. وكان الكتاب يباع فى ألمانيا كما تباع جريدة على قارعة الطريق. وحتى فى الصين قد صنعوا لفرتر لوتشن تماثيل من الخزف .وقد بلغ الأمر بالشبان فى كل الأنحاء أن أسسوا « جمعيات فرتر للقضاء على الحياة ، فاجتاح أوربا وباء الانتحار تحية لعبقرية جيته . وأما جيته نفسه فكان راغباً عن الانتحار فقد ترك وراء ظهره حبه وكتابه والمعجبين ، وسار قدما إلى دين جديد ومغامرات جديدة .

— ٤ —

هكذا نرى جيته ينتهك حرمة التقاليد فى جرأة واستهتار ،ولكنه كان أيضا يجل أهل السلطان أعمق إجلال . كتب لأحد أصحابه

(لا يسعنى لومك على أنك تحيا فى الدنيا، وتتعرف إلى أصحاب السلطان والنفوذ . فمخالطة العظماء أمر مفيد دائما لمن عرف كيف ينتفع به على الوجه الصحيح . ولذا فهو حين يدعوه الأمير إلى بلاطه فى فيمار يقبل الدعوة نشيطاً لهـــا ويصل إلى فيمار (١٧٧٥) وكان فى السادسه والعشرين من عمره ونظل هناك ما بقى من حياته . وقد اتخذ مقامه فى منزل بحديقة يقع قريباً من القصر وقسم وقته بين الشعر والسياسة ولم يعد كاهن أبولو المخلص وحسب، بل صار كذلك خادما لـكارل أوجست فى إخلاص الـكاهن لإلهه، إنه كونفوشيوس الألمانى يحاول أن يعلم أميره كيف يحكم، فينزل بذلك عن استقلال شخصه . لهذا فقد احتفظ بروحه الثورية فى كتبه فقط أما فى حياته الخاصة فـكان أشد رجال الحاشيه خنوعاً . كان يتنزه مع بيتهوفن ذات يوم فتصادف مرور موكب الأمير، فاما الموسيقى الذى لا يحترم غير فنه فقد انبعج صدره وسار متحديا يخترق الحشد فى كبريائه واستعلائه وأما جيته الذى يحترم السلطان أكثر من احترامه فنه ذاته فقد انتحى جانبا، وخلع قبعته وانحنى فى أبلغ تجلة . . فهو ابن صادق من أبناء ألمانيا، يزهو بامتيازه كشاعر للعالم، ولـكنه أكثر زهوا بأنه سكرتير خاص لأمير من أهون أمراء المانيا خطراً فقد كانت فيمار، تلك المقاطعة الصغيرة

التى يحكمها كارل أوجست لما جيش لا يربو على الستمائة رجل ولكنه جيش من آلهة صغيرة يعبدها عباد الأوثان الحربية فى ألمانيا . فكل أمير ألمانى – وإن لم تزد أرضه على بضعة أفدنه — كان عليه أن يعول جيشاً لتعبده رعاياه مهما قل عدد هذا الجيش ، فقد كان أحد الأمراء من زملاء كارل أوجست يفخر بأن له قوة حربية فائقة تتكون من ضباط سبعه واثنين من الجند .

وهكذا كان زهو ألمانيا الرسمية فى القرن الثامن عشر أشبه بزهو الأطفال ، ولم يبرأ جيته من هـذه العلة تماماً على ما كان من عبقريته العظمى ، فأولع برياضتى الصيد والانزلاق ، وأحال الغزل إلى متعة من أبدع المتع (إننا هنا مجانين شيئاً ما ، ونلعب لعب الشيطان نفسه) لقد ضحى باستقلاله على مذبح كارل اوجست ، ولكنه أخذ منه لقاء ذلك ماندران يهبه العظماء ، الحب والفراغ والثقة وحديقة ومنزلا . إنه يحب فنه ولكنه يحب راحته بنفس القدر . ليس هو بنبى يقبل الموت من أجل الحق ، بل هو شاعر يتوق إلى الحياة من أجل الجمال .

— ٥ —

وبفضل ما وهب من شاعرية صارت فيمار المركز الأدبى للعالم طيلة خمسين عاماً ، فقد جمع حوله عدداً من أفذاذ الرجال والنساء، فجعلوا تحت لوائه يتناقشون فى الفلسفة ، ويخلصون نفوسهم للشعر ، ويعيشون بالحب ، وأنشأ مسرحاً صغيراً ، وجعل يشرف عليه ، ويكتب له بعضاً من أعظم مسرحيات القرن ، وظلت نغمته متحررة . وأحياناً متأثرة بما بقى له الشباب . فهو فى إحدى مسرحياته مثلا يسمح للبطل أن يحيا مع زوجته وعشيقته فى وقت معاً . . . برضاء الثلاثة واستمتاعهم وقد أثارت عليه هـذه المسرحية معارضة الجمهور فقد عابوا عليه (الدفاع عن التثنية فى الزواج) لذا أعاد جيته كتابة ختام المسرحية وهو يهزأ — فحمل بطله الذى لم يحتمل هجران زوجته على أن يحل المشكلة بإطلاق النار على رأسه ولكننا نجد نغمة التحرر البهيجة تخفت تدريجياً فى تواليف جيته ، وتختفى تماماً آخر الأمر . فسكرة الشباب قد تزايل أثرهـا فعزم على ألا يكون الثائر الذى يبغى تحطيم العالم ، بل الفيلسوف الذى يسعى إلى فهم العالم .

فهو الآن يبحث فى الحياة عن مزيد من النور ، مزيد من الجمال فهو يبحث عن الجمال حتى فى نطاق الدمامه ، وعن الكرامة فى مظان الهوان . وهو فى حب مشبوب للبشر ، مهما هانت مرا كزهم ، فوثق أواصر المودة بالقصابين والخبازين وصانعى الشمعدانات فى العالم (ما أقواه من حب عاودنى إلى تلك الطبقات الدنيا) كذلك كتب بعد زيارة جمهور من عمال المناجم (فهؤلاء الذين يدعون بالطبقات الدنيا هم الأعلون عند الله لا مراء) .

ولم يكن رثاؤه للمستضعفين مجرد روعة بيانية . فقد كان من مرتبه الضئيل الذى كان يتقاضاه بوصفة مشيراً لكارل اوجست (١٠٠٠ دولار) يعول غريبين ضرعا إليه أن يعينهما ومع أنه قد نجا من الآلام فى الشطر الأعظم من حياته ، فقد استطاع مع ذلك أن يشارك المتألمين فى آلامهم ، فقد رزق الخيال الذى يتيح له شهود ما وراء وجوده الشخصى ، وأغلب الظن أن عقله قد فاق عقول ابناء القرن الثامن عشر فى تشعبه وتعدد وجوهه ، شاعراً ونقاشاً وموسيقياً وعالماً لا يستهان بعلمه ، وشاعراً قد أدرك الوحدة المطلقة وراء الأشياء، على ما يبدو فيها من اختلاف وهو كالعالم يحاول تبيان هذه الوحدة ، فيقوم بدراسة تامة للنبات والتشريح ونظرية

الألوان ويؤلف كتابا فى التغيرات التى تصيب بناء النبات . وقد أظهر فى هذا الكتاب أن الزهر ما هو إلا ورق من أوراق الشجر قد لقى من الطبيعه حفاوة واقبالا . إن أوراق الشجر استحالت قصائد ، إذا صح هذا التعبير وقد اختبر جمجمة الأنسان وكشف فيها عن عظمة (يقال أنها تلك العظمة التى تثبت العلاقة بين الإنسان والحيوانات الدنيا .) لقد كان شديد الاهتمام بكل ما يمت إلى الجنس البشرى بصله ولا يستثنى من هذا غير الحرب فقد كان فى صميمه رجلا من رجال السلم ، ليس به شىء من ذلك الظمأ البروسى إلى القهر والاذلال . كان كارل أوجست يحارب الفرنسيين فدعا جيته إلى مخيمه ليرقب مناورات جنده ، فقبل جيته الدعوة ، ولكنه لا يولى المعارك اهتمامه بل يقوم بدراسة الأحجار والأزهار فيما جاور المخيم . إنه لعميق الوطنية جارفها لكنه يرفض أن يكون من غلاة المتعصبين فاتهمه بعضهم بأنه من أنصار التهدئه ، لأنه لم يشأ نظم أغنيات للحرب ملتهبة، فأجاب عليهم بقوله (لم يحدث قط أن حملت النفس على قول لا استشعره . فأنا لم أنظم شعر الغزل إلا حين أحببت ، فأنى لى إذن بكتابة أناشيد البغضاء . . وأنا لم أشعر ببغضاء) .

— ٦ —

حظى الجزء الأوسط من حياته بثلاث من أعظم النعم البشرية: الزوجة المحبه، والولد، والصديق المخلص. ففى ١٧٨٨ وكان فى عامه التاسع والثلاثين قابل كرستيانا ڤولبين فأسرفا على نفسيهما فى علاقة حرة أول الأمر، ولـكنهما بعد سنين عدة من هذه الحريه يستسلمان إلى حرية أعظم فى الزواج. وولد له ابن فى ١٧٨٩. توثقت صلته بشيلر عام ١٧٩٤ وكان جيته فى الخامسه والأربعين حينذاك وكان شيلر فى الخامسة والثلاثين. وكانت الصداقة بين جيته وشيلر قصيده ابهى رواء من أى قصيده كتبها جيته أو شيلر كانت صداقة بين نصف إله وبين رجل يموت (لأن شيلر كان فاقدا إحدى رئتيه وقتئذ). كان جيته وثنياً يقدس الجمال، وكان شيلر مسيحياً يحب العدل. وكلاهما قد بدا ثائراً وكلاهما قد استسلم آخر الأمر فجيته قد روضه طالعه السعيد، وشيلر قد روضه الفقر. ولـكن كلا من الشاعرين لا يزال مؤمناً بأن الفن ثورة، وكان الشعر السبيل المقدس الذى يحيل الرجل العادى إلى الإنسان الأسمى. وهكذا تعاون رسولا الخلاص هذان فى العمل وكانت وسيلتهما البيان وكان كل منهما يستحث عبقـــرية الآخر ويشجعها. فإذا مات شيلر، بعد زمالة بينهما بالغة القصر، لم

تزد على أحد عشر عاماً ، أغلق جيته حجرته من دونه ، وجعل يبكى كأنه الطفل ، وكتب لأحد معارفه (لقد زايلنى نصف بيانى وأن مفكرتى لبيضاء خاويه فى هذه الفترة ... بيضاء فارغة كفراغ حياتى) وعاش جيته وطالت حياته لكنه اضطر إلى أن يدفع الوحدة ثمناً لما وهب من حياة طويله . فهو يفقد كل من أحب واحداً إثر واحد . . يفقد أعز أصدقائه واخته وزوجته ، وأخيراً يفقد ابنه الوحيد ، لكنه يمضى فى طريقه شجاعاً فيحيل مآسيه ومسراته جميعاً إلى أغان خالدة (لم يحدث إنى قلت شيئاً لا استشعره) فهو يكتب (ستين) كتاباً عن مشاعره الروحيه والعقلية من شعر غنائى ، ومراث وسخريات وملاحم ومسرحيات ومقالات وقصص وحكايات خرافيه عن العفاريت والأشباح والغيلان والشياطين والآلهه وأخيراً جمع شتات عبقريته كلها فى معجزته الادبية (فاوست) وقد استغرقت كتابة النصف الأول منها ثلاثين سنة ، واستغرق النصف الثانى مايزيد على ذلك بربع قرن.

— ٧ —

كان ما هدف إليه جيته من كتابة هذه المسرحية هو فهم البشر أن يقيس قوى البشر ويحدد واجبه ، وتتمثل روح المسيرحية فى

مقدمتها . يعقد الله والشيطان مراهنة على روح الإنسان . أما الشيطان فليس يحمل للانسان احتراماً ، فهو المرتاب أبدا الذى تتمثل فيه روح الانكار فهو يؤمن بأن ألا وجود ، خير من الوجود ، ولا يرى معنى للعب القدر الذى لا يحد . فهو إنما يخلق الناس ليحطمهم وهو يفضل ذلك الفراغ الخالد الذى خرج منه العالم أول مرة وبدأ منه رحلته غير الضرورية خلال الزمان والمكان . لذا فهمه منصرف إلى أن يفسد على الله خلقه وينكر على الناس الخير . فإن الدكتور العجوز فاوست نفسه ـ وهو أعلم الناس وأقومهم سبيلا ـ هو فيما يعتقد الشيطان « فريسه سهلة الوقوع فى حبائلى لو كلفت نفسى مئونة اغرائه » لكن الله كان أكثر منه علماً ، فسلم له بأن فكر الإنسان غير سليم لذا فهو يكافح أبداً خلال ضباب مظلم ، وهو يجاهد ويخطىء طوال حياته ، ومع ذلك فإنه عن طريق خطيئته نفسها يكافح بغريزته ليبلغ النور . وهكذا يتفقان على أن يغرى الشيطان فاوست ويريان أيستطيع تدمير الجزء الخالد من روحه أم لا يستطيع . واشترطا فى الرهان على أن فوز الشيطان يكون إذا وجد فاوست أن اللحظة المنقضية (من وجوده الفانى) قد بلغت من الجمال بحيث يبغض فاوست أن يغادر هذه اللحظة إلى اللحظة التالية : فى النصف الأول من القصة ـ ويعرفه معظم

القراء ـ يروى جيته كيف أعاد الشيطان الشباب إلى فاوست ، وأغراه بكثير من متع الحياة ذات الطابع الأنانى.. أغراه بالجمال والثراء والشهوه والاستهتار والتمتع بالحب بغير تحمل مسئولياته وبمعونة الشيطان يغوى فاوست مرجريت ، ثم يهجرها فى الخطيئة والأسى ، وكان فاوست طوال هذا الجزء الأول من القصة يتملكه حب الخطيئة ولكنه مهما تختلف وجوه خطيئته لا يجد لحظة من السعادة ولا حدثاً واحداً يستطيع أن يقول له (تريث برهة فما أروع جمالك) فلما ماتت مرجريت حاول الشيطان كسبه باغراء من نوع جديد. ذلك بأن فاوست وهو رمز الإنسان العالمى متلهف على كل تجربه فى الحياة (على أن يكشف صدره لكل وخزة من وخزات الألم) وأن يفقه كل مسرات البشر وأن يعيش ويعمل مع الناس ، وأن يكون معهم ساعة تتحطم سفينة البشر . وتحقيقاً لذلك يمكن الشيطان لفاوست من أن يصبح (مثل جيته) مستشاراً بالبلاط الملكى . وهناك يصيب فاوست بخدماته القديره العرفان والتشريف . . ولكنه لا يصيب السعاده . وهو فى سخطه هذا على الحياة الحاضره ، يستعيد إليه بالسحر حياته الغابره ، فيستحضر له من الماضى روح (هلين طرواده) تعود إلى الحياة ، ويحاول أن يتزوجها (كما حاول جيته أن يبنى بالأفكار الكلاسية

لشعراء اليونان) ولـكن فاوست يكاد لا يحتضن هلين حتى تختفى ؛ ولا تترك وراءها غير معطفها . إنه لعبث ما يحاوله حتى فاوست وجيته من فهم مجد الأغريق . فمهما يبذلان من محاوله فإن روح الماضى الجميلة تهرب منهما ، ولا تدع لهما شيئاً غير الرداء الخارجى .

وكذلك يتنقل فاوست من تجربة إلى تجربه ، ولا يرضى بأيهما إن مشيئته نفسها هى سلسلة من السقطات . ومهما يكن عمله خيراً أو شراً فهو مؤد إلى فشل أو إلى نصر أجوف خير منه الفشل ذاته . فهو يصيب لأمبراطوره نصرا فى معركة ، فيجد أن انتصاره فى الحرب معناه للموت والتخريب فى الجانبين . فيمنحه الشيطان مدناً وممالك وقلاعا وغانيات ومراكز سامقة وشهرة خالدة ولـكن يضيق فاوست بهذا كله . فإن قوس حياته قد أخـذ يتجه إلى أسفل فالاسراف فى متع الشباب ونجاحه فى منتصف العمر لم يجر عليه غير خيبة الأمل . لقد خيم على منزله الهم واستحالت نيران شبابه ورغباتها كلها رمادا . لقد أصيب بالعمى ، واستعد آخر الأمر أن يوقف بحثه عن السعادة الذى دام طول حياته . ومن عجب أنه لا يكاد يتخلى عن طلب السعادة حتى يجد السعادة فقد بدأ مشروعاً واسعا لتجفيف المستنقعات قرب البحر وإعدادها لسكنى البشر . وهنا ــ يحلم بخطة لبناء منازل على أرض حرة للايين

من البشر ، سوف ينعمون بحريتهم أكبر نعيم ، لأنهم قد استردوها بكدهم اليومى . فتملؤه هذه الفكرة بسرور عظيم . فإن هـذا هو الهدف الذى غفل عنه ـ والذى كان يسعى إليه طول حياته عن غير علم . لقد أقبلت آخر الأمر تلك اللحظة الذهبية التى استطاع أن يقول لها (تريثى شيئا فما أروع جمالك) فإذا بلغ الآن أسمى لحظة من حياته مات . لقد كسب الشيطان الرهان فى ظاهر الأمر فطالب بروح فاوست ثمنا لنصره ، ولكن الملائكة تنزل وسط رذاذ من الورود يساقط ، وتحمل روحه إلى السماء لقد ارتكب فاوست أكبر الأخطاء لا شك ولكنه عن طريق هذا كله قد جاهد بفطرته ليبلغ النور .

وكان أول من حياه فى السماء مرجريت . لقد ارتكبت الخطيئة وماتت بسبب خطايا فاوست ، ولكنها قد غفرت له كل هذا أو نسيته ، فواجبات رسالتها الآن أن تهديه السبيل . فالمرأة هى المنقذ الخالد للرجل .

— ٨ —

والآن وقد أتم جيته أروع تواليفه فى حياته فإنه تأهب للنوم مثلما فعل فاوست . وكان المعجبون الكثيرون يعدون له احتفالا

رائعاً بعيد ميلاده الثانى والثمانين ، فذهب إلى الجبال هربا من الاحتفال ، واوى هناك إلى كوخ طالما كان يمكث به مع كارل أوجست فرأى اسطرا كان قد خطها بقلم الرصاص على الحائط منذ سنين عدة (فوق قمم التلال كلها يرفرف السلام هادئاً . وعلى رؤوس الشجر قلما تلمح أقل نسمة، وهذه صغار الطير قد سكتت أصواتها. الصبر الآن.. فعما قليل تستريح أنت أيضاً . .) جفف دمعه وردد الكلمات الأخيره (فعما قليل تستريح أنت أيضا) وعاد إلى منزله وظل فتره قصيرة يغنى تلك الأغانى السحرية التى يصفها هينى بأن الكلمة فيها تحتضنك بينما تقبلك الفكرة ، وأخيراً يعجز عن النهوض من فراشه وكان هذا فى السادس عشر من مارس عام ١٨٣٢ وبعد ستة أيام استرخت جفونه بين همسات خدمه المتوجسه .

وخفتت أغنية حياته ، وذابت فى الصمت الأبدى. وكان آخر ما سمع منه قوله (مزيد من النور) .

جورج وليم فردريك هيجل

١٧٧٠ — ١٨٣١

— ١ —

انحدر جورج وليم فردريك هيجل من أجـداد لهم بخدمة الحـكومة عهد طويل . وكان الموظف فى ألمانيا إنساناً ذليلا ، أتت على روح الابتكار والحرية فيه مركزية حادة عنيفة . وكان أبو هيجل حافظ السجلات المالية فى وتنبرج ، وكان رجلا خامل الذكر ، ممن يلبسون الطوق الأبيض ، ويكدحون بين الأدراج ، واتخذت أسرته الشريط الأحمر شعاراً لها .

ولد فى ٢٧ أغسطس سنة ١٧٧٠ ، والتحق بالمدرسة اللاتينية ، ثم بالمدرسة اللاهوتية فى توبنجن ، لـكنه كان طالباً خاملا فى دراسته لحقائق السماء ، فقد كان اهتمامه بمآسى الأرض يفوق اهتمامه بتلك الحقائق السماوية .

والواقع أن أحداثاً كبرى كانت تجرى فى الأرض أيام كان

طالباً ، ففرنسا قد أعلنت « حكم العقل » ، وكان الأحرار فى كافة أنحاء أوربا قد أسكرتهم خمر الثورة ، فهم يرفعون قبعاتهم، ويضجون بأقدامهم تهليلا للحرية والمساواة والإخاء .

وانطلق هيجل فى حماسة يغرس « شجرة الحرية » فى الميدان العام بتوبنجن تحية للجمهورية الفرنسية الجديدة ، ثم ولى وجهه نحو جمهورية أعظم منها شأناً . . . هى جمهورية الفلسفة . . . وهى دولة يتاح فيها لكل ذهن حر أن يُسمع صوته فى إجلال . . . ، وكان هيجل يحلم بدخول هذه الجمهورية الرائعة ، وأن يُسهم فى فى إدارتها بصوت حاسم ، ورأى حازم .

— ٢ —

على أن الإنسان مهما يكن فيلسوفاً لا بد له من أن يأكل . وعملا بحكمة الإنجيل القائلة ابحث أولا عن طعامك وكسائك ، تقبل عليك مملكة السماء ؛ صمم على أن يصيب عيشه بالتعليم . ومضت بضع سنين وهو لا يكاد يستطيع شق طريق المدرس المكافح . وكان جل بضاعته حبُّ الأدب اليونانى ، وفلسفة (كانت) . وأهم ما يحسب عليه فقــره فى بضاعة الدنيا . ثم مات

والده ، فورث عنه ما يوازى ألفاً وخمسمائة دولار . فرأى نفسه قد استغنى ، بل صار غنياً . فكتب إلى صديقه (شيلنج) يقول إنه سيركن وشيكا إلى حياة الفراغ التى يحياها الأثرياء . وطلب إلى شيلنج أن ينصحه أين ينبغى له أن يقيم ، ليستمتع بثرائه ، بحيث تتوافر له الكتب الجيدة ، والجعة الجيدة . فأجابه شيلنج « تعال إلى يينا » .

وكانت يينا مدينة بروسية جامعية ، اجتمع فيها نفر من زهرة شباب المفكرين الألمان ، يعلمون الفلسفة والتاريخ واللغة اليونانية ، وكانت مركزاً من مراكز البعث الثقافى . . . . نفذت إليه أشعة الفكر الحر من باريس .

فجاء إلى يينا ، وعين مدرساً فى الجامعة ، وقد خمدت فيه قبل مجيئه جذوة حماسته لآلهة الحرية ، فإن الكثيرين ممن شهدوا الثورة بنفس جياشة حساسة ، قد طووا عنها كشحاً حين اضمحل حكم العقل ، فتمخض عن حكم الإرهاب ؛ فالثورة التى بدأت سليمة الإدراك ، قد صارت إلى مجزرة أهرقت فيها الدماء ، واستحالت حركة تحرير الإنسان إلى دكتاتورية نابليون بونابرت . لقد كان

الناس يحلمون بعالم يفضل عالمهم ويفوقه حرية . . . فما أسرع ماتبدد الحلم . وذهل الناس لذلك أيما ذهول .

- ٣ -

وبينا كان هيجل يواصل حياة البحث الهادىء فى القرية الجامعية الصغيرة بينا ، إذ غزاها نابليون بخيله ورجله ، وحطم جيش بروسيا فى معركة حاسمة ، وقيد الدولة البروسية بأصفاد العبودية . وكان قبل ذلك قد هزم النمساويين والإيطاليين والهولنديين على التعاقب ، وجعل من أمراء جنوبى ألمانيا ووسطها عمالا له ، وبعث بجيش إلى إسبانيا ، فذهبت حرية القارة الأوربية ذكرى فى الذكريات ، وصار اليوم غارقاً فى دمه ، والغد ملتفاً بغمته .

ففر هيجل من بينا يحاول أن يقضى فترة من حياته فى باڤاريا ، وهى ولاية ألمانية سالمت نابليون من بادىء الأمر ، فصارت حينذاك بلاداً « صديقة » فى وضع طيب ، وعبودية مهينة ، وقبل الفيلسوف الشاب وظيفة ناظر بأكاديمية نورمبرج ، وهنا استطاع أن يواصل دراساته سنين طويلة فى أمن وسلام ، غارقاً فى أحلامه الفلسفية الهادئة ، حتى مضى وقت طويل على انهيار

نابليون وقيده بالأغلال ليلقى مصيره على جزيرة صغيرة مجهولة فى وسط اليمّ .

وعادت إلى الناس حريتهم ، وكان هيجل قد تزوج من سيدة ذات ذكاء ودماثة ، وكانت فلسفته قد اتخذت لها تدريجاً نظاماً ومذهباً ، وكذلك كان الشأن فى حياته . والحق أنه بلغ من استغراقه فى أفكاره حداً خيالياً من شرود الذهن . ومع أنه كان فى ربيع العمر فقد تقوس ظهره قبل الأوان ، وبدا ذا جبين مفكر ، وخد هزيل ، فلم يكن فى سلوكه الخارجى أو مظهره ما يزكيه ، أما حياته الباطنية فكانت هى شخصيته الأصيلة .

ولم يخرج لحظة واحدة على التقليد العقلى للأسرة التى انحدر منها ، فهو إذا فكر فى المجهول من الوجود ، لم يختم بحثه بهزة كتفه كما يعمل المتشككة . . . . بل هو نقيض لوك الإنجليزى وهيوم الاسكتلندى . فشخصيته الألمانية قد شادت له فلسفة للإيمان ، وأتاحت له دقته العلمية صرحاً من التأمل الميتافيزيقى معقد التركيب كأشد ما شهد العالم من التعقيد . فكان أشبه بموظف يؤدى واجبه جاداً فى مكاتب إدارة الأشرطة الحمراء الفسيحة ، يأتمر فيها بأمر إله بيروقراطى .

المحسّة . فمدركاتنا غير المادية جميعاً — كما يقول هيجل — موجودة لا ريب وجود المنضدة والكرسى . لنتأمل مثلا مدركنا عن « الكم » . لقد رأينا قلمين ، ولكننا لم نر قط « الكم » المجرد اثنين ؛ ومع ذلك فإن المدرك المجرد « اثنين » موجود فى العقل وجوداً مؤكداً كوجود « القلمين » وجوداً محسوساً فى الفضاء . ولولا وجود مقياس مجرد للكم لما استطعنا بحال من الأحوال أن نميز كميات الأشياء المحسّة فى تجاربنا .

يوجد إذن عقل مجرد فى مقابل العقل العملى ، أو بعبارة أخرى هناك وجود اعتبارى يقابل الوجود المادى ، فقولنا إن اثنين واثنين يساويان أربعة ، له وجود اعتبارى ، فهو لا يوجد فى المكان ولا فى الزمان ، ولا يوجد حتى فى عقولنا ، لأنه مهما يحدث لعقولنا ، يظل هذا القول صحيحاً . ومع ذلك فهو موجود فى عالم التجريد وجوداً لا ريب فيه ، كوجود منزل جارى فى عالم الحس .

هذا هو قوام نظرية هيجل ، وعلى هذه النظرية يشيد صرح فلسفته . لقد اعتقد هيوم أننا لا نستطيع مطلقاً أن نكشف عن السبب الأول للعالم ، أو سبب أى شىء ، ويوافقه هيجل على ذلك ، لكنه يؤكد أننا إذا لم نهتد إلى سبب ، فإننا نستطيع على الأقل أن

نهتدى إلى علة عقلية للأشياء . وقد يبدو هـذا مواربة وتلاعباً بالألفاظ ، ولـكنه فى الواقع ليس كذلك . فالسبب قوة إيجابية يصدر عنها أثر فى الزمان ، أما العلة فضرورة منطقية لا علاقة لها بالزمان . فسبب وجود العالم — وفى هذا يتفق هيجل مع هيوم — تعبير لا ينطوى على معنى ، ولـكن العلة فى وجود العالم تعبير ينطوى على معنى أى معنى . فالعلة العقلية للعالم تسبق العالم سبقاً منطقياً لا زمنياً . مثلها فى ذلك كمثل مسألة رياضية ، فهى تسبق حلها سبقاً منطقياً لا زمنياً . وللمنطقية وجود حقيقى كوجود المادية ، فالشىء الحقيقى هو العقلى . . . هذا هو المبدأ الذى ناضل هيجل على أساسه .

ويردف هيوم . . . والعلة تفسر نفسها ، والعالم هو علته العقلية لأن العلة والوجود شىء واحد . وإذا أردنا أن نجيب من يتساءلون عن علة كل شىء ، فواجباً أن نقول « كل شىء » ، وإذ كان الوجود وحدة تشمل كل شىء — كما يعتقد هيجل — فإنه يحمل فى طياته حالة اللاوجود كما يشمل حالة الوجود فكل شىء ينطوى على ضده ، ومحال أن تدرك شيئاً دون إدراك نقيضه فى نفس الوقت ، فأنت لا تستطيع أن تفكر فى المحدود بغير التفكير فى اللامحدود ، أو تفكر فى الزمن دون تفكير فى اللازمن . فالبقرة بقرة ،

يقول هيجل إن فهم العالم ميسور : فالعقلى يكمن فى بواطن الأشياء مهما يكن من اختلاف مظهرها الخارجى . وكان المتشككة من أمثال هيوم قد ملأوا عقول الناس بالشك ، وخلقوا جواً من السخرية ، وترعرع فيه مغامرون لا يرعوون من أمثال نابليون . وإذا فقد الإنسان إيمانه بقيم الحياة الإنسانية ، سارت المدنية فى سبيل الإضمحلال ، لأن الحياة صرح محكم البناء من الحقيقة ، وفى وسع الإنسان أن يفهم هـذه الحقيقة بقوى عقله ، إن عجز عن إدراكها بقوى حواسه . فهو بعبارة أخرى يلقى بقفازه فى وجه هيوم . فى اعتقاده أن الإنسان يستطيع أن يدرك أشياء لم ترد إليه عن طريق الحواس ، بل جاءته بطريق عقله ، والعقل نوعان : عقل عملى يعالج الأعمال اليومية ، ويفكر فى الأشياء المحسوسة ذات الوجود الملموس ، وعقل مجـرد يعالج الأفكار التى تجاوز وجودنا الحسى .

وهنا يصل إلى لب الموضوع ، إلى الخلاف الرئيسى بين المتشككة والميتافيزيقيين : فالمتشككة يعتقدون أن لا وجود لغير ما تدركه عن طريق الحس ، أما الميتافيزيقيون فيصرون على وجود أشياء لا تدركها الحواس ، ولها وجود حقيقى قدر ما للأشياء

وهى فى نفس الوقت ليست قطة . وهـذا الشىء إنما يحدد ذاته لأنه فى الوقت نفسه ليس شيئاً آخر . ولـكل وجهة نظر وجهة تنقضها ، فللحياة الموت ، وللحب الـكراهية ، وللنهار الليل ، وللشباب الشيخوخة . ولـكن هيجل يجاوز هــذا المنطق الواضح السليم ، فيتقدم بزعم مزعج . فعنده أن الأمر لا يقتصر على أن لـكل شىء نقيضاً ، بل يذهب إلى أن كل شىء هو نقيض نفســه . فالحقيقة تـكون فى جانبى كل مسألة ، وكلا الجانبين حق . والحياة بعد كل هــــذا صراع بين القوى المتعارضة التى تحاول أن تتحد فى وحدة أسمى . وهذه الوحدة التى يبحث عنها الفلاسفة ، ويحلم بها الشعراء ، لا يمكن بلوغها بغير إهراق دم غزير . إنها وليدة الصراع والألم واليأس . إنهـا اتساق الحب الذى ينبت من الشقاق ، والـكراهة ، وشريعة الإنـكار مترجمة إلى لغة التوكيد ، والروح الذى يموت لـكى يحيا !

فالطبيعة كلها إذن مصالحة بين الأضداد . وللإنسان أيضاً نقيضه ، شأنه فى ذلك شأن سائر الأشياء . فهو يصارع الطبيعة ، وتقهره الطبيعة آخر الأمر ، ولـكنه يبلغ الخلود بعد ذلك ، لأنه إذ يستسلم للموت فإنما يُسلم إحدى نفسيه للنفس الأخرى ، لأن

الحياة هى الموت ، والطبيعة هى الإنسان . وهنا أيضاً تكمن وحدة عميقة محركة وراء الخلاف السطحى الذى تدركه حواسنا الضعيفة . فليس من شىء خارج الإنسان يختلف عن الإنسان فى الحقيقة . والعالم من حولنا إن هو إلا نفسنا الأخرى . فنحن نرى شجرة ، وهذه الشجرة معروفة لنا ، وهى موجودة بالنسبة لنا من حيث هى معروفة لنا فحسب . فوجودها لذلك يدخل فى ملكة المعرفة المركبة فينا ، ووجودها جـــزء منا ، ووجودنا جزء منها . فالطبيعه هى النفس الموضوعية التى تقابل النفس المدركة ، وإذا أردنا أن ندرك الحقيقة ، وجب ألا نقتصر على رؤية العالم من خلال أنفسنا الباطنة ، بل يجب أن نرى أنفسنا الباطنة من خلال العالم . هـذا هو الاختبار الأعظم الذى يجب علينا اجتيازه إذا أردنا أن نتبع أسمى قوانين العقل . يجب أن ننظر إلى أنفسنا نظرة موضوعية خالصة ، نظرتنا إلى ضدنا أو نقيضنا . وعندئذ نكون قد تأهبنا لأسمى اتحاد أو تركيب عرفته التجربة البشرية . وإذا ما تحررنا من أسر أهوائنا الصغيرة الناشئة من مدركاتنا الحسية ، استطعنا أن تتنفس نسيم الحرية الصافى الرطيب ، ونكون بابتعادنا عن إدراكنا الناقص الضعيف قد وصلنا إلى إدراك أعظم منه كثيراً ،

هو الإدراك السامى الصحيح للنفس . وهـذه النفس ـ كما نتحقق وقتئذ ـ تدرك تمام الإدراك وحدتها العضوية ، وقوتها الشاملة . إن الطبيعة لتسمو إلى إدراك نفسها فى الإنسان ، وإن الإنسان ليسمو إلى إدراك نفسه فى الحرية .

ـ ٤ ـ

إن حرية الإنسان ثمرة لأقوى صراع نشب بين أعظم قوتين : بين الطبيعة والإنسان ، بين الجسم والعقل ، بين الطاقة والروح ، بين الهمجى والقديس . والآن ينتقل هيجل بنظريته « التركيب عن طريق التعارض » و« الوحدة عن طريق الصراع » ينتقل بها من الفرد إلى المجموع ، ومن تأمل الإنسان إلى فلسفة بنى الإنسان . . . ويبلغ هيجل أوج عظمته فى نظرته الجديدة إلى التاريخ .

فموضوع تاريخ البشر هو تطور حرية الإنسان ، فقد بدأ التاريخ حين أشرق على الناس وعى روحى .

ويقسم هيجل بحثه التاريخى إلى ثلاث مراحل ، تبين كل منها فترة من تقدم الإنسان فى صراعه من أجل الحرية . تعرض المرحلة الأولى قصة العالم الشرقى . قصة الصين والهند والشرق

الأدنى ، وهى الأقطار التى بزغت منها حضارتنا . وتعرض المرحلة الثانية عالم الدول الإغريقية . وتشمل المرحلة الثالثة عصر الإمبراطورية الرومانية . وسوف تأتى مرحلة رابعة — وهنا تبرز عبقريته التيتونية — هى العالم الألمانى وفيه تجد فكرة الحرية أسمى معبّر عنها .

فالعالم الشرقى هو مهد طفولة الإنسان . فكان المجتمع فى الصين قوامه الأسرة والدولة ، وكان الدين الشائع هو عبادة الأسلاف ، وكانت الحكومة حكومة أبوية ، فكان الإمبراطور هو الأب الأصغر العظيم الذى يحكم أبنائه بيد من حديد . وكان كل عقاب بدنيا ، وكان أهل الصين جميعاً صغاراً أمام القانون .

وبينما كانت روح الصين — فيما يقرر فيلسوفنا — هى روح الطفل اليقظ ، فإن روح الهند كانت روح الطفل الحالم . فدين الهند ظلال من فكر مجرد عن وحدة الوجود ؛ وكان إلهها شبح نيرفانا الوسنان . . . هو اللاشيئة . وكان الهند يحيا حياة نباتية راكدة ، وكان يغشاه الجمود جسمياً وسياسياً واجتماعياً .

واختلفت الحال فى فارس عن تلك الحال ، فالفرس كانوا يعبدون النور ، وكان إلههم الأعظم طاقة الشمس . فالشمس مبعث الحركة

فى كل عمليات النماء العضوى ، وهى قوة الخير تكافح قوى الشر ، ويرى هيجل فى هـذا الصراع جوهر الحياة الحق . و إلى أن يصحو الإنسان من غفوته ، ويدرك الصراع بين الخير والشر ، لن يستطيع أن يدرك رسالته ، ألا وهى بلوغ الحرية الروحية .

وفى مصر غدا الإنسان أعرف بالصراع المحسوس بين الخير والشر كما يقول هيجل . وقد رمز المصريون إلى علمهم بهذا الصراع فى ذلك اللغز الأسمى فى فنهم القومى (أبى الهول) . فالإنسان يجاهد للخلاص من وحشيته ، بيد أنه لم يوفق بعد . فأبو الهول فى الواقع هو إنسان ووحش فى آن . ولم تسمُ حكمة إنسان ما بحيث تدرك أى الطبيعتين أقوى سلطاناً .

وجاء العبرانيون بعد المصريين فكانوا مرحلة انتقال كبرى فى التاريخ الخلقى والدينى للانسان . . . . هو الانتقال من فهم الأخلاق فهماً طبيعياً ، إلى فهمها فهماً روحياً . فالناس حتى ذلك الوقت كانوا يعبدون الحيوان والنجوم ، فعبد اليهود روح يهوه ، أى الواحد الذى لا شريك له .

ثم كانت المرحلة الثالثة من مراحل التقدم البشرى . . . . . حضارة الدول الإغريقية ؛ فكان الإغريق يمثلون الصباح المنعش

فى تاريخ البشر ، فالإنسانية قد انتقلت من الطفولة إلى الشباب . وفن الأغريق ودينهم وفلسفتهم كلها تحدث عن البراءة المتوثبة فى روح شابة . فآلهة الإغريق ينعمون بجمال خالد ، وشباب لا يبلى جديده ، وهم فى حكمتهم وحماقتهم . . . . بشر غير منزهين . . . . إنهم نعم المرشد والهادى للإنسانية المجاهدة . وفى ذلك يقول شاعر الألمان شيلر Schiller « حينما كانت الآلهة أشبه بالإنسان ، كان الإنسان أشبه بالله » . وكان الإغريق شعباً قدسياً ، له من آلهته الأولمبية كل جلالهم وكل عيبهم .

وكان الناس فى أثينة يحكمون أنفسهم بأنفسهم ، وكانوا فيها أعضاء فى مجتمع دمقراطى . ولكن البشرية لم تكن تنعم بكامل حريتها فى العالم الأثينى ، لأن الكثرة الغالبة من الأهلين كانت عبيداً ومع هذا فإنهم لم يكونوا يفكرون فى الحرية على أنها ملك مشاع لكل الناس .

ثم بلغ العالم المرحلة الثالثة من مراحل التاريخ . . . . فقد أفسح عالم الإغريق الطريق لعالم الرومان « وكانت روما الروح العملى للانسانية الأولى التى نسيت — أو ازدرت — أحلام الشباب السعيدة » . وكان مجتمع روما الأول مجتمعاً من اللصوص ، وكان

الواجب يقضى بأن الدولة المشادة على القوة تجب حمايتها بالقوة ؛ « وتطور التاريخ الرومانى إن هو إلا تطور لص رومانى إلى جندى رومانى » . ولكن صحب نمو الإمبراطورية الرومانية بداية ظهور قوى أساسية يفيد منها الإنسان . فقد سنت مجموعة من القوانين العالمية ، هى الأولى من نوعها فى التاريخ . فالواجب والغنيمة صارا شعار الرومان . ووصل الفرد لأول مرة إلى إدراك حقوقه التى يقررها القانون . . . تقريراً شكلياً على الأقل . ولكن الحقيقة الواقعة كانت أبعد ما تكون عن ذلك ، لأن غالبية الناس ما برحوا مستعبدين ، وليس القانون بالنسبة إليهم إلا مظهراً لا ينطوى على جوهر .

على أن قوة جديدة ظهرت بعد ذلك ، هى المسيحية ، ودخل فى هذا الدين القوى فى تواضعه ، طغام الناس ودهماؤهم ، فهو يمنحهم فى الله أباً ، وفى المسيح أخاً ، ويعلمهم الحب . وهكذا أضافت المسيحية إلى المساواة القانونية التى تشدق بهـا الرومان مساواة حقة ، فهى تقرر الأهمية الأساسية غير المحدودة لكل فرد من الناس .

وأدى انتصار المسيحية إلى انتصار العدالة تدريجياً على الظلم جهاد الإنسان التاريخي من أجل الحرية . فأخذ الناس يرون . . . ، رؤية غامضة أول الأمر ولكنها ازدادت وضوحاً على الأيام ، تلك العلاقة الوثيقة بين العدل والرحمة ؛ وبين القانون والحب . فقانون الرومان الذى سن لحماية الأقوياء من الضعفاء ، قد تحول شيئاً فشيئاً إلى قانون جديد ، هدفه حماية الضعفاء من الأقوياء . وحلت الملكية الدستورية محل الملكية المطلقة ، واستحالت حقوق الشعب القانونية إلى حقوق سياسية ، وغدت الحرية والدمقراطية كأنهما من المترادفات .

ويصل بالتاريخ إلى أيامه أخيراً ، فيرى أمامه مظهراً جديداً للحرية ، يسفر عنه ذلك الاضطراب وتلك الحمأة اللذان يسودان تلك المنافسة الحربية والسياسية . وهذه الحرية السياسية ـ فيما يقول ـ ستظهر فى بروسيا ، لأن بروسيا سائرة بخطى سريعة إلى « إقامة دولة جبارة ، وهى عما قليل ستسود القارة بأسرها » إنها حرية بروسيا يدفع ثمنها باقى العالم !

- ٥ -

غادر هيجل بينا ، ومارس التعليم فترة من الزمن فى هيدلبرج ، وقضى ما بقى من حياته فى جامعة برلين ، وأضحى على أتم وفاق مع الحكومة البروسية الرجعية المستبدة . فالدولة البروسية قد سمت على كل حقوق الأفراد . لكن هيجل يخيل إليه أنه يرى فى هذه الدولة حياة المجتمع فى أسمى أشكالها . « فنفس الفرد – فيما يقول – يجب أن تضحى بكل شىء فى سبيل نفس « أفضل » منها ، هى الدولة . ولما تقدمت بهيجل السن تغالى من نزعته المحافظة ، لقد بعد عهده بأيامه الأولى . . . . أيام كان من الأحرار ، وأخذ الآن يمنح تأييده الأدبى لكل إجراء جائر يتخذه ملك بروسيا . ونشبت الثورة الفرنسية الثانية ، وأطاحت بشارل البربونى ، فارتاع لهذه الثورة بقدر ما ابتهج بالثورة الأولى . . . . يوم غرس شجرة الحرية احتفالا بسقوط لويس السادس عشر . وكتب مقالا فى نقد الدستور البريطانى فدعاه « الغابة غير المباركة » وتمنى لو تحل « النظم العقلية البروسية » محل الحكومة الشعبية الإنجليزية .

فليس على الحكومة أن تعبر عن إرادة الشعب ، « لأن الشعب لا يدرى قط ما إرادته » .

ياله من إسفاف ! ويالها من سخرية بآرائه السياسية السابقة . وأصيب بالكوليرا ، فمات قبل أن يدرك ما تؤول إليه رسالته الفلسفية فى أيدى أتباعه . ولقد كان مصيرها رائعاً ، فالساسة الرجعيون — من مترنيخ النمساوى إلى القيصر الروسى ، قد جعلوا منها مبرراً لطغيانهم ، لأن الدولة — فيما يقول هيجل — إن تقبل حق الجور المقدس ، فهى تملكه بوصفه مرحلة ضرورية من مراحل تطور الحكومة . وقال الطغاة ها هى ذى فلسفة رائعة تحرم الثورات ، ولكن الأحرار من أتباع هيجل قد وجدوا فى فلسفته تبريراً للثورات جميعاً . . . ألم تعلن هذه الفلسفة حق كل قوة على الأرض فى أن تتصارع مع نقيضها ؟ ألم تقرر مبدأ التغيير العنيف عن طريق الصراع العنيف ؟ وهكذا نشأت من مبادىء هيجل هذه نظرية كفاح الطبقات التى نادى بها كارل ماركس .

هذا ما أسداه هيجل إلى تاريخ الفكر . لقد طلب رجل

فرنسى إلى هـذا الفيلسوف الألمانى أن يحدد فلسفته ، فأجاب هيجل عن سؤاله فى عشرة كتب . ولـكن نبياً من الأنبياء القدامى حين طلب إليه أن يحدد فلسفته ، أجاب فى جملة واحدة : « أحب لأخيك ما تحب لنفسك » . وسوف يجر الفناء أذياله على منطق الـكتب العشرة ، ولـكن منطق النبى القديم سيظل إيماناً حياً خالداً .

أرثر شوبنهور

١٧٨٨ — ١٨٦٠

— ١ —

تناهت الأنباء إلى الكتبة بدار حسبة الهر شوپنهور ، أن مولاهم قد رزق مولوداً ذكراً ، فهمس أحد الكتبة لمن يجلس إلى جواره أمام المكتب المرتفع « إن شابه المولود أباه ، فهو كالقرد بلا شك » .

ـ « صه . لقد أقبل السيد » .

ـ « لا ضير من الحديث . . فالرجل العجوز أصم كأنه الحجر » .

ـ « هذا الرجل الذى يعقد أنوفنا بحجر المسن طيلة خمس عشرة ساعة فى اليوم ، أعنى هنريخ شوپنهور ـ قد اتخذ بدعة عجيبة أضافها إلى شعار أسرته « لا سعادة بغير الحرية » يالها من حرية » .

كان آل شوپنهور قوماً فيهم غرابة ، وفيهم مهارة ، وكان

الناس جميعاً لا يزالون يرددون تلك القصة عن أندريا العجوز ، الجد الأعلى لهنريخ ، الذى استضاف بطرس الأكبر وإمبرطورته عند زيارتهما لمدينة دانتزج . فقد اختارت الأسرة المالكة لنومها حجرة لا موقد بها ولا مدفأة ، وكانت الليلة قارسة البرد ، ولكن أندريا لم ينزعج أو يضطرب ، بل أحضر حملا من البراميل المليئة بالبراندى ، وأفرغها على أرض الحجرة وكانت مغطاة بالقرميد ، وأشعل فيها النار ، واتخذ من الوسائل ما منع النار من الانتشار . وأغلقت الحجرة ، وانتقل رب الدار وضيوفه إلى مكان آخر من المنزل ، حتى دفىء المكان تمام الدفء . فلما عاد القيصر بطرس وزوجه إلى الحجرة كانت دفيئة ممتعة ، يغشاها البخار ، فقضيا فيها ليلة مريحة .

وكان حفيده هنريخ تاجراً ثرياً تعود الاعتماد على نفسه ، وكان لفردريك الأكبر أطماع فى مدينة دانتزج الحرة ، ولكى يترضى كبار مواطنيها دعاهم إلى ديوانه الملكى ؛ وكان قد رأى هنريخ وأعجب به ، فعرض عليه منصباً يدر عليه مالا وفيراً ، ولكن هنريخ رفض هذا العرض ، لأنه لا يقبل أن يكون صنيعة رجل يتربص بحرية مدينته .

وتحققت فيما بعد أسوأ مخاوف هنريخ ، فقد غزا البروسيون دانتزج ، واضطر التاجر أن يفر إلى همبرج ومعه زوجه الشابة الجميلة « جوهنا » . وكان ابنهما « ارثر » فى الخامسة من عمره وقتئذ . وكان « أرثر » الإبن الوحيد لأبيه ، وكان الأب يأمل أن يجعل من ابنه تاجراً مثله فى يوم من الأيام ، لكن حياته لم تشهد تحقق هذا الحلم ، فقد كان يوماً ما يطل من نافذة فى علّية المنزل ، وبالغ فى ذلك ، فانزلق من النافذة إلى القناة ، وغرق على الأثر ففقد الصبى أباه وهو فى السابعة عشرة ، ولم تكن أمه الشابة المرحة مخلصة لزوجها فى يوم من الأيام ، حتى لقد كان الاعتقاد الشائع أن هنريخ مات منتحراً .

وبعد موت الأب ، حاول أرثر جهده أن يعد نفسه لإحتراف التجارة . فقد شاء أن يكون وفيا لذكرى أبيه ، لكنه كره تلك الحرفة ؛ فقد كان شابا محزونا ، لم يسعه مطلقا أن يطرد من تفكيره تلك القصة الموجعة ، قصة موت أبيه . فقد كان أبوه صديقه الذى لا صديق له سواه ولم يكن يحب أمه تلك الفراشة الطائشة الصغيرة النزقة . ولم يكن أبوه يحبها كذلك ، وكانت هى التى دفعت به إلى الموت .

هذه الأرملة الشابة التى أصابت شهرة فى كتابة القصص، والثالث سمعتها لأنها مارست الهوى المباح ، رحلت إلى مكان يلائمها هو «فيمار» مركز الأدب والفن فى ألمانيا . وهناك أنشأت ندوة (صالونا) وأفاءت على كبراء المدينة من عقلها المتلألىء وابتسامتها الوضيئة ، حتى أن أن « جيته » نفسه لم يجد بأسا فى أن يكون من أضيافها . لكن ابنها كان يزداد ازدراء لها كلما تقدمت به ، السن وكان يقيم فى دانتزج ، يشرف على تجارة أبيه ، ويفكر محزونا كهملت «فى أسى أبيه وعار أمه»

وكانت أمه — فرد — من جانبها ترسل إليه رسائل تقريع وقدح فهى تبغضه من صميم قلبها كما يبغضها من صميم قلبه وتجد لذة كبرى فى وخزه وإيجاعه . كتبت إليه مرة تقول : « ما أثقلك من كلّ لا يحتمل » . وقالت فى رسالة أخرى حين دخل نابليون « فيمار » على رأس جيشه : « لدى أنباء كثيرة تشيب لها الرءوس ، ولكنى لن أمتعك بذكرها ، فأنا أدرى كم تحب الإستماع إلى شقوة البشر »

وكانت تقول إن ابنها وحش ، يحيرها ويخيفها . وكان يستعد يوما لزيارتها فى فيمار فكتبت إليه على عجل : « أحب أن أسمع أنباء سعادتك ، ولكنى لا أحب أن أشهدها ، ولست أخفى عنك .. أنى لتهون على أية تضحية إلا حضورك هنا . . لقد أخبرتك دائما أن من

الصعب على أن أعيش معك . . فكآبتك وشكواك من أمور لا مفر منها ونظراتك العابسة وآراءك العجيبة التى تدلى بها كأنها وحى لا يجرؤ أحد على معارضته . . كل هذا يحزننى ويرهقنى . . . وإن مماحكاتك الدائمة ، وأساك لحماقة العالم وشقوة الإنسان لما يظلم ليلى ، ويبعث فيه أشأم الأحلام » .

وتحول العداء بينهما تدريجا إلى كراهة عارمة ، وتطور شوبنهور من كراهة أمة إلى كراهة كل من عداها ، ومما كتبه : « لقد وجدت من فجر حياتى أنى مع العالم على غير وفاق .

– ٢ –

لم يوفق شوبنهور فى حياته التجارية ، فانصرف عنها آخر الأمر واندفع يدرس الأدب القديم بمعهد « جوثا » بيد أنه تشاجر مع أحد مدرسيه وهجر المعهد .

ثم التحق بجامعة « جوتنجن » وفيها واصل الدرس بنهم بالغ . وكان عقله النهم يزدرد كل شىء ، فقرأ كتبا فى التاريخ ، والتاريخ الطبيعى ، والمعادن ، والطبيعة ، والنبات ، والفلسفة ، والفلك ، ووظائف الأعضاء ، والأجناس البشرية ، والتشريح ، وخلص من

ذلك إلى أن (الـكلمة الميتة لـكاتب لامع فذ ، تسمو قيمتها بمراحل على الصوات الحى لمحاضر غبى) . وارتحل من جوتنجن إلى جامعة برلين ، وكان لحسن الحظ قد ورث دخلا عن أبيه مكنه من أن يسرف فى هواياته العقلية ، وانتظمت هذه الهوايات الآن ـ إلى جانب دراساته الأخرى ـ مواد الـكيمياء والمغنطة والـكهرباء ، وطبائع الطيور ، وعلم الأسماك ، وشعر الشمال ، وحاول إجراء بحث مبتـكر عن أسباب الجنون .

وكان رفاقه الطلاب تأخذهم المهابة فتنعقد ألسـنتهم كلما رأوا هـذا العالم العابس ، ذا الجبين المرتفع ، والشعر الأشعث الـكثيف . فقد عرف عنه أنه يضيق بالأصوات ، ويؤثر التوحد فى نزهته (إن الضجيج يمزقنى ، فإذا قاطعنى فى أثناء العمل صوت ما ، وعلى الأخص صياح الحيوان ، شعرت برأسى كأنما فصل من جسمى بسيف الجلاد) .

على أنه كان فى قليل من الأوقات يختلط بغيره من الناس ، بل لقد بلغ من أمره أن كان يزور أمه أحياناً ، وإن كان يدخل بيتها ويخرج منه ، لا فى ألفة الابن ، بل فى كلفة الضيف . وحدث فى إحدى هذه الزيارات أنه ما كاد يفرغ من عشائه ، حتى انسل

إلى نافذة ، وجعل يتأمل الليل وذهنه شارد ، فقهقهت بعض الفتيات الجالسات حول المائدة ، فقال لهن رجل ممن كان يجلس بجانبهن : (أيها الأطفال ، اتركن هذا الشاب وشأنه ، فسيأتى يوم يسمو فيه علينا جميعاً).

كان هذا المتحدث هو « جيته » ، ذلك الشاعر المسن الذى أعجب أعظم الإعجاب بالفيلسوف الشاب . ولكن أم شوپنهور لم تكن تشارك جيته إعجابه بابنها ، وما إن نشر رسالته للدكتوراه « على جذور العقل الأربعة » حتى بلغت بها الغيرة حد الجنون . . فهى أيضاً كانت تؤلف الكتب ، وتكره أية منافسة من ابنها . وقالت متهكمة « الجذر المشعب » إنه ليقع فى مسمعى كأنه كتاب فى العقاقير .

فينظر إليها شوپنهور ويقول فى هدوء : « سوف يقرأ الكتاب يا أماه ، بعد أن تكون كتبك قد اختفت حتى من أكوام القمامة » .

- ٣ -

ولم ير شوپنهور أمه بعدها قط ، فقد أقام فى درسدن يحيا حياة سيد متذمر لا عمل له ، واستمتع فيها بوحدته لأن

« ذوى المواهب العقلية ، وذوى العبقرية منهم خاصة ، لا يمكن أن يتهيأ لهم غير قليل من الأصدقاء » . وكان يبرر خمول حياته الجسمية بأن سلوكه هذه السبيل قد أتاح له الحرية فى أن يحيا حياة عقلية قوية . فليس على العبقرى أن يشغل نفسه بالعمل ، « ذلك أنه بمجرد وجوده . . . . يخدم البشر أجمعين ، فلا عليه إذن من باقى التبعات » إنه يضحى بنفسه عن طريق حساسيته وتألمه لأن « الألم شرط من شروط العبقرية . ومنذا الذى يعتقد أن شيكسبير وجيته كانا يستطيعان خلق عوالم أحلامهما ، او أنهما وجدا الرضى والنعيم فى حياتهما الواقعة ؟ » .

وإنه لصاحب عبقرية . ألا يوشك أن يولد فى عقله مذهب فلسفى عظيم « إنه ينكشف لبصرى تدريجاً كما ينكشف الضباب عن بقعة جميلة على الأرض » . . . ذلك بأن التواضع لم يكن من فضائل شوپنهور .

وهكذا ركن إلى الكسل والأحلام ، وترك فلسفته تختمر تدريجياً فى عقله . وكان يجلس الساعات الطوال فى متحف الفن بدرسدن ، محدقاً فى صورة العذراء لروفائيل . . . فيراها الصميم من روح السلام والغبطة والتجلى . وجعل يذرع شواطىء الإلب

ذهاباً وجيئة ، وقد تصلبت ملامح وجهه كأنه المجنون . وكان كثيراً ما يختلف إلى مشتل البلدية وبساتين البرتقال . وحدث مرة أن أخذ يهمس للشجيرات ، ويميل بأذنه إلى زهر البرتقال الذى يساقط على كتفه ، ورآه أحد الخدم فخشى أن يكون مس قد أصاب ذلك الشاب الذى يسلك هذا السلوك الغريب ، فسأله من تكون ؟ فنظر إليه شوبنهور وقد علاه الارتباك : « لو استطعت أنت أن تخبرنى من أنا ، لطوقتنى بمنة كبرى » . وكانت هذه إجابته ، ثم اندفع عجلا ، والخادم المسكين ينظر إليه فى دهشة .

على أن هذا السؤال كان عند شوبنهور سؤالا طبيعياً جداً . فقد كان يفكر فى مشاكل العالم الفلسفية ، ومما كتبه فى مذكراته : « إن العالم هو ما أفكر فيه ، والشمس إنما توجد كما أراها ، والأرض إنما توجد كما أحسها ، والإنسان نفسه حلم من الأحلام » . وكان مقامه بدرسدن جزءاً من حلم الحياة ، إن الحياة والأحلام والإنسان والأرض والسماء كلها فصول من نفس الكتاب الغامض المبتسر ، وما ذلك الحلم المسمى بشوبنهور ؟ « إنك لتطوقنى بمنة كبرى لو استطعت الإجابة » .

وكانت حياته الحالمة بدرسدن قد استحالت إلى حين حياة

ممتعة بهيجة . ذلك أنه على ما يزعم من جفائه للناس ، كان ينعم حقاً بصحبتهم . وأتيحت له هذه الصحبة فى المدينة التالية لقمار فى اجتذاب أهل الفن والثقافة فى أوربا . وهنا كان شوپنهور « نداً بين أنداد » ، فأخذ يتقبل الدعوات ، ويختلف إلى المسرح ، ويتعشى فى المقاهى ، ويرتدى ملابس أنيقة فاخرة ، ولكنه لا يستطيع الفكاك مما تعود من تفكير قاتم ، فهو يقول : « إن حالتى بائسة » . وكأنما شاء أن يؤكد هذه القالة ، فصار يضع غدارة محشوة بالرصاص تحت وسادته إذا نام ، وكان يسير أبداً وقد اشتمل عليه الغضب والضجر وسوء الظن ، لأنه مصاب بالخوف على حياته خوفاً غير طبيعى ، وليست له بالناس أو بالله ثقة . وكان شعاره « لئن تستسلم للخوف ، خير من أن تستسلم للإيمان » . فلم يسمح بتسليم ذقنه لموسى الحلاق قط ، ولا يكاد يذكر مرض معد حتى يولى من الناس فراراً ، وكان يصطحب معه قدحاً جلدياً يشرب منه أينما ذهب للعشاء خارج منزله ، حتى لا تضطر شفتاه إلى ملامسة كوب غيره . وكان يحكم الإغلاق بالقفل والمفتاح على غلايينه ومباسم لفافاته لئلا « يلوثها » أصدقاؤه . وقد كان خوفه من فقد ماله عبئاً ثقيلا ينوء به عقله ، والواقع أن القيمة المادية للمال كان لها دور كبير فى حياة ذلك الرجل الذى لا ينفك يؤكد القيمة المعنوية للفكر ، فقد كان على يقين

من أن العالم يبغى أن يسلبه ماله ، ولهذا كان يخبىء نقوده تحت المحبرة ويدس سنداته بين الخطابات القديمة ، أما حسابات أملاكه فلم يكتبها قط باللغة الألمانية ، بل كان يكتبها بالإغريقية أو اللاتينية القديمتين ، ناسياً أن هذه الحسابات « السرية » يمكن أن يقرأها أى اص من فقهاء اللغتين القديمتين . وكان يرمز إلى نفائسه بأسماء مضللة ليخدع عنها أصدقاءه .

ونقول إنصافاً له إنه كان يزدرى نفسه لهذه العادات ، ولكن كان يعزيه اعتقاده أن العباقرة — حسبما قرر أفلاطون العظيم — كثيراً ما يكونون ضعاف الخلق ، فيهم خسه ، بل وفيهم فساد ، فنصفه يستطيع أن يكون وحشاً ، إذا سما نصفه الآخر إلى مصاف الحكماء .

كذلك كان يفكر عابساً ، ويحلم ويسىء بالناس الظنون ، ويرسم برنامجه الكبير : كيف يعرف نفسه ؟ يعرفها عن طريق إرادته ، فعمل الجسم هو الإرادة وحسب . إن الإرادة هى العمل . . . بل الأمر أبلغ من ذلك . . . فمظاهر الإرادة ليست أعمال الجسم الإرادية فحسب ، ولكنها كذلك أعمال العقل المنعكسة غير الإرادية ، فالإرادة هى الغريزة ، وهى دفعة الحياة نفسها .

واستهوت هذه الفكرة ذلك الفيلسوف الشاب الشاذ فى عاطفته أليست شخصيته نفسها برهاناً على هذه الحقيقة ؟ إن الشىء الأساسى فى الإنسان هو الإرادة ، وقد عرف قوة الإرادة ذلك الرجل ذو الجبين المرتفع والعينين القويتين والفم الحازم ، إن الإرادة هى القوة المسيطرة المتسلطة ، وليس العقل إلا خادماً لها ، فنحن لا نريد الشىء لأن الفكر يبرر هذه الإرادة ، وإنما نحن نخلق المبررات للشىء لأننا نريده . فالعقل دائماً يخترع لأهواء الإرادة مبررات منطقية .

فالعقل والجسم إذن أداتان للارادة . إن الإرادة هى التى تحفر الحفر فى الجبين ، وتبنى الأوردة لدورة الدم . والإرادة هى التى تشكل المخ ، وإرادة الأكل هى التى تشكل الفم والأسنان والحلقوم وإرادة التكاثر هى التى تشكل أعضاء التناسل ، وإرادة النماء هى التى تجذب النبات إلى الشمس . أيمكن أن يكون من أعمال العقل ذلك الصراع القوى الذى يخوضه الإنسان طلباً للطعام أو الصاحبة أو الأطفال ؟ كلا ، بل هى الإرادة . إن الحياة هى الإرادة الغريزية فى البقاء ، لذا كان من ضروراتها التنافس والتنازع والهدم ، لأن إرادات كل الأفراد يشن بعضها على بعض حرباً دائمة لا تخمد ، وليس للارادة نفسها من دافع أو غاية أو غرض أو حد ، إنها جهاد أعمى ، غير ذى

جدوى ، يظل على المدى ، ويتعاقب فيه النصر والهزيمة ، والحياة والموت . وإرادة الحياة تدفع كل شىء فى النهاية إلى الهلاك ، فيقع كل إنسان آخر الأمر فريسة لإرادة الديدان .

بهذه الأقوال يبدأ شوبنهور كتابه الذى يحوى نتائج مذهبه فى التأمل : « العالم إرادة وفكر » ، وحين بعث بالكتاب إلى الناشر ، كتب هذه العبارة — كل من أنجز عملا عظيما خالداً ، لا يكاد يحفل بالجمهور كيف يتقبله ، ولا بالنقاد ماذا يقولون فيه ، إلا كما يحفل عاقل فى مصحة العقول بتعيير المجانين إياه واستطالتهم عليه » .

وبعد ستة عشر عاماً أخبر الناشر شوبنهور أنه اضطر إلى بيع الجانب الأكبر من نسخ الكتاب على أنها ورق مهمل .

— ٤ —

وكان شوبنهور على تشاؤمه كله ، يريد أن يحيا ، فقد رحل بعد إتمام كتابه إلى إيطاليا . . موطن أشعار بترارك ، وموسيقى روسينى وكان أينما سار يقف الرجال والنساء يحدقون فى ذلك « الأجنبى الفظ » الذى تقدح عيناه بالشرر تحت جبهة ضخمة هائلة . وقال له شاب

إنجليزى فى استحياء ساعة الطعام : « أحب أن أجلس قبالتك ، فإن وجهك لأشبه بوجه بتهوفن » .

وكان على عادته يلبس ملابسه الثمينة النقية ، وإن لم تكن ألفاظه نقية دائماً فى مخاطبة الناس ، وكان يختلف إلى مقهى (جريكو) وكان رواد هذا المقهى من كل أقطار الأرض ، فقال لرفاقه ذات مرة « أعتقد أن الألمان أغبى أمة عرفها التاريخ ، لكنها بلغت من تفوقها على كل الأمم الأخرى أمداً بعيداً ، فقد بلغت مرتبة الاستغناء عن الدين »

فألقى به سامعوه فى عرض الطريق . وقال ألمانى من بنى جلدته « إن من صالح الوطن أن يسجن هذا الفيلسوف » .

على أن شوبنهور لم ينزعج « إنى رقيق حساس فى عصر من حديد » كذلك قال فى تحسر . وأقام يتسمع ما يقول الناس فى كتابه الأخير الذى دفع به إلى المطبعة ، فلم يجد له من أثر ، فقد ولد الكتاب ساكن النبض .

فهز كتفيه قائلا : « إن حبى للناس يقل كلما زدت بهم علماً » ، ثم ولى وجهه نحو أعمال أقرب إلى واقع الحياة ، فقد هدته بصيرة تجارية نفاذة إلى أن سوق الأوراق المالية ستصاب بكارثة ، فسحب منها كل ماله فى أنسب الأوقات — وقرر أن من الخير له أن يشتغل

بالتدريس ، ليأمن ما قد يسفر عنه الغد من خسارة مالية ، وكان بالغ الثقة بقدراته العلمية ، فسارع إلى برلين ، مركز الجامعات الألمانية وهو لا يكاد يحفل بأن أكبر عقل فى ذلك الزمن كان فى نفس هذه المدينة يلقى محاضراته الفلسفية فى قاعات غاصة بالمستمعين . فهيجل كان رجل الساعة ، ولكن شوبنهور يبدى زراية بزميله فيعلن عن محاضرة يلقيها فى نفس الليلة التى سجل فيها هيجل إحدى محاضراته .

وبدأ حديثه للجمهور بداية أبعد ما تكون عن الكياسة ، قال « لم يكد يمضى (كانت) حتى نهض سفسطائيون أرهقوا عقول أهل زمانهم بكثير من الضجة ، واللغو الممجى » ، ثم أردف كأنما خشى أنه لم يوضح فكرته توضيحاً كافياً فقال : « فأمثال هيجل (بما أتوا به من ميتافيزيقية عقلية) يجب أن يبعدوا من عداد الفلاسفة . . . كما نفى من المعبد قديماً مبدلوا النقود . . . وإنما يجدر بكتابات هيجل أن تتخذ لها شعاراً من قول شيكسبير : « هذه المادة يهرف بها لسان مجنون لا يفقه ما يقول » .

وتركه الجمع واقفاً فى حجرة خاوية ، فهل خطر له أن سامعيه قد ساءهم خروجه على آداب الزمالة نحو أستاذهم المبجل ؟ كلا ! ما خطر له ذلك ببال ، وإنما هو الجمهور يرغب عن فهم عبقريته . . . .

وهو من ذلك على يقين ، وقال ساخراً : كم نال سقراط من تبجيل أهل زمانه » .

وحدثت له حادثة أخرى أثناء مقامه فى برلين ، لقد برم بسامعيه ، واستغلاق نفوسهم عليه ، فتشاجر مع صاحبة النزل ، واستطار غضبه ، فدفع بها خارج الحجرة دفعاً عنيفاً ، وقعت منه على ذراعها ، فأصيبت بجراح بالغة ، ورفعت السيدة أمر شوپنهور إلى القضاء تطالب بتعويض ضخم قائلة إن ما أصابها يمنعها من كسب عيشها فيما بعد ، ودفع الفيلسوف تلك التهمة فى قوة ، لكنه خسر القضية ، واضطر أن يعول المـــرأة فيما تبقى من حياتها ، وتكشفت لسوء حظ شوپنهور عن امرأة منيعة الروح ، عمرت سنين طوالا . فلما سُلم شوپنهور شهادة وفاتها آخر الأمر ، حيي وفاتها بقوله : « قضى الحلس ، فزال النحس » .

وقام شوبنهور بعد محاكمته برحلة أخرى إلى إيطاليا ، وعاد بعدها إلى الاقامة فى برلين .

وكان مدفوعاً أبداً بإرادة الحياة . وفى ذلك يقول : « إنا لنلاحظ كيف تحتفظ البذرة الجافة بقوى الحياة كامنة فيها ثلاثين

قرناً ، وكيف تنمو وتزكو فى النهاية ، حين تجد الظروف المواتية .
وتظل الكهرياء خامدة كامنة فى النحاس والخارصين أجيالا لا تحصى..
وتظل حفريات الضفادع أحقاباً طوالا مطمورة فى حجر الجير قد
وقفت حياتها .. كل يلتمس يومه ، وكل يتلهف على الحياة .
لقد طبع العالم على الأنانية والشهوة ... وعدوه الأبدى هو
الموت » .

« والحاضر الحى يطوى بساطه تدريجاً ليضم إلى الماضى الميت .
وما هو الماضى إلا زمان مات ؟ إن الحياة موت مؤجل ... كما أن
المشى وقوع مؤجل ... وكل نفس نتنفسه ، وكل خطوة نخطوها ،
وكل وجبة نطعمها ، إن هى إلا محاولة لدفع الموت ، ولكنها لا تجدى ،
فالموت يطلبنا يوم نولد . فلا عجب أن كان ملوك الشرق الأقدمون
يصطحبون إذا ساروا قنينة من السم يستطيعون تجرعه فى أى لحظة ،
لأنهم وإيانا يعيشون فى زمن مقترض .

وكان شوبنهور شديد التشبث بما اقترض من زمن . فلما انتشر
وباء الهيضة (الكوليرا) فى برلين ، رأينا الفيلسوف الذى دعا إلى
بطلان الحياة وعدم جدواها وقد ملكه ذعر مميت على حياته ، ففر
من المدينة ، ولجأ إلى نابولى . ولم يلبث أن فر منها حين انتشر

بها الجدرى ولجأ إلى ڤيرونا . . . وهنا تملكته فكرة جامحة . . . فقد اعتقد أنه بلع سعوطاً مسموماً .

وكان من أبلغ الناس تعاسه . فقد أخذ الناس يجتنبونه لأنه « حينما نقل بصره ، ملأ الظلام أجواز الفضاء » . وقد رجاه أصدقاؤه « ألا يلون الشيطان باللون الحالك السواد وأن يكتفى باللون الداكن الخفيف » .

ولكن الشيطان لا يستطيع أن يبلغ فى حلكته ما بلغه مزاجه المتم . فهو فيلسوف مغمور أخلفت به غمرته أثراً يكاد يكون مرضاً . وهو شديد الظمأ إلى ملق الجمهور الذى لم يعترف بأنه « آرثر شوپنهور العظيم » ، وقد أسرّ مرة لأحد صحابته قوله : « لقد ولدت لأطبع معالم عقلى على الجنس البشرى أجمع ، ومع ذلك فأنا مضطر أن أسمع ضجيج الشهرة يدوّى بأسماء الأخساء التافهين . . . أنا الذى رفعت حجاب الحقيقة أعلى مما رفعه أى مخلوق آخر من بنى الإنسان » . لكن هوان أمر من أصابوا النجاح قد عزاه عن فشله الفريد ، فقد كان فيه تحد وكبرياء ، فلم يستسلم للهزيمة . وكان يعتقد أن الفترة التى مرت بين (كانت) و (شوپنهور) قد خلت من كل فلسفة تستحق الإسم ، فكل من تشدقوا

بالفلسفة أدعياء من رجال الجامعات ؛ فإذا قام عبقرى جبار ينادى زميلا له خلال فضاء القرون ، لم تستطع جمهرة الأقزام الزاحفة من تحتهما أن تسمع غير صوت خافت يسرى فوق رءوسهم . . ويتشبه بعض أولئك الأقزام ببعض فى الرقاعـــة والتهريج . . . ويتباهون بما يساقط إليهم من أصوات العمالقة ، ويضيفون البطولة الـكبرى لأقزام مثلهم » .

بهذه الأفـكار جاء مدينة صغيرة داكنة هى فرانـكفورت ، وصمم على أن يتخذها دار إقامة ، بعيداً عن أنظار العالم : « إنى لا يخطر ببالى أن أشارك فى مساجلات الفلسفة الحاضرة ، إلا بقدر ما يخطر لى أن أشارك فى عراك بين الدهماء فى الشارع » . وكان وقتئذ قد بلغ الخامسة والأربعين ، أى سن المغامرة وشرخ الشباب ، ولـكنه لم يبرح فرنـكفورت فيما بقى من حياته ، بل عاش فيها معيشة الناسك المتوحد حتى الموت .

— ٥ —

كذلك عاش أخيل الألمانى ، برماً فى مخيمه ، بعيداً عما يدور فى العالم من معارك العلم والأدب . وسار فى السبع والعشرين سنة التالية على نظام يومى مطرد ، لا يتبدل فيه شىء مهما صغر : حمام

بارد فى الفجر ، قهوة مركزة للفطور ، تجهم لصاحبة المنزل ولعن لها ، وثلاث ساعات يقضيها فى الدرس والكتابة إذا أقبل الضحى وبلغ عقله غاية نشاطه ، ثم يعزف على الناى نصف ساعة قبل الغداء ، عشاء فى فندق « إنجلترا » ، عود إلى المنزل ، قدح آخر من اللبن المركز ... ويخصص العصر للمطالعة ، ويقوم قبيل المساء بنزهة حثيث الخطى ، يصحبه فيها كلبه الصغير ، ثم يتناول وجبة أخرى فى الفندق ، وكأساً من النبيذ . ويختلف بعد ذلك عادة إلى حيث يستمع الموسيقى أو إلى دار التمثيل ، ثم يطالع لمتصوفة الهندوس مدة وجيزة ، ثم يأوى إلى مخدعه « ليدام نوم الصالحين » .

وكان يعنى أكبر عناية بجميع أنواع الفن . ولما مات صاحبه جيته ، أسهم أكبر مساهمة فى حركة أريد بها تخليد ذكراه . وقد لازمته — حتى فى هذا العمل — مقترحاته ونظرياته العجيبة ، فأعلن أن العلماء والفلاسفة والشعراء الذين يخدمون الإنسانية برءوسهم ، يجب أن تقام لهم تماثيل نصفية . أما السياسيون والحكام والقواد الذين يخدمون الإنسانية بكيانهم كله ، فيجب أن تخلد ذكراهم بتماثيل كاملة .

وكانت نظرياته الشاذة يمتد نطاقها من مكانة المرأة فى المجتمع إلى قوانين التغذية ، ومن نظرياته المحببة إلى نفسه وهى أن الإنسان فى بادىء أمره كان أسود فاحم اللون ، وكان يحيا فى الجنوب حيث يكفيه غذاء من الخضر ، بيد أنه حين هاجر إلى الشمال فيما بعد ، وابيضت بشرته ، كان لا بد مع تغير الجو أن يستحدث دفئاً فى دمه ، ولذلك اغتذى باللحم . وكان صريحاً تؤذى صراحته إذا تحدث ، ملهوفاً على التخفف من ثقل آرائه إذا أنس فى الناس رغبة إلى استماعه . وكان يعلم أن (كانت) و(جيته) من قبله كانا من أساطين النهم ، لهذا لم يكن يطيف به من بطنته طائف الخجل . جلس قبالته على المائدة يوماً رجل لا يعرفه ، وجعل ينظر إليه مشدوهاً وهو يقذف بالطعام إلى جوفه قذفاً ، فقال له شوبنهور فى هدوء : « سيدى إن إقبالى على الطعام يدهشك فيما يبدو . لا شك أنى أصيب من الطعام ثلاثة أمثال ما تصيب أنت ولكنى كذلك صاحب مخ يعدل ثلاثة أمثال مخك » .

وكان يضع من يوم إلى يوم قطعة من الذهب بجانب صحفة طعامه . وكانت نفس الخادم تتقطع حسرات حين يردها إلى مكانها من جيبه بعد أن يفرغ من وجبته . ولما سئل عن هذه العادة العجيبة قال : « نذرت للفقراء هذه القطعة الذهبية إذا

سمعت من الجالسين إلى المائدة شيئاً أكثر جداً من حديث النساء والـكلاب والخيل » .

وكان على شحه بماله ، يحب الراحة والمتعة . فـكان يجلس فى مكتبه ساعات طوالا ، وفى فمه غليون طوله خمس أقدام ، يدور من الذقن إلى الأرض كأنه آلة موسيقية ذات تلافيف . وعنده أن هذه الطريقة تتيح للدخان أن يبرد إلى درجة صالحة قبل أن يبلغ الحلقوم . وكان وهو ينفث الدخان من هذه التلافيف الضخمة ، لا يفتأ بصره معقوداً بتمثال نصفى مذهب لبوذا ، يقوم على مكتبه صامتاً إلى جوار رأس عمانوئيل كانت . ذلك أنه كان يتلقى مذهبه الفلسفى على وحى المتصوفه من الهنود . فهم من دعوا إلى تمجيد الاستسلام ، واعتزلوا صراع الحياة ، ليأسوا على هباء الحياة وباطلها ، وتاقوا إلى اقتراب الموت ، لا عن إيمان بنعيم الآخرة ، بل عن اعتقاد بأن الموت يعيد الفرد إلى اللاشيئية ، كذلك كانت الطمأنينة الروحية التى يحلم بها متصوفة الهند . . إنها محو الإنسان محواً تاماً .

وهذه الفلسفة تلائم شوبنهور أتم ملاءمة . وفى ذلك يقول : « إنى أفيد من صفحة واحدة لهؤلاء الهنود الأقدمين ما لا أفيد

من عشرة مجلدات من فلسفة أوربا بعد كانت » . فهو يمقت التفاؤل الزائف الذى يتسم به الفلاسفة المحدثون ، وعنده أن الإنسان أصلا مخلوق معذب — تدفعه إرادته دائماً إلى أن يصبو إلى شىء فى الحياة يعقبه شىء . على أنه إذا نال ما يصبو إليه ، فماذا يحدث بعد؟ سأم أليم ، هباء وفراغ ، فيعود الوجود كما بدأ عبثاً لا يطاق ، ويعود إلى الكفاح ، وما الحياة إلا تعاقب الألم والفراغ ، وتتابع الرغبة والسأم ، وكل رضى فى هذه الحياة سلبى فى صفته ، فنحن حين نحقق رغبة إنما نحرر أنفسنا من أسر هذه الرغبة لنقع تواً فى أمر رغبات آخر . ومن المفارقات أننا لا نفهم النعمة إلا إذا حرمنا النعمة ولا نستطيع أن نقدرها إلا بعد ذهابها ، فالسعادة حالة سلبية ، أما الحالة الإيجابية الوحيدة فهى الألم ، وفى مثل هذا النظام الذى تجرى عليه الأشياء ، هل للأمل من مكان ؟ كلا ولا مراء ، وإنما هو الاكتظاظ والسأم يتعاقبان على إرادة الإنسان إلى غير نهاية ، وفى وجود الإرادة نفسه ما يشير إلى نقص الإرادة فينا وعوز وحنين مشبوب إلى شىء لا سبيل إلى تحقيقه على الإطلاق .

وما هى النهاية ؟ هل يستطيع الموت أن يضع للعملية الجنونية حداً ، ويحرر الإنسان من شقوته ؟ كلا ، فالمرء — ولو انتحر — لا يضع بذلك حداً لشهوة الحياة . لقد فنى الجزء ، ولكن الكل يسير قدماً فى عزم وإصرار . فالرغبة العامة فى الحياة تقهر عدوها الخالد وهو الموت ، سلاحها أعضاء التكثير فى الجنس البشرى ؛ فالطبيعة لا تحفل مطلقاً بالفرد ، وإنما يهمها الجنس ، ولا يكاد الفرد ينجب أفراداً من جنسه حتى يفقد كل قيمته الخاصة فى نظر الطبيعة . فالفرد إذا أنجز مهمته ، أينع رأسه للقطاف . فالطبيعة تخدع الفرد وتسخره لإطالة شقوة الجنس . فهى تضفى الجمال على المرأة بضع سنوات . . . تدفع باقى حياتها ثمناً لها . وبذلك تستطيع المرأة فى سنى الشباب أن تتصبى قلب رجل ، فيولع بها ، ويسرع إلى تعهدها فى ظلال الشرف . . . ثم يكون شأنها تماماً كشأن أنثى النمل ، إذا لقحت فقدت جناحيها ، وأضحت عديمة الفناء . . . كذلك المرأة تفقد جمالها بعد ولادة طفل أو طفلين ، فقد أدّت رسالتها ، وآن أن تفسح السبيل لأجسام أنضر شباباً ، وأوفر صحة تحمل مهمة الإكثار . فيالها من سخرية تلك المهمة ، مهمة الإبقاء على الجنس ، ويالنا من حمقى إذ نحب !

كذلك قال النبى شوبنهور . وكان حواريه المثابر الذى يلازمه

أبداً هو كلبه الصغير الأبيض الذى يدعوه (أتما) ، أى روح العالم . لقد صار هذا الكلب الصغير علماً من أعلام الخرافات فى شوارع فرانكفورت ، مثله فى ذلك مثل صاحبه . وكان أطفال الجيرة يدعونه « شوبنهور الصغير » ، وكان ينام على طنفسة أنيقة من جلد الدب ، فرشت تحت صورة وليم شيكسبير . ومهما تكن مشاغل شوبنهور ، فإنها لم تكن تصرفه عن استعداده الدائم لتلبية مطالب (أتما) كأنه هو عبده المطيع

وكان السيد وكلبه يخرجان للرياضة فى النصف بعد الرابعة مساء ، ويسيران فى شارع فرانكفورت . وكان شوبنهور على ضعف بصره يتجنب لبس منظار على عينيه . وكان فى سيره يضرب الأرض بعصاه فى غير تؤدة ، وتصدر عنه ألفاظ غليظة لا معنى لها ، دون أن يتلفت يمنة أو يسرة . وكان الفيلسوف يبغض من يعجزون عن التزام جانبهم الأيمن إذا مروا به على الطوار . فإذا خرج أحد السابلة على هذه القاعدة ، أحالها موضوع مشادة ، فهز عصاه وهو يغمغم « أولئك الأوغاد ، ألا يتعلمون مطلقاً كيف المسير ؟ » وكان مولعاً بأن يقلد سلوك الناس وطريقتهم فى المشى تقليداً هزلياً ماجناً . والحق أن سلوك الناس فى الشوارع قد

استحال على يده موضوعاً عالمياً للملاحظة الفلسفية . وفى ذلك يقول : « من أعجب الأمور الفسيولوجية أن الحديث إذا أخذ يمتع معظم الناس . اضطروا إلى الوقوف فجاءة ، فلا يكاد مخهم يُحمل على ربط أفكار قليلة بعضها ببعض ، حتى يفقدوا القدرة على تحريك أرجلهم بأعصاب الحركة . فما أيسره من نصيب قسمته لهم الطبيعة من كل شىء » .

وحاول أن يجد علة فلسفية عميقة تفسر كل شىء ، لا يستثنى من ذلك سلوكه هو نفسه . ولما أن زهد فى الأسفار ، أصبح يزدرى ولع الشباب الحديث بالترحال ، ويدعوه « بعثاً لغريزة اليد والرجل ، التى سادت أحط مراحل المدنية » .

ولقد فكر فى الزواج فى مراحل كثيرة من حياته . وهو على بعد فلسفته من الخيال والعاطفة قد ارتكب حماقة عاطفية أو حماقتين فهو أب لطفل غير شرعى ويرفض الاعتراف بإبوته فى عناد وإصرار وإن كان — على العموم — لا تزين له أفكاره اصطحاب النساء إلا ردد بشفتين عابستين شعاره : « لو أنى ملك لكان أول أمر أصدره : أن اتركونى وحدى » . ثم يتبع الهجوم على النساء بحكمة أخرى : « الزواج معناه الحرب والفاقة ، فالزواج فخ ترصده الطبيعة

للانسان كيما يقارف أكبر شر فى العالم ، وهو الحياة . فلا عجب أن يوصف الحب الجنسى بالدنس والعار ، فهو أتعس توكيد لإرادة الحياة فنحن نرى عيون العاشقين تلتقى فى اشتياق وحنين ، لكن فيم الاستخفاء والخوف والأشواق ؟ إن هؤلاء العشاق هم الخونة ، العاملون على استمرار كل ما يعانيه الجنس البشرى من الفاقة والعناء . ولولا ذلك لبلغ نهايته سريعاً » وليس للرجل الذكى أن يشارك فى مهزلة الهيام بالجنس « اللطيف » . كيف أمكن لأى إنسان أن يطلق اسم الجنس اللطيف على هذا « الجنس الذى ضؤل حجما ، وضاق صدراً ، وثقل ردفاً ، وقصر ساقاً ، ذلك الجنس المسمى بالمرأة » . ذلك سر مستغلق من أسرار العالم ، فى رأى شوبنهور .

وإذا كانت فلسفة اسپنوزا — كما قيل — هى روح الإيجاب ثملت براح من عند الله ، فإن فلسفة شوبنهور هى روح السلبية ثملت براح من الشيطان . وعلت به السن ، وفقد السمع كله ، لكن عقله ظل على نفاذه ، لم يفقد منه مثقال ذرة . لقد تساقطت أسنانه ، وتدلت شفتاه على اللثة ، ومال شاربه الأشعث على فمه فى غير نظام ، لكن وجهه ظل يحمل طابعه الساخر ، وعينيه ما برحتا تقدحان بالنار .

— ٦ —

ووافته الشهرة آخر الأمر ، ولقد كان من عادته أحياناً أن يقضى الأسابيع دون كلام . وظل سبعة عشر عاماً لا ينشر أثراً من آثاره . ثم خرج عن صمته عام ١٨٢٥ ، و « تعطف » على العالم فنشر مقالا « عن الإرادة فى الطبيعة » ، وتابع فى هذا المقال نقاشه الذى اتصل طول حياته فيما فى الوجود كله من شر أصيل . ثم كتب الجزء التالى من « العالم إرادة وفكر » فأخذ الجمهور يقرأ كتبه . وبعد أن كان من قبل يقول : « إن صديق البأساء ليس صديقاً صادقاً ، بل هو مقترض » وجد أن له جيوشاً من الأصدقاء فى كل أنحاء العالم ، يتألف من طلاب الفلسفة شباباً وشيباً ، فقد بهرهم ما فى كتبه من الوضوح المتلألىء ، والتحليل المرهف ، فجعلوا منه نبياً يبشر بعصر جديد . ولم يدهش الملق والإطراء ذلك المتفائل المتشائم الذى لا يُرجى صلاحه . فهو لم يفقد إيمانه بنفسه قط ، بل ظل طول حياته فى انتظار ضجيج الاستحسان والتمجيد . لكن هذا الضجيج جاء متأخراً بعض التأخر . وفى ذلك يقول فى سخريته المألوفة : « أما وقد عشت حراً طويلا متوحداً ، هان أمرى فيه على الناس ، فقد جاءوا يشيعوننى إلى قبرى بالطبل والزمر » لقد استكشفه العالم آخر الأمر . ووجد فى أقواله المتشائمة ما يحفز إلى

نوع من الشجاعة جديد ، هو شجاعة اليأس . فالنفور من الناس قد غدا عادة اليوم المحببة ، فأقبل الناس جميعاً على « العالم إرادة وفكر » ووجدوا فى أصالة فكرته اللاذعة القمة التى تناهت إليها السفسطة . وأخذ تلاميذه فى كل مكان يلوكون فى لذة قول السيد العجوز : « أن ليس للإنسان إلا أمنية واحـــدة ، هى الرغبة فى الفناء التام » .

واستدفأ شوبنهور بمجده ، كما يستدفىء القط العجوز بالشمس ، وأمر بكل تعليق صحفى على كتبه أن يرسل إليه على نفقته الخاصة . ولم يكن هذا بالإضافة إلى شح شوبنهور إلا ثورة . وأقبل الحجيج إلى داره ليحدقوا فيه ساعات طوالا كأنه صار إلى تمثال أثرى . وطلب إليه أحد تلاميذه المتحمسين أن يؤسس جماعة من هدفها المحافظة على كل لفظة كتبها من أن يمسها تغيير على يد الكتاب أو المترجمين . وفى تلك الأثناء كان شوبنهور قد درس أدب الهنود الصوفى، وتشبث مرتاحا بالعقيدة القديمة القائلة بأن للرجـــل السليم البدن أن ينتظر مطمئنا حياة تبلغ مائة عام : «يقول خصومى إن شهرتى قد جاءت بعد الأوان ، ويحسبون أنى رجل مسن يقف على حافة القبر . . . كلا لأعيشن بعد أن يموتوا جميعا » . ذلك أنه كان يزيد بالحياة كلفا ،

كلما تقدمت به السن ، ذلك الواعظ الألمانى الذى دعا إلى أن الحياة باطلة ، وأن إفناء الذات حق .

وكان شديد الإيمان بأن حياته ستمتد حتى تبلغ القرن . «لا يزال أمامى نيف وثلاثون عاما ، أقضيها نابه الذكر قبل الموت » .

وأقيم عيد فى مدينة فرانكفورت ، وكان شوبنهور قد بلغ التاسعة والستين من العمر ، وكان يختلف إلى ميدان الاحتفال كل مساء ، وينظر فى تأثر إلى سعلاة كانت تبادله من قفصها النظرات دون ما تأثر . وكان شوبنهر يحب ذلك الحيوان « الذى هو فى أكبر الظن من أجداد جنسنا » ودعا أصدقاءه إلى الحرص على مشاهدته . وناداه فى إحدى هذه الزورات : ياصاحبى ؛ ما أبلغ أسفى إذ لم أتعرف إليك من قبل . نعم إن العظم الأمامى من رأسك لأحسن نظاما من عظام معظم الناس . إنى ليهزنى أسلوبك فى النظر من خلال القضبان . ما أشبه سحنتك الغريبة الحزينة بسحنة نبى يرسل نظراته إلى أرض المعاد .

ثم أضاف إلى ذلك فى مرارة « أما أنا . . . ذلك المخلوق التعس فليس لى من مكان بدعى أرض المعاد » .

— ٧ —

وبينا هو ذات يوم يهرع إلى منزله ليصيب عشاءه — وكان حثيث الخطى حتى فى شيخوخته — إذ أصيب بخفقان فى القلب ،

وضيق فى التنفس . وقال لنفسه إن هذا لا يجوز ، وإن على حياته أن تمتد ثلاثين عاماً أخرى على الأقل ، ينعم فيها بنعمة النجاح . وهو لا يستطيع الآن أن تثقل خطواته ، وأن يرهقه قلب مضطرب ، ونفس ضيق . وعاوده خفقان القلب من آن إلى آن ، ولـكن شوبنهور لم يبطىء فى سيره ، بل قصر خطاه . ونصحه الطبيب بتناول الدواء ، فزجر قائلا « إنه ما تناول طول حياته حبة من الدواء ، وإنه لن يبدأ ذلك الآن . ومن التمس من يدى الصيدلى الصحة والعافية ، فهو أحمق شرير ! » .

وما حكمة صراع الإنسان الدائم من أجل الحياة ؟ وما النتيجة الـكبرى التى تسفر عنها مهارة الناس وجهادهم ليحتفظوا بحياتهم ؟ أية نتيجة غير الموت ؟ ما أروع الاستعداد ، وأبهظ النفقة ، وأحر الأمل ، وأتعس النهاية ! ولا يستطيع عاقل أن يرغب فى إطالة مثل هذا الصراع غير المتكافىء . ولـكن شوبنهور لبث يصارع ليطيل حياته .

وتبين أن مرض الفيلسوف هو الالتهاب الرئوى . وجاهد أعنف الجهاد ما اقترح عليه من ملازمة الفرش . ها هو ذا على

أريكته ، وفوق رأسه صورة زيتية لجيته علقت بالحائط ، وعلى المكتب تمثال نصفى لكانت ، وعلى المنضدة غير بعيد كتاب مفتوح من كتب ديكارت . ألا ما أعظم حكمة هؤلاء الفلاسفة ، وما أدق فهمهم لباطل الإنسان وعدم جدواه . . . يا لها من سخرية هائلة ! إن إرادته لتحاول الاستزادة قليلا مما أصابت من جشع ! أيعتقد أحد أنه قادر على الاستمتاع بمسراته وجاره يشقى بآلامه ؟ إن الأمر على النقيض من ذلك ؛ ومثل من يلتمس السعادة فى حياة هى بحر من الشر عاصف مائج كمثل متسول صورت له الأحلام أنه ملك . هذا هو قانون العدل الخالد ، لا فرق بين ما أملك وما تملك ، أو بين سعادتى وسعادتك ، أو بين إرادتى وإرادة البشر عامة . فليعلن الحكماء تلك الحقيقة الرائعة « إن كلا منا — بغير استثناء — يجب أن يحمل كل ما يقاسيه العالم كأنه آلامه الشخصية . وعلينا نحن الذين رشفنا قطرة من منهل الحكمة الخالدة ، نحن الذين وهبنا أنفسنا للبشر كافة ، محبين ومنقذين ، علينا أن نهب قلوبنا لكل من يألم . ففى ذلك ما يخفف آلامنا نحن . ونحن الذين حررنا قوتنا من رغبتها الباطلة العمياء فى مصارعة بنى جنسنا ، نحن الذين أدمجنا إرادتنا الفردية فى

الإرادة العامة ، سنغدو قديسين متفائلين حكماء أحراراً . . .
لا إرادة لديهم .

وتكررت زيارة دكتور جوينر إلى شوپنهور الشيخ ، وطال حديثهما فى الفلسفة ، وفى أحداث السياسة فى ذلك الزمن (عام ١٨٦٠) . . فالإيطاليون قد نهضوا كموج المد ليزيحوا عنهم الطغاة النمساويين ، وأشرك لويس نابليون فرنسا فى الحرب لتأخذ بناصر إيطاليا ، وكانت أمريكا يتسايح فيها الشمال والجنوب استعداداً للصراع الهائل فى البرلمان المنقسم على نفسه ، وكان شيوخ الجنوب يبرحون قاعات المجلس وقد دمعت أعينهم . . . لقد كانت أياماً جليلة الخطر قدمت للفكر البشرى زاداً طيباً موفوراً .

— ٨ —

« لنكن فى غنى عن باطل الوجود ، فليس الرجل العظيم من يغزو ويفتتح ، بل من ينكر إرادة البقاء ، ويتخلى عنها » . ولن يروى التاريخ فى قابل الأيام أنباء صانعى الحرب ، بل أنباء صانعى السلام ... أولئك الرجال المستسلمين الذين أشرقت عليهم شمس العقل ، فهم على استعداد لأن يخلعوا ثياب التنكر التى ارتدوها

فى حياتهم ، تلك الليلة التنكرية الحمقاء ، فلا أسى ولا إرادة ولا عالم بل أمن وسلام .

ولاحظ أصدقاء الفيلسوف أن صوته لم يزل قوياً ، وأن عينيه لا يكاد يبدو فيهما أثر للشيخوخة . وكان هو يؤكد أن ليس فى صحته ما يشكو منه شكوى حقة ، غير سعال تشنجى عنيف يعاوده بين الحين والحين .

وجلس ذات يوم هادئاً إلى مائدة إفطاره ، يصحح تجارب كتابه الأخير ، منتظراً أن توافيه صاحبة النزل بالقوة . لقد وجد الأمل ... وهو الهرب الحقيقى من تدفق الرغبة تدفقاً لا داعى له . ألم ينفذ إلى السر (كانت) ، ذلك الفيلسوف العجوز الحكيم الذى يطل من المكتب فى هجعة رخامية يظللها السلام ؟

لقد ألم شوبنهور فى فجر حياته بمتاحف الفن فى درسدن يتأمل عذارى روفائيل ساعات طويلة . فماذا تطالعنا به وجوه العذراء التى أبدعها الأستاذ ؟ الحياة والكد والموت والتجلى فى شكل جديد : ليس غير الفن سبيلا للهرب من تدفق الرغبات تدفقاً لا ينتهى . الفن ، الفكر النقى الخارج عن تيار الزمان والمكان ... الذى يقف « كأنه قوس قزح يقف هادئاً على السيل الصاخب » .

— « دكتور شوبنهور ، هل أخذت حمامك البارد ؟ »

كذلك قالت صاحبة النزل وقد دخلت لتدع نسيم الصبح يغمر الحجرة .

ولكن عقل شوپنهور كان بعيداً غاية البعد عن حجرته . الفن . . . . . . .ما معناه ؟ معناه التخلص من شخصيتنا الفردية ، والخلاص من كل رغبة عملية ، والتأمل الفاضل فى الفكرة الخالصة غير الشخصية كأنها قربان مقدس . فالرجل العادى إنما يفكر فى الأشياء من حيث علاقتها بإرادته الفردية ، أما الفنان ، فيجاوز نطاق إرادته ، ليفهم كل شىء على حقيقته ، ثم يدرك أن « الشىء » لم يعد غرضاً ، إنه مجرد فكرة . لقد تعلم كيف يفسر العالم فى لغة غير لغة رغباته الصغيرة ، وأخضع إرادته لحكمة عقله الصافى الطليق . لقد سما فوق نفسه ، وأطل على أرض الحكمة ، فيما يلى قمم جبال الرغبة ، وأرسل بصره فى آفاق السلام الفسيحة الحياة . الكد . الموت . التجلى فى شكل جديد .

ونادته صاحبة النزل وهى تضع إلى جانبه قدح القهوة :

— « دكتور شوپنهور » لم يجب شوپنهور . لقد مات .

رالف ولدو إمرسن

١٨٠٣ — ١٨٨٢

- ١ -

فى الخامس عشر من يوليه عام ١٨٣٨ ، ألقى رالف ولدو إمرسن خطاباً على الفرقة العليا بكلية هارڤرد الدينية ، أبرز فيه « البساطة والنشاط اللذين ينطوى عليها القانون الأسمى ، قانون وحدة بنى الإنسان » . فقد أعلن نظرية الحرية الفردية والتسامح العالمى ، وهى نظرية التعاون المتبادل بين أحرار الرجال . وهو يناقض مبدأ الريبة بين الأفراد المستعبدين ، والأمم المستعبدة . وأرسى القانون الأخلاق للانسانية على أساس عملى : أن عش ، ودع غيرك يعش ، وأعنه على أن يعيش .

ترى من يكون ذلك النبى الذى ظهر فى (نيو إنجلند) ، فنقل الإنجيل إلى لغة العصر .

— ٢ —

لقد ولد هـذا الرجل من قوم سباقين ، كانوا على فقرهم يعتمدون على أنفسهم ، أحرار لا تلين لهم قناة . وقد رحل تومس إمرسن إلى كونكورد فى عام ١٦٣٥ « كان أجدادى الأمريكيون يكدون فى عملهم ، ويكتفون بالقليل من الطعام يتناولونه من صحاف خشبية . . . لـكنهم ينعمون بالحرية مع السلام . وإن النور ليتعثر حتى يتخلل نوافـذ غطيت بالورق المشمع . ولـكنهم كانوا فى هـذا الضوء الخافت يقرءون كلام الله ، وهـذا أحد أجداده يبتهل إلى الله كل مسـاء أن يقى أخلافه شر الغنى . واستجيب الدعاء ، فآل إمرسن لم يـكتب لهم الغنى بل كتب لهم العلم » .

كان وليم إمرسن « أبو والدو قسيساً » فاق فى حرية رأيه كل من رأت بوستن من القساوسـة « لـكن من قدم للناس الطيبات ، جوزى عليهـا بقذف الحجارة » فمات فقيراً ، شأن الغالبية من آل إمرسن ، وترك وراءه خمسة أطفال . . . . كلهم ذكور ، وكان « والدو » ثانيهم ، وكان فى الثامنة عشرة حين توفى أبوه عام ١٨١١ .

وافتتحت أمه نزلا تستعين به على نفقات الأسرة ، فتعلم « والدو » منذ نعومة أظفاره كيف يعرف الناس ، وكيف يحبهم ، وتعلم كذلك كيف يهش للفقر ويبتسم . فلم يكن له ولأخيه الأكبر وليم غير معطف واحد فى الشتاء يتناوبان لبسه . فكان على أحدهما أن يلبث فى المنزل إذا خرج أخوه .

وحرم والدو من اللعب ، لكنه كان يفيد أكبر فائدة من أمسياته الشتوية . . . فهو ينصت إلى حديث النزلاء ؛ ويلتهم مكتبة أمه كالمنهوم . وكان وهو فى فراشه : وقد غطته الأغطية الصوفية حتى ذقنه ، يتتبع أفلاطون فى محاوراته وما فيها من مغامرة تأخذ بالأنفاس . وكان وهو يستمع إلى موعظة الأحد يغوص فى « أفكار بسكال » ، وكان جيبه يحتوى دائما نسخة من هذا الكتاب .

وهكذا اقتات عقله فى نموه بالإدراك السليم ، وفلسفة ما بعد الطبيعة . وكان ذلك فى نظره مزيجا لا بأس به لأسقف سيعلم الانجيل فى المستقبل ، فهذه مهنة أسرته ، التى تحاول أن تهيئه لها .

وأرسلته عام ١٨١٧ إلى هارفرد ، فأضاف إلى من « أحب من أساتذته » شيكسبير واسبنوزا ومنتانى . على أن حياته الدراسية فى الكلية

لم تكن بالحياة الممتازة. فلم يعين شاعراً لفرقته الدراسية إلا بعد أن رفض هذا الشرف سبعة قبله. بيد أن سنه حين تخرج لم تكد تبلغ الثامنة عشرة، وكان وقتئذ شاباً طويلا نحيلا أشبه بأعمدة المصابيح، يتلألأ في عينيه الواسعتين الوادعتين وهج كوهج المصباح! ووقع ولدو في براثن ذلك الداء الذى منيت به أسرته، مرض الدرن الذى قضى على أبيه، وكان يوشك أن يعصف باثنين من إخوته، فلبث (فى منزل الألم) إثنى عشر عاماً، يصارع للموت مستميتاً، ويسعى جهده أن يجد فى دنيا المال أو دنيا المادة موطناً لقدمه فى الحياة. فحاول التدريس بين تلال روكسبرى « حيث يحتمل أن يتم اللقاء بين رجل العشب وبين الله » . وكتب شعراً كان بديلا كليلا من النثر، ونثراً هو روح الشعر الصميم، وفشل فى أن يصيب من أيهما ما يعيش به. ودعى فى كنائس كثيرة ليعمل واعظاً تحت التجربة، فأخفق فى أن يصيب عملا، ولكنه أفلح فى أن يبذر للمرح بذوراً جمة. فهذه سيدة فى نورثامبتون، تكتب لأختها بعد سماع إحدى مواعظه التجريبية « حسبنا الوافد تقياً ذا مسغبة، فإذا نحن على غرة أمام ملاك » .

على أن نفراً من أهل نيو إنجلند شعروا أخيراً « بالملاك

القاطن بينهم » ، ورسم إمرسن قساً لكنيسة بوستن الثانية (الموحدة) فى الحادى عشر من مارس عام ١٨٢٩ . وكان صوته بالغ الروعة ، أشبه بقيثارة حنون فأذاب كافنية نيو إنجلند كما يذوب الصقيع فى شمس أبريل .

بيد أنه كان يدعو إلى عقيدة لا يسيغها العقل الرجعى ، فهو يدعو إلى تطبيق « الموعظة على الجبل » تطبيقاً عملياً ، بدلا من التشبث بمراسم الكنيسة . بل إنه أعرض عن بعض هذه المراسم إعراضاً لا خفاء فيه ، وعلى الأخص مراسم العشاء الربانى . ومن أقواله فى هـذا « إن مملكة الله ليست لحماً وشراباً بل هى التقى والسلام » وإن شمامسة الكنيسة رغم ما يبدون لراعينا من إجلال ، لا يزالون على استمساكهم « بمراسم العشاء الربانى التقليدية » . ولذلك اعتزل منصبه فى الكنيسة ، لأن تفسيره للدين — كما قال — بعيد عن الأصول المرعية بعداً لا تحتمله النظريات الجامدة للكنيسة المعتمدة ، « فالمسيحية فيما أرى إنما تهدف إلى بث الخير والحكمة فى الناس . ولهذا يجب أن يكون فى نظمها من المرونة ما يجعلها تفى بحاجات الناس » .

وهو ينفصل عن الكنيسة دون أن يهاجم نظاماً أو إنساناً ،

ولا يزيد على قوله إنه وقد أصبح عاجزاً عن رؤية رواد كنيسته عيناً لعين ، يرى أن الخير لهم فى أن يؤتى لهم براع غيره .

وعلى هذا النحو البسيط حرر نفسه من أباطيل القديم التى يرى أن الزمن لا يقبلها . على أن الحق ما قال وندل هولمز «هنا محطم أصنام لا مطرقة فى يده ، أنزل الأصنام عن قواعدها فى رفق وكأنه يتعبدها » .

بيد أن تحطيمه الأصنام كان — فى نظر كثير من الرجعيين — بعيداً غاية البعد عن الرقة . فلقد اعتقدوا أنه أجلس الشيطان على عرش الله ، ولسوف ينال جزاءه على خطاياه . « إننا لنأسف لمستر إمرسن ، لكن الشواهد تبدو قاطعة فى أنه من أهل الجحيم » . وقد أجاب أحد صحابه عن ذلك بقوله « أنها تبدو كذلك فعلا ، ولكننى أثق بشىء واحد ، فأمرسن إن ثوى فى جهنم ، لطفت جواً ، فهوى إليها كل من فى الجنة من أرواح خيرة » .

— ٣ —

ولما هجر إمرسن منبر الوعظ ، مضى يبحث عن معنى الحياة

فأخذ يمشى فى الريف طويلا ، يحاول أن يتسمع موسيقى الطبيعة بأذنه وقلبه . ولم يمض وقت طويل حتى اهتدى إلى كشف عجيب: فقد علم أن قلبه وقلب الطبيعة يدقان متناغمين ، وأنه جزء من عالم حى عزيز عليه ، وأن عقله خلية هامة من عقل العالم ، أو — كما يدعوه — روح العالم أو الروح الشامل . وأدى به هذا الكشف المجرد إلى ملاحظة عملية . فقد لاحظ وهو يفكر فى العلاقة الوثيقة بينه وبين باقى العالم أن كيانه كله موصول ببحر من القوة زاخر ماؤه ، وأحس بثقة عاتية بنفسه وبنى جنسه ، قوة لا نهائية يستطيع أن يستخدمها ما شاء ومتى أراد ، ويستطيع أن يعلم غيره كيف يغترف من نفس هذا المعين المدخر فى نفسه . ويختم كلامه بقوله : « لكل منا رأس مال روحى يفى بإقامة عمل ضخم هو امتلاك الجمال والسرور والحرية والصداقة والسلم ، وتبادلها كلها مع غيره » .

« فكن بنفسك واثقاً ، ولا تنس نصيبك من عظمة الحياة ، وأيد صلتك بالله . وأسلم زمامك لما تنطوى عليه من قوة ... لا قوة استعباد ، بل قوة التحرير والعون . ولتكن فيك الجرأة على تنصيب نفسك سيداً لمصيرك . وعلم الناس على اختلافهم هذه الجرأة » .

كذلك غدا إمرسن التلميذ الخالد أستاذاً لبنى الإنسان « أستاذاً فى علم السرور » إذا استعملنا عبارته : على أن حياته الشخصية لم تكن سروراً خالصاً ؛ فقد أحب وتزوج وفقد زوجته . . . كل ذلك فى ثمانية عشر شهراً ، وظل عامين بعد فقدها يزور قبرها كل يوم . وكان يحس أنه منها على موعد قريب ، فإن سعاله الأليم لينشد فى صدره أنشودة الموت .

ولكن إمرسن فيلسوف الحياة رفض أن يموت ، وسافر إلى أوربا ليجلس عند أقدام أساتذة العالم القديم . ذهب ليلقى كارليل ذات مساء فأعطى « ناسك كريجنيتوك » غليوناً لزائره الأمريكى الشاب وتناول غليوناً . وفى صمت تام — كما تذهب القصة — جعل كلاهما ينفث الدخان ، حتى كان موعد النوم ، فتصافحا ، وهنأ كل منهما صاحبه بتلك الليلة المثمرة التى أمضاها معه . على أنه فى زوراته التالية لكارليل ، بعد أن زاد بفلسفته علماً ، وجد فى كارليل بعض ما خيب رجاءه : فنظر كارليل معقود بمجد ميت للعالم القديم ، ولا يرى ما يكفى من الجمال الحى فى العالم الحديث . فهو محلى أكثر مما يجب ، وهو لا يتحدث من إقليم

سماوى . ورأى إمرسن أن شغفه بمدح عظماء الرجال، قد صرفه عن الإشادة بعظمة الرجل العادى .

وأخذ إمرسن هذا المأخذ على كثير غيره من أعلام أوربا . فهؤلاء الرجال لا تزال ترهقهم العقائد السياسية ، والمبادىء الخلقية التى شب إمرسن عن طوقها . « لقد جلس هؤلاء الأوربيون المساكين أمام أبواب الفردوس ألف عام ، يحاولون أن يختلسوا نظرة عجلى إلى ما فى داخله من جمال . وهم الآن بعد أن فتحت أبوابه يغطون فى سبات عميق » .

وكانت رحلته إلى أوربا مخيبة لما عقد عليها من آمال ، فعاد إلى أمريكا . إن أوربا لم تكد تقول له شيئاً ، ولكن لديه الكثير مما يريد أن يتحدث به إلى أمريكا . فأوجد نوعاً جديداً من حجرات الدرس هو « لوقيون القرية » وأعلن — فى تحرر من العقائد التقليدية — رأيه الخاص فى القرآن والناس والملائكة والآلهة . ولم يطرب لهذه الآراء مفكرو البراهمة فى بوستن وكامبردج ، فهو لم يبد فيها الإجلال الواجب للتقاليد والعقائد القديمة ، حتى لقد أنزل مرة عن منصته فى كلية هارفرد وسط

صفير الاستهزاء ، وضجيج السخرية . ولكن الناس الماديين ، الرجال والنساء الذين نسجت أفكارهم فى أمريكا ، كانوا يفهمون عنه تعاليمه البسيطة . . . وإن لم يستطيعوا أن يتتبعوا عباراته الخلابة دائماً ، لأن ما يلقنه إياهم من درس إنما هو صدى لما تضطرب به عقولهم — فى غير وضوح — من مطامح وآمال . قالت سيدة من لكسنجتون بعد سماع إحدى محاضراته « إننا هنا قوم بسطاء . ونحن نفهم عن مستر إمرسن لأنه يتحدث إلى قلوبنا مباشرة » .

وكانت محاضراته فى هذه الأيام تدر عليه ربحاً لا بأس به .. نحو ثمانمائة دولار سنوياً . واستطاع أن يضيف إلى هذا المبلغ دخلا سنوياً قدره مائتان وألف دولار ، وهو دخل ورثه عن زوجه . فأحس أنه من الأغنياء ، واشترى له منزلا ريفياً كبيراً فى كونكورد بخمسمائة وثلاثة آلاف دولار ، وتزوج للمرة الثانية وأقام يزرع الزهور فى حديقته ، ويستنبت مودة جيرته .

وكان أصدقاؤه من أغنى سكان العالم . فالآلهة — لسبب لم يهتد العلماء إليه — يختارون بقعة من بقاع الأرض يعمرونها بسكان من السماء . حدث ذلك فى أثينة فى القرن الخامس عشر قبل

الميلاد ؛ فقد حوت إيسكلس ويوربديز وسقراط وأفلاطون ، وفى لندن على عهد اليصابات ، فقد كان فيها بومونت ودايتون وفلتشر وچنسن وشيكسبير ؛ وفى ألمانيا فى أوائل القرن التاسع عشر ، فقد ظهر بها جيته وشيلر وهيتى وموزارت وثوبرت وبتهوفن ؛ وفى روسيا فى الشطر الأخير من القرن التاسع عشر حين ظهر فيها ترجنيف وتشيكوفسكى وتشيكوف ودستويفسكى وتولستوى . كذلك كان شأن كنكورد بلد إمرسن ، وإن تكن أقل درجة من هذه البلدان السالفة الذكر : فقد شهدت هى الأخرى فترة من هذه الفترات الموسمية التى يفيض فيها العقل القدسى على التربة الإنسانية . فقد كان من خاصه أصدقاء إمرسن ناثانيل هوثورن الرجل الذى خلد الصراع بين حب المتطهرين للدين ، وعبادة الوثنيين للحب ، ومارجزيت فولر ، وكانت صورة نسوية لمرلين ، وكنت تستطيع أن ترى عينيها فى الليل ، وكانت تلعب بالأفكار كما يلعب المشعوذ بالكرات الملونة ؛ وبرونسون الكوت ذلك الغبى الجوال ، الذى كانت شخصيته مزاجا من حكمة أفلاطون ، وطهارة القديس فرنسيس ، وهنرى ثورو ، ذلك القديس الجوال ، الذى كان رأس ماله نحو خمسة وعشرين دولاراً

كل سنة ، إلى جانب رصيد من الحب لا حد له ، وساره ريلى ، وهى إلهة يونانية فى ثوب أمريكى ، فهى تغسل ملابس الأسرة ، وتنظف الأرض ، وتترجم كلوبستوك ، وتدرس هومر وفرجيل وأرسطو فى مدرسة زوجها ، والعمة ميرى إمرسن ، وهى لهب متوهج ، طولها أربع أقدام وثلاث بوصات ، تركع فوق حقول كونكورد فى إزار ولفاعة قرمزية ، ويستطيع عقلها أن يحيل تقاليد اليوم وادعاءاته خرقا ممزقة .

كان إمرسن يتبادل الأفكار مع هؤلاء الصحب وغيرهم ، فى بوستن وكامبردج وكونكورد ، ثم ينتقل إلى مكتبه ، فيحيل هذه الأفكار سبائك ذهبية فى مقالاته ومحاضراته . جاب أنحاء نيوإنجلند سائراً صوب الجنوب ، وعبر القارة إلى كاليفورنيا وكان يلقى الأحاديث على كل أنواع الناس . البحارة منهم والحدادين والشعراء والمدرسين والفلاحين والحذائين والسياسيين والرواد . ورحل ثانية إلى إنجلترا يحمل معه هذه المرة فكرة الدمقراطية ، فكان الناس يصغون فى كل مكان دهشين إلى هذا الرسول الجديد الذى أقبل من نيوإنجلند « منتصب القوام نحيله كأنه شجرة البتولا فى الشتاء » وكأن وجهه

اليقظ المنتبه كتلة من الحجر الأعبل ، والذى يقوم تفاؤله على أساس وطيد من الإيمان . . الإيمان ببطوله الإنسان العادى .

— ٤ —

لم يكن لإمرسن مذهب فلسفى جامد ، ولم يكن فى أفكاره اتساق تحكمى . وكان يعمد إلى ذلك ويقول « إن الاتساق السخيف لهو القول البشع للعقول الصغيرة » . وهو لا يدعى علماً بالحقيقة ، ويقول إن الحقيقة لا تؤخذ باليد وتوضع فى أنبوبة يحكم عليها إغلاقها شأنها فى ذلك شأن الضوء . وإنما كل ما يستطيعه ، هو أن يحاول التقاط خيط قد ألقى به هنا وهناك ، ويبدو أنه جزء من نسيج أبدع تصميمه إله خيّر . وهو تصميم معقد ولكنه محدد . وهذه الخيوط يمكن أن توضع جنباً إلى جنب ، فيتكون منها التصميم الوجيز التالى : —

كل الناس جزء حيوى من كائن حى واحد هو البشر . ويمكن أن نطلق على هذه الفلسفة (وحدة البشر) تمييزاً (لها من وحدة الكون) . ويردد إمرسن فى كتاب (العالم الأمريكى) إحدى هذه « القصص الخرافية التى تحمل فى سحيق قدمها حكمة لم يلتفت إليها :

أن الآلهة فى البداية قسموا البشر إلى أفراد حتى يستطيع كل فرد أن يكون أكثر عوناً لنفسه، كما قسمت اليد إلى أصابع، لتكون أقدر على أداء مهمتها». ولكن كان من سوء الحظ — كما يقول إمرسن — أن الوحدات الفردية التى يتركب منها الكائن الإنسانى الموحد، قد سمحت لنفسها أن تتجزأ، أن تتفطر فطرات، وبذلك كان مجتمعنا الحالى أشبه بشجرة نزعت عنها أغصانها، وقبيلة تفرق رجالها وحوشاً تسعى، فحسنت الإصبع والعنق والمعدة والمرفق، ولم يحسن الإنسان على الإطلاق.

فواجبنا إذن أن تؤكد من جديد وحدة البشر. ويجب ألا نقتصر على ذلك، بل أن نهب أنفسنا لهذه الحقيقة ونعمل بها. فلفسفته تقوم على العمل «والأفكار الطيبة لا تفضل الأحلام الجميلة، حتى توضع موضع التنفيذ». لقد دعا أنبياء الشرق إلى تلك العقيدة السالبة؛ عقيدة أن الله واحد. وها هو ذا نبى الغرب قد أتى يبشر بتلك العقيدة الموجبة، أن الإنسان أيضاً واحد، لأن روحه «جزء من الله فلتدهش أشتات الناس وقلوبهم وكتبهم ونظمهم بإعلان بسيط لهذه الحقيقة. ولنقل للغزاة أن يخلعوا نعالهم، فكل إنسان، كل جزء

بشرى من هـذه الوحدة القدسية المسماة بنى الإنسان ، هو إله فى دور التكوين .

وأطلق إمرسن لفظ «التسامى» على تلك الفكرة القائلة بوحدة الإنسان عن طريق علاقته بالله . وهى تسمية غير موفقة ، لأنها تحجب فكرة بسيطة وراء اسم صعب . وقد سخر بعض معاصريه من هذا الاسم الغريب ، ولم يفهموا أن فى طياته فكرة حيوية . وهذا أحد نقدة إمرسن ، دكتور برناب من بلتيمور ، يصف التسامى بأنه « الفلسفة الجديدة القائلة بأن لا شيء هو كل شيء على العموم . وأن كل شيء هو لا شيء على الخصوص » . وهو تحديد يحوى من الكذب قدر ما يحوى من الدعاية ، لأن فلسفة إمرسن — إذا فهمت حق الفهم — لا تعدو أن تكون الأساس الخلقى الذى تقوم عليه العقيدة السياسية للدمقراطية .

ويؤدى بنا هذا إلى النقطة الثانية من فلسفة إمرسن ، وهى توكيده كرامة الرجل العادى . « لقد كنت فى كل محاضراتى أعلم نظرية واحدة ، هى لا نهائية الرجل العادى » ، وهو إذ يبشر بهذه النظرية ، ينذر ظهوره للنظم الأوربية ، بنبلائها التافهين ، والتقسيم

الذى اصطنعته بين الطبقات . فلنهجر مقابر الماضى ، ولنرسل بصرنا فى غايات المستقبل » ، فعين الإنسان إنما ركبت فى مقدمة رأسه لا فى مؤخرها » لقد بليت تقاليد الاستبداد الماضية ، ولم تعد تصلح لنا . « فثمة أرض جديدة ، وأناس جدد ، وأفكار جديدة » فلنقصر عن محاكاة القديم . « وهل كانت المحاكاة إلا ارتحال العقل إلى الوراء ؟ إن بيوتنا تشاد على نسق أجنبى ، ورفوفنا تزدان بزخارف أجنبية ، وآراءنا وأذواقنا وملكاتنا تترسم الماضى البعيد » ولنكف عن المحاكاة والاعتماد على الغير . ولنكن بناة وقادة . « ابنوا عالمكم الخاص » ، « ابنوا حياتكم الخاصة » ، « أن الحياة الخاصة لفرد واحد ليمكن أن تفوق فى روعتها وسموها أية مملكة عرفها التاريخ » .

وعلى المفكرين الأمريكيين ، والعلماء الأمريكيين ، أن يعلموا مواطنيهم كيف يبنون ، فليبدأ كل منا فى موطنه . فهنا فى كونكورد لا توجد صناعات — فيما يقول إمرسن — « فلنصنع مدرسين إذن ، ولنجعلهم خير مدرسين أخرجوا للناس » . شعارهم الاعتراف بأهمية كل فرد فى المجموع الكلى . ولا أهمية لعظم الحجم أو بريق الأبهة أو ضجيج الشهرة . أن الآلهة يتنزلون إلى الأرض متنكرين فى ثياب متواضعة ، وإن أقوى المخلوقات فى الأقاصيص

الشعبية المتوارثة لهم أصغر الناس . فلينصرف كل إنسان إلى عمله ، وليحترم كل إنسان عمل زملائه . ماذا فى عجز الحداد عن نظم قصيدة شعرية ؟ أيستطيع الشاعر أن يصنع حذاء فرس ؟ لقد قال السنجاب للجبل « أنا إن عجزت عن حمل الغابات على ظهرى ، فإنك عاجز عن كسر البندقة » .

ولقد أبرزت فلسفة إمرسن نبالة الشىء العادى . « لتعلم — كائناً من كنت — أن العالم إنما وجد لأجلك — وأن فى كل إنسان بغير استثناء ملاكا متنكراً يتصنع البلاهة » . إلى هذه الملائكة المستخفية كان إمرسن يوجه حديثه حين يخاطب مستمعيه ، فيحرضهم على أن يتخففوا من ثيابهم الخارجية الحمقاء ، ثياب الذل والخنوع والمهانة والتعصب والكراهة ، وأن يواجهوا الحياة فى جلالهم الإلهى . . يواجهوها رجالا أحراراً . فليتحرروا من دين اليأس ، ويعتنقوا دين الأمل . فليفرض كل إنسان نفسه على الحياة . لا نفسه المنعزلة المنفصلة بل نفسه المندمجة الشاملة . فلتقو فؤادك بمعرفتك هذه النفس الشاملة تلك الفردية الاجتماعية التى هى حقك الطبيعى ، بذا تضع يدك على سر القوة والسلطان . فكل ما ملك آدم ، وكل ما فعل قيصر .. تملكه أنت وتستطيع أن تفعله . . حرر عقلك من أغلاله ، وتعلم

كيف ترى فى نفسك الرجل الذى ستصير إليه « فإمكانيات الإنسان لا حد لها » .

وكان صوت إمرسن — هو الصوت الذى بحث عنه بين أصوات الفلاسفة فلا تجده « ذلك الصوت العميق الذى يمكن أن يستجيب له القلب ، فيهيج المتوجس المتهيب ويشجعه ، ويدفع بالشباب إلى العمل ، ويقدم العزاء المنهزم ؛ ويبين فى ذكاء عن الأعمال التى تسبغ على الحياة المسرة ، وتحبب الأرض والبحر إلى الناس » . فعنده أن البشر يحتاج إلى نوع جديد من الفضيلة . « فضيلة ذات أحشاء ومعى » . . . هى الاعتزاز بعملنا والعدل مع عمالنا لأن العمال هم الجداول التى تحيل الأمل إلى عمل . وبلادنا ينبغى أن تصير بلاد العمل العظيم والفكر العظيم . . . فكر حر جرىء نشيط يحتضن كل فكر جديد ، وكل رأى لم يثبت بعد ، وكل مشروع لم يجاوز دور التجربة ، ولكنه صادر عن إرادة مخلصة وبحث أمين .

ستكون هذه هى التجربة الكبرى تهيمن عليها إرادة السباقين القوية الشجاعة ، ويهديها رأى العلماء الوادع الحكيم . وما هدف هذه التجربة ؟ هو الدمقراطية الكاملة : الاجتماعية

والسياسية والاقتصادية . هو أمل فى المستقبل مشيد على أخطاء الماضى . فلا يحجمن أحد عن المحاولة والتعثر والفشل .... ثم معاودة المحاولة . لا تيأس رغم ما يصادفك من فشل وألم وتثبيط بل ثابر على الكفاح . فلن يكسب الشوط من زادت سرعته بل من فاقت مثابرته . هل أخرجت من الحلبة ؟ هل زلت بك القدم ؟ لا يقعدن بك هزء الناس ، ولا تحفل بالهزيمة . استو على قدميك ثانية ، واستبشر .... الصبر الصبر .... ستكسب الجولة آخر الأمر .

تهلل واستبشر « فهذه الدنيا للمتهلل النشيط الجرىء » فلتكن فيك الجرأة على الاعتداد بنفسك ، بوصفك مواطناً فى جمهورية البشر العظمى . إن ميلادك فى هذا العالم لم يكن خطأ ... فأنت ضيف مدعو إلى مأدبة الحياة ، وليس من دعاك بالشحيح . إن الكرم الإلهى ليستخفى فى مكان ما وراء سر الخلق « فإن فى قلب الأشياء ذكاء وطيبة » .

وهنا يؤكد إمرسن الرأى الذى سيطر على آرائه جميعاً ، فيقول إن هذا الذكاء الإلهى قد خلق الناس فرادى بوصفهم أجزاء حيوية يتركب منها البشر الموحد . الفرد للجميع ، والجميع

للفرد، « والقلب الذى فى جوانحك هو قلب الجميع ، وما من صمام أو جدار أو حاجز فى أى مكان من الطبيعة . . . إنما هو دم واحد يسرى لا يعوقه شىء ، فى دورة لا تنتهى . . . تنتظم دورتها الناس جميعاً ؛ مثله كمثل الماء ، فهو فى العالم كله بحر واحد ، وإن نظرنا إليه فى حق وجدناه واحداً فى مده وجزره ».

ويبدى إمرسن ويعيد ، مأخوذاً بهذا المد البشرى الذى يسرى ماؤه فى قلوب الأحياء جميعاً . ونحن لا نعدو الصواب إذا قلنا إن إمرسن قد كتب الفصل الأخير من إعلان حقوق الإنسان ، لأن فلسفته فى دعتها وشجاعتها تمثل إعلان التضامن العام بين بنى الإنسان .

ولعل فلسفة التضامن هـذه قد بلغت ذروتها فى مقال إمرسن عن الصداقة . فجمال الصداقة هو فى الاعتراف بالعلاقه الأصيلة بين الإنسان وأخيه الإنسان « فجوهر الصداقة هو الكلية » ، الإدراك الملهم أنك وأنا كلٌ لا تتجزأ ، فلنصمت إذا اجتمعنا بأصدقائنا حتى نستطيع أن نصمع همس الآلهة » . وفى موسيقى هذا الهمس نشعر بأن « روحين ينسابان كل فى الآخر ، ويغدوان روحاً واحداً » وما تحدث صديق إلى صديق إلا كان الله ثالثهما ، فهلا أدعو الله

« الجميل الذى اجتلى جماله كل يوم فى نعمة الصداقة » ؟ وإذا لقيت أصدقائى : « فلست أنا الذى يلغى الحراجز الضعيفة التى تفصل بعض الأفراد عن بعض ويستخف بها ، وإنما يفعل ذلك ما انطوى عليه من نعمة إلهية . فهى تجعل من الكثيرين واحداً » .

إن حياة الإنسان بحث عن الصداقة . إنها جهاد لعودة روح البشر إلى الاندماج . على أن الصداقة الحقة ليست دفعة عاطفية وكفى ، بل هى كذلك عمل من عمال الروح . إنها مبادلة مقدسة قوامها العطاء والأخذ : « وليس من طريق لكسب صديق إلا أن تكون أنت وهو واحداً . فعلينا أن نتعلم كيف نقبض بأيد شهمة على أيد شهمة . . . وهذا الإدراك العقلى الشهم للصداقة هو عند إمرسن ـ الحقيقة المادية الوحيدة فى عالم من الأخيلة . إنه مادة لها حقيقة ودوام ، إذا قورنت به « جبال الألب والأنديز بدت كقوس قزح يغدو ويروح » .

تعلم فن الصداقة تقترب من صميم الحقيقة . فأنت إن امتنعت عن النظر إلى أقواس قزح ، بدأت ترى المصدر الحقيقى للضوء « ولو ألهم الإنسان الرحمة والحنان بأرواح البشر ، وشعر أن كل إنسان هو نفس له أخرى ، لأحدث هذا الشعور أروع تغيير فى

الأشياء الخارجية . فإذا الخيمات تطوى ، وإذا المدافع أعمدة تحمل النور ، وإذا الحراب رماح مطاردة تصيد الحيتان ، وإذا الطغاة ينزلون عن عروشهم ، وإذا الفرقة الحربية قافلة من المهاجرين الآمنين ترتاد الطريق » . . . طريق السلام . هـذا هو الحلم الفلسفى الذى كان يداعب إمرسن ، عالم يغشاه السلام ، يقطنه أصدقاء شجعان أحرار مرحون متحابون مغامرون .

— ٥ —

ويرسم لنا هوثورن صورة ممتعة لعالم كونكورد . ذلك الرجل الجاد الودود حين يلقاه فى نزهاته كل يوم « ما أطيب أن ألقاه فى مسالك الغابة ، وأحياناً فى الشارع ، يجعله ذلك الضياء العقلى النقى كأنه رواء ملاك سماوى ، وهو بالغ الهدوء والبساطه، بعيد غاية البعد عن الادعاء ، حتى ليلقى أى إنسان حى وكأنه أخذ عنه أكثر مما يستطيع هو أن يعطيه . ولكنك لا تستطيع أن تقطن قريباً منه ، دون يهفو عليك نسيم جبلى . . . نسيم أفكاره العلوية » .

لقد برئت طبيعته من البغض والغل والإزدراء ، وكانت صفحاً وحباً لأحد لها . فإذا فقد أبنه والدو ، فسر أحد الأساقفةمن الموحدين ما أصاب إمرسن بأنه جزاء له على « عدم إيمانه » ، فلم يزد إمرسن

فى رده على أن قال « لا يستطيع صاحبى ولا أنا أن نفهم سر الحياة والإيمان والموت » . وانتهى مرة من محاضرة ألقاها فى كلية مدابرى فقام القس الذى كان يرأس الاجتماع يتلو ضراعة إلى الله يبرأ فيها مما سمع « نسألك اللهم أن تنجينا من سماع مثل هذا الهراء المجرد الذى استمعنا إليه من خلف هذه المنصة المقدسة » وطلب إلى إمرسن أن يعلق على هذه الإهانة العلنية فقال « يبدو أن القس ذو ضمير حى صريح إلى أبعد غاية » .

لم تكن حماقة الناس تثيره . أتى إليه ماريت يوماً يحمل أخبارا مزعجة . وقال « مستر إمرسن : أتعلم أن العالم تنتهى حياته الليلة؟» فقال إمرسن باسما « يسعدنى أن أسمع ذلك . سيكون الإنسان أسعد حالا حين يخلص من العالم » .

لكن صوته قادر على أن يحتد إذا دعت المناسبة ، لا سيما إذا صرخ فى وجه الظلم . حدث ذلك فى ٧ نوفمبر سنة ١٨٣٧ حين كانت معارضة الرق جريمة عند مفكرى بوستن ، إذ صرح فى محاضرة عامة بإعجابه بشهيد التحرير اليجة . ب . لفجوى فقال « إن لفجوى الشجاع قد فتح صدره لرصاص الغوغاء ، فذهب « شهيد حرية القول والفكر ، ومات حين كان الخير قد ترك الحياة »

وقال أحد أصحاب إمرسن ، وكان قد سمع المحاضرة « إن رعدة باردة قد سرت في الحاضرين ، حين سمعوا هذا التحدى الهادىء للرأى العام » .

وكان إمرسن لا يخاف أن يتحدى آراء غيره ، ولا يخاف كذلك أن يغير آراءه كلما وجد نفسه على خطأ . فكان مثله الأعلى الأوحد في شبابه الأول هو دانيل وبستر . كتب مرة يشير إلى « أعجوبتى نيوإنجلند » .. تمثال بنكرهل ووبستر . ولكن بطله لا ينضم لأنصار الرق حتى يكون إمرسن في طليعة من عابوا عليه فعلة . فقد عقد إجتماع سياسى في كمبردج — وهو من الاجتماعات القليلة التى [illegible]رها إمرسن — فوصف « عجلة الرق المتعس » يجرها حصانها الرئيسى وبستر وكانت تحيته عاصفة من الصفير . فصبر إمرسن حتى خفتت الضجة ، ثم تابع حديثه قائلا « لكل قطرة من دم وبستر عينان تطرقان إلى الأرض . إنه يعرف أبطال ١٧٧٦ ولكنه لا يعرف أبطال ١٨٥١ إذا لقيهم في الطريق » .

فلما مات وبستر كان أصدق ما قيل فيه تحية إمرسن المتناقضة « كان لديه من الشرف ما أشعره بأنه قد هان وأسف » .

وفى الأيام الفاجعة التى سبقت الحرب الأهلية ، وفى أثناء هذه الحرب ، كان إمرسن يقول أبداً خير الكلمات وأشجعها . لقد قتل كثير من أصدقائه فى تلك الحرب ، وجرح ابنه الوحيد الباقى على قيد الحياة . لكنه على تقدمه فى السن ، واعتلال صحته اعتلالا دائماً كان لا يكل من نصرة الرجل الأسود . وكان بالغ الإعجاب بلنكولن وبادله لنكولن إعجاباً باعجاب ، فلما وضعت الحرب أوزارها أعلن إمرسن هذا الإيمان فى محاضرة من أغنى محاضراته بالإلهام «أننا نشيد الحرية والقوة وفتح الأبواب على مصاريعها ، وفتح الموانى جميعها ، ولو استطعت لتاجرت حراً مع كل بلاد العالم ، بلا رسوم ولا جمارك فلنرحب بكل أمة وكل جنس وكل بشرة ، بالرجل الأبيض والأسود والأحمر والأصفر . فلنسو بينهم فى سخائنا وأرضنا وعدلنا » .

—٦—

« إن الحياة — كما وصفها إمرسن فى إحدى محاضراته — أطول مما ينبغى أن تكون . وكان يرجو دائماً ألا يعيش إذا انهار عقله . ولكن هذا الرجاء لم يستجب كل الاستجابة . فمنزله قد أكلته النار عام ١٨١٢ ، وهو يقول فى هذا الحادث « أحسست غداة الحريق بشىء ينبجس فى مخى » ، ومنذ ذلك اليوم جعلت ذاكرته تروغ

منه ، إلا فى نوبات قليلة . وهذه ابنته تقرأ عليه ذات مساء فقرة من محاضرته عن الطبيعة فيقول لها « لست أدرى من الـكاتب ، لـكنه رجل عظيم لا مراء » .

ولـكن عظمته كانت فى بعض اللحظات تنطلق وتتبلج ، كما يومض البرق فى ظلام الغسق . فبينا هو يوماً فى حديقته ومعه صاحبه مونـكير كونواى ، إذ يعطى الشاب برقوقة ويقول : «خذها ، فهى إن بلغت مداها كانت فاكهة الفردوس » .

وإن هذه الـكلمات لترمز إلى موقف إمرسن من أبسط الفاكهة وأبسط رجـــل فى الناس على سواء « فهو إن بلغ مداه كان ابن الفردوس »

هربرت اسبنسر

١٨٢٠ — ١٩٠٣

— ١ —

كتب اسبنسر فى شيخوخته سيرة لحياته ، وقال فيها مشيراً إلى الـكويكريين « لم أظهر مطلقاً من الجد الدائب ما كانوا به يتصفون ، ولـكنى لم أظهر قدر ما أظهروا من شعور الإيثار » . وسجل فى هـذه السيرة كذلك أنه « لم يكترث لروح الواجب فى شبابه » ، كما يسجل « خروجه على الدين » . ولعل مرجع كل هذا ـ كما يقول ـ إلى « أن حظ مخى من الدم كان دون المستوى العادى ، ما لم يزده الانفعال » . وهو فى هـذا يعتذر عن عصر « الأنيميا الروحية » . عصر الشك العلمى .

كانت يداه ، كما يخبرنا ، صغيرتين حسنتى البناء على نحو غير مألوف. ويشير هذا المؤمن بالتطور إلى ذلك مزهواً ، فيقول إنه ورث هاتين اليدين عن أبيه وجده . « ولم يكونا يقومان بعمل أشق من

الإمساك بقلم الحبر أو قلم الرصاص » . وكانت نظرية الخصائص الوراثية قد اجتاحت أوربا على عهد اسبنسر .

ويتحدث مزهواً « بتحرره » الباكر « من الخوف الروحى » . ويقتبس فى تلذذ خبيث قول عمه فى نقده « إن النقص الأكبر فى أخلاق هربرت هو فى نقص الخوف . وما أعنيه بالخوف هو « خوف الله » الذى هو « بداية الحكمة » . وكان هـذا « النقص الأكبر » هو ما يفخر به ذلك الفيلسوف الذى كان لسان صدق العصر اللاأدرية :

وهنا يقول اسبنسر نفسه « ورثت قوة خارقة على النفاذ ببصيرتى إلى علل الأشياء ، فقد تهيأت لى ، قبل أن أجاوز دور الطفولة ومن غير أن أتعلم . . . بصيرة تنفذ إلى العلاقات الغائبه المحركة ، لم ينهيأ مثلها لمن كانوا يكبروننى كثيراً فى السن ، ويفضلوننى فى الثقافة . . . . وفى سن الثالثة عشر شككت فى نظرية القصور الذاتى كما بسطها كتاب الطبيعة للدكتور أرنوت ، والتى دافع عنها عمى ، ولججت فى معارضتى وإن المجتمع علىّ عالمان من الثقات » .

أخيراً يعرض لجانب المأساة من حياته فيقول إن الإرهاق

قد شوه جسمه وهو لم يعدُ الخامسة والثلاثين، فأضحى حطاماً يثير الرحمه. وقد ضعف وهو لم يزل نَصفاً، فكان عليه أن يستخدم سدادتى إذن يهدىء بهما أعصابه، ويتناول كل ليلة جرعات من الأفيون يستجلب بها النوم، فيقول « يمكن أن يصدق على المجد الأدبى، ما يصدق على كثير من الأمور: إن اللعبة غير جديرة بالشمعة أى أن المجد الأدبى غير جدير بما يبذله المرء فيه من العناء.

— ٢ —

كان هربرت أصغر إخوته السبعة سنا، ولم يجاوز منهم مرحلة الطفولة غيره. وتلقى على أبيه وعمه — وكانا من المدرسين والمصلحين الاجتماعيين — قليلا من العلوم الطبيعية والطبيعة والكيمياء والتشريح لكنه لم يدرس شيئاً من اللاتينية أو الإغريقية يستحق الذكر. ولم يتلق فى لغته الأصلية تعليما منظما.. بل كان يفخر بأنه لا يكاد يعرف شيئاً من قواعد النحو الإنجليزية، وظل حتى سن الأربعين يتناول معلوماته شيئاً فشيئاً، فهو لم يصب تعليما منتظماً، بل كان تعليمه سريعاً، يلتقطه عرضاً. لكنه لا يكاد يبلغ السابعة عشرة حتى يعين مدرساً فى مسقط رأسه « دربى »، ثم لا يلبث أن يجد

متقفساً لكفايته الرياضية فيعين مهندساً مدنياً فى سكك لندن وبرمنجهام الحديدية . لكنه يفصل من عمله حين تحول السياسة دون إنشاء خط فرعى ، فيقول فى ذلك « لقد فصلت من وظيفتى . . . فما أسعدنى » .

بذلك أصبح حراً فى أن يخص نفسه بوقته كله ، فجعل يجمع الأصداف ، ويدرس عمل النماذج ، وفراسة الأدمغة . وقد أنجز بعض المخترعات منها « دبوس يضم الأوراق » المنفصلة بعضها إلى بعض . ثم اعتزم الذهاب إلى لندن ليشتغل بالأدب ، فحصل على وظيفة مساعد لرئيس تحرير مجلة « الإكونومست » ووثق صلته ببعض أعلام لندن ، مثل جورج هنرى لويس ، وتوماس هكسلى ، وماريان إيفانز (التى عرفت فيما بعد باسم جورج إليوت) . لكنه بلغ منه الفقر أن فكر فى الارتحال إلى بلد آخر ، لعله واجد فيه « حظا أحسن وسماء أصفى » ووقع اختياره على نيوزيلند . وسلك سبيل العلماء فى حرصهم المسرف ، فسجل على الورق ثبتاً بالمزايا التى يجتنيها من الإقامة فى كلا القطرين . وحدد درجات لكل مزية « فالراحة المنزلية أوفر فى إنجلترا ، وهو يقدر لهذا العنصر عشر نقط ، وفيها تشبع « ميوله الأدبية » ، وقدر لذلك عشرين نقطة ، وتشبع « ميوله العلمية » وقدر

لذلك ست نقط . أما نيوزيلند فتتيح كسبا أوفر ، وتتيح له « تحقيق الزواج » المأمول ، وقد حدد لهذا العنصر مائة نقطة .

فلما كان التقدير النهائى « رجحت نيوزيلند إنجلترا بنسبة ١١٣ تقريباً . لكن اسبنسر لم يرض عن هذه الخطة ، وعدل عن فكرة المحرة . . بما تتيح من كسب أوفر ، وما تهيىء له من فرصة الزواج وما تكفل له من المزايا الأخرى . ومما قاله حين تقدمت به السن . « لعل ميلى هذا غير المألوف للنقدهو مبعث إبقائى عل حياةالعزوبة» .

ولكن الحظ دار دورته ، فأمده بالمال . فقد مات عمه ، وأورثه بعض المال ، فاعتزل عمله فى « الإكونومست » وألف كتاباً فى علم النفس . وكان قد كتب عدداً من المقالات فى موضوعات إجتماعية وعلمية . وكان قد ورث عن أبيه « نزعة التركيب » أى إحالة رموز العلم إلى حقائق فى الاجتماع ، وإنه لحريص على أن يقدم للعالم ما يهتدى إليه .

وبينما هو يجد فى ضم مقالاته المختلفة فى مجموعة تنشر ، إذ خطر له أن هذه المقالات تصلح أساساً « لفلسفة علمية جديدة » سوف تحدث انقلابا فى العالم .

— ٣ —

وتضخمت فلسفته ، فشغلت مؤلفا من ثمانية عشر مجلدا . وقد اعترف به زعيما غير مدافع فى كل ما يثور حول التطور من جدل . وألف كتابا من أخطر ما كتب فى علم النفس فى القرن التاسع عشر من غير أن يدرس قط ما كتب سابقوه فى هذا الميدان . وأعد كتابا فى الأحياء ، ولم يقم بغير تجربة معملية واحدة لاختبار نظرياته ، وصار اسمه من أكثر الأسماء ترددا على ألسنة الإنجليز .

وفى هذه الأعوام الخصبة من حياته ، امتدت أبحاثه من نظريات ميتافيزيقية إلى صناعة دبوس ضاغط ، من تصنيف العلوم جميعا إلى تحسين فى صنع شص يصاد به السمك .

لكن هذه الأبحاث ، مهما امتدت فى آفاق العلم ، لم تجاوز هذه الآفاق ، فهو من أشد مفكرى قرنه صرامة ، فقد اشتمل عليه ميل عام إلى ابتكار نظريات تركيبية للحياة « فحال ذلك بينه وبين الحياة » .

وكان فى سن الثامنة والثلاثين قد رسم الهيكل الضخم لكتاب

« علم النفس التركيبي » ، وأنفق الثلاثة والأربعين عاما الباقية من حياته فى إتمام هذا الكتاب .

« وعلم النفس التركيبي » لا سبنسر هو الكون مصغراً . . . فهو يتناول ميلاد النجوم ، وتطور الأرض ، وحياة الإنسان ، ونمو عقله ، وتقدم روحه . ويستحيل علينا أن نقدم فى بضع صفحات ما يصلح أية صلاحية لأن يكون ملخصا وافياً لهذا الكتاب الشامل ولكننا سنحاول أن نغترف قطرة علم من هذا المحيط الفسيح من محيطات التأمل .

لقد بنى اسبنسر مذهبه الفكرى كله على نظرية التطور . وكان قد كتب عن فكرة التطور مقالا ظهر قبل نشر « أصل الأجناس لدارون » ببضع سنين . وها هو ذا الآن يوسع مبادىء التطور ، فيمدها من الأرض إلى السماء . فالطبيعة كلها — تتبع نظاما متناسقا فى تقدمها وتأخرها . والحياة كلها تماسك فى المادة ، وتشتيت فى القوى يرافقه . فالمادة تمر من تشابه مشتت غير محدد ، إلى تباين متماسك محدد ، ثم تعود إلى التشابه المشتت غير المحدد » . وترجمة ذلك إلى لغة الحياة اليومية أن الكون يسير من الفناء إلى الخلق ، ثم يعود إلى الفناء . هذه ملحمة الحياة والموت ، والصعود والهبوط ، للكواكب

والأمم والأفراد . فـكل الأشياء . . . ثقافة كانت أو أخلاقاً أو فناً أو علماً أو ديناً ، إنما تبدأ جنيناً ، ثم تمر خلال الشباب ، ثم الـكهولة فالشيخوخة ، وتنتهى بالفناء .

وهل علم الأحياء إلا « الحياة ـ ذلك التـكيف المستمر فى العلاقات الداخلية بحيث تلائم العلاقات الخارجية ؟ » .

وهل علم النفس إلا تطور مستمر منذ السديم إلى العقل ، تقدم الإدراك ، ومروره بمراحل الاستجابة البسيطة والمعقدة ، والغريزة والذاكرة والخيال ... حتى يبلغ العقل . كذلك المجتمع بناء متطور له أعضاء للتغذية والدورة والتوافق والتوالد . . أسر تتطور إلى عشائر ، والعشائر إلى دول . . ولنأمل أن يحل يوم تتطور فيه الدول إلى دولة اتحادية عليا تنتظم العالم كله . لـكن كل شىء ينحل فى النهاية إلى اللاشيئية التى منها أتى . فحياة الإنسان وحياة العالم ، إن هى إلا حلم متقطع ، يتخلل نومتين .

لم يقم رجل من رجال ذلك القرن بمثل هذا المجهود الضخم . لقد كان العالم كما صوره اسبنسر أشبه بمخط بيانى هندسى منتظم . وكان عقله ـ كما قال وليم جيمس « خالياً من الأضواء والظلال التى يتسم بها العقل العادى ؛ فـكله وهج وضاح لا يغشاه ظل » .

وكان أصدقاؤه وناقدوه ، وهم يرقبون هذا الهادم للأباطيل وهو يملى آراءه على عدد من المعاونين يوماً بعد يوم طيلة نصف قرن تقريباً ، يهزون رءوسهم ويدمدمون « يا له من عقل بلا قلب » .

— ٤ —

وكانت كتاباته تمثالا ضخماً للأنانية . فعقله مستغلق على كل فكرة لم تنشأ به . وهو فى فلسفته شديد الزراية بأفلاطون . لقد حاول مراراً أن يقرأ « محاوراته » ولكنه كان يلقى بها جانباً فى كل مرة وقد زاد عما كان سخطاً عليها . ويقول فيها « إن فى قصص الدرجة الثالثة عندنا من الدقة التمثيلية ما ليس فى هذه المحاورات » وكان يزدرى الفن الجميل ، ويفسر ذلك الشعور بأنه تعـود التحليل ، فصار يتسقط المعايب ، ويتصيـد الأغلاط — فقلّ « تقديرى للجمال . . كذلك كان الشأن فى (عدم) تقديرى للأدب — وللشعر خاصة » .

لقد كان يبدو خالياً من الروح كأنه الآلة الحاسبة . « وكانت شفتاه الدقيقتان تشيان بفقد تام للحساسية . وكانت عيناه اللامعتان تنمان عن ضحالة فى العاطفة » كما قال أحد معاونيه . ويروى اسبنسر فى يومياته أنه قابل فى شبابه شابة نادرة الجمال وجهاً وقداً . وسأله

أصحابه بعد المقابلة ما يرى فيها ، قال « لو كان شأنى كشأن أى شاب آخر ، لاندفعت فى مدح لا يقف عند حد ، لكنى أجبت أن (شكل رأسها لم يعجبنى) أشير بذلك طبعاً إلى تشخيصى للأدمغة» فهو مولع بقياس جماجم الناس حين يقدم إليهم ، كلفاً باستخدام هذه المقاييس أساساً للحكم على أخلاقهم . وكان فى شبابه صديقاً حميماً لماريان إيفانز . وكان الناس يرونهما معاً دائماً ، ويطلقون الخيال لما سوف تتمخض عنه هذه العلاقة بينهما . . حتى لقد توقعوا أن يخطبها . ولكن هذه القصة الخيالية لم تتمخض عن شىء غير ما كتبه اسبنسر عن إيفانز فى سيرة حياته : « تكون بالرءوس عادة . . هنا وهناك . . أماكن مستوية أو تجاويف طفيفة . . لكن رأسها محدب فى كل أجزائه » .

وكان إذا تحدث دائم الاستدراك لنفسه حرصاً على الدقة ، لا يستثنى من ذلك ملاحظاته العارضة مهما تكن . وكان حديثه كعقله . . بريئاً كل البراءة من تذوق الجمال . قام برحلته الأولى إلى أمريكا ، فلم يقل فى روعة سفينة تبحر فى الأطلنطى غير ما كتب فى يومياته « إنزعاج أليم من صفارة الضباب . . مضايقة » وكان لا يستطيع أن يشهد منظر الغروب ، دون التفكير فى سرعة

تحرك الأرض خلال الفضاء . وسئل بعد عودته إلى إنجلترا من أمريكا عن رأيه فى أهل العالم الجديد ، فأجاب بأنهم لم يخلفوا فى نفسه أى أثر « إنى لا أحسن ملاحظة البشر ماديا ، لأنى مستغرق فى تجوالى فى المعنويات » . ولا تخلو يومياته من إشارات مستمرة إلى حجم المدن الأمريكية ، وعدد سكانها ، وآخر ما بلغت فنادقها من تقدم . . وكان يحيل كل ملاحظة عابرة موضوعاً لمقال علمى . فإن أشار مثلا إلى تعود الأمريكيين شرب الماء المثلج فى المطاعم ، عقب عليها بقوله « إنها عادة ضارة لا شك . . ربما كان السائل البارد منشطاً للدورة المعدية ، لما يحدث من رد الفعل ، لكن لا ريب فى أن تنبيه أوعية الدم باستمرار ، تنتج عنه حالة غير طبيعية ، تنتهى إلى إضعاف مزمن للدورة » .

فإذا بلغ شلالات نياجرا ، ذلك الفردوس المختار للعرائس فى شهور العسل ، كان ما أوحت به روعتها إليه : « يبلغ ارتفاع الشلال ١٦٠ قدماً ، ويقدر ما يمر به من الماء بمائة مليون طن فى الساعة أو أكثر من ٢٧٠٠٠ طن فى الثانية . . وأكبر الظن أن سمك هذه الكتلة المائية وهى تتدحرج من علٍ يبلغ (٢٠) قدماً . . وفى القاع تتعرض لضغط جانبى يقدر بنحو خمسة عشر رطلا على البوصة

المربعة . . . لذا كان على الصخور التى يقع عليها الماء أن تتحمل الارتطام بنحو ٢٠٠٠٠ر٢٠ طن فى الثانية تتحرك فى سرعة تزيد على ١٠٠ قدم فى الثانية » وهكذا .

ولم يكن له — كما قال — غير عاطفة واحدة . . . هى الزهو بالتحرر من العاطفة . وكان يزهو بأنه ظل حتى بلغ السادسة والثلاثين لا ينبس بغير لفظة سباب واحدة . . حين أمسك شصه بذراعه . ويقول صديقه تندال « ليته كان ينطق بين الآن والآن بشىء من السباب الطريف ، إذن لكان إنسأنا ألطف بكثير من ذلك الذى عرفناه » .

— ٥ —

وبينما كان اسپنسر على سفر فى عربة ذات يوم ، إذ جلس قبالة عامل فقير يلتهم غذاءه « كان يلتهم طعامه بطريقة وحشية استرعت انتباهى وملأتنى تقززاً ، حتى كاد التقزز أن يشرف بى على الغضب » . ولكن العامل انتهى من طعامه ، وساده الهدوء « فاسترعى نظرى وجه يجلله الهم ، خطت عليه أعوام من الألم . وبينا كنت أرمق العينين الحزينتين ، والغضون العميقة ، بدأت أدرك ما عاناه من حياة تعسة » .

كذلك كتب الفيلسوف للسن فى سيرته . لقد تكشفت له حقيقة تمسة آخر الأمر . . . . حقيقة ما كن فيه من العواطف العميقة حقاً . لقد أخطأ أصدقاؤه فهمه ، فكل منا مزيج من شخصيتين : إنسان فى الخارج ، وإنسان فى الداخل . وكان الإنسان الخارجى لاسپنسر عالماً ڤكتورياً خشناً متزناً ، أما الإنسان الداخلى ، فهو ذاك المحب للبشر ، العطوف المرهف النزيه . فحياته إلا تكن ملحمة شعرية ، فهى على الأقل مقال دسم بالتفكير . . وكان مقالا مفجعاً .

لقد اضطلع برسالة عقلية كان جسمه أعجز الأجسام عن احتمال أعبائهـا ، فهو لا يبلغ الخامسة والثلاثين إلا وقد أخذ يشعر بإحساسات عجيبة فى رأسه . ويصاب بأرق مزمن . وكانت هذه الأعراض نذيراً بانهيار عصبى عام . . . . لم يبرأ منه قط . وما هو إلا عام حتى صارت حاله من الشقاء بحيث حذره طبيبه من أن يقطن وحيداً ، ونصحه بأن يساكن غيره علهم يستطيعون العناية به . وأعد المسودة الأولى « لفلسفته التركيبية » وهو يرزح تحت أعباء هذه المتاعب . وما أن انتهى من وضع عناصر الكتاب ، حتى قام أصحابه يجمعون الاشتراكات سلفاً . وكان اسپنسر يرى بيع

مؤلفه على أربعة أقساط في السنة . ووافق ستمائة شخص على الاشتراك في هذا المشروع . وبدا الفيلسوف مطمئناً إلى أنه سيصيب دخلا وافراً يحفظ عليه طمأنينة باله .

لكن الأعداد الأولى لا نظفر بعقائدها الشديدة الجفاء للدين ، حتى ينسحب كثير من المشتركين ، ويضطر اسپنسر المرة تلو المرة أن يلجأ إلى ميراثه الصغير يستعينه على مواصلة إصدار الكتاب . واستنفد ماله آخر الأمر ، فأشرف على اليأس ، لكن أصحابه تمكنوا بطريقة ما أن يجمعوا له اشتراكات تكفل له مواصلة عمله .

لقد طحنه الألم ، وكاد القلق يطير بصوابه ، فأخذ ينتقل بمخطوطاته من نزل إلى نزل كأنه من البدو الرحل في فيافي الصحراء . . . ولقد بلغ من ضعف الجسم ما أعجزه عن الإملاء مدة تزيد على بضع ساعات ، وأخذ يسلك كل سبيل ليدفع عن مخه خطر الاحتقان . فهو يكتب فاتحة « المبادىء الأولى » في قارب تجديف بمتنزه سنت ريجنت . . . يجدف خمس دقائق ويملى خمس عشرة دقيقة . وهو بذلك يخفف من الألم القاسي الذي يحطم رأسه .

كان الكتاب فى هذه الظروف يتقدم فى بطء السلحفاة ، وكأنما لم تكفه هذه الصعاب فأصابته مصيبة أخرى . فناشرو كتبه قد انهارت ثروتهم ، وعرض عليه أصدقاؤه هبات تمكنه من مواصلة عمله ، ولكنه رفضها وأصر على الرفض . ونشر إعلاناً يذكر فيه أنه لن يستطيع إتمام كتابه ، لأن صعاباً غير منتظرة قد نبتت . فنهضت جمهرة من أعلام الفلسفة والعلم ، منهم چون استيورت مل ، أكبر منافسيه فى مهنته ، نهضة كريمة ، وقد حجبوا أسماءهم ، ورصدوا سبعة آلاف من الدولارات لطبع ما بقى من الكتاب . وادعى هؤلاء الأصدقاء لاسپنسر أن طائفة جديدة من الاشتراكات قد وصلت إليهم .

فتابع اسپنسر عمله فى عناد . وظل يتعاطى جرعات المورفين باستمرار . وقصر نزهاته إلى مائتى ياردة أو ثلثمائة حين يشعر أنه فى أحسن حالاته . وكانت رياضته الوحيدة بعد الظهر جولة تستغرق خمس عشرة دقيقة فى عربة عجلاتها ذات إطارات من المطاط . وقد عجز فى أخريات أيامه عن أن يملى أكثر من عشر دقائق دفعة واحدة . وكان مجموع وقت الإملاء طول النهار لا يزيد على الخمسين دقيقة . أما باقى النهار فكانت تحرم عليه فيه الاستثارة العقلية ، كما تحرم

الاستثارة الجسمية . فكانت القراءة فى أخف مظاهرها تؤذى عينيه ، وكذلك كان استعمال منظار مكبر . وحرم عليه الاختلاط الاجتماعى طيلة العشر السنوات الأخيرة من حياته ، فلم يسمح له بأن يتمشى خارج منزله غير مرتين طول هذه الحقبة . وحرمت عليه المتع العامة تحريماً تاماً ، وغدت ساعات يقظته عذاباً إليماً . وكان إذا فرغ من الإملاء فى الصباح ، لم يسمح لنفسه بالتفكير فى موضوع جدى ، بل كان يستلقى على الأريكة ، أو يجلس فى الهواء الطلق ، يراقب السحب السادرة فى انتظار الليل ، فإذا أرخى سدوله جلب عليه كل شىء إلا الراحة ، فكان فى أحسن الليالى يحظى بثلاث ساعات أو أربع من النوم المتقطع إن استعان بجرعة قوية من الأفيون . وفى الليالى كلها ، الطيب منها وغير الطيب ، كان يقضى الساعات الطويلة ، يتقلب فيها على جنبيه منتظراً مقدم الفجر .

هذا هو المصير الذى ساقته إليه « أربعون سنة من الجهد العقلى « وهو جهد لم يكن يبهظنى على الإطلاق لو أنى تجنبت إرهاق نفسى فى البداية » . وفى هذه الظروف كتب بعضاً من أمتع فصول كتابه « مبادىء الاجتماع » وهو خطة شاملة « لتحقيق السلم العالمية عن سبيل تقدم الصناعة ، والتجارة العالمية » .

فالعدل ينبت فى قلوب الناس من حاجات المجتمع ، والنظام الاجتماعى للجنس البشرى أسمى ما عبرت به الحيــاة عن نفسها .

« فالتاريخ ظل حتى الآن » ـ كما كتب اسپنسر ـ تقويماً من تقاويم استعباد الأمم » ؛ وإن حوادث قصة الإنسان على الأرض لمى بيان بما قارف من سرقة وقتل ، ولـكن قانون التقدم الاجتماعى ماض فى طريقه لا يلين . فأنت ترى خلال العصور تطوراً من « الاعتقاد بأن الأفراد إنما وجدوا لصالح الدولة ، إلى الاعتقاد بأن الدولة إنما وجدت لصالح الأفراد » . لقد حدث تطور من مجتمع « الأمر الواقع » إلى مجتمع « العقد الاجتماعى » .

وكان اسبنسر عديم الثقة بالدولة ، « فيجب أن تقصر وظيفتها على منع الافتئات على الحرية المتساوية للأفراد » . لقد شهد قيام الدولة الحربية فى بروسيا ، ولم يكن يبغى شيئاً من ذلك فى مجتمعه ، فهو يقول إن نمو قوة الدولة معناه الروح الحربية ، والنزعـــة الإمبراطورية « وإذا جاوزت الدولة مهمتها وهى كفالة العدالة « فإنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً غير الافتئات على العدالة » . هذه الآراء هى ما كان يتردد على لسان الأحرار فى القرن التاسع عشر

من أنصار حرية التجارة . فالمفكرين « الفوضويون » فى ذلك الزمن ، كانوا يرفضون أن يعترفوا للدولة بأنها يمكن أن تقوم للخير كما تقوم للشر . ويذكرنا اسبنسر فى إعلانه استقلال الفرد عن أنظمة الدولة بثورو Thoreau . فالرجل الإنجليزى كان قليل الثقة بالنظم الحكومية ، حتى لقد كان يحمل مخطوطاته إلى الطابع بنفسه بدلا من أن يأتمن عليها مصلحة البريد .

كان فردياً مسرفاً فى فرديته . . لا يقبل فى رأيه ليناً ولا هوادة . وكان محالا أن تجادله فى أى موضوع على الإطلاق . ولما تقدمت به السن ، تمكن منه ما يجوز أن نسميه « تصلب شرايين العقل » ويرجع كثير من هذا إلى أعصابه المحطمة . زار مرة عالماً صديقاً فى الأنبيوم ليحصل على بعض معلومات فى الأحياء . فأدلى اسبنسر بما يراه فى الموضوع . ولم يكد صاحبه يوجه اعتراضاً إلى ما سمع ، حتى أخرج اسبنسر سدادتى السمع من جيبه ، وأسرع بهما إلى أذنيه . وقطع الحديث قائلا « إن أطبائى لا يسمحون لى بأن أشترك مع أى إنسان فى جدل » ، ثم أردف يفسر ذلك بقوله « وسبب ذلك هو انهيارى الجثمانى » .

لـكن الأقدار كانت تخبىء له كارثة أسوأ من انهياره الجثمانى فقد عاش حتى رأى انهيار سمعته .

-٦-

لقد صاغ فلسفته وأصاب الشهرة وهو لما يزل فى سن باكرة نسبياً . ثم قضى سنوات طويلة كئيبة ، يدفع فيها عن نظرياته طوفانا عارماً من الهجوم . وأخذ العلماء الإخصائيون ينسفون من مؤلفه الضخم خطأ بعد خطأ . وهاجم رجال الدين آراءه الدينية ، واعترض الاشتراكيون على آرائه فى تحديد سلطة الدولة وهاجم الاستعماريون البريطانيون موقفه المناهض للحرب . فتخلى عنه أتباعه تدريجاً ، وأمسى فى شيخوخته ـ كما كان فى باكر أيامه ـ فى حال من الوحدة يرثى لها . لقد غدا أعجوبة من أعاجيب القدم . . ومثاراً لسخرية الجيل الشاب ، ورجلا لا وطن له ، ولا إيمان ولا إله عليلا مرتبكا كليلا تفرق عنه الصحب . لقد كان فى يوم يؤكد مزهواً « لا يُشكل علىّ أمر » أما وشمسه تؤذن بالمغيب ، فقد اضطر أن يعترف فيما بينه وبين نفسه أنه إنما كان يصوغ من النظريات

أكثر مما يقدم من المعرفة . فالحياة لا تدرك على أساس طبيعى كيميائى بل هى أحجية لم يستطع حلها .

فسأل نفسه وهو يكتب الصفحات الأخيرة من سيرته قبيل وفاته « ترى لو أن ما أصابنى من خيبة أمل وانحطام صحة قد تكشف لى حين بدأت عملى ، أكان يقعد بى ذلك عن مواصلة العمل ؟ » وكتب جواب هذا السؤال فى شجاعة « لا أستطيع أن أقول : نعم » .

فردريك وليم نيتشه

١٨٤٤ — ١٩٠٠

— ١ —

سمى باسم فردريك وليم ملك بروسيا ، وإن كان يعد نفسه بولونياً لا بروسياً ، لأنه من سلالة أسرة نيتسكى ، وهم قوم شديدو المراس من الأشراف والمحاربين والسادة « الأعلين » . قدموا ألمانيا من بلاد چون سـبيسكى ، وهو اسم أسرة من « أنصاف آلهة الأولمب » .

لـكن نيتشه نفسه كان فرعاً واهناً من هذه الشجرة العاتية ، ورث عن أبيه جسماً واهناً ؛ فقد ورث اضطراباً عصبياً ، كما ورث عينين ضعيفتين ، وصداعاً ودواراً ، وقد أودت نوبات الدوار بأبيه ، فبينما كان القس نيتشه يصعد الدرج إلى منزله ذات ليلة ، إذ ترنح فجأة ووقع على ظهره وارتطم رأسه بالصخور ، وأصيب القس نيتشه بشلل فى المخ . ولم يمض عليه عامان حتى طواه

الموت . وتتبع فردريك الصغير ، الذى بلغ السابعة وقتئذ ، كل هذه المأساة مرتاعاً . فقد شهدهم حين جاءوا بحطام أبيه إلى المنزل ، وسجوه فى الفراش . وشهد الألم البطىء يمتد شهوراً ، وانحلال المخ شيئاً فشيئاً ، والموت والدفن والقبر . لاحظ كل هذا وظل يذكره .

ولا يموت والد فردريك حتى يتعرض هو وأخته الصغيرة إليصابات لتأثير أربع نساء . . . . تأثير قاتم مُغتم . . . أمهما ، وجدتهما ، وخالتيهما . فشب فردريك بنفسه كليلة كليئمة . وزاد الأمر سوءاً عجزه عن المشاركة فى اللعب . ألا ما أشد ألم هذا الصداع وما أضعف هاتين العينين ! لقد نزفت قوته ، فغدا أضحوكة رفاقه فى الدرس ، ذلك القس الصغير الأحول ، صاحب الجسم الضئيل والرأس الضخم ، الذى لا يصلح إلا لصحبة أخته .

وإذا لم يصحب أخته ، فهو فى وحدة تامة . فإنه ليخاف الصبية ، ولا يعرف كيف يحادثهم ، ولا يسعه مجاراتهم فى لغتهم الدارجة ولا شتائمهم . فهو إما لاعب مع أخته أو ملق برأسه الفاحص بين الكتب .

إنه أبداً يقرأ كتاباً أو آخر « كما كان يفعل أبوه تماماً » كما

قالت أمه مزهوة به مفتخرة . فهى تريده أن يتأثر خطى أبيه حتى يبلغ منبر الوعظ . فقد كان ضئيلا بالغاً فى ذلاقته ، بالغاً فى تأثيره الصامت بعينيه الزرقاوين ، كأنهما من أعين البوم ، وشعره الأسمر الكث . لسوف يشيد للدين صرحاً فى نفوس العجائز من قومه ، فإن وجهه لصورة صادقة للأسى العالمى الخالد . ولم لا ؟ إنه لايكاد يولد حتى يقول الواقفون إلى جواره : « لكأن عينيه تملؤهما آلام المسيح » وكانت أمه تؤكد أن سيكون له شأن عظيم .. لعله شأن نبى من الأنبياء .

وبعثت به إلى مدرسة پفورتا الإعدادية ، حيث درس الشعر والعلوم الطبيعية واللغتين اليونانية واللاتينية . . . درس كل شىء فى الواقع غير الحياة . وكانت عيناه تضايقانه على مألوف عادتهما ، فكان يصلى العذاب ساعات بعد أن يمضى فـــترة فى القراءة . فكان يستلقى على فراشه ، ويفقد الرغبة فى الحياة ، ولا يحتمل أن تظل عيناه مفتوحتين فى النور الساطع . فالشمس تصيبه بدوار ، وتكاد تغريه بأن يصرخ من شدة الألم . ولم يكن هـــذا الألم يزايله إلا متى حل الليل وانتشرت فى الكون ظلاله الباردة ،

فهو يتوق إلى الظلام ، وحجرة النوم بلا أضواء ، وسكون الفراش فالليل خير أصدقائه . . الليل والوحدة .

لكنه وفق إلى هواية يتسلى بها فى وحدته . فقد أولع بالموسيقى فما عزف أو سمع غيره يعزف إلا نسى نفسه فى الأحلام . والواقع أن حياته الحالمة قد صارت تدريجاً حياته الحقة . فقد وجد فى خيالاته من النشاط ما لم تهيئه له حياة الواقع ، فعاش بين مغامرات أجداده المحاربين ، وخبر مطامحهم ، وخاض معاركهم . وفى أحلامه عرف العنف بلا ألم .

لكنه فى يقظته عرف الألم بلا عنف . لقد أصبح ألمه مزمناً مرهقاً لا يكاد يحتمل ، فيؤلف قطعة موسيقية يهديها إلى الأسى .

لكنه شاب يريد أن يعيش . فلديه فضول الشباب يدفعه إلى أن يخبر العالم .. فضول عقلى جسمك بقدر ما يستطيع جسمه أن يحتمل الفضول . فغادر مدرسة بفورتا ، والتحق بجامعة بن . وجعل يشرب نكاتاً بذيئة ، ويكتب شعراً فاحشاً ، ويتردد على بيوت الدعارة من حين إلى حين . وقرأ (الطفل هارولد) لبيرون ، تلك الصيحة التى بدأت بها الفردية الأنانية ، وتعد « إنجيل الشباب » . وبلغ به الأمر أن اشترك فى مبارزة . ترى أهو يوشك أن يصبح

صورة جديدة من جيته أو فوست ؟ كلا فجسمه العليل لا ييسره لذلك ، فإن نفسه يأتى قصيراً حادا ، وآلامه تزداد ، وقواه تخور . وما هى إلا شهور قليلة حتى يهجر فجوره ، ويزهد فى الدنيا ، وينزوى فى أحد الأركان ، يلوذ فيه بمقعده المتوحد على شاطىء الحياة ، وفيه بنفسه زراية .

وينتقل من بن إلى جامعة ليبزج ، ويندفع فى دراسة اللغة ، يريد أن يكرس حياته للتعليم بدل الوعظ . فهو قد بدأ يشك فى عقائد الدين وفقد الإيمان بحياة الإيمان . ولم يكن يدرى هل يستطيع الإنسان أن يحيا بروح قوية فى جسم ضعيف ؟ وكان يتوق فوق كل شىء إلى قوة الجسم ، إلى فتوة الشباب . وكان يتمعض من أنه ولد رجلا عجوزاً وهو يريد الإيغال فى بحر الحياة اللجاج حتى يلاطم الموج صدره ، ولكن قدميه ترفضان مجاوزة الساحل . فعليه أن يستلقى على الشاطىء ويدع الشمس تبعث شيئاً من الدفء فى دمه البطىء . وكان فاتراً من من الناحية الجنسية ، وكان هذا يزعجه ويفزعه . لماذا حرمت عليه طيبات الحياة ؟ ولماذا يفرض عليه الإنصراف عن لذات الحس ؟ إنه يمقت دينه لأنه يشجع على هذا الانصراف ، فهو أداة رائعة للدفاع عن ضعفه . نعم إن القديسين كانوا يدعون إلى احتقار نزعاتنا الطبيعية ولكن

«ألا يجوز أن هؤلاء القديسين قد جعلوا من العجز فضيلة .. مكرهين؟» على حد قول نيتشه ؟ لماذا يخجل الإنسان من جسمه إذا كان تام الصحة ، تام القدرة على أداء وظائفه . أليس الأرجح أن بعض مرضى الأعصاب قد تخيلوا فكرة الخطيئة الأصلية ليبرروا ضعفهم العصبي ، وأن كل الأجيال التالية من غير المرضى تبعوا أهل الشذوذ هؤلاء كأنهم قطيع من الغنم ؟ أليس ما يسمونه مبادئنا الأخلاقية خداعاً وزوراً ؟ أليست الحياة تهدف إلى السعادة ؟ أليس مجرد العيش يعنى الرضى بالحياة ؟ وما هو الدور الذى يؤديه الدين فى الحياة إذن ؟ ولما أوغل فى هذه الفكرة ، وجاز هذا الحد، اقشعر بدنه . فقد وجد ألا بد له من أن يواجه هذا الاستنتاج : إن الدين يعنى إنكار الحياة بدل أن يعنى الرضى بها .

ما الذى يؤمن الحياة إذن ؟ تؤمنها إرادة الحياة . ولو استطاع نيتشه أن يبلغ بإرادته قوة كافية لتغلب على صداعه ودواره وألمه ، فما من شىء سوى الإرادة يستطيع تحرير الإنسان .

كذلك كانت الآراء التى صدرت عن حجرة الرجل المريض . وكانت آراء شبيهة بها قد تمخض عنها المرض فى مكان آخر على بعد أميال كثيرة . فقد قامت فرق من الأمريكيين تعتقد أن الإنسان يستطيع

التغلب على المرض عن طريق الإرادة . فما عليك إلا أن تريد العافية لنفسك لتنال العافية . كان هؤلاء هم رواد العلاج العقلى . وفى الطرف الآخر من الأرض ، فى الهند ، حوّل جمع من المتصوفة إرادة الإنسان إلى سحر عجيب : فهم يقفون عن التنفس ، ويريدون الموت ، ويلبثون مدفونين ساعات طويلة ثم يريدون أنفسهم على العودة إلى الحياة ، ويمشون بقدمين حافيتين على جمر الفحم ، ويريدون ألا يحسوا بالألم وهذه الفكرة ، فكرة سلطان العقل على علل الجسم ليست بالفكرة المستحدثة ، فالزهاد المسيحيون الأقدمون كانوا فى الصحارى يقاسون الجوع والجلد ، والتعذيب ، الذى لا يكاد يحتمله بشر ، يريدون بذلك أن يفنوا فى الله . ألم يرد المسيح نفسه أن يصلب تخليصاً للبشر ؟ وكان أرثرشو بنهور فى ألمانيا قد أمسك بتلابيب نظرية قوة الإرادة هذه وبشر بها على أنها المبدأ المسيطر على الحياة . فالنبات والحيوان والإنسان — فيما يؤكد شوبنهور — تكثر من أنواعها عن طريق واحدة ، هى إرادة الحياة ، إرادة عمياء غير بصيرة . وإذا كان هو متشائماً لا يرى فى الحياة أى خير ، فقد كان يقول إن الإنسان لو حول إرادته الحياة إلى إرادة الموت . . . أو بعبارة أخرى : لو أنه امتنع — بإرادته — عن الزواج والنسل والتنفس لوضع حداً لآلام هذه الحياة . . .

ولاعتلى حينئذ عرشه ، عرش الأمير المظفر على مملكة اللاشيئية السماوية .

وقبل نيتشه فكرة شوپنهور فى الإرادة ، ولكنه أحالها من فلسفة سلبية إلى فلسفة إيجابية . فعلى الإنسان أن يستخدم إرادته لا ليموت ، بل ليحيا . وإن من الجبن أن تريد نفسك على الموت لتتخلص من الآلام . ومن النبل أن تريد نفسك على الحياة برغم الألم إن هذا التأكيد الإيجابى على الإرادة ، ليسمو بنا فوق أنفسنا ، فهو فى الحق يحيل الإنسان ملاكا .

— ٢ —

وجد نيتشه الآن معنى لحياة الخاصة . إنه سيحياها مظفرا . ولكن نوبات النكوص والفزع كانت لا تزال تلم به فى فترات . ذلك أنه لم يصبح بعد إلها لديته . فلما أن انتشر وباء الكوليرا فى ليبزج ولى هاربا ، وذاق الموت ألف مرة . ذلك أن خوف الموت الباكر كان يملأ قلبه ، فأبوه قد مات فى سن مبكرة . . مات من انحلال المخ . وكان نيتشه يرتعد فرقا كلما لاح له شبح الموت . ألا ما أتعسه من كائن يحاول أن يكون ذا إرادة قوية ! لقد دعته حكومة بروسيا للتجنيد ، فطلب الإعفاء ، بحجة أنه ابن أرملة لا يعولها سواه .

ولكن ذلك لم يفد فتيلا ، وضم إلى سلاح الفرسان . وما هى إلا بضعة أشهر قضاها فى التدريب ، حتى وقع عن حصانه ، والتوت عضلة من عضلات صدره ، فتنفس الصعداء ، لقد استطاع مرة ثانية أن يجتنب حياة النشاط ، محتمياً بعجز جسمه . واستلقى فى فراشه ليستريح مما أصابه ، ويفكر فى قلق الإرادة الإنسانية .

فلما أن أخرج من الجيش ، عاد إلى حياته العلمية . وكانت أنباء نبوغه اللغوى قد بلغت مسامع كلية اللغات بجامعة بال . فعرضت عليه كرسى اللغتين اليونانية واللاتينية ، وإن كانت سنه لم تكد تبلغ الخامسة والعشرين . فقبل المنصب ، واغتبط بعض الوقت بجو الجامعة الهادىء . لكن شغفه المزمن باستطلاع نفسه لم يلبث أن نغص عليه حياته ، فهل يتخلى عن بحثه فى قوة الإرادة التى شغف بإثباتها ؟ لا شك أن ميدانها غير ميدان حروف الجر اللاتينية والأفعال الإغريقية !

وكذلك أخذ يعيد تشكيل أحلامه المغامرة ، وقد جلس هادئاً فى حجرة الدرس يلقى محاضرة على طلبته . ولكنه لا يلبث أن يصحو من حياته العلمية الحالمة ، ففى وطنه تقع أحداث جسام ، فإن ألمانيا قد اشتبكت مع فرنسا فى حرب .

وشهد فصيلة من الفرسان البروسيين تسير إلى جبهة القتال .
ويخبرنا أن فلسفته كلها فى هذه اللحظة قد نضجت واتخذت لها شكلا
« شعرت لأول مرة أن أقوى وأسمى إرادة للحياة لا يعبر عنها صراع
بائس فى سبيل البقاء ، وإنما تعبر عنها إرادة الحرب ، إرادة القوة ،
إرادة القلب » .

لـكن نيتشه كان شاعراً كما كان فيلسوفاً ، وقد أعفاه ضعف
بصره من الخدمة العاملة فى الحرب ، فاقتصرت واجباته على تمريض
الجرحى من الجند . فاستحالت آنئذ فلسفته الخشنة ، فلسفة الإرادة
العاملة على قهر الإنسان ، شعراً وادعاً ، شعر الإرادة التى تغالب
الشقاء . فظل — كما ظل والت هوتمان — يعيش شهورا بين رجال
يحتضرون . ورأى الدم ، وشم العرق ، وجلس فى عربات الماشية
المبللة ، وقد حشد فيها جنود نغلت جروحهم ، فامتلأ قلبه اشمئزازا
وتقززا وعطفاً ، هذه المشاهد كلها ما معناها ؟ أين « مجد الحياة الخالدة »
الذى بشر به الأنبياء والقساوسة ؟ أليس فى الحق عذاباً خالدا ؟ ولما
وضعت الحرب أوزارها ، ورفع الحصار الذى كان مفروضاً على المكان
الذى انتشر فيه مرض الخناق (الدفتيريا) ، خرج إلى الجبال . وفى الهواء
الطلق العليل ، أجال الفكر ثانية فى هذه المشاكل ، وخلص إلى أن

عذاب الدنيا كله ، يجب على نحو ما أن نجد له مبررا . فالإنسان — رغم كل شيء — متفائل لا يقهر . ولِمَ ؟ لعل التعاسة تجربة ، بل لعلها تجربة قدسية .

نعم ، إن الإنسان عن طريق قوة إرادته ، لينتصر على ميله الوضيع . . . ميله إلى التخلص من الحياة ، ويسمو ليؤكدها . وإن أعلام الشعر ليترنمون بأناشيد سرورهم بوجودهم .

كذلك مضى نيتشه فى تفكيره . ولقد كانت المآسى تأخذه من كل وجه ، ولكننا لا نستخرج من المآسى ألما روحيا ، بل نستخرج منها متعة روحية ترى من هم أكبر كتاب المأساة فى تاريخ الأدب ؟ هم الأغريق لا مراء . وكان الموضوع الذى تواتر فى مآسى سوفوكل واسكلس ، هو العقاب الذى يصبه الآلهة الخالدون على البشر الفانين فالإنسان ألعوبة الآلهة ، وهو ضحية عبثهم القاسى . لكن بطل المآسى الإغريقية مهما يلق من ضربات ، يرفض أن يحنى رأسه . ومهما تبلغ شقوة البشر ، فالإنسان يريد بكل قوته أن يكون إنسانا ، وأن يظل إنسانا ، لا يبغى أن يستبدل بمكانه مكان الآلهة . فهو لا يريد هذا ، وهو لا يتخلى عن شقائه فى دنيا الفناء ، ليصيب النعيم الذى يرتع فيه آلهة الأولمب . إنه ليزهو بقدرته على تحدى الآلهة ، وها هو

ذا بروميثيوس يسرق سر النار من السماء وينزل به إلى الأناسى من بنى جنسه ، فكانت هذه أول محاولة تقوم بها الارادة البشرية لتفرض نفسها .

ذلك أن النار عند نيتشة هى نور الحرية ،فأسطورة بروميثيوس ترمز إلى ميلاد الحضارة . فحينما امتنع الانسان عن النظر إلى قوى الطبيعة مأخوذا برهبة خرافية ، وشرع ينتزع مصيره من حجر الآلهة ويمسكه بيديه الفانيتين ، وحينما شرع — فى أسلوب منظم — يخضع القوى المحيطة به ويستغلها لصالحه الخاص ، بدل أن يدعو — وهو معصوب العينين — أن تدركه المعجزة ، حينما فرض هو إرادته فى أن يحيا ، بدل أن يعتمد على إرادة الآلهة فى السماح له بالحياة ، حينما فعل هذا بدأت أكبر ثورة فى تاريخ العالم .

وتفيض صفحات المآسى والأساطير اليونانية بأمثلة لنبالة الإرادة البشرية . فالإنسان يألم ، لأنه يريد الحرية ، وتنزل به النوب ، لأنه جرأ على إعلان حقوقه إزاء الآلهة التى تبغيه عبدا . هكذا كان مصير بروميثيوس الذى شد إلى صخرة ، وصبت عليه عناصر الطبيعة جام عذاب . وكذلك كان مصير آدم وحواء أيضاً فقد طردا من جنة عدن لأن الله لا يصفح عن الثائر .

ومع ذلك فقد كان أعظم الثوار هم أسمى من حرر البشرية . وإن نيتشه ليفضل موقف الوثنية من الثائر على موقف المسيحية منه . فبينما المسيحيون يلعنون استطالة آدم ، إذ يبرر الوثنيون استطالة بروميثيوس فالمسيحيون ضعاف ، والإغريق أقوياء . والتوراة — فى رأى نيتشه — ميثاق رق ، وأساطير الإغريق أهازيج الحرية والاستقلال . والإنسان لا يستطيع نيل حقه فى الحرية بغير أن يفرض إرادته على السلطة الخارجية الآتية من السماء .

وبغير أن يحتمل الإنسان تلك النتائج المفجعة التى تنجم عن فرض إرادته ، لا يستطيع أن يبلغ القوة والعظمة الجديرتين بحريته لأن المأساة تصهر الإرادة ، وتحيلها سلاحاً قوياً بتاراً ، وياله من غبي غافل ذلك الذى يصبو إلى غير خبرة المأساة والألم والحزن . ألا بعداً لأنصار « التهدئة » ، الذين يبغون بيع إنسانيتهم بحياة مستسلمة رضيّة لا إرادة فيها !

هذا منطق نيتشه ، الابن الوثني للقس المسيحى .

- ٣ -

لقد ترك شاربه يغزر ويتدلى من جانبيه ليخفى ركنى فمه الحساسين ، لأنه كان يبغى أن يطلع على الناس طلوع الساخر . وكانت عيناه غائرتين، نصف مكفوفتين ، تجاوزان فى سموهما ما قرب من الأشخاص والأشياء ، ولا تنظران إلا فى فضاء اللانهائية الفسيح . وكان يتحدث فى خشونة ، ليخفى من صوته حرارته الحقة ، وكان يبتعد عن معظم الناس لأنه يخافهم ، ولم يعجبه فى الرجال غير رتشرد ڤاجنر ، فهو أيضاً بروميثيوس ، جرأ على أن يسرق نار الله ويصنع منها موسيقى الإنسان .

ويكاد نيتشه ألا يكون له صديق غير ڤاجنر . فقد عاش وحيداً بفلسفته العجيبة ، التى تدور حول روعة الظلام ، وسعادة الألم . وحدث أن طبيباً من الأطباء ، روعه ما يعاوده من صداع ، وبلغ من قلة الكياسة أن حذره من أن يصاب بشلل بطىء فى مخه ، فامتلأ نيتشه هلعاً ، واقتصر فى طعامه على المواد النباتية ، علّه يستعيد صحته ، ولم يكن لهذا النظام من أثر غير إضعاف قوته فأيقن أنه سيموت بالسرطان ، وجعل يهرع من مصحة إلى أخرى ثم عاد

إلى بيته آخر الأمر يائساً . فهو لم يستطع من نفسه فكاكا . وأخذ وهو في مستهل عامه الخامس والثلاثين يتأهب للموت . ألم يمت أبوه في الخامسة والثلاثين ؟ ألم يمت بشلل في المخ مصحوب بصداع ملح مخيف ؟ وكان نيتشه يتذكر هذه المأساة بفزع خرافي . إن القدر في مده وجزره ليسير في نظام مطرد رتيب ، يسير عليه إلى أبد الآبدين. لقد أطاح القدر بأبيه ، ويوشك أن يطيح به أيضاً ، فتصيبه قشعريرة ، ويكتب في مذكراته عابساً « إن الموت يوشك أن يدركني في أية لحظة » . . .

ومر عامه الخامس والثلاثون وهو لا يزال حياً ، وقاسى في هذا العام الرهيب ما يزيد على مائة صدمة من صدمات الألم ، واعتزل منصب الأستاذية وذهب إلى مارنباد ليستشفي بجوها . على أن شمس الجنوب ترسل بالحمى إلى رأسه ، فلا يستطيع احتمالها فيحبس نفسه في حجرة بأعلى منزل ، ولكنه يظل حياً .

وأقبل العام التالي ، وكانت آلام رأسه قد زالت ، فاستطاع أن يفكر مرة أخرى في الحياة ، فعبر الجبال ، وأطال النظر في مياه البحر المتوسط ، وكانت مياهاً زرقاء . . . . تزهو بزرقتها وتتحدى ، ولا يحف به غير جلال التلال الصخرية شامخة برأسها

إلى أعلى ، وسكون السماء خاوية منبسطة إلى غير أمد . إنها تنتظر الإنسان أن يصعد إليها ويقتعد عرشه الحقيق به ؛ ليس من عائق للانسان غير غبائه وخوفه ، فالإنسان فى لحظة تعسة من حياته قد اخترع خرافة أسماها « الله » وظل منذ ذلك الحين مكبلا بقصة من خلقه هو . ألا أنه ليس من إله غير الإنسان لو واتته الشجاعة على أن يعرف قدره ، ثم يجاوزه مصعداً ، فعلى الإنسان أن يحاول السموّ على الإنسان .

وهبط نيتشه الجبال ، وذهب إلى رومة ، وهنا قطعت حياته التأملية حادثة عاصفة . فقد تعرف إلى شابة فنلندية ، تدعى لوفون سالوم وأحبها . وكانت وسيمة قوية شائقة ، وبدت له صاحبة نموذجية . وطلب نيتشة يدها ، ولكن الشابة رفضت . فقد كانت تحترمه لعقله ، لكنها تخشى أن يمزقها رهف حِدّه ، وهو فوق ذلك عليل تكاد تقعد به العلة ، فهو لا يصلح صاحباً لامرأة موفورة الصحه من نساء الشمال .

ولكن نيتشه لم يفقد أمله . لقد أخطأ فهم رفضها تمام الخطأ ، فاعتقد أنها تعترض على الزواج منه لأن فى هـذا الزواج ما يعوق خطة رسمتها لحياتها . لكنه قال لنفسه إنها من غير شك توافقه

إذا عرض عليهـا الحب الحر . أليست تلميذته وتابعته ؟ أليس بين صديقهما رتشرد ڤاجنر وبين كوزيما بهذه العلاقة من الهوى الحر ؟

بيد أنها ترفضه ثانية ، فيشعر بالألم والهوان ، ويعود إلى كتبه . ثم توافيه الأنباء بأن الفتاة قد قبلت عرضاً كعرضه ، تقدم به رجل آخر . . . ليس من الفلاسفة .

فينقلب نيتشه للمرة الأولى ساخراً (والسخرية ـ كما قال بعضهم ـ سلاح المجروح) ويقول : « إنى لم أخلق العالم ، ولا لوﭬون سالوم ، ولو أنى خلقتهما ، لـكانا خيراً مما هما » .

وأدى به فشله الغرامى هـذا إلى مسلك جديد من مسالك التأمل ، أدي به إلى البحث فى الأخلاق ، والخير والشر ، وانتهى إلى أن كل آرائنا فى الخير والشر لا تأتى من الله ، فليس من إله ، ولا من قانون خلقى سام ، فليس من قانون سام ، وإنما نمت هذه الآراء خلال تطور العقل البشرى . فلفظة « خيِّر » لم يـكن لها فى الأصل دلالة خلقية ، بل كانت ميزة اجتماعية وسياسية . فخيار الناس كانوا هم طبقة الحـكام ، كانوا هم المحاربين والأشراف فى كل مجتمع . فالخـيِّر معناه الشجاع الرياضى القوى . فكانة الأشراف كانت تعتمد على قوتهم ، وفرض الأقوياء قيمهم على المجتمع ،

ووضعوا له معيـــارهم الخلقى الذى يتفق وخصائصهم . وكان « أشرار » هذا المجتمع من باءوا بالمراكز الدنيا لضعف أجسامهم فكان الرجل الخير هو المحارب والسيد ، والرجل الشرير هو الإمعة والرقيق .

ولـكن بمرور الزمن – كما يقول نيتشه – وقع فى تاريخ الأخلاق حادث غاية فى الشؤم ، فقد فقدت لفظتا الخيِّر والشرير ، معنييهما الأصليين تدريجاً . ذلك بأن طبقة جديدة من الناس قد صعدت إلى القمة فى بطء . ولم يكن قادة هذه الطبقة من المحاربين أو من أقوياء الرجال، بل كانوا من القساوسة أى ضعاف الرجال . وكان هؤلاء القساوسة يعتمدون على قواهم العقلية لا الجسمية . وفى خلال صراعهم مع سادتهم الأقدمين ، فرضوا على المجتمع الذى أرادوا السيطرة عليه معياراً جديداً للسلوك . وإذ كانت القوة البدنية تعوزهم ، فقد اخترعوا ما سموه فضائل « الروح » ووضعوا نظاماً أخلاقياً يغطى عيوبهم وأسباب ضعفهم . لقد عجزوا عن أن يقهروا بالسيف ، فحـكموا بالتقوى والصلاح ، فأعلنوا « حقوق الذليل ، وجلال الجبان ، ومجد الضعيف » فعلوا كل هـــذا ليكبتوا الغرائز الطبيعية عند الأقوياء ،

استدامة لحكمهم العاجز . وقاموا بدعوة دينية تمجد عجزهم وقالوا : « إن التعساء وحدهم هم الأخيار ، وهل من خيِّر غير الفقير والضعيف والمسكين، وهل من تقي مبارك غير المعذب والمعوز والمريض والطريد؟ لهم وحدهم الخلاص ؛ أما أنتم أيها الأشراف ، يامن بيدكم السلطة ، فستظلون أبد الدهر أشرارا مفزعين جشعين مغتصبين لا تشبعون . ليس لكم من إله ، وحرمت عليكم البركة إلى الأبد ، كتبت عليكم اللعنة والعذاب » .

وهكذا غلب الثعلب النسر على دولته ، وانقلب قانون الأخلاق انقلاباً تاماً . لقد اقتص الجبناء لأنفسهم من الشجعان ذلك القصاص الماهر ، فطرد السادة من مملكة السماء ، وانتصرت أخلاق الرجل الوضيع . وماذا يسمى انتصار العبيد هذا ؟ يسمى قيام المسيحية . إنها ـ فيما يزعم نيتشة ـ «أتقى خدعة عرفها التاريخ» ، خدعة جعلت من القوة شيطاناً . ومن الضعف إلهاً ، فتحولت نظرية الرجولة القديمة إلى نظرية الضعف الجديدة ؛ « إن المسيحية ملاذ الرقيق » .

هذه تعاليم نيتشة ، ذلك الفيلسوف المعذب . إن كل ما تطرق إلى العالم المتدين من حديث الضمير « الطيب والفاسد » لهو لغو لا طائل تحته . ففي الحق أن أي إنسان قوي حر ، لا يستشعر الخجل

مما يقارف من أمر . وهل تخجل الطيور الجارحة من اعتدائها على الخراف المستضعفة ؟ أيزيد من القوة أن تصبر على نفسها بغير قوة ؟ إلا أن القوى لا اختيار له فى أن يكون ضعيفاً ، شأن الضعيف الذى لا اختيار له فى أن يكون قويا .

ويقول نيتشة إنه فى الأيام السعيدة ؛ قبل أن تخدر « المدنية » الوحش الكامن فى قلوب الأشراف ؛ كان الأقوياء يباشرون سلطانهم المشروع على الضعفاء ـ فكان المحاربون يتجولون ما أرادوا وينفسون عن غرائزهم الطبيعية ؛ فيعتدون على رفاقهم ممن لا حول لهم ولا طول ، دون أن يشعروا بأى ندم على قسوتهم . . فحكموا الناس بالارهاب ، وأنزلوا بهم العقاب دون نظر إلى ما يسمى « بالقانون الأعلى » . فلما أن فقد الإنسان عاداته اليهودية ، واستقر فى القرى وكون المجتمعات يحمى بها نفسه ، ونمى الشعور الاجتماعى والشعور بالتكافل ، وجد أنه فى مأزق . فمع أن الطبيعة قد هيأته للحياة الوحشية ، حياة الحرب والاعتساس فى طلب الفريسة فإن غرائزه قد خبدت على حين فجأة ، وصارت عديمة القيمة « ولست أحسب أن العالم قد شهد مثل ما شهده وقتئذ من شعور بالتعاسة والألم البالغ » . إن غرائز الإنسان القدير لم تكف عن المطالبة بحقها ،

وكل ما فى الأمر أن إشباعها غدا الآن عسيرا ، وقلما صار مستطاعا ، فاضطر الإنسان إلى أن يشبع هذه الرغبات بوسائل جديدة ملتوية ؛ فكل غريزة حبيسة تتحول إلى الداخل « فالكراهة والقسوة ولذة الاضطهاد — كل هذه الانفعالات قد خلق الإنسان الضال منها أسلحة ضده » . وهذا — فيما يؤكد نيتشة — هو الأصل فيما نسميه « ضميراً فاسداً » ؛ فالإنسان بعد أن أسره العرف القاهر الضيق المطرد، وأثقله ذلك الجهد الرتيب ، انقلب على نفسه يضطهدها ويقضمها ويخيفها ويؤذيها ، كأنه الوحش يضرب نفسه بقضبان القفص . . لقد خلق من ذات نفسه لنفسه حجرة تعذيب لم يتحرر الإنسان منها بعد» ؛ فياله من مشهد عجيب ! ! الإنسان يشقى بمرض يقال له الإنسان ! ! إرادة تعمل على تعذيب ذاته ، قسوة تتجه أسهمها إلى الداخل ! فبعد أن سد المسلك الطبيعى الذى تسلكه الإرادة ، أعنى إيذاء الغير ، لجأ الإنسان إلى إيذاء نفسه فانقلب شهيداً . وكانت الأداة العليا التى استخدمها لذلك التعذيب هى تصوره أنه « مدين » بشىء لإله أسمى منه . بذلك وضع نفسه بين شقى الرحى : الله والشيطان ، واخترع الجنة والنار ؛ وأخيراً وجد هذا المخلوق المعذب « أعظم تعبير عن تحقير ذاته فى ذلك الاختراع العبقرى . . المسيحية » أى تناقض هذا !! إله

يحطم نفسه ليخلص البشر من الدين ؟ أيحمل الدائن وزر المدين هياما بهذا المدين ! « من الذى يصدق هـذا ؟ » لطالما كان العالم دار جنون كما يقول نيتشة .

— ٤ —

كانت عقائد نيتشة هذه ضربة أصابت أصدقاءه العقليين فى الصميم . و نظروا متفزعين إلى ذلك الرجل الحيى الضئيل المتداعى الذى تقذف شفتاه بالحمم . ومنذ ذلك اليوم تولوا عنه وتركوه وحيداً .. لقد ارتـكب خطيئة لاتغتفر . إن الشذوذ عن المجتمع عمليا أمر قد يغتفر ، أما الذى لايغتفر قط فهو الشذوذ عن المجتمع نظريا . إنه فى حياته الحقة لأرهف حساً من أن يطأ حشرة ، ولـكنه فى كتبه مستعد أن يفنى السماء نفسها . فارتاع الناس جميعاً لهذه الشخصية المزدوجة ، حتى لقد لقبه فاجنر نفسه بالمجنون ،ورد عليه نيتشه التحية بمثلها . فقد كان الرجلان ذات يوم يتنزهان كعادتهما ، وكان فاجنر قد تحدث عن مسرحيته الغنائية الدينية الجديدة « برسيفال » . ويذكر أنه أصبح مولعاً بطقوس الـكنيسة ، وأن أفكاره الملحدة أخـذت تجنح لله والمسيحية شيئاً فشيئاً ، فنظر إليه نيتشة دون أن ينبس ببنت شفة ولم يزره بعدها أبداً .

إن عيب الدنيا — فى رأى نيتشة — أنها تحوى أكثر مما ينبغى أن تحويه من المسيحيين، وأقل مما ينبغى أن تحتويه من المتوحشين الهمج . وإذ كان أحـد من الناس لايقره على رأيه ، فقد قنع بالعزلة الجليلة ، كما فعل ذلك البطل المتوحد « أخيل » ، وكان من وقت إلى آخر يأوى إلى الجبال ، ويتخيـل انه إله اقوى من آلهة الشمال ، قدر له ان يعيش بين الغيوم الراعـدة ، وان يبهر العالم بوميض فلسفته البارقة .

لـكنه كان إلها خليقاً بالشفاء ، فقد ساءت صحته سوءا بالغاً ، فجعل فى ليال كثيرة يتناول جرعة مضاعفة من الـكلورال ، أملا فى ألا يصحو من نومه ابداً . ولـكن النهار كان يطلع عليه وهو لم يزل حيا . إنها نزعة جبرية تسوقه إلى تعذيب نفسه . وهو مثال دقيق للاساءة إلى النفس التى كان فى كتاباته يزدريها أشد الازدراء . وبينا كان ينظر إلى الأرض، مطلا عليها من قمم الألب أقسم قائلا : « أيها المتفرقون اليوم ، ستلتئمون فى شعب واحد يوما ما ، يامن تقفون اليوم فرادى ؛ ومنـكم يامن اصطفيتم أنفسـكم ، سينهض شعب مختار . . . ويقوم منه الرجل الأسمى » ، وجعل الحلم ينمو ويتسع أمام

عينيه الضعيفتين الـكليلتين . . . الإنسان الأسمى ! نعم ، إنه لنبي يبشر بدين جديد ، وقد اختار نفسه « لترجيع لحن جديد » .

— ٥ —

رجع نيتشة هذا اللحن من خلال شفتي النبي الفارس زارادشت، في قصيدة تثريه ملهمة رائعة مشوشة . إنها وصنية الـكراهية جليلة رهيبة . إن زارادشت ينزل من الجبال ، ويتقدم إلى أبواب المدينة، مقبلا برسالة قوية تنفرج عنها شفتاه . لقد لقي في الغابة ناسكا يتمتم بصلواته ، ورأى القساوسة يقدمون أضحياتهم ، والآن وهو يدلف إلى المدينة ، يرى رجال الأعمال والأمهات والأبناء ، يخرون سجدا ويتوسلون إلى الله أن يرد عنهم الأذى . « أيمكن أنهم لم يسمعوا بعد أن الله قد مات ؟ » إنه النبي زارادشت ، قد دفن الخرافة القديمة فاشرق عهد جديد . « لقد مات الآلهة جميعاً . ونحن نريد أن يحيا الإنسان الأسمى » ، وكل المخلوقات قد جاوزت أصلها الآن . إن مد الحياة ليزداد ارتفاعا ، فهل أنتم قانعون إذن بأن تكونوا الجزر الذي يلي المد ؟ أتفضلون العودة إلى الوحشية عن أن تتقدموا إلى الإمام لتتفرقوا على الإنسان ؟ لأن الإنسان ينتظر أن يتفوق عليه . « وإني

أسائلكم : أين القرد من الإنسان ؟ إنه مسلاته، وموضع زرايته. كذلك الإنسان سيصير أمام الإنسان الأسمى .. أضحوكة ومحل زراية » .

فما عليكم إلا أن تتشجعوا يارفاقى . فانبذوا الفضائل البالية التى رسف فيها الجنس البشرى . قولوا « أنا » وكرروها مرارا ، وتيهوا بها نخارا ! ولست آمركم ألا تكفوا عن قول « أنا » فحسب ، بل أن تصنعوا « الأنا » لأن وراء أفكاركم ومشاعركم ياإخوتى إلها قويا إسمه النفس يسكن أجسامكم . إنه جسمكم ، وإنه ليهيب بكم دائما أن التمسوا المتعة ! فمنذ خلق الإنسان لم يكد يستمتع الإنسان بشىء . هذه يا إخوانى هى خطيئتنا الأصلية « وإنى لأقول لكم ما أبلغ تواضع اللص نفسه إذ يواجه النوم : إنه ليتسلل ساكنا خلال الظلام . وما أبعد حارس الليل عن التواضع . فهو فى غير تواضع يحمل نفيره ، إنى لأقول لكم الدم هو روح الإنسان . وأحب ما كتب إلى هو ماسطره الإنسان بدمه ! . وألا تخجلوا مما تنطوى عليه قلوبكم من ضغن وحسد . ألا ما أجل الحقد والحسد » وتسألوننى « أهى القضية العادلة التى تبارك الحرب » فأجيبكم . « بل هى الحرب الطيبة التى تبارك كل قضية » .

« اذكروا يا إخوتى ان الناس ليسوا سواسية . بهذا ينطق العدل

الخالد . فكونوا أقوياء غير هيابين ، ولتضحكوا لما يسميه صغار الناس خطيئة . فأنتم يا من تهتفون بالأنا ، تقدسونها وتؤلهونها ، ستعترفون أن الأنانية والشهوة والظمأ إلى القوة والسلطان هى فضائل الرجولة الحقة » .

انظروا إنى امشى بين الناس كقطعة من المستقبل وإن نظرى ليمتد إلى ما وراء موجة الحياة . وإنى لأسمع صوت جنس جديد ، اعظم منا ، وأمعن فى الفردية .. اسمع صوتهم يريد القوة !

كذلك قال زرادشت ، وقدم نيتشة هذا الكتاب للعالم ، فرفضه العالم . لقد طبع اربعين نسخة منه على نفقته الخاصة ، واضطر إلى التخلص منها . لقد ألقى بصاعقة على تراث الإنسانية .. فتراجع هو نفسه مذعوراً من هول الانفجار . فأمسكت نوبات الصداع بتلابيب رأسه ، واعمى الألم هاتين العينين اللتين جرؤتا على النظر إلى أبعد مما ينبغى .

— ٦ —

لطالما قال نيتشة لنفسه « ليس من الأحياء او الموتى من أشعر انى معه على أقل وفاق » . وصدق قوله أتم صدق حين تركته

اخته لتتزوج . . وهى التى كانت تمرضه وتواسيه طول حياته . وكان زوجها من اعداء السامية ، ولم يشأ نيتشه — صاحب القلم الفظ والقلب الرقيق — ان يكون له به اية صلة . فنيتشه لم يكن فى بغضائه شخصياً على الإطلاق ، فهو لم يشعر بمرارة نحو اليهود ولاغير اليهود . فهو لايحارب اشخاصا بل يحارب قوة غير شخصية . إنه لفى جهاد دينى ضد المدنية ذاتها . وقد صح عزمه على ان يقلبها بيده وحدها راسا على عقب . وبهذه الروح سافر من سويسرا إلى البندقية ، ومن جنوه إلى نيس ، ومن تورين إلى مارنباد . وكان فى الأسفار دائم القلق ، دائم البحث عن السلام عن طريق الحرب . وقد وهن بصره فلم يستطع أن يكتب غير عبارات قصيرة كأنها مأثور الحكم ،ولكنه يحسب ذلك فألا مباركا . ألم يكن الآلهة الأقدمون ينطقون بالحكمة موجزة ؟ كان من الخير أن ينفض يده من كتابة الكتب ،ولم تكن كتاباته بالفلسفة .. بل كانت وحياً يوحى . أليس هو نبىدين جديد.. دين اللامسيحية ؟

لقد أثار — كما قال — أكبر ثورة حدثت فى التاريخ ،وسيحل من بعد موته يوم لايقسم فيه التاريخ إلى ق . م . ، ب . م . أى قبل المسيح وبعد المسيح بل سيتحدث التاريخ عن ق . ن . ، ب . ن . أى

القرون المظلمة قبل نيتشة ، وقرون النور بعد نيتشة . سينسى عيسى تماماً بعد إذ أنزله الفيلسوف الألمانى عن عرشه وتربع فى مكانه . سوف يقوم الوحش ثانية فى المستقبل كما نهض فى الماضى . وكل الأشياء عائدة كما جاءت تماماً فى مد الزمان وجزره . إنها عودة مطردة أبدية . فلتحذر أمم الأرض ولترتعد ديمقراطيات أوربا فرقاً . فلن يمضى نصف قرن حتى تكون هذه الحكومات المختلفة الألوان قد اصطدمت فى حرب كبرى من أجل أسواق العالم . . ويومئذ يشهد العالم اشتعال اللهب القديم أشد ما كان رهبة وتنظيما ، « فتنهض الوحوش الضارية ، أى جنس الغزاة والسادة من بين رماد الناس . . يظهرون فى شكل أقوى وأشد بطشا و أما الذين لا يطيقون فلسفتى فهم فى الهالكين ، ومن يرونها أعظم النعم ، فإن بيدهم مصير العالم » .

وهو . . فردريك نيتشه . . ألن يعبد حينئذ كما يعبد القديسون ؟ .

— ٧ —

ولا يقترب نيتشه من ظهيرة حياته ، حتى يتوق إلى الغروب ؛ فشمس عقله ، تلك العين الوهاجة المحللة ، كانت تحرق نفسها من فرط توهجها . ويقول فى هـذا المعنى لنفسه « لست إنسانا ، بل أنا ديناميت » .

ويتداعى عقله تدريجـا ، وتخلى الأضواء مكانها للظلال . ويصاب بصدمة عقلية فى الثالث من يناير سنة ١٨٨٩ ، وكان وقتئذ فى الخامسة والأربعين ، فجلس إلى البيان ، وأجرى يديه على المفاتيح فى نشوة موسيقية عارمة ، واحمرت وجنتاه .

« إنه الليل . . وأن صوت الفوارات الدافقة . . وإن صوت الفوارات الدافقة ليزداد ارتفاعا » .

إنه الليل ... وليس فى غيره صحوة ترانيم العاشقين » .

وترتبك حواسه لأول مرة فأخذ يصيح « أنا ديونيسيوس . أنا إله المتعة ! » لقد وصل أخيراً إلى ذروة القوة الجسدية ، بعد إذ مات عقله .

وما كان يستطاع أن تختم هذه المأساة الإغريقية العظمى بغير هذه النهاية . لقد جرؤ الرجل على تحدى الآلهة ، ولشدة عناده رماه الآلهة بالجنون . فلبث عشر سنين فى مصحة للعقول ، قبل ان يلحق جسمه بعقله فى دار الفناء . . . ووجدوا بين أوراقه اسطراً بخطه . . . مذيلة بتوقيع « المصلوب » .

وليم جيمس

١٨٤٢ — ١٩١٠

— ١ —

كان جده من المهاجرين الإرلنديين . وكان رجل عمل من اهل الدنيا . وكان ابوه صوفياً حر الفكر ، من اصدقاء أمرسن الحميمين . فإذا اخذنا الروح العملي للجد ، وصوفية الأب ، واضفنا إليهما حفنة من الفكاهة الإرلندية ، وقدراً طيبا من الصراحة، حصلنا على مزاج هو شخصية وليم جيمس .

ولد في التاسع من يناير عام ١٨٤٢ في بيت أستور بنيويورك . وعاش معظم حياته في المدن الكبرى أو قريباً منها ، فتأثرت نظرته إلى العالم بتصوره « أن الأرض قطعة من الطبيعة غاصة بالرفاق » .

كان يحب صحبة الناس منذ نعومة أظفاره . وكان على يسر حاله سمحاً لا يستعلى على رفاقه . قال لحدث يزهو بتحرزه في اختيار رفاقه في اللعب : « إني ألعب مع صبية يشتمون ويلعنون ! » .

و كان صبياً نشيطاً يخالف أخاه هنرى كل المخالفة . فهنرى كان صبياً ضئيلا هادئا مفكراً . وقد أظهر كلاهما ميلا مبكراً للأدب ، فتنبأ أصدقاء الأسرة بأن وليم سيتجه إلى كتابة القصة، بينما يتجه هنرى إلى الفلسفة. و كان مصيرهما على العكس من ذلك تماما ، وإن كانت النبوءة لم تخل من بعض الصدق. فقد صار وليم فيلسوفا يصطنع أسلوب القصة ، وصار هنرى قاصا يصطنع أسلوب الفلسفة .

أما تأهبهما المبكر لمهنتيهما فكانا يعدانه مضيعة للوقت . و كان أبواهما حريصين على أن يهيئا لولديهما خير تعليم مستطاع ، فاصطحباهما إلى أوربا ، وألحقاهما بمدرسة بعد مدرسة فى لندن وباريس وبولونيا البحرية وچنيف وبون . و كانا يبحثان أبدا عن « نبع الحقيقة » الأكمل الأوحد ليغسلا بمائة عقلى الصبيين الباكرى النضج . و كان من أثر هذا التعليم المنتقى أن عرف الصبيان « شيئا قليلا من كل شيء ، ولم يعرفا شيئا كثيراً من أى شيء » .

لكنهما حذقا اللغة ، فتمكنا من التهام كل الوان الكتب فى كل موضوع يخطر بالبال . وهكذا مرن عقلاهما على ما يشبه السباحة مسافات بعيدة ، ولا يشبه الغوص البارع . فقد تمكنا من استشراف آفاق فسيحة من التجارب ، وإن عجزا عن اقتحام اسرار العالم .

وكان عقل وليم جيمس — على الأخص — فى قلق دائم ، وشوق إلى المغامرة لا ينقطع ، وتطلع دائم إلى رؤية ارض جديدة ، قبل ان يلم بالأرض القديمة كل الإلمام . وكان لتعدد ميـوله يصعب عليه ان يختار من بينها واحـدا يتخصص له نهائيا ، فأخذ بنصيب من كل ما قدم لشهيته المنهومة من صحاف العقل والفن . فطعم قدرا يسيراً من علم الأحياء والتشريح والفلسفة والـكيمياء والطبيعة والتاريخ الطبيعى ، وحتى النقش لم يفته ان يأخذ منه بنصيب .

وإنه بالرغم من تشوفه الذهنى — او قل من اجل تشوفه الذهنى — لقادر ان يجد دائما لنشاطه الاجتماعى فسحة من وقت . فهو فى عام ١٨٦٠ ينضم إلى نادى الطلبة السويسريين ، وجمعية زوفنج ، ويظهر اهتماما عمليا بمناظراتها ، واهتماما سلبيا وافتتانا غير قليل بخلاعتها . ففى أحاديث مجتمعات هذا الزمان كان وليم جيمس هو الفتى القوى الموهوب ، ونموذج الشباب فى القرن التاسع عشر ، عصر الحركة والعمل .

لـكن معارفه المتنوعة المتوثبة يجب أن تنسق على نحو ما ، ليستحيل تناسقها مهنة يشتغل بها . فليس فى طبعه أن يخوض لجة

الحياة دون أن يلتمس الشاطىء . فعليه الآن أن يحدد وجهته نهائيا ، أهى إلى العلم أم إلى الفن . فاختار العلم ، والتحق بمدرسة لورنس العلمية (جامعة هارفرد) عام ١٨٦١ .

ولكنه لم يدع ريشة النقاش ، إلا لينقش بقلمه ، فأسلوبه المتألق الألوان لم يوهب إلا للأقلين فى تاريخ الفلسفة .

— ٢ —

لقد اختار حياة العلم ، ولكنه ظل حائراً أى فرع من العلم يريد أن يخص به رسالة حياته . لقد فكر وقتا ما أن يتخصص للكيمياء ، ثم جنح للطب فالتحق بمدرسة هارفرد الطبية ونال درجته ، ثم هجر الطب إلى التاريخ الطبيعى ، واشترك فى الرحلة البرازيلية التى قام بها الأستاذ لويس أجاسيز . وكان وليم قد أعجب بأجاسيز ذاك ، كما لم يعجب بأحد غيره من مدرسيه ، فقد كتب بعد سنوات كثيرة « إنه لم يظهر بيننا منذ أيام بنيامين فرانكلين شخص يفوق هذا الرجل تأثيراً فى الناس » .

ودرس مع أجاسيز أسماك الأمازون ، وبتأثير أجاسيز تعلم النظر إلى الأشياء فى التاريخ الطبيعى على انها « ترجمة أفكار الخالق

إلى لغة البشر » ، ذلك ان عالم هارفرد المتفلسف قد جعل من الطبيب الشاب فيلسوفا من فلاسفة العلم .

فلما عاد وليم جيمس إلى الولايات المتحدة كانت لديه فكرة واضحة عما يفعل بحياته فى المستقبل . فلسوف يكتب فى الفلسفة ، ويعلمها إن أمكن . فقد سمع محاضرة فلسفية القاها شارل س. بيرس . وكان رجلا يحاول عرض مذهب فلسفى جديد ، يدعى مذهب الذرائع (البراجماتزم) . فقال وليم : « لم استطع ان افهم من المحاضرة كلمة واحدة ، ولكننى شعرت أنها ألقت على رسالة محددة » فكان أن قضى باقى حياته يجاهد أن يفهم ويفسر تلك « الرسالة المحددة » ، رسالة البراجماتزم .

لكنه قبل أن يأخذ فى هذا العمل ، اصيب جسمه بالانهيار ، وعقله بالهبوط . . . حتى لقد فكر يوما فى الانتحار . وقال فيما بعد : « لا يكمل الإنسان نفسيا إلا إذا كان قد فكر فى الانتحار مرة واحدة على الأقل » فقام برحلة إلى اوربا ليستشفى جسما وعقلا ، ولا تمضى اشهر قليلة حتى يتم شفاؤه بحيث غدا يستطيع ان يغازل ابنة صاحبة النزل غزلا بوهيميا فقد قبل دعوة لتناول العشاء مع اسرة صاحبة

النزل ، وجرى حديث وافر الملاحة — كما قال — « وإن كان طعم الحساء اشبه بطعم عرق الخنازير » .

فلما عاد إلى امريكا عين مدرساً لعلم وظائف الأعضاء بكلية هارفرد ، وانتقل من وظائف الأعضاء إلى علم النفس ، وهجر علم النفس إلى الفلسفة . وكان هذا التنقل الدائم من فرع فى العلوم إلى فرع ، يتفق مع تطور عقله اتفاقاً تاما . ذلك أن نموه العقلى « لم يبدأ من السماء فنازلا ، بل بدأ من الأرض فصاعداً » ، وكان أشبه بسقراط فى أنه صرف جل اهتمامه إلى مشاكل الأرض لا إلى مملكة الله . ولم يكن ذلك لأنه يرتاب فى وجود الله . بل كان الأمر على العكس من ذلك . فقد كتب إلى صديقه توماس دافيدسن يقول إنه « ليزيد كل يوم عجزاً عن أن يعيش بغير الله » لكنه صرف جل اهتمامه إلى العاجلة لا الآجلة . وكانت فلسفته تنبت من حاجاته الشخصية ، فلقد أصيب بمرض خطير ثم استطاع بجهوده أن يرد نفسه إلى الصحة . فاعتقد أن خلاص الإنسان رهن بإرادته ، وكان يطالع أثناء مرضه فوقع على مقالات رنوفيير ، فاستوقف نظره تعريف المفكر الفرنسى للارادة الحرة بأنها « تأييد فكرة لأن المرء يختار تأييدها بارادته حين يستطيع أن تكون له أفكار أخرى » . واختار وليم جيمس تأييد

فكرة الإبلال من المرض فأراد نفسه على الشفاء « وإنى منذ اليوم لمنصرف عن التأمل ، معول على العمل » لأن العمل هو الإرادة البشرية استحالت حياة ».

وهذا لايعدو أن يكون استمرارا لفلسفة إمرسن المتفائلة . ولكن جيمس يضيف إليها شيئاً آخر أو قل إنه يحورها ، فيحيل فكرة التفاؤل وهى فكرة غير عملية إلى حد ما ، تقول إن العالم كله بخير إلى فكره « التحسين وهى فكرة تقول إن العالم ليس كله بخير ، ولكننا نستطيع — إن أردنا — أن نجعل الأشياء خيراً مما هى » .

إلى هنا كانت فلسفة جيمس لم تزل فى مهدها ، فلم تتح له الفرصة لإنمائها فى ذلك الوقت ، لأنه عهد إليه تأليف كتاب فى علم النفس ، لينشر فى السلسلة العلمية الأمريكية لهنرى هولت . وكان يرجو أن يصدر الكتاب فى خلال عامين . . . ولكنه لم يفرغ من كتابته إلا بعد اثنتى عشرة سنة .

فهو فى هذه الأثناء قد رأى مس أليس جبنز ، وأحبها وتزوجها. ويروى أن أباه ، هنرى جيمس الأكبر ، قد رآها فى النادى الراديكالى

فى بوستن » ، فلما عاد إلى دارة قال لولده متهللا : « وليم . لقد رأيت لتوى زوجتك المقبلة ! » فاعترض الفيلسوف الشاب على تدخل أبيه فى شئونه الخاصة وقال « سأرفض رؤية تلك المرأة » فرد عليه والده بقوله « لا يهمنى أن تراها أو لا تراها إنما أريد أن تتزوجها » .

ولكنه مع رده الثائر ذاك على اقتراح أبيه ، قد عمل فعلا على رؤية الانسة جبنز فوقع من فوره فريسة طائعة « لعينيها الوضاءتين ، وشعرها الأسمر الناعم ، ولونها الوردى الغض . . . وناهيك بتلك الابتسامة التى تضىء وجهها فكأنما تضىء العالم » .

وفعل زواجه الأعاجيب بصحته وعاداته « لقد أنقذتنى من أن أمزق شر ممزق ، وردتنى على نفسى قطعة واحدة » . لقد وجد الان صاحبه ومهنة ، فأقام فى كمبردج واهبا حياته كلها للفلسفة .

— ٣ —

يمثل كتابه الأول (أصول علم النفس) تحوله من وليم جيمس العالم ، إلى وليم جيمس الفيلسوف ، فقيمة هذا الكتاب إنما هى فى روعة تجريداته الأدبية ، لا فى جمع حقائق مادية . فجيمس لا يكاد يحفل بظواهر العقل الموضوعية ، ولكنه شديد العناية بالشخصية

الذاتية التى ينتمى إليها العقل ، لذا جاء كتابه فى علم النفس دراسة للأشخاص لا للمبادىء فالفكر البشرى — عندوليم چيمس — ليس سلسلة من الأفكار المنفصلة قد ربطت حلقاتها ربطاً آلياً — كما كان يعتقد علماء النفس الأوربيون — بل هى مجرى من الشعور دافق أبداً ، أشبه بمجرى الدم يتدفق خلال الجسم باستمرار .

كذلك يقول وليم جيمس إن دراسة الشعور البشرى يجب أن تكون تابعة لدراسة السلوك البشرى ، أى أن علم النفس يكون مقدمة للأخلاق و « أن الدراسة الفسيولوجية للحالات العقلية، لأكبر عون للدعوة الأخلاقية » .

وجملة القول أن العقل ليس أداة مادية ، بل هو أداة روحية ، وليس هو سجلا لأفكار نا ، بل هو الملهم لها . وهو أستاذناوهادينا إلى عالم أوفر حرية وعدلا وخيراً من عالمنا الحاضر .

وهذا يرد وليم جيمس إلى فلسفته فى التحسين . فهو يقول : لنسلم من أول الأمر بأن العالم ملىء بالشرور ، ولكن هذه الحقيقة هى بعينها مايجعل لحياتنا قيمة ، ذلك بأن وجود الشر يمنحنا أعز ما نملك ، وهو الأمل . فالأمل هو ذلك النشاط الروحى الذى يحفزنا

إلى تحدى الشر وغلبته ؛ وهو الذى يهبنا الشجاعة « على أن نأخذ الحياة غلابا » ، وليس الفلاسفة القائلون بأن العالم يتحسن بغض النظر عن إرادتنا أقل خطأ من القائلين بأن العالم سيظل على سوئه رغم إرادتنا . فنحن وحدنا الذين نستطيع ترقية العالم ؛ وفى وسعنا أن ننهض بترقيته ، بفضل إرادتنا .

فليس العالم وحدة متكاملة ، بل هو « مجموعة من عناصر منفصلة متعارضة » . ويؤدى بنا هـذا إلى النقطة الثانية فى فلسفة چيمس وهى « الجماعية » ؛ فليس العالم وحدة ، بل وحدات كثيرة . . . تضارب بين تيارات ، بعضها خير ، وبعضها شرير . وعلينا جميعاً أن نحاول قهر الشر ونصرة الحق ؛ هل النجاح فى هـذه المحاولة محقق ؟ كلا ؛ هل هو ممكن ؟ نعم من غير شك ، لـكن النجاح إذا كان على خير تقدير ممكنا فقط ، فما فائدة المحاولة ؟ يجيب چيمس عن هـذا السؤال إجابة لا تختلف عن آراء الرواقيين الأقدمين ؛ فيقول : إن مجرد احتمال النجاح يسبغ على الـكفاح نبلا ، ويجعله خليقاً ببذل الجهود فى سبيله ويقول : « فلنفرض أن خالق الـكون قد وضع الأمر بين يديك قبل الخلق ، وقال : إنى بسبيل خلق عالم يتوقف كماله على شرط ، هو أن ينهض كل فرد من أفراده على اختلافهم بخير ما يستطيع

من جهد ، إنى أمنحك الفرصة فى أن تأخذ بنصيبك فى هذا العالم . إن سلامته — كما ترى — غير محققة ، وإنها لمقامرة حقة ، محفوفة بخطر جدى ؛ ولكنك قد تنجح فيها . . . أتنضم إلى الموكب ؟ فهل لك ثقة بنفسك وبغيرك تكفى لمواجهة هذه المغامرة ؟ »

هل تشعر فى نفسك شعوراً جادا بأنك لابد رافض هذا العرض لأنه غير موفور السلامة ؟ إذا كنت ذا تركيب سوى فأنت لن تفعل ، ذلك بأن فى معظمنا حيوية قوية حكيمة ، يناسبها كل المناسبة ... إن هذا الكون لو وجد لكان كالعالم الذى نعيش فيه فعلا ؛ وإن ولاءنا لمربيتنا العجوز ، الطبيعة ، لينهانا عن قول (لا) .

هذه هى النظرية الرواقية القديمة ، مضافاً إليها الروح النضالية الحديثة . إنها السرور بالنضال الطيب مهما يكن من شك فى نتيجته . وهذه النتيجة إن لم تكن محققة بالنسبة للفرد ، فإن النجاح يكاد يكون محققاً للجنس البشرى . ذلك بأن إلى جانبنا فيها نصيرا قديراً هو الله . فالله فى رأى فلسفة جيمس الجماعية ليس أسمى الأشياء بل هو إحدى القوى المقدسة الكثيرة « أحد العاملين على تشكيل مصير العالم الأعظم » ، لكنه فذ فى الأنداد . إنه أستاذنا وقائدنا وصديقنا فى الصراع المجيد فى سبيل عالم خير من عالمنا .

فلنمض فى صراعنا المجيد يؤازرنا الله ، ولنشكل العالم وفق حاجاتنا ، أو بعبارة أخرى فلنحى حياة عملية . وهذه هى النقطة الثالثة فى فلسفة جيمس . . . وهى النقطة الكبرى . . . الذرائع (البراجماتزم) .

فالعالم الذى نعيش فيه ليس نظرية من النظريات ، بل هو شىء كائن . وهو فى الحق مجموعة من أشياء كثيرة ، وليس من شىء يقال له الحق دون سواه . فالذى تدعوه بالحق إنما هو فرض عملى ، أداة مؤقتة نستطيع بها أن نحيل قطعة من العماء إلى قطعة من النظام . وما كان حقاً بالأمس — أى ما كان أداة صالحة أمس — قد لا يكون اليوم حقاً . ذلك بأن الحقائق القديمة ، كالأسلحة القديمة ، تتعرض للصدأ وتغدو عديمة النفع .

فلا خير إذن فى أن نحاول إحالة العالم كله إلى « حقيقة واحدة مطلقة » فالحقيقة نسبية . وكل شىء فيه موقوف على وجهة نظرنا الفردية . ولا حق لأحدنا فى أن يقول إن وجهة نظره — دون سواها — هى الصحيحة . « فلا تتكشف لمراقب واحد الحقيقة كلها أو الخير كله ، وإن لكل مشاهد تفوقا جزئيا فيما يرى ، راجعاً إلى مكانه

الخاص الذى يرقب منه » . وهذا التفوق فى البصيرة الذى كسبه كل فرد لنفسه هو خير أداة تنفعه شخصياً فى صراعه لتحسين العالم . فكل عقيدة يعتنقها إنسان من الناس ، وكل كنيسة يغشاها ، وكل إله يعبده حق بالنسبة له ، إذا كان يعينه على علاج مشاكله اليومية المشروعة .

لذا فالحق الوحيد هو اللائق من الوجهة العملية . والفكرة لاتكون طيبة ما لم تكن لها « قيمة نقدية » ، ولكن علينا أن نحذر الخلط بين القيمة النقدية لبراجماتزم وليم جيمس ، وبين المادية الخشنة التى هى طابع حياتنا العملية الحديثة . فالعملة التى تتكون منها ثروة جيمس الفلسفية ليست مالا ، بل خلقا . فقدكان يزدرى تدافع معاصريه وتنافرهم لتكديس الثروة . وكان يلوم إخوانه الأمريكيين لأنهم يعبدون تلك الألهة الفاجرة التى تدعى « النجاح » . كانت (الذرائع) عنده حافزاً خلقياً ، ولهذا كانت حافزاً عملياً للتعاون بين الأعضاء الأحرار فى مجتمع دمقراطى . وليس معنى الحياة — فى اعتقاده — كفاحاً فردياً بين إنسان وإنسان ، بل هى صراع يتحد فيه البشر ضد قوى الشر .

ونظرية الذرائع — كما يقول جيمس — لاتستخدم التجريد ، وإنما

تقوم على « الحقائق الملموسة » . وليست هي بالمذهب الفلسفي بالمعنى الدقيق ، بل هي أشبه « بطريقة لإصابة نتائج عملية » من كل المذاهب الفلسفية . ويقول الفيلسوف الإيطالى پاپينى إن البراجماتزم التى يدعو إليها جيمس هى « مجموعة من المواقف ، وميزتها الكبرى هى حيادها المسلح فى وسط العقائد . إنها أشبه بدهليز فى فندق به مائة باب لمائة غرفة . ترى فى إحداها رجلا جاثياً على ركبتيه ، يصلى داعياً أن يثوب إليه إيمانه ، وترى فى غيرها مكتباً يجلس إليه رجل يعمل للقضاء على الميتافيزيقا كلها ، وفى ثالثة ترى معملا به باحث يتلمس كشفاً جديداً يتقدم منه نحو آفاق أفسح . ولكن الدهليز للجميع .

— ٤ —

الدهليز للجميع . هذا هو صميم فلسفة جيمس ، فهو لم يقصد أن يجعل من نفسه مؤسس مذهب جديد ، بل يريد أن يكون هاديا إلى تفسير عملى للمذاهب القديمة . لم يُرد إلى الأستاذية ، ولم يلتمس الأتباع ، بل طالما استشهد لتلاميذه بهذه العبارة من قول «حزقيال»: « يابن آدم قم على قدميك فأتكلم معك » ، فليعتمد كل إنسان على ثروته الروحية الخاصة ، وليتبع كل إنسان حقيقته الخاصة . وكل ما

يهم جيمس أن يفعله ، هو أن يستحث عقل الإنسان ، ويحرر إرادته ، ويشجعه على العمل . وهو يريد فوق كل شيء أن يوسع نطاق ما يعنى به الإنسان . فنطاق ما يعنى به هو كان واسعاً ، ينتظم قدراً كبيراً من الحياة عامة . رفع صوته محتجاً على اضطهاد دريفوس ظلما ، ودعا إلى توزيع للثروة أكثر عدلا ، وألقى بنفسه عضواً عاملا فى كل حركة تستهدف خير البشر . وكان من أوئل الداعين إلى أن يستبدل بالحرب صراع ترضاه الأخلاق ، أى جهاد مشترك لاستئصال المرض ، وتجفيف المستنقعات ، وإمداد القنوات بالماء ، وإصلاح الأراضى البور ، بدلا من حرب تنظم لتصرع الناس . وصفوة القول أنه شاء أن يفتح للاخرين ، كما قد فتح لنفسه « أبواب الكون كله .. ليكون مجالا لمغامراتهم » ، وجعل من الكون كله منظرا مألوفا ، أضاءه لطلابه بوميض الفهم المفاجىء والدعابة السقراطية . قال فى إحدى محاضراته : « لن يصلح هذا العالم تماما ما بقى أحد أفراده تعسا ، وما عانى ضر صور واحد مسكين أو جاع حب غير متبادل » ،

وكان يحاول دائما أن تكون أفكاره شائقة محسوسة حية ، قد رتبها بحيث يستطيع سامعوه أن يرتبوها فى أذهانهم كما ترتب الملابس فى طيتها الأنيقة بخزانة الملابس ، فلا تراد حتى تؤخذ ، بغير ارتباك

أو بحث طويل ، فهو مثلا حين يصف مواقف مختلف الناس من العالم، يقسمهم إلى خشنى العقول ، ومرهفى العقول . فالأولون هم رجال الأعمال والبناءون والزعماء السياسون والواقعيون والرجال الفاعلون . أما مرهفو العقل فهم الخياليون أو لو الشعور الرقيق ، والحالمون والشعراء والفنانون والمثاليون والمفكرون . ولم يكن جيمس نفسه ينتمى لأى من هاتين الطائفتين المتطرفتين ، بل كان مزاجا منهما حقيقاً بالإعجاب ، صاحب عقل قوى صحيح .

لكن عقله السليم ، كان فى جسم غير سليم . فقد ظل طول حياته منذ بلغ أشده يشكو ضعفا فى القلب . وحدث فى إحدى إجازاته الصيفية أن ضل طريقه فى أديرونداكس ، فشق على نفسه بحثاً عن الطريق ، فلما بلغ المنزل آخر الأمر خارت قواه .

وشفى من مرضه ، لكنه لم يستعد صحته قط ، فاعتزل عمله بكلية هارفرد عام ١٩٠٧ لضعف صحته . ولم يبق له من العمر إلا ما يكفى جولة يجولها فى أوربا ، أرادها رحلة للاستشفاء هادئة، لا يزعجه فيها شىء ، ولكنها استحالت موكبا مثيراً من مواكب النصر ... فكان الناس فى كل مكان يتعقبون « الأستاذ الكبير وليم جمس » بالهتاف والتهليل . ويصرون فى كل مكان على أن يظهر للملأ .

فكان ذلك عبئا ناء به قلبه الضعيف ، فلما ركب السفينة عائداً إلى أمريكا فى صيف عام ١٩١٠ ، عرف الناس جميعا أن حياته لم يبق منها غير أيام معدودات .

ولما قارب نهاية الرحلة استلقى على كرسيه فى السفينة وهمس قائلا « ما أحلى عودة الغائب ! » .

هنرى برجسون

١٨٥٩ — ١٩٤١

— ١ —

كانت جيوش أوربا زاحفة للقتال عام ١٩١٤ ، وبدا كأن الإنسانية قد فقدت روحها ، وتساءل الناس « أيستطيع أحد أن يؤمن بالتقدم والمدنية إزاء ما يجرى من احداث ؟ » .

واجاب عن تساؤلهم استاذ بكلية فرنسا رقيق الصوت ، نافذ العينين ، كان هدوء إجابته وحده يشعر المرء كأنه فى حضرة وحى يوحى ، قال « إنكم الآن مكدودون ، وقد حرمتم الأمل . لاترتاعوا . لقد كنت أنا أيضاً مكدورا ذات يوم ، ثم تكشف لى على حين بغتة معنى الأقدار » .

— ٢ —

كانت حياة برجسون العقلية تطوراً مستمراً . فقد بدأها راسخ القدم فى العلوم الطبيعية ، عبقرياً فى الرياضيات. بيد أنه كان إلى ذلك

فناناً ، دقيق الحس باللغة ، شديد التذوق للعبارة الطلية . كان فى الواقع صاحب اتجاه مزدوج : دقة فائقة وخيال رائع . تخصص للتاريخ الطبيعى والأدب اليونانى ؛ فقد كان له روح شاعر فى عقل عالم ، واضطر العالم فى الكفاح الأخير بين النزعتين أن يخلى السبيل للشاعر .

ولد فى باريس عام ١٨٥٩ ، والتحق بمدرسة المعلمين العليا فى سن السابعة عشرة . وكان جانحاً حينذاك إلى « المادية الجامحة » يرى الحياة كلها ممثلة فى النمو والفناء . وكان كاسبنسر يؤمن بأن الجماعات والأخلاق لابد لها من الانحلال — كما يتحلل لحم الإنسان فالفكرة النبيلة ، ودمعة الأمومة ، والعمل المسيحى الرحيم .. كلها ثمرة الصدفة ، خلقت فى الهواء ، وبعثرت فى التراب . وليس للحياة هدف ، ولا للأمل أساس . وإن نظرة واحدة فى المجهر لتجهز على كبرياء الشاعر إلى الأبد . وقد بلغ من إصرار برجسون على هذه النظرية أن لقبه زملاؤه فى مدرسه المعلمين « بالملحد » . وكان يوماً منوطاً بمكتبة الفصل ، فعنفه مدرسه لإهماله حال الأرفف ، وسأله « كيف تحتمل روحك المكتبية هذه الفوضى ؟ » فأجاب رفاقه صائحين فى صوت واحد « برجسون ليس له روح » .

فلما تخرج عرضت عليه وظيفة مدرس فى المدينة الجامعية ، كليرمونت فران ، فى مقاطعة أدڤرنى . وإلى هنا جاء المتشكك ، وهنا قهر شكه ، فقد كان يقوم بنزهات طويلة فى هدوء الريف ، وأسلم زمامه آخر الأمر إلى الشاعر والثائر الكامنين فى جوانحه . فالأدلة المعملية ، والنظريات الطبيعية ، وعبارات الملحد الذكى الأنيقة ، تضاءلت حتى غدت هباء أمام جلال الطبيعة القاهر الغلاب . ماذا ؟ أيصح فى الذهن أن آلية عمياء ، دوامة من الذرات العائثه ، لاهادى لها إلا المصادفة المحضة ، هى التى كونت الصدور الكبيرة لهذه التلال. وسوت هذه السهول ؟ لا يستطيع أن يصدق ذلك غير تلميذ جديد فى مدرسة الحياة ما أسخف من يحاولون وصف بساطه الكون اللانهائية بلغة القوانين العلمية المعقدة ، والنظريات الخلاية المظهر . رباه ! أليس للكيميائى عينان يرقب بهما الشمس الغاربة فى هذه الآفاق ؟ نعم لقد أدرك الآن أن العلم ملاذ العقول المكدودة فى العالم، التى فقدت الشجاعة على أن تأمل .

—٣—

ولم يصدر تحول برجسون من المادية إلى المثالية عن معجزة ؛ فهو فى أول الأمر لم تكن لديه فكرة إيجابية عن الرجهة التى تسوقه

إليها نوازعه . ولكن إحساساً متزيداً « بالإدراك الشعرى » قد تسلل إلى عقله ، وهو الآن ينبض فى « كل فلذة من جسمه ، وكل خلية من عقله » . فدفعه الإلهام . « تلك النعمة الواقية » التى اختصت بها النساء والشعراء ، قد أقنعته أن الحياة فيها ما هو أجل مما حسب أولا . أيستطيع التئام حتمى لبعض الذرات أن يخلق عقلية شكسبير ؟ أيستطيع تنظيم علمى لحروف الهجاء أن يصنع الكتاب المقدس ؟ أيستطيع للركب الطبيعى الكيميائى المدعو هنرى برجسون أن يفسر شراره المرح التى أرسلت بفيض مدرار من الملح إلى شفتيه إذ يحاضر ، وبسيل دافق من الضحك تفيض به أفواه سامعيه إذ يصغون إليه ؟ كلا . وما كان لقوانين الطاقة الطبيعية وحدها أن تحضر برجسون إلى كليرمونت مرتاباً ، وترده إلى باريس مثالياً .

وظهر هذا الاتجاه الجديد فى أفكاره فى خطبه العامة التى ألقاها فى المدينة الجامعيه . فيقول فى حديث له عن البحث العلمى « كلكم قد استخدم المجهر . ولعله لاحظ فى الصندوق قطع الزجاج الصغيرة ، التى يحتوى كل منها محضراً تشريحياً . خذ أحد هذه المحضرات ، وضعه تحت العدسة وارقب استرى أنبوبة مقسمة إلى أجزاء . حرك الزجاجة ، ولاحظ كيف تحل خلية محل أخرى . إن كلا منها ليستطاع

تميزه . لكن ما الغرض ، وماذ تشهد ؟ إذ أردت جواباً عن هذا السؤال ، فعليك أن تدع المجهر ، وأن تنظر نظرة شاملة بعينك المجردة إلى قدم العنكبوت الدميمة » . ولعله كان يستطيع أن يضيف إلى ذلك: « ومن وضع القبح فى قدم العنكبوت والجمال فى بيته » وأن يقول عرضاً — باسم قوانين العلم — ومن كان يستطيع أن يودع هذا اللألاء فى عين برجسون ؟

إن عيب التحليل العلمى — فيما يرى برجسون — هو ميل العقل البشرى إلى رسم الأشياء فى المكان . فكل أفكار البشر تصور فى المكان . فالهندسه تحيل ظواهر الكون المجرد غاية التجريد نقطاً فى المكان . وعلم الطبيعة يحيل شفق الغروب ذا الألوان القزحية أشعه ضوئية تسافر خلال المكان ، ويحيل موسيقى السمفونية إلى أطوال موجات ضوتية تتذبذب فى المكان . وعلى هذا النحو تحولت جميع الصفات إلى كم عددى . ذلك أن عقل الإنسان أشبه بالممد ، يحصى تموجات الحقيقة ، لكنه لا يستطيع أن يسير غور الحقيقة . فهو يقسم الكل المتحرك إلى فترات ثابتة لاتتحرك . وهكذا تبرز سخافته، لأن الحركة فى أساسها هى أشد التجارب حيوية وقوة . لكننا نمثلها كما نمثل أى شىء آخر تماماً ، نمثلها طريقاً أو نقطاً ثابتة تمتد فى المكان .

لكن الحركة ليست فى الواقع مجموعة من النقط فى المكان ، ولاسلسلة من الصور تسطع متتابعة على الستار الفضى .

وغاية ما يستطيع العلم فى شأن تلك التجربة الحيوية المسماة بالحركة أن يرمز ، لا أن يحدد . فنحن توخياً للسهولة نرسم خطا بالطباشير بين نقطتين على سبورة . ونشبه نقط خط الطباشير بنقط فى الفضاء . على أن الفضاء لايحوى شيئا يشبه النقطة ، لأن النقطة شىء له نهاية ، والفضاء يمكن تقسيمه إلى ما لا نهاية . يضاف إلى هذا أن من المستحيل أن تضم بعض النقط إلى بعض لتكون خطا . فانتقال يدنا الحقيقى وهى تتحرك لترسم خطا على السبورة ، لا يمكن وصفه بأنه سلسلة من نقط ثابتة لاتتحرك ، وكيف يستطيع أى إنسان أن يخلق حركة من لا حركة ؟ ولكننا مع ذلك نصر على الخلط بين خط الطباشير وحركة يدنا .

ونحن كذلك نحيل الأحساس الداخلى بامتداد الوقت طريقا يسلكه عقرب الساعة حين يمر « بنقط » فى المكان . ويدعى العلم أنه يحصى مكثنا الداخلى لأنه استطاع أن يبتكر زمن الساعة . لكن الزمن لا يمكن قياسه ، لأن لحظات الوقت ليست نقطا متناسقة يقع

بعضها إلى جانب بعض فى المكان . صحيح أن كل ثانية من بقائنا الداخلى تتوافق مع كل حركة من حركات البندول ، فهما يحدثان معا فى وقت واحد . ومن هنا نشأ الخلط بين الزمان والمكان . ولكن الوقت الحقيقى لا حدود له ، ولا نهاية ، ولا يحيط به محيط ، بل هو مكث داخلى نستطيع جميعاً أن نحسه ، وإن لم نستطع تحليله ، وإن العلم ليعجز عن إدراكه . فالوقت الحق هو النمو والتغير والتقدم ، وليس امتداداً لنقط أو ثوان أو ساعات أو أيام .

— ٤ —

أدرك برجسون تلك الصفة المتحركة ، غير القابلة للقياس ، التى تتصف بها أعظم أحاسيس الإنسان ، الإحساس بالمكث الداخلى ، واقتنع إزاء هذا الإحساس بأن الجزء المعلل فى العقل جزء لا حول له ولا طول ، لأن هذا الجزء إنما يستطيع أن يحصى أى أن يجمع ويطرح ويضرب ويقسم ، لكنه لا يستطيع أن يحس ، لأن الإحساس يختص به قسم آخر من العقل . . هو الإلهام . وكان الفلاسفة العقلانيون يصفون الالهام بأنه العضو الشرير فى أسرة العقل ، ويعدونه بضاعة الدهماء والجهلة والأداة الرئيسية للخرافة . لكن برجسون قد صمم

على أن يرد للالهام جلاله ومكانته ، وأن يحله عرشه الحقيق به « فالالهام — إذا استخدم فى حكمة — هو قسم من أقسام العقل مشروع نبيل . . رهو فى الحق الأداة الوحيدة للنفاذ إلى قلب الأشياء » .

لكن الإلهام تعبير غامض غير محدد ... ما معناه بالدقة ؟ هل هو ناشيء عن المراكز العصبية فى المخ ، أو أنه وظيفة أساسية للعمل ، بعيدة عن فلك المخ بعداً تاماً ؟ لقد كان العلماء يفترضون أن العمل ليس شيئاً غير المخ ، وأن العقل لذلك لا يعدو أن يكون مادة ... أو كما قال أحدهم : « إذ لم تكن مادة فلا عقل » .

إن برجسون ليقف الآن كل جهوده على دراسة العمل البشرى ؛ وإن الذاكرة لأهم ما يعنى به فى درسه ظواهر العمل ؛ فيغمس فى دراستها ، يقوم بعدة تجارب ، يتبين منها أن من يصاب مخه بسوء كثيراً ما يحتفظ بذاكرة سليمة . ويستنتج من ذلك أنه لو كان العمل مجرد وظيفة من وظائف المخ ، لكان لكل أذى يصيب المخ ، اذى يقابله فى الذاكرة . ووجد من ناحية اخرى انه قد عرف ان بعض المرضى فقدوا ذاكراتهم دون ان يصاب مخهم بأى ضرر . فهل الذكريات إذن مخزونة فى خلايا المخ ؟ وهذا صحيح فى بعض الحالات.

مثال ذلك اننا بعد ان نحاول قيادة السيارة عدة مرات نبلغ القدرة على القيادة . فقد تشربنا ذكريات كل درس تشربا آلياً ، فأصبحت القيادة عادة من عاداتنا ، لاتتطلب جهداً إرادياً للتذكر . ولكننا إذا أردنا تذكر الظروف الخاصه التى أحاطت بأى درس من الدروس التى تلقيناها ، اضطررنا إلى بذل جهد إرادى لتذكر هذه الظروف ، لأن ظروف الدرس فريدة فى ذاتها ، لها صفتها الخاصة التى لا يشاركها فيها غيرها . فهى وحدات منفصلة لتجربة مثلث وصارت كمية من الأحاسيس امتدت فى فترة من الزمن . وكل هذه الأحاسيس تركبت منها عملية تكوين العادة ، ومع ذلك فهى فى حد ذاتها تجارب فى الكيف لا فى الكم . ويقول برجسون إن الملكة التى تستطيع تذكر صفة أى تجربة ما هى بعينها نفس الملكة التى تدرك خصائص الأشياء عامة . إنها ملكة « النفس » الكامنة وراء العقل ، إنها « الأنا » الأساسية التى لا أستطيع تفسيرها ، بل أستطيع أن أحسها . « هذه النفس إنما أعرفها أنا ، ولا تستطيع الكلمات ان تنقلها إلى غيرى » ولا يستطيع العالم أن يعزلها ويختبرها ، كما يسع صانع الساعات أن يفصل أجزاء الساعة ويختبرها . إنها مجال الشخصية ، تختلط فيه حالات الحقد والحب ، وكل ظلال الانفعالات بينها ، اختلاطاً لا تميز معه العين واحدة من الأخرى . وتتسم هذه

الحالات بقوتها الحيوية . فهى ليست وحدات ذات أبعاد تقاس ، تمر طواعيه خلال المخ وتعرض عليه ، بل هى تتخلل العقل ، «وتملأ الروح» فالإحساسات العصبية يمكن قياسها حسب كبر المؤثر . لكن هل يستطيع أحد قياس حجم فكره ؟ هل تحوى العاطفة حرارة مقدارها كذا سعراً ؟ هل الشجاعة التى تحفز الناس إلى التضحية بحياتهم من أجل الحرية تعد مجرد حزمة من الحوافز الحسية ؟

كلا ! لن تجد فى المخ شيئاً من النبالة الداخلية للانسان . فالمخ آلة ، وليس روحاً . المخ يجمع وحدات الكم بدقة لاتحد ، لكنه غير مبدع . والآلة الصماء لا يسعها أن تبدع صورة العشاء الأخير لليوناردو دافنشى ، بأن تمزج بين طائفتين من الألوان ، أو أن تبدع الفردوس المفقود لملتن بضم بعض حروف الهجاء إلى بعض . إن العقل ليقف مبهوتاً أمام أى أثر أبدعه فضل الله ، كأنه أجنبى لا يفهم . فروائع الفن والطبيعة ، ومعجزة المعجزات . . . الإنسان ، لايمكن إدراكها بالمخ ، بل بالروح . . الروح الملهمة .

— ٥ —

ينطلق برجسون على النفس الملهمة اسم « العقل المبدع » وهو

الإدراك الداخلى لسكاتنا ونمونا . هو « الباطنية الباقية » لحياتنا ، وإحساسنا العميق باغوارنا التى لاتسبر . والحق أن أفكارنا ورغباتنا وأعمالنا اليومية ، إن هى إلا مظاهر سطحية صغيرة للموارد الكامنة فى المستودع الفسيح لشبه الشعور . إننا لا ندرك حقيقة شعورنا فى غير أوقات المحنة ، فنسمو إلى مستوى من النشاط يعلو مستوى البشر . أما حين تجرى الحوادث مجراها العادى ، فإن المخ يحتفظ بالغطاء على وعاء شخصيتنا السحرى ، مثله كمثل الضابط على فصيلة من الجند... يستحضر عدداً صغيراً نسبياً من الأفكار ، هى ما يحتاجه العمل المطلوب الآن فعلا . إنه أداة تختار ما يكفينا فى ضروراتنا العاجلة ،وهو يدرك العلاقة المؤقتة بين الأشياء ، ويمكننا أن نختار من بينها . إنه يعمل مستشاراً ناصحاً للارادة بيد أن المخ — كما رأينا — ليس إلا جزءاً من العقل ، وهو فى ذاته وبمفرده لا يستطيع السمو فوق تجاربنا اليومية . فهو مادى تماماً ، وهو موجود فى الحيوانات الدنيا كما يوجد فى الإنسان ، وهو لا يعمل إلا فى المكان ، وينمى قوته عن سبيل عملية الخطأ والصواب التدريجية الألمية .

لكن الحقيقة الحقة — كما يقول برجسون — أسمى من تجاربنا الحسية — وبها من الأصالة والأساسية ماليس لهذه العلاقات المنقضية

بين الأشياء لأن روح الحقيقة الحقة هو النمو فى الماضى والحاضر والمستقبل ؛ وليس هو نموا فى المكان فقط ، بل فيه وفى الزمان بنوع خاص . فجون سميث مثلا رجل سمين فى الخامسة والأربعين . ونحن إذ نرقبه فى هذه اللحظة يمشى فى الطريق لنتساءل : من الذى نراه بالضبط ؟ أهو جون سميث ؟ لكن من الجلى أنه فى هذه اللحظة بالذات ليس أكثر فى أنه جون سميث كما كان منذ أربعين سنة، حين كان يمرح فى سروال قصير ، ولم يكن إلا طفلا نحيلا لم يجاوز عامه الخامس . ليس جون سميث الحق هو ذلك الشخص الذى نرى فى أى يوم واحد أو فى أية لحظة خاصة منفصلة من حياته . إن حقيقة جون سميث الكاملة إنما هى فى نموه المستمر من يوم ميلاده إلى يوم وفاته . على أنه من الجلى أن جون سميث هو الوحيد فى الأحياء الذى يستطيع أن يدرك حقيقته الحقة ، ويشعر بها ، لأنه الشخص الوحيد الذى يخبر كل لحظة من حياته . وحقيقته بوصفة روحا حيا ناميا إنما تنكشف لروحه الملهم .. لعقله المبدع .

— ٦ —

وعين برجسون عام ١٩٠٠ أستاذا للفلسفة فى كلية فرنسا College de France وأثارت كتبه : « الزمن والإرادة الحرة »

« المادة والذاكرة » ، « والنشاط العقلي » ، « الضحك وما بعد الطبيعة » أثارت هذه الكتب عاصفة من التأمل فى الآفاق العقلية للعالمين القديم والجديد . فهذا داود الضئيل الضعيف الخجول غير المدعى يسدد ضربة إلى عمالقة الفكر من أصحاب المذهب المادى . هذا أستاذ يتكلم فى هدوء ورزانة عن الروح ، فى زمن جرى على التحدث عن الجسم فى حماسة . هـذا رياضى جرأ على النظر فيما وراء الرياضيات . . . إلى الكتاب المقدس . . . فياله من ضلال أى ضلال .

لكن محاضراته أصبحت محبوبة للغاية : « يخيّم السكون على القاعة ، ويحس السامعون بهزة خفية فى نفوسهم حين يرونه مقبلا فى هدوء من خلف المدرج ، يجلس تحت المصباح المظلل ، لا يحمل مذكرات فى يده ، وتشتبك أطراف أنامله عادة » . كان يتحدث مستأنياً وقوراً ، فى صوت مـــتزن ، ولغة دقيقة موسيقية . وهو يكوّن جمله بجهد يسير ، حتى ليعز على الكثيرين أن يكتشفوا فنه .

لقد أذهل الفلاسفة بيضَ اللحى حين أصرّ على أن الفلسفة يجب أن تعالج علل الإنسان ، لا أن تخفيها . ورفض أن يغلف .

فلسفته بعبارات رشيقة مكررة ، بل هو يخترع كلمات جديدة لتأخذ مكان المصطلحات القديمة الجامدة ، ويلتمس من سامعيه ، لا أن يفهموا عنه ما يقول ، بل أن يختبروا أفكاره ، ويعملوا فيها عقولهم. يرجوهم أن يبذلوا جهداً إذ أرادوا أن يسبروا غور الحقيقة . كان يقول « إن الغرض من دراساتى هو التعبير الدقيق عما يحاول كل منا أن يجده فى داخل نفسه » .

نعم إن هذا الإدراك الدقيق يقل فى نظر الرجل العادى عن أن يكون تجليا بالمعنى الدقيق ، ويجل عن أن يكون صداعا بالمعنى الدقيق. فإنما يأنس إلى ظلال الميتافيزيقا المظلمة غير العادى من الرجال . ومع ذلك فليس من الصعب على أى إنسان أن يقبل فلسفة برجسون قبول المؤمنين ، فهو ذو ابتسامة صادقة آسرة ؛ وكان تحديده لمعنى السيد ينطبق عليه ، كما انطبق على أرسطو تعريفه للسيد . قال برجسون : « الرجل المهذب فى العالم هو من يعرف كيف يحدث أى إنسان فى الموضوع الذى يهمه ، فهو يدخل فى أفكار غيره . . لكن هذا لا يؤدى به إلى أخذ أفكاره عنه . وهو يفهم كل شىء ، وليس عليه مع ذلك أن يغتفر كل شىء . لذا فنحن لا نبدأ نعرفه حتى نشعر فى نفوسنا بانعطاف إليه ، فإذا نحن فى حديث مع

شخص غريب ، وإذا الدهشة والمتعة تشتملان علينا ، فقد تكشف لنا عن صديق » .

فبرجسون لم يكن أستاذا وكفى ، بل كان أيضا مرشدا فى العلاقات الاجتماعية . أتستطيع أن تتخيل نيتشة أو شوبنهور يجرى هذا الكلام على لسانه ؟

كان برجسون على غرار الفلاسفة الألمان فى الجانب الآخر من الرين ، فهو وطيد الإيمان بسلطان الغرائز البشرية، وقد رأينا ماانتهى إليه ذلك الإيمان بفلاسفة الألمان من نتائج زائفة . فقدعاشوبنهور إلى دين إفناء الجنس ، وأشاع نيتشة نظرية الإيمان الأعمى . أما برجسون فينمى فلسفة التطور الخلاق . فقد حطم الفرض القائل بأن العقل والمخ شىء واحد ، وأعلن أن العقل أكبر كثيراً من المخ . والحق أن الصفة الأساسية للعقل لاتدخل فى اختصاص المخ . هذه الصفة الأساسية هى العقل للبدع أو الخلاق ؛ وهى تقابل المخ ، أو العقل . المحلل . والعقل المبدع دون غيره هو مايستطيع إدراك الحقائق الأساسية للتجربة ، لأن التجربة كل خلاق .. كل لايتركب من أجزائه . فنحن لا نستطيع تركيب قصيدة أو شجرة من أجزاء

بضم بعضها إلى بعض ، ولا نستطيع أن نجمع نقطا لنكون منها خطا ونسميه خط التقدم . لا نستطيع فى حقيقة الأمر أن نضم الثوانى لنكون منها دقائق ، أو الدقائق لنكون منها ساعات ، إنما نفعل ذلك فى الزمن « الميت » الذى صنعناه نحن أنفسنا لنرمز نه للزمن « الحى » . ولكن كل لحظة من الزمن الحى لا تمثل جزءاً من الزمن ، بل تمثل الزمن جميعه ، لأن الزمن كالشجرة كل خلاق ، وليس غير العقل ، الخلاق وهو الحدس عند الرجل العادى ، والإلهام عند الشاعر ، يستطيع أن يفهم الحقيقة كاملة فى أى لحظة ، ومن أى مرقب ، وفى أى ظرف . فإذا كان العقل المحلل لا يستطيع الحياة إلا فى الحاضر ، فالعقل الخلاق ينطوى على تطور ، أى نمو الماضى كله ، والحاضر كله .

وهذا النمو التطورى للشعور الداخلى للعقل المبدع هو الحياة . إنه التيار الكهربى الذى يبعث الحياة والحركة فينا أجمعين . ويطلق عليه برجسون اسما خلابا ، هو الشرارة الحيوية . فليفن المخ مع باقى الجسم ، أما شرارة الحياة ، الإدراك الباطنى ، فخالدة لا تموت شأنها فى خلودها كشأن الزمان الخالد . . وإن تعرض كل مايشمله المكان الفناء . لقد حررنا الزمن أسر المكان ، وأجلسناه على عرشه الحقيق به فى الإدراك الباطنى . لقد صححنا أغلاط العلماء ، وأوضحنا حقيقة

حيوية ، كما يؤكد برجسون . . هى أن الإنسان لايحيا فى الزمن بل إن الزمن هو الذى يحيا فى الإنسان ، لأن الزمان ليس خالداً فحسب ، بل هو باطنى أيضاً . فهو يحياداخل عقل الإنسان المبدع، والإنسان لايخضع لأى أبعادخارجية يطلق عليها خطأ (مرور الزمن) ، بل هو سيد الزمن وخالقه وروحه لأن الزمن حياة العقل ، كما أن النمو حياة الجسم .

فلا تأس بعد اليوم على قصر الحياة البالغ ، فالحياة خالدة . وكل لحظة حية هى الخلود ، إذا ما فصمنا تلك العرى العقلية التى تربطنا بمحيطنا المادى . فشرارة الحياة التى فينا ليست مادية ، وحياتنا ليست كالثور يجر أحمالا ثقالا . لقد بشر التطوريون بالجبرية ، فى دورة الصراع والبقاء والانتصار . لقد نظروا إلى أجناس الحيوان والإنسان، من خلال مجهر ، وحكموا بالظواهر دون سواها، فسخروا من فكرة حرية الإرادة عند الإنسان : لقد أحالونا مصنعاً آليا ، وأحالو الطبيعة آلة هائله من الروافع والمزالج والمسامير الحلزونية . ودعونا أن نخر سجداً لإله الاستسلام العظيم،لأن السلامة فى الاستسلام كما قالوا . وهذه النظرية الخاطئة لاتبدو صحيحة إلا لقبولنا فكرة الزمن على أنها الحركة الآلية الميته للحظات موقوته فى المكان ، كالحركة الاليـــة الميته للعقربين على ميناء الساعة . ولو كان هذا هو التفسير الصحيح للعالم ، لكان فى أعمال الإنسان من

الحياة والحرية ما فى إيمـــاءات العرائس المطبوعة على شريط الخيالة . فنى حالة هذا الشريط تكون اليد العليا لقوانين الآلة . فالحركة والزمن تتحكم فيهما آلة التصوير وسرعة أشباح الشاشة يمكن أن تستبطأ أو تستحث . ويستطاع إدارة الشريط من آخره إلى أوله، فتعكس كل قوانين الزمن . لكن الأساس الجوهرى فى زمننا الحقيقى — فيما يعتقد برجسون — هو عدم إمكان رجوعه ،لأن الزمن نمو ، والنمو لا يدخل فى باب الآلية بل فى باب الحركة ، والمتحرك لا يرد على نفسه . . ولا يعيد نفسه . فالنمو تقدم لا تكرار ، وكل تجربة ماضية فريدة فى بابها تماما ، ومافات فات . أيسع الإنسان أن يعود إلى الطفولة ؟ أيستطيع جون سميث أن يعيش حياته قافلا إلى الوراء ؟ أتستطيع لحظة أن تنقلب إلى أولها . إن الميزة الأصلية لحركة الزمن هى حيوية الزمن ، هى حياته ، هى نموه . . وهى فى هذا عكس الصفة الثابتة للعقل .

وليس المستقبل نتيجة آلية الماضى . ذلك بأنه إذا كانت كل لحظة فى الحاضر فريدة ، فكل لحظة فى المستقبل فريدة كذلك . والنمو لا يتبع قوانين صارمة جامدة . فحياة العقل تخلو من كل تتابع حتمى بين السبب والمسبب . إن الواعظ إذ يلقى موعظة أمام جثمان

جون سميث قد يستخرج عبرة « حتمية » من حياته . فهو فى موقف يرقب الأمر فيه على أنه نموذج خارجى للمحاولة والخطأ ، فيحاول أن يستنتج أن هذا الأمر أو ذاك من حياة سميث كان من أثر البيئة، وأن هذه السمة أو تلك قد ورثها عن أمه ، وأن هذه الفكرة أو تلك قد كسبها من تعليمه . لكن حين كان جون سميث على قيد الحياة ، لم يكن يكتنف أى لحظة من حياته أمر لا بد منه . لقد كان جون سميث نفسه هو الأمر الذى لا بد منه ، فى كل لحظة من لحظات حياته كان نفسه المبدعه الخلاقة ، كان هو نفسه العامل الذى يدير آلته ، والسيد المسيطر على إرادته الحرة .

ويرى برجسون أننا إذا أثبتنا أن الانسان حر ، بدت نظرية دارون فى التطور فى ضوء جديد ، فالإنسان ليس ألعوبه آلية فى يد التنازع المادى القاسى لبقاء الأصلح . فالحياة ليست نتاج القوانين الآلية ، وهى ليست كالنهر يجرى بقوة الجذب من المهد إلى اللحد ، بل أن تيار الحياة ليدفع بالإنسان أماما وعالياً فى طريق التطور . والقوة الدافعة ليست خارجة عن الإنسان ، بل هى فى داخله . إن الحياة فنان يعمل من تلقاء نفسه ، فهى تبشر فى كل لحظة بأنها ستزدهر وتغدو شيئاً لم يخطر بالبال . إنها تنبع من حقيقة رائعة

لايعرف كنهها ، وإن روحاً قدسية لتكمن فى قدرتها على التقدم .
فالواقع أن جوهر حياة الإنسان الخلاقة هو الله .

الله هو الحياة ، والحياة تدفع إلى أعلى . . . أعلى على الدوام « فالحيوان يسمو على النبات ، والإنسان يبسط سلطانه على الحيوان ، والبشرية كلها ، مكاناً وزماناً ، جيش واحد ضخم يركض بجانب كل منا وأمامه وخلفه فى حملة جائحة قادرة على دك كل مقاومة وإزالة كل عقبة » .

حتى الموت ! إن تيار الحياة ليمتد بعد موت الفرد ، وهو باق بعد انقضاء لحظة الفشل ، وميل المادة إلى تحطيم نفسها . وإذا ضرب تيار الحياة فى طريق مغلق ، فإن ينابيعه الكثيرة تحفر مجرى جديداً ، فإذا سيله العارم يصيب نجاحاً جديداً خطيراً . والحياة لايقتلها فشل موقوت ، ولا يمكن أن يصد تدفقها .

وتكمن فينا جميعاً دفعة الحياة تلك ، قاهرة لاتقهر ، هذه الشرارة الحية ، هذه الطاقة التى تتدخل خلسة ومن تلقاء نفسها فى أحط أنواع المادة وتتلاءم معها ، ثم تسيطر عليها شيئاً فشيئاً .

هذه الطاقة تنطلق آخر الأمر حرة فى الإنسان ، وتعبر عن نفسها أروع تعبير فى النفس الخلاقة .

هذه النفس الخلاقة هى النفس العالمية ، هى تلك الدفعة التى تحفز كل فنان إلى إنتاج الأثر الرائع الذى يسمو على شخصيته الفردية ، فيصبح التراث الجماعى للانسان . وهذه الدفعة الخلاقة لا تكمن فى الفنان وحده ، بل تكمن فى كل واحد منا . إنها القوة التى تدعم كل فكرة نبيلة ، وهى النشوة فى قبلة العاشق ، كبهجة الأم بميلاد طفلها ، والبركة التى تصاحب كل عمل طيب ، والأمل الذى يستشعره كل مؤمن بمصيره الخالد .

— ٧ —

تلك كلمات ما أشجعها ، وما أجدرها بقصيدة عصماء . واليوم هذه جيوش العالم تتأهب للزحف من جديد . . . لقد قدر لمن عاشوا خلال الحرب العالمية الأولى ، وكانوا يستمعون لفلسفة برجسون المتفائلة ، أن يعيشوا خلال حرب أخرى . ولعل بعضنا يميل إلى الابتسام الحزين لهذا الفرنسى الذى يتحدث بمثل تلك الحماسة المستبشرة عن مصير الإنسان . ولعل قصة الخلق التى

يوردها توقعنا في شيء من الارتباك ، ولعلنا نحار شيئاً فى أمر هذه الطاقة الإنسانية التي لايعرف كنهها . . . تلك الطاقة الموجهة إلى تجويع بنى الانسان واستعبادهم . وقد يحملنا هذا على أن نتساءل : « ما هذه الحياة التى تستطيع رصاصة واحدة أن تطفئها فجاءة ؟ » .

لكن لامراء فى أن « خفقة سرية » من خفقات الضوء ستغشى السامعين فى قاعة محاضرات الزمان ، حين يتخذ الأستاذ الضئيل مجلسة تحت المصباح المظل ، وليس بيده مذكرات ، وهو يقول وقوراً رزيناً مستأنياً ، حاولوا أن تفهموا جزءاً من هذا بعقولكم ، وأن تحدسوا الباقى . . . بقلوبكم » .

هذا الفيلسوف اليهودى المولد ، الذى بلغ عامه الأول بعد الثمانين ، يرد بالعقل والقلب على اضطهاد اليهود الذى شرعته حكومة فرنسا التى كانت تصدر عن وحى هتلر سنة ١٩٤٠ . قضت هذه الأوامر أن يكاف كل الأساتذة اليهود فى فرنسا بالاستقالة من مناصبهم فى جامعات الدولة . وعرض على برجسون أن يستثنى من هذا الأمر ولكن رفض تلك اليد ، لأنه لم يشأ أن

يعفى من قسوة أمر بهـا المهج ، وآثر أن يشارك بنى دينه محنتهم ، فاستقال من كلية فرنسا .

إن هذا الرجل حين تحدث عن شراره النبل الحيوية ، كان يفقه معنى ما يقول .

جورج سنتيانا

١٨٦٣ — ١٩٥٢

— ١ —

كانت حياة سنتيانا ، كما كانت فلسفته صدى من أصداء الماضى . ومع أنه ولد فى أسبانيا ، ودرس فى الولايات المتحدة ، فهو ليس بالأسبانى ولا الأمريكى ، بل هو من الإغريق القدماء . . . عقلا ومزاجاً .

نشأ فى طفولته على قصص المغامرة الخيالية ، ومظاهر الأبهة فى الأقطار البعيدة ، وبلاد الجان الساحرة . وقبل ميلاد سنتيانا كان أبوه موظفاً فى جزر الفلبين ، وقد أبحر ثلاث مرات حول العالم ، وحشد عقله بكثير من قصص « المسطحات المائية غير المحدودة ، وجزر جوز الهند ، وأهل الملايو الطاهرين ، والقارات الواسعة الملأى بالصينيين وبأشخاص خياليين ، وأشياء خيالية خارقة للمألوف . وكانت عجائب البشر ، وخوارق الأشياء هى الزاد العقلى الذى عاش عليه سنتيانا فى أعوام التكوين من حياته . فهو يقول : « عشت منذ الطفولة حالما

بين الدروس والأعاجيب . . . وكان من عادتى أن أفكر فى مشاهد وعادات أكثر متعة مما حولى » .

فى هذه الكلمات مفتاح عقلية سنتيانا الفيلسوف ، وشخصية سنتيانا الإنسان ، فهو طول حياته مأخوذ بجمال البعيد والقديم ، ولهذا كان سنتيانا شاعرا قديما يعلق على العالم الحديث .

— ٢ —

وحين بلغ جورج سنتيانا التاسعة من عمره ، انفصلت أمه عن أبيه ، وكان زوجها الثانى ، فرحلت مع أطفالها إلى أمريكا . ولم ترزق الأم من زوجها الثانى بغير جورج ، وكان لها ثلاثة أطفال من زوجها الأول . على أنهم كانوا يكبرون سنتيانا كثيرا ، ولذلك لم يرفيهم رفاق لعب يناسبونه . كذلك لم يحفل سنتيانا بمخالطة أحد من أطفال جيرانه . ومما كتب « لم أكن امارس أي لعبة ، بل كنت أقضى طيلة ما بعد الظهر والمساء فى القراءة أو الرسم » .

وتلقى تعليمه الأول فى مدرسة بوستن اللاتينية . وهنا فى وسط ذلك الجو الدمقراطى ، من أطفال « أولى حوافر مسمرة » يهبطون « درج المدرسة كأنهم الرعد . . . أو كأنهم كتلة من الجليد تهوى من

قنة الجبل ، قوامها أربعون أو ثمانون أو مئتان معاً ، هنا تعلم الخروج من مستكنه ومعتزلة شيئاً ما . فهو إن لم يندمج فى الناس ، فقد غدا الاتصال به ميسورا .

فلما التحق بهارفرد ، ذاب من حوله قدر آخر من صقيع التحفظ . إنه لم يشترك فى ألعاب الكليه بنفسه ولكنه كان يذهب ليشهد لعب التلاميذ . وكان شغوفا بكرة القدم خاصة ، وكان يشهدها من جانب الملعب . فسنتيانا الشاعر ، لا رجل العمل ، هو الذى كان يجد اللذة فى شهود التنافس والصراع على أشدهما . ومما كتب : « لعبة الكرة مشهد لطيف دائما . . . لكن على الأرض المنبسطة هنا ... بعيداً عن المدينه ... حيث لا تكف الريح عن الهبوب ، يزداد الصراع جمالا ... هنا تتلألأ فضائل البطولة مصغرة ، وتعود البهجة البسيطة التى كانت فى العالم القديم ، كأنها حلم من الأحلام » .

« ذكرى حلم قديم ، يرى من خلال تنافس فى لعبة حديثة » كذلك كان سنتيانا يتصور العالم الذى نعيش فيه .

وكان فى صلاته الاجتماعية بهارفرد ، كما كان فى صلاته الرياضية ، هادئاً متباعداً ، وكان كثيراً ما يشارك فى « رحلات طلبة فرقته »

حين يقفون أكداساً فى عربة ذات عجيج يجرها حصان ، وقد ارتفعت أطواق سترهم إلى الآذان ، وانغمست أقدامهم فى قش الشتاء يغذون السير طيلة نصف ساعة إلى بوستن ، ليدعموا فيها بمخالطة النساء ، أو غشيان المسرح ، أو تناول العشاء الفاخر » . ولكنه كان أمام منضدة العشاء ، كما كان فى ملعب الكرة ، أحد النظارة يشهد فى هدوء مستمتع رقيق . » فأنت على موائد العشاء تتحدث نصف ساعة إلى السيدات .. ونحو عشر دقائق إلى الرجال .. فإذا انتقلت أخيراً إلى حجرة الاستقبال كان فى وسعك أن تختار السيدة التى تريد أن تتحدث إليها » .

وكان على الدوام يتحدث إلى السيدات ، ولكنه لم يراقصهن أبدا ، لأنه لم يكن يعرف الرقص .

وكان يفضل التحدث إلى النساء عن التحدث إلى الرجال . لقد كنت أحب سيدات بوستن ، وأستمتع بالحديث إليهن ، فهن قد سافرن ، وقرأن وتثقفن — أكثر من الرجال كثيراً .

وكان موقفه من الرجال موقف الساخر المتسامح . قدم مرة إلى والكوت حاكم مساشوستس وقال يصف هذا اللقاء « كنت أتوق

إلى لقائه ، لكن خاب رجائى فيه ، فإنه لصاحب عقل يمكنه من تكوين الآراء ، لكنه لا يكفيه لتكوين الاراء الصحيحة » .

وكان هذا أيضاً موقفه من أساتذته بهارفرد فهو قليل الإجلال لارائهم . فعقله — فى نظره — انضج من ان يأبه للتعاليم « الأولية » لجيمس ، ورويس ، وبالمر ؛ التى تبعث على العجب والدهشة اكثر مما تبعث على الموافقة الجدية .

وكتب عن بالمر بعد سنين طويلة « إنه لازال يتسكع هناك . وكان يكره فكرة هؤلاء الناس الخيالية عن ذلك العالم القاسى الكريه .. ووصفهم إياه بأنه نموذج ومعيار لما ينبغى إن يكون . لقد اتى الى هارفرد مادياً مستيقنا ، او طبيعى النزعة ، ويقول فى ذلك : « إن فلسفتى الطبيعية ليست فكرة علمية ، بل هى اقتناع عادل .. جاءتنى كما جاءت أبى من خبرة العالم وملاحظته .. ويبدو لى ان غير الماديين لايحسدون الملاحظة ... » .

وقد كان هو نتاجا « لدين أمه وأبيه .. المنافى للدين » فأبواه كانا ينظران إلى كل الأديان على أنها من صنع الخيال البشرى ، وكانا يعتقدان أن القرابين والصلوات والكنائس وقصص الخلود ،

قد اخترعها قساوسة أوغاد ، كى يتحكموا بها فى الحمقى . وآمن سنتيانا بهذه العقيدة كل الإيمان؛ ولكن إن كان سنتيانا ذا عقل متشكك فهو ذو قلب مؤمن . وهنا ننفذ لأول مرة إلى سنتيانا ذى العقلية المعقدة وقد كتب فى ذلك يقول : « كانت عواطفى كلها تتجه نحو افراد اسرتى الآخرين المؤمنين المخلصين » ، ولا شك ان الأديان قصص خرافى من وضع الضمير ، لكن يا له من قصص ملهم ! » .

كان سنتيانا رغم تصريحاته المادية ، اميراً مفتونا يعيش فى عالم سحرى ، كان شاعراً يحاول ان يتحدث حديث العلماء وقد أتجهت جهوده الأدبية الأولى نحو الشعر ، وكان شعره أسى حزينا حنونا على العوالم الفانية والأحلام التى طواها النسيان . لم يكن يشكو ـ كهوسمان — من أنه ولد « غريباً ، خائفاً فى عالم لم تكن له يد فى صنعه » ؛ لكنها شكوى أبلغ فى مرارتها . هى أنه ولد بعد الأوان فى عالم كان يوليه أحر الحب ، لو أنه جاءه فى الوقت المناسب . فهو أحد رفاق أفلاطون ، حكم عليه أن يعيش بين المتطهرين فى بوستن . وكانت هذه ـ فى رأيه ـ هى مأساته الكبرى .

كان يريد أن يقضى حياته فى حوار هادىء مع أفلاطون وأرسطو

وديموقريطس وكوكريتيوس ، وغيرهم من الأرواح القديمة التى توافقه وتلائمه . لكن القدر اضطره إلى احتراف التدريس ،وأضاعة وقته فى التحدث إلى الطلاب فى الكليات . وقد كتب فيما بعد يقول : « كنت دائما أكره أن أكون مدرسا ولكن هذه الكراهة لم يكن يستشفها أحد ممن استمعوا إلى محاضراته الواضحة القوية . وكان من حظ أحد مؤلفى هذا الكتاب أن يتتلمذ لسنتيانا فى هارفرد . وكانت الفترة التى قضاها تلميذاً له من التجارب التى لاتنسى أبداً ، لقد كان الفيلسوف الشاعر يقتعد كرسيه على المنصة بقاعة إمرسن ، ويداه الشاحبتان مشتبكتان على المكتب ، يعلوهما وجه شاحب ، ولحية سوداء ذات طرف رفيع يسبغ على ملامحه خيالا أثيريا من خيالات ألجريكو ، وروحاً قادمة من بعيد تومض من عينين أسبانيتين براقتين ، وصوتا مليء بالحكمة المنغمة ، كانت تهبط على الطلبة كأنها نعمة من الله وبركة . وكان يتحدث فى طلاقة ، ولكن فى توقيع هادىء مستأن ، وكأن أمامه الدهر كله يتم فيه رسالته . وكان فى بعض الأحيان يتوقف ثوانى معدودات ، يستلهم عقله الكلمة الصحيحة . ولكن طلبته كانوا ينتظرون آملين ، يحدوهم الرجاء لأنهم يعرفون أن الكلمة حين تأتى تكون هى الكلمة

التى لابد منها فى هـذا السياق .. إنها الجوهرة الصحيحة فى الوسط الصحيح .

وكان بين الحين والحين يوجه سهام سخريته الوادعة إلى الأباطيل الـكاذبة للعقل البشرى . لـكنه لم يحمل عليها قط وفى يده معول تحطيم ، فإن حماقة الجنس البشرى كانت تشعره بالمتعة أكثر مما تشعره بالغضب .

ولم يتزوج قط ، وكان فى هارفرد يحيى مع بعض خلصائه ، وعلى الأخص مع هيجر بوستربرج (وهو شريف أجنبى وزميل شاعر) ومع كتبه ؛ على أنه احتفظ بشغفه بكرة القدم ، وهى النقطة الوحيدة التى سمح لنفسه أن يلتقى فيها « بهزل الحياة المعاصرة » .

وكان أحد طلابه لا يعرف غير تباعده فى حجرات الدرس ، ولا يدرى شيئاً عن شغفه بالرياضة فى الـكلية ، فأخذته الدهشة حين رآه فى « قبعته الأجنبية ، وبيده عصاه الأجنبية » يدخل مضمار اللعب فى عصر يوم من أيام السبت : فصاح الطالب متعجباً « تصوروا أن أفلاطون يهتف لهارفرد ؟ » .

وإذا استثنينا جولاته القصيرة فى الحاضر ، فقد كان ينفق الوقت الأكبر من ساعات فراغه فى توثيق صداقته بالماضى ؛ لقد هجر الشعر إلى الفلسفة أو أنه — إذا أردنا الدقة — قد هجر شعره الفلسفى إلى فلسفته الشعرية ، فهو وإن كان يكتب الآن نثراً ، وفى لغة ما بعد الطبيعة ، فقد ظل إلى النهاية شاعراً .

— ٣ —

كانت فلسفة سنتيانا مزيجاً عجيباً من الأفلاطونية والإلحادية والكاثوليكية . فهو أولا يشبه أفلاطون فى إيمانه بعالم الأفكار ؛ وهو يسميها الأرواح . والروح عند سنتيانا كالفكرة عند أفلاطون هى صورة كل شىء حاضر ، وكل شىء سابق ، وكل شىء لاحق ، ويضيف سنتيانا إلى ذلك : وكل ما لن يحدث قط لأن الأرواح غير مقصورة على الأفكار العظيمة التى تحويهـا الروايات والقصائد والتمثيليات . بل هى تشمل كذلك الأفكار التى لم تكتب فى الماضى ولن تكتب فى المستقبل . إنها أشبه بالأزهار تنبت لتذبل ، دون أن تُرى و تُضيع جمالها هباء فى حساب حواسنا الضعيفة الفانية ... ولكنها لا تضيع فى حساب التأمل الخالد . ويستطيع كل منا — إلى حد ما على

الأقل — أن يأخذ فى هذا التأمل بنصيب . نستطيع أن نحس بنشوة وبالخروج عن أنفسنا . فنحن إذ نخبط فى الطريق الضيق ، طريق وجودنا من الحياة إلى الموت ، وقد عصبت أعيننا عصابة من الجهل تكف بصرنا ، تستطيع أرواحنا أن ترفعنا فوق أنفسنا ، وهى أحياناً تفعل . فنرى الأبدية فى ومضة كومضة البرق . فنحن نخُبُر هذه اللحظة الخالدة مثلا حين نسمع لحناً عذباً ، أو صورة جميلة ، أو حين نقوم بعمل خير . فحين ينسى الإنسان نفسه فى هـذه التجارب ، يرى الأرواح ضاحكة فى سمائها الأفلاطونية من ذلك « العالم المتقلب الذى تطل عليه لحظة من اللحظات » . وحين يطل أحد هذه الأرواح على العالم — أى حين يؤثر فى المادة — فإنه يصبح وجوداً على نحو يشبه إلى حد ما — تحول رسم تصميم المنزل إلى منزل . . . . إذا اتخذ صورة الحجارة والآجر والزجاج والملاط . وإن سنتتيانا ليعترف بأنه لا يدرى بالدقة ما هى المادة : « إنى أنتظر رجال العلم أن يدلونى على معناها . . . . لكن المادة مهما تكن ، فإنى أجرؤ على تسميتها بالمادة ، كما أدعو من أعرف من الناس سميث وجونز ، دون أن أعرف سرها » ، فسنتتيانا لا يفهم سر المادة ، لكنه موقن بوجودها . فهما نطلق عليها من أسماء : « ملتقى الذرات » ، أو « شحنة

الـكهرباء » أو « توتراً فى الأثير » فالمادة هى الشىء الموجود أبداً ، المنتشر فى كل مكان ، الذى يدخل فى صنع السماء والأرض وأوراق الشجر وأوراق الزهر وجسوم الناس ، بل وعقول الناس أيضاً ، لأن العقل البشرى مادى ، شأنه فى ذلك شأن الجسم البشرى ، فهو كالجسم عرضة للمولد ، والنمو والذبول والفناء .

لقد غدا سنتيانا ملحداً بعد أن كان أفلاطونياً ، فهو لا يؤمن بالخلود ولا بالله . ومما كتبه « لا أعتقد خلود شىء من الأشياء . ولا ريب فى أن روح العالم وطاقته هما القوة الفعالة فينا ، كما أن البحر هو ما يرتفع فى كل موجة صغيرة ؛ لـكنها تمر خلالنا ، وستظل على مرورها مهما تـكن صيحتنا ، وكل مالنا من ميزة ، أننا نحسها حين تمر » .

وما الحياة والجسم والعقل والأرض والسماء والنجوم ، إلا آلة فى فلسفة سنتيانا . وتصرفات الإنسان ليست حرة ، بل هى آلية . والعقل — فيما يقول — لا يتحكم فى الجسم ، بل إنه « ليشهده ناظراً وحسب » . فهو يرقب « الآلة ذات الحركة التلقائية » فى داخل الجسم ، فيرضى حيناً ، ويثور « ثورة عاجزة » حيناً آخر .

«وليس من شيء يقال له النفس الخالدة . والإيمان بهذه النفس إن هو إلا إيمان بالسحر » . وما نطلق عليه « النفس » إن هو إلا شبكة هائلة (مادية) من الأعصاب والأنسجة ، تنبت فى كل جيل من بذره » .

ويتفق سنتيانا مع اسپينوزا الفيلسوف الكامل الوحيد الذى ظهر فى العصر المسيحى : « لست أرى فى الكتاب المحدثين فيلسوفاً على الإطلاق غير اسپينوزا » ولكن سنتيانا مع ذلك يخالف اسپينوزا فى وحدة الوجود ، فيقول « إن لفظة الطبيعة . . . لفظة شاعرية . . . فهى توحى إيحاء وافراً بوظيفة التناسل والسيطرة والحيوية اللانهائية ، والنظام المتقلب للعالم الذى أعيش فيه » ووحدة الوجود تتضمن وجود الله . ولم يكن سنتيانا مؤمناً بالله فهو — كلايلاند — يذرع السماء بمرقبه بحثاً عن الله فلا يجده ، والدين عنده أسطورة والله هو البطل الخرافى لهذه الأسطورة .

لكن سنتيانا لم يكن كافراً وحسب ، بل كان إلى ذلك شاغرا . وهو ليس ملحداً وحسب بل هو إلى ذلك كاثوليكى فهو يؤكد — فيما قال أحد كتاب سيرته (أنه لا يوجد إله ، أو أن العذراء مريم هى أمه) . ولكنه إن بكفر

بالله بعقله ، فقد أولاه خاصة ، هى « أنضر زهرات الشعر » ، وأن تكن أسطورة المسيحية كاذبة من الناحية العلمية ، فهى صادقة من الناحية الشعرية . وما الكاثوليكية إلا حلم من الأحلام ، لكنه ولا ريب حلم جميل . . . وهذا — فيما يقول سنتيانا — يصدق على جميع الأديان الأخرى ، فقد يكون الإله مجرد بطل خيالى ، ولكنه بطل رائع يضرب أرفع الأمثال . فلنقصر إذن عن الزراية بالقصص الدينى . . . وعلينا أن « نجل التقوى ، ونفهم الشعر الذى تنطوى عليه هذه الأقاصيص » . فلنقبل أقاصيص المسيحية بمعناها الشعرى لا الحرفى ، وبذلك نستطيع الأمل فى الخلود على نحو ما « وكلما أحسن الإنسان استثارة المثل الأعلى (للحياة المسيحية) وأدرك هـذا المثل . . . . زاد وجوده بين الخالدين كمالا وشمولا » . ليس خلودنا امتداداً لشخصيتنا فى العالم الآخر ، بل هو تكرار لما فى هـذه الحياة — عن طريق ألفاظنا وأعمالنا ، وعن طريق أطفالنا خاصة . . . . وإننا لنلقى بكتاب حياتنا الشائه فى النار راضين ، حين يوشك الكتاب الخالد على الصدور فى طبعة أنقى وأبهج » .

— ٤ —

هذا هو الاتساق غير المتسق فى مذهب سنتيانا الفلسفى ، فهو – على حد تعبيره – فلسفة من حاول « أن يحلم وإحدى عينيه مفتوحة وأن ينفصل عن العالم دون أن يكون معه على عداء ، وأن يقبل على الجمال المنقضى ، ويأسى على الألم العابر ، دون أن ينسى فى أية لحظة أنهما سحابة صيف عن قليل تقشع » .

وعاش سنتيانا طول حياته بهذه الروح التى انفصلت عن الناس غير قالية ، فهو ليس رئيساً لأية أسرة ، ولا مواطناً لأية بلد ، ولا أستاذاً فى أية مدرسة (بعد أن استقال من هارفرد سنة ١٩١٢) وغادر أمريكا فى عام ١٩١٣ قبيل الحرب العالمية ، فذهب ليقيم فى أوربا . ولم يكن هذا انتقالا إلى نصف الكرة الآخر وحسب ، بل كان فوق ذلك انتقالا إلى عصر آخر . . . العصر الذى ظل دائماً يؤمن بانتمائه إليه . وأقام فى رومة ، لأنه كان يحس بأنه فيها أقرب إلى الماضى منه فى أى مكان آخر « فأثينة – كما يقول – قد تغيرت تغيراً بالغاً عما كانت عليه أيام أفلاطون قديماً ؛ أما بين أطلال الماضى المجيد فى رومة ، فقد كان يحس أنه فى بيته الذى يوائمه أتم مواءمة

وهنا سار على نظام هادىء رتيب . فكان يسير فى «الحاضر الدنىء» كأنه شبح أيام أكثر نبلا ، واستأجر جناحاً متواضعاً فى فندق ، ولما أشار عليه أصحابه أن يشترى منزلا ، أجاب بقوله : « إن التملك يستعبد الإنسان » وسار على عادات بسيطة لا تلفت النظر . ومن أقواله فى هـذا (أنا سر أبى) فقد سأل أباه مرة لماذا يسافر دائماً فى عربات الدرجة الثالثة ، فأجاب أبوه (لأنه لا توجد عربات الدرجة الرابعة) . وكان يستمتع بأصدقائه القلائل حين يأتون لزيارته ، ولـكنه لم يكن يبحث عنهم إذا كفوا عن الزيارة . قال : (إنى كالبابا . . أزار ولا أرد الزيارة) .

وقلما كان يحضر الصلوات . ويقول فى تفسير ذلك (إن الجلوس فى الـكنيسة يؤلم مستدق ظهرى) ولـكنه كان كثير الاختلاف إلى أطلال البانثيون ، وشهود تماثيل الآلهة القديمة وإلى سان بترو لينعم بالنظر إلى صورة (موسى) لميكل أنجلو . فهو لا يزال يؤثر شعر الدين ، على ممارسة شعائره .

وكان مكانه المختار أريكة فى أطلال معبد سكولابيوس ، إله الشفاء القديم ومن أحب الأرباب إلى سقراط . وكان يجلس

الساعات فى هذا المكان ويحلم بعودة أيام العالم الزاهرة ، التى نزعته منها تقلبات الأيام نزعاً أحزنه وأقض مضجعه .

ولكن حزنه لم يكن يخلو أبداً من لفة فكهة . فهو يستطيع النظر إلى فشله ، كما ينظر إلى فشل سواه من الناس ، ضاحكا كأن الأمر لا يعنيه . فهو يتكلم عن كساد كتبه فى السوق ، قبل نشر قصته « المتطهر الأخير » فيقول ضاحكا « لا يزال كتابى الأول حاسة الجمال هو أروج كتبى . . . فمنه يباع بانتظام مائة نسخة فى كل عام » .

ولكن الفشل نفسه — فيما يقول — له جانب طيب ، هو عدم الدوام . فالطبيعة تمتعنا لحظة بهذه اللعبة السخيفة المسماة بالحياة ثم تهدئنا بترانيمها حتى نغط فى سبات ينسينا كل شيء . فلنصب من لحظة اليقظة تلك أكبر ما نستطيع من نفع ، ولننس شقوتنا الموقوتة ، ولنحمد متاعنا الموقوت « وليس للمولد والممات من علاج غير الاستمتاع فيما بينهما » .

وهكذا يحدق سنتيانا فى هدوء مستمتع متفلسف فى هذا المشهد غير المعقول ، المسمى بالحياة ؛ فهو يرى فى قطر بعد قطر أن المدنية

تندثر ، والطغيان ينتصر ؛ لكنه سائح أتى من قرن غير هذا القرن ، فلا عليه إن نظر فى غير انزعاج ، حتى ليستطيع القول فى طمأنينة المتفرج المتفلسف بأنه « من كبار المعجبين بموسولينى » . وعلينا قبل أن نقسوا فى محاسبته على موقفه هذا أن نتذكر أن سنتيانا يزن كلماته دائماً فى دقة علماء الرومان . فالإعجاب ، كما عرفه وافترض فى قارئه معرفته ، لا يعنى الموافقة والتأييد ، بل يعنى الملاحظة فى عجب ودهشة . فهو يعجب بموسولينى أو قيصر تماماً كما تعجب بإعصار جائح ، أو بجمد يهوى من قلة جبل . فهو يعجب لقوتهما ، وإن لم يقرهما على ما أحدثاه من تخريب . فالحق أن سنتيانا كان طول حياته يشمئز من التخريب والقسوة والظلم والطغيان والحرب . ومما كتب « إن الحرب هى التى تستنزف ثروة الأمة ، وتقتل زهرة شبابها ، وتحد من عاطفتها ، وتقضى عليها بأن يكون أمرها إلى مغامرين مجازفين ، وتترك المزيل والمشوه والجبان لينشئوا لها الجيل التالى . . فالأمم الحديثة من نسل العبيد وليست من سلالة الأبطال » .

وكتب فى إحدى مقطوعاته الغنائية . « ما أسعد أن نكون مع الأشياء على وئام » .

وكان فى موقفه من الحرب آخذاً عن الإغريق الأقدمين ، شأنه فى كل شىء آخر . وفى ذلك يقول : « كلما أطلنا التفكير فى العالم ، عدنا بلا ريب إلى أفلاطون ... لا حاجة بنا إلى فلسفة جديدة ، بل نحن بحاجة إلى الشجاعة فى أن نعيش مستمسكين بأقدم المثل وأحسنها » .

برتراند راسل

١٨٧٢ — ١٩٧٠

— ١ —

ماتت أمى وأنا فى الثانية من عمرى ، وكنت فى الثالثة حين مات أبى ، فنشأت فى دار جدى (لورد جون رسل) ولم يكد يجيبنى بنبأ عن والدى ... حتى لقد شاع فى نفسى إحساس بأن يكون فى الأمر لغز غامض لقلة ما عرفته عنهما ، فلما بلغت الحادية بعد العشرين أخذت أعرف بعض الخطوط الرئيسية فى حياة أبى وأمى وما كان لهما من رأى ، فكم دهشت حين رأيتنى قد اجتزت المراحل بعينها تقريباً التى اجتازها أبى فى تطور عقله وشعوره .

وكان المنتظر لأبى أن يخوض الحياة السياسية على تقليد فى عائلة « رسل » وكانت له فى ذلك رغبة ، فدخل البرلمان لفترة قصيرة (١٨٦٧ — ١٨٦٨) لكنه لم يكن له من المزاج ولا من الرأى ما كان يلزمه لتحقيق النجاح السياسى ، فما أن بلغ من عمره الحادية بعد العشرين حتى أحس فى نفسه كفراً بالمسيحية وأبى أن يذهب إلى الكنيسة يوم عيد الميلاد ، وقد جعل من نفسه تلميذاً فصديقاً

[« چون ستيوارت مل » الذى علمت منذ أعوام قليلة أنه كان لى أبا فى العمادة وكان أبى وأمى قد تبعا « مل » فى آرائه ، ولم يقتصرا فى ذلك على الآراء التى صادفت عند الناس قبولا نسبياً ، بل جاوزاها إلى الآراء التى كانت عندئذ تصدم الناس فى شعورهم ، كحق المرأة فى الانتخاب وضبط النسل ، وما إلى ذلك .

ويمضى برتراند رسل فى سرده لقصة حياته فيقول :

أراد لى أبى أن أنشأ فى الفكر حراً من القيود ، وكذلك أراد لأخى ، فأقام علينا وصيين عرفا بحرية التفكير ... ولكنى انتقلت بعد موت أبى إلى منزل جدى ، وكان ذلك عام ١٨٧٦ ، وكان الجد عندئذ فى الثالثة بعد الثمانين من عمره ، وقد نال منه الضعف والوهن فشملنى بعطف متصل ولم تبد منه علامة واحدة تدل على ضيقه بزياط الأطفال ، لكنه كان أشد ضعفا من أن يكون له فى تكوينى أثر مباشر . ثم مات جدى عام ١٨٧٨ ، فتولتنى بالتعليم جدتى .. فكانت أقوى أثراً فى توجيهى من أى شخص آخر .

— ٢ —

كانت مكتبة جدى هى غرفة دراستى وموجهة حياتى ، فكان فيها من كتب التاريخ ما أثار اهتمامى لا سيما أن لأسرتى فى التاريخ الإنجليزى مكاناً ظاهراً منذ أوائل القرن السادس عشر ، ولقد درست

التاريخ الإنجليزى على أنه صراع الشعب ضد الملك بغية الحصول على الحرية الدستورية ، وأحسست بإعجاب خاص نحو « وليم لورد رسل » الذى أعدم فى حكم شارل الثانى ، ونتيجة هذه الدراسة فى نفسى هى عقيدتى بأن الثورة ـ كائنة ما كانت ـ كثيراً ما تكون فى ذاتها حقيقة بالثناء .

— ٣ —

وذهب رسل إلى كيمبردج فانفتح أمامه عالم جديد من نشوة ليس لها حدود ، فكان إذا صرح بفكرة صادف عند السامعين قبولا ، أو كان رأيه ـ على الأقل ـ جديراً بالنظر . وكان وايتهد هو الذى اختبره فى امتحان الدخول ، وقد ذكر لكثير ممن يكبرونني بعام أو عامين ، وكان من نتيجة ذلك أنه لم يمض أسبوع واحد حتى التقى بمن أصبحوا بعد ذلك أصدقاء العمر كله ، كان وايتهد عندئذ فى الجامعة « زميلا » و « محاضرا » ـ وكان كما يصفه رسل ـ طيب القلب إلى حد يدعو إلى الدهشة لكنه يكبره بعدد كبير من السنين بحيث لم يكن مستطاعا أن يتخذ منه صديقاً قريباً إلا بعد أن إنقضت بضع سنين والتقى بكثيرين ممن كانوا فى مثل سنه ، يتميزون بقدرتهم العقلية وتحمسهم وأخذهم الأمور مأخذ الجد ، وكانوا يتناولون

باهتمامهم أموراً كثيرة خارج نطاق عملهم الجامعى ، فيولعون بالشعر والفلسفة ويناقشون السياسة والأخلاق وشتى نواحى العالم الفكرى « فكنا نجتمع أماسى السبت للدخل فى مناقشات تطول حتى ساعة متأخرة من الليل ، ثم نلتقى على إفطار متأخر صباح الأحد ، ثم نخرج معا للمشى بقية اليوم » . . . .

— ٤ —

وغادر كيمبردج عام ١٨٩٤ وأنفق بعد ذلك زمناً طويلا خارج بلاده ، فلبضعة أشهر من عام ١٨٩٤ ، اشتغل ملحقا شرفيا فى السفارة البريطانية بباريس، وإذا سألناه عن سبب تركه العمل فى السلك السياسى قال ساخراً : لقد كان من واجباتى فى السلك السياسى أن انسخ الرسائل المطولة لإقناع الحكومة الفرنسية بأن جراد البحر «اللوبستر» ليس من فصيلة السمك ، وقد أجابت الحكومة الفرنسية بأنه كان من السمك فى ١٧١٣ ، أى فى السنة التى عقدت فيها معاهدة أوترخت وهكذا لم يجد فى نفسه رغبة للاستمرار فى العمل بالسلك السياسى فترك السفارة فى ديسمبر ١٨٩٤ ، وعندئذ تزوج ، وقضى الشطر الأكبر من ١٨٩٥ فى برلين يدرس الاقتصاد والديمقراطية الاشتراكية الألمانية « ولما كانت زوجة سفيرنا هناك ابنة عمى ، فقد دعيت مع

زوجتى إلى عشاء فى السفارة ، لكن زوجتى ذكرت فى الحديث إننا قد حضرنا اجتماعا اشتراكيا ، فأغلقت السفارة البريطانية بعدئذ من دوننا أبوابها !

— ٥ —

كان رسل يرى فى الاشتراكية ما يصف عللنا الاقتصادية والسياسية وما يدل على العلاج .. فالداء عنده هو الملكية الخاصة والدواء هو الاشتراكية .

إن الملكية الخاصة إنما نشأت من أعمال العنف والسرقة وها نحن نرى فى مناجم الماس فى كامبرلى ومناجم الذهب فى راند السرقة تتحول إلى ملكية تحت بصر العالم وإنه لا ينتج للجماعة من وراء الملكية الخاصة للأرض خير كائناً ما كان . ولو أصغى الناس لحكم العقل لأبطلوا هذه الملكية غداً دون أن يعوضوا المالكين شيئاً أكثر من دخل معتدل .

ولما كانت الملكية الخاصة تحميها الدولة ، والسرقات التى تتألف منها الملكية يقدسها التشريع وتؤيدها الأسلحة والحروب

فالدولة شر عظيم وخير لنا إذن أن نسلبها معظم وظائفها لنلقى بها إلى نقابات التعاون وإلى المنتجين .

إن المجتمع عامل قوى على هدم شخصيه الفرد وسحقها فالحرية هى الخير الأسمى لأنها السبيل الوحيد إلى صيانة تلك الشخصية فلقد تعقدت الحياة وتعقد العلم حتى أصبحنا لا نستطيع أن نسلك طريقنا إلى الحقيقة وسط ما يحيط بنا من أغلاط وأوهام إلا للنقاش الحر فمن صالح الناس أن يختلفوا فى الرأى ، بل إن واجب المعلمين أن يدب بينهم هذا الخلاف وان يشتد لعله ينتج لنا رأيا ناضجا ذكيا يزيد من حكمة الإنسان فلا يعود سريع الاستجابة لدعوة الحرب والقتال لأن الحروب ترجع إلى حد كبير إلى الآراء الجامدة والعقائد الموروثة .

— ٦ —

وهذا يؤدى بنا إلى الجهاد الحافل بالأمجاد الذى شنه برتراند رسل على الحرب وتحمل فى سبيله من الأهوال ما سلكه فى عداد أبطال السلام الذين مروا بالعالم على مدى التاريخ. فبعد نشوب الحرب العالمية الأولى كان له نشاط ملحوظ فى حركة مقاومة التجنيد الاجبارى فقبض عليه وحكم عليه بغرامة قدرها ١٠٠ جنيه لأنه أصدر

نشرة ينتقد فيها الحكم على احد معارضى التجنيد بالسجن سنتين وقد بيعت مكتبته للوفاء بهذه الغرامة وفصلته كليته من وظيفة مدرس وهذا أمر ملفت للنظر حقا .. أن يعجز لورد برتراند رسل عن دفع ١٠٠ جنيه ولكنه كان قد تنازل عن لقبه ولم يعترف بنظام الوراثة وظل حتى يومنا هذا يرفض أن يدعى بلورد برتراند رسل ويفضل دائما أن يسمى برتراند رسل مجردة من الألقاب .

فلما فصل من وظيفته عرض عليه العمل بجامعة هارفارد بأمريكا ولكن الحكومة البريطانية لم تمنحه جواز سفر وأزمع إلقاء سلسلة محاضرات ولكن السلطات العسكرية منعته من القائها وقد أتيح لهذه المحاضرات أن تنشر فيما بعد بأمريكا عام ١٩١٨ بعنوان « مثل عليا فى السياسة » وفى هذا العام نفسه حكم عليه بالسجن ستة أشهر لأنه نشر مقالا يحبذ السلم فى مجلة تريبونال ، وفى السجن ألف كتابه الرائع « مقدمة » للفلسفة الرياضية » .

— ٧ —

وظل رسل بعد أن جاوز التسعين من عمره علما من أعلام الفكر الحديث ، ولا زال نشاطه العقلى والفكرى ملء اسماع العالم

وقد عنى فى السنوات الأخيرة بعد الحرب العالمية الثانية بتبيان أثر التقدم العلمى على مستقبل البشرية واتصل فى ذلك بأئمة الفكر والعلم فى كل أنحاء العالم وشهد فى صيف عام ١٩٥٥ مؤتمرا عالميا فى لندن دعى فيه إلى نبذ الأسلحة النووية وحذر من خطرها المادى والمعنوى على الإنسانية واشترك مع اينشتين وغيره من كبار المفكرين العالم فى كتابه نداء بهذا المعنى بشأن القنابل الذرية والهيدروجينية .

وما أكثر ما كتبه رسل عن الحرب والسلام وخطر القنبلة الذرية والهيدروجينية والتفكير فى إقرار السلام عن طريق البحوث الاجتماعية والسيكلوجية ومن أمثلة تحليله النفسى لبعض أسباب نشوب الحرب ما قاله فى الإجابة على سؤال وجهه إليه مستر ويات ممثل التليفزيون البريطانى .

قال المذيع : هل تعتقد يامستر رسل أن الناس ينعمون بالحرب ويستمتعون بها ؟

فأجاب رسل : لاشك أن عدداً كبيراً يحبون الحرب ، ولم أكن أعرف هذه الحقيقة حتى صدمتنى صدمة أليمة عام ١٩١٤ حين نشبت الحرب العالمية الأولى فقد كنت أنا وجميع زملائى من جماعة أنصار السلام نعتقد أن الحرب إنما تفرضها على الشعوب أجهزة

حكومية خبيثة . ولـكنى فى ذلك اليوم تجولت فى شوارع لندن وتأملت فى وجوه الناس فما كان أشد عجبى حين لاحظت أن الناس قد أصبحوا فعلا أسعد حالا مما كانوا عليه قبل نشوب الحرب . ولا زلت أعتقد أن عددا كبيرا جدا من الناس يرحبون بنشوب الحرب بشرط ألا تـكون بالقرب منهم وألا تـكون بالغة البشاعة ، أما إذا انتقلت الحرب إلى أراضى بلادك فإنها لا تعود لعبة ممتعة .

فسأله المذيع : إذا كان هناك عدد كبير من الناس يستمتعون بالحروب فماذا عساهم يفعلون بمشاعرهم العدوانية إذا لم تعد هناك حروب ؟

فاجاب رسل : اعتقد أن مشاعرهم ليست عدوانية فى جوهرها ولـكنها تنطوى على حب المغامرة وعندى انه من أهم الأمور أن تتاح الفرص أمام الناس لـكى يغامروا ، وبخاصة من طبعوا على المغامرة فتسهل لهم سبيل تسلق الجبال دون نفقة كبيرة ونتيح لهم السفر إلى القطب الشمالى والقطب الجنوبى إذا أرادوا وباختصار نيسر لهم كل سبيل للمغامرة .

فسأل المذيع : ولـكن أليس القتال جزءا من الطبيعة البشرية ؟

فأجاب رسل : الواقع انى لا أعرف المقصود بالطبيعة البشرية .. ولكنك إذا قارنت بين كلب مستأنس وذئب متوحش ادركت مدى ما يستطيع التدريب أن يصنع . فالكلب المستأنس مخلوق مريح لطيف لا ينبح إلا قليلا وقد يعض ساعى البريد لكنه على العموم لا خطر منه بينما الذئب شىء مختلف تماماً وأنت تستطيع أن تصنع نفس الصنيع مع الكائنات البشرية .

فالكائنات البشرية تتكيف وتتطور بالطريقة التى يعاملون بها وأظن أنه من السخف ان اعتقد أن الطبيعة البشرية لا تتغير .

فسال المذيع : ولكن ظللنا زمنا طويلا نحاول اقناع الناس بالكف عن الحروب ومع ذلك فلم ننجح إلا نجاحا يسيرا .

فاجاب رسل : اننا لا نحاول اقناعهم وقليلون جدا هم الذين حاولوا هذا الإقناع ويحسب بعض الناس أن أهل السويد كان من الخير لهم أن يشتركوا فى حرب من الحروب ولكنى لا اجد اى مبرر لذلك ، فما اكثر الدول التى خاضت غمار الحروب وما اشقى هذه الدول إذا قورنت بالسويد .

فسأل المذيع : هل تعتقد أنه إذا نشبت حرب الآن أن يحتشد

سكان لندن فى ميدان الطرف الأغر كما كانوا يفعلون دائما ؟

فأجاب : أعتقد انهم سيفعلون فميدان الطرف الأغر قريب والوصول إليه سهل فاعتقد من هذه الناحية أنهم سيذهبون إليه ، إن جماهير الناس تحتشد فى ميدان الطرف الأغر لتصفق وتهلل وهى بهذا تردد صوت الحكومة التى تبعث بهم ليقتلوه ، ولكنى أعتقد أن رواد الطرف الأغر سيقلون عن ذى قبل .

— ٥ —

إن العالم كله يعرف لرسل فضل نضاله من أجل إقرار السلام فقد ظل إلى آخر حياته زعيم جماعة البجواش التى تضم علماء العالم كله تقريباً والذين جمعهم على التعاون من أجل السلام ، والابرار على تبصير حكوماتهم بالأحوال التى تنتظر العالم إذا جرهم حقدهم أو جهلهم إلى الحرب .

ولكن أى ترجمة أمينة لحياة رسل يجب أن تشمل أيضاً الجانب الرياضى والفلسفى الذى يجده كثير من الناس مملا . . والذى نحاول أن نلقى عليه نظرة عامة يقول رسل : لقد كانت تقلقنى الأسس التى تقوم عليها الرياضة منذ اليوم الذى بدأت فيه دراسة إقليدس وعمرى

لم يزد على إحدى عشر عاما ولما أخذت بعد ذلك فى قراءة الفلسفة لم أجد ما يرضينى عند « كانت » أو عند التجريبيين فلم اطمئن لقول « كانت » عن القضية الرياضية انها قبلية تركيبية . ولا رضيت بما قاله التجريبيون من أن علم الحساب مؤلف من تعميمات جاءتنا بها التجربة ، وذهبت إلى ذلك المؤتمر فى باريس، فتأثرت بما لمسته خلال المناقشات من دقة عند « بيانو » وتلاميذه ، وهى دقة لم أجدها فى سواهم ، فطلبت منه أن يطلعنى على مؤلفاته فاستجاب ولم أكد أدرس فكرته دراسة شاملة حتى رأيتها توسع نطاق الدقة التى الفناها فى الرياضيات بحيث تشمل موضوعات أخرى ظلت حتى ذلك الحين نهبا للغموض الفلسفى فأقمت بنائى على الأساس الذى وضعه بيانو ، وأضفت من عنده فكرة « الملاقات » ولحسن حظى وجدت وايتهد راضيا عن منهج البحث الجديد مدركا لأهميته فلم نلبث إلا قليلا حتى بدأنا نتعاون معاً على تحليل موضوعات معينة كتعريف التسلسل والاعداد الأصلية والأعداد الترتيبيه ، ورد الحساب إلى أصول فى المنطق وقد أصبنا فى التوفيق نجاحا سريعا بعد نجاح لمدة عام تقريبا .

وكان « نصل اوكام » فى صورته الأولى ميتافيزيقيا ، إذ كان

مبدأ يراد به الاقتصاد فى عدد الكائنات بمعنى أن كل كائن يمكن الاستغناء عن افتراض وجوده فلابد من بتر الزائده بنصل ، وكنت انظر إلى « نصل اوكام » . . ومازلت أنظر إليه . . هذه النظرة أثناء اشتغالى بكتاب « أسس الرياضة » (البرنكيبيا ماثماتكا) فعند أفلاطون أن الأعداد الأصلية (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ . . .) كائنات قائمة بذواتها ، غير أنها كائنات لازمة ، وهى هكذا فى كتاب فريجة « أصول الحساب » فلما انتهى إلى تحليل العدد إلى فئة من الفئات ، ثم لما تبينت أن الرموز الدالة على فئات إنما هى « رموز ناقصة» أى انها ليست بذات معنى فى ذاتها ، ولا يكون لها مدلولها إلا إذا جاءت جزءا من عبارة .

آمنت بانه ليس ثمة ضرورة عقلية تحتم علينا أن نجعل الأعداد الأصلية كائنات مستقلة بذواتها ولم يكن برهانى قائما على شىء من الميتافيزيقا، بل جعلت أساس البحث شيئا آخر، هو ما اسميه (بالألفاظ الأولية)أعنى الحد الأدنى من الكلمات التى يمكن جعلها أساساً لكل علم من العلوم ، وهى الكلمات التى لاتعنى منها واحدة عن أخرى ، ولا يمكن تعريف واحدة بواسطة أخرى اضرب لذلك مثلا ما صنعه (بيانو) حين ارجع لغة علم الحساب كلها إلى ألفاظ أولية ثلاثة

فجاء بعده (فيرنجة) كما جاء كذلك كتابنا فى أسس الرياضة (برنكبيا ماثماتكا) وأوضحنا كيف أنه حتى هذه الألفاظ الثلاثة لا ضرورة لافتراضها أساساً نقيم عليه بناء العلوم الرياضية ، أو يمكن ردها وتحليلها إلى الألفاظ الأولية اللازمة لبناء علم المنطق ، وبهذا تصبح الرياضة استمرارا للمنطق .

ويكون كلاهما قائما على مجموعة واحدة معينة من الألفاظ الأولية هى التى لا بد منها للسير فى قضايا المنطق أولا فقضايا الرياضة بعد ذلك. وهكذا ترى استغناءنا عن افتراض وجود الأعداد ككائنات قائمة بذواتها ، وردها إلى ألفاظ أولية مستخدمة فى علم المنطق ، ترى كل ذلك قائما على تحليل منطقى لا شأن له بالميتافيزيقا ومجالها .

لقد كان رسل يحب الرياضيات لأنها تتصف بموضوعية لا دخل للشخصية فيها . ففيها وحدها الحقيقة الخالدة والمعرفة المطلقة ، فينبغى أن تكون غاية الفلسفة أن تشبه الرياضيات فى كمالها بان تفيد نفسها باقوال لها من الدقة ما للرياضة .. فلا يجوز لفروض الفلسفة أن تتعلق باشياء بل يكفى أن تبحث فيما بين الأشياء من صلات ، لأنها يجب أن تكون مستقلة عن الحقائق الفردية والحوادث الجزئية ،

حتى لو تبدل كل جزئى فى العالم وتغيرت كل أحداثه لظلت تلك الفروض الفلسفية صحيحة كما هى .

— ٩ —

وكان رسل إلى جانب غزواته فى الرياضة والفلسفة . . من أكبر شراح الطريقة العلمية فى التفكير وقد أصدر فى هـذا كتابا ترجمته إلى العربية باسم «النظرة العلمية» وهو يقول فى هذا الكتاب :

ان الطريقة العملية على بساطة روحها لم تكتسب إلا بمشقة بالغة ولا يزال من يستخدمونها قلة من الناس ، وحتى هذا القلة تقصر استخدامها على قله من المسائل التى تحكم عليها . ولو أنك تعرف جهبذا من جهابذة العلم ، قد اعتاد الدقة الكمية التامة فى تجاربه ، والمهارة اللماحة فيما يخلص منها إليه ، فانك تستطيع أن تجرى عليه تجربة لن تضيع سدى فى غالب الظن ، فلتناقشه فى السياسة الحزبية أو اللاهوت أو ضريبة الدخل أو سماسرة المنازل أو شقق الطبقات العاملة أو ما شابه ذلك من الموضوعات ولتكن على شبه يقين من أنه لن يمضى وقت قصير حتى ينفجر انفجارا ، وأنك ستستمع إليه يدلى بآراء لم تتثبت قط ، فى تعصب لا يبديه مطلقا إزاء النتائج الممحصة لتجاربه العملية .

يدلنا هـــذا المثال على أن السلوك العلمى غير طبيعى بالنسبة للانسان إلى حد ما . فمعظم آرائنا هى من قبيل تحقيق الرغبة ، من قبيل تفكير التمنى .. وذهن أشدنا تعقلا أشبه ببحر عاصف من المعتقدات العاطفيه التى ترتكز على الهوى ، يطفو عليه عـدد قليل جداً من القوارب الثقيلة المحملة بالمعتقدات التى ثبتت علميا .. وليس لنا أن نأسى على ذلك فإن الحياة لا بد لنا أن نحياها ، وليس لدينا وقت يتسع لأن نختبر بعقولنا كل المعتقدات التى تنظم سلوكنا .

ويقول فى وصف الطريقة العلمية :

أننا لكى نصل إلى قانون علمى يجب أن نمر بثلاث مراحل رئيسية : الأولى ملاحظة الحقائق ذات الدلالة ، والثانية الوصول على فرض يفسر الحقائق ان صح والثالثة أن نستنبط من هذا الفرض بطريقة القياس نتائج يمكن اختبارها بالملاحظة ، فإذا ثبتت صحة النتائج ، قبـل الفرض مؤقتاً على أنه فرض صحيح وإن كان فى العادة يحتاج إلى اجراء تعديل فيه فيما بعـد نتيجة لكشف حقائق جديدة . لا تقف حقائق أو فروض فى عزلة ، وإنما هى توجد فى الأطار العام للمعرفة العلمية وأهمية حقيقه من الحقائق إنما تقاس بالنسبة إلى هذه المعرفة ، وإذا قلت إن حقيقة مالها أهمية فى العلم ،

كان معنى ذلك إنها تساعد على اثبات أودحض قانون عام ، ذلك بأن العلم مع انه يبدأ بملاحظة الخاص فهو لا يعنى فى جوهره بالخاص ، بل بالعام ، والحقيقة فى العالم ليست مجرد حقيقة ، بل هى مثال وفى ذلك يختلف العلم عن الفن فان الفنان لو تطا من فلاحظ الحقائق على الأطلاق لـكان من المرجح ان يلاحظها فى كل خصوصياتها ، والعلم فى مثاليته النهائية يتـكون من مجموعة من القضايا ، بعضها فوق بعض درجات ، أدناها ما تعلق بالحقائق الخاصة ، واسماها ما تعلق بقانون عام يصدق على كل شيء فى الـكون ، والمستويات المختلفة للحقائق ترتبط بعضها ببعض بعلاقتين منطقيتين ، احداهما صاعدة والأخرى هابطة والعلاقة الصاعدة علاقة استقرائية ، والهابطة علاقة قياسية .
ومعنى ذلك أننا فى التحقيق العلمى ينبغى أن نسير على الوجه الآتى : الحقائق الفردية ا ، ب ، ج ، د ، الخ توحى باحتمال عمل قانون عام وتـكون كلها أمثلة له ، وتوحى مجموعة من الحقائق بقانون عام آخر هكذا .

وكل هذه القوانين توحى بالطريقة الاستقرائية ، بقانون أعلى مرتبة فى التعميم ، فان صح كانت له هذه القوانين العامة مجرد أمثلة ، وستـكون هناك مراحل كثيرة من هذا القبيل فى الانتقال من الحقائق الخاصة المدركة بالملاحظة ، إلى أشد القوانين فى عموميتها ، ومن هذا

القانون العام نبدأ هابطين ثانية ، بطريق القياس حتى نصل إلى الحقائق الخاصـة التى بدأ منها استقراؤنا السابق . . والنظام الاستقرائى مكانه المعمل . والعلم الوحيد الذى اقترب شيئاً من هذا الـكمال هو علم الطبيعة .

وبعد أن يصف الطريقة العلمية وما أدت إليه من نشأة العلم وانتصاراته يصف المجتمع العلمى ، المجتمع الذى سينشأ لو قدر للتكنيك العلمى أن يحكم دون تعقيب . فنلاحظ أن بعض المعالم التى يتمناها الجميع قد امتزج مزجا لا خلاص منه بمعالم كريهة وتمخض الأمر كله عن (العالم الجرىء الجديد) الذى صوره الدوس هكسلى فى روايته المعروفة . حيث كل شىء تحـكمه الآلة وحيث لا مكان للعواطف البشرية ولا للقيم الموروثة ولا للأدب ولا تلقى للفن . ذلك أن العلم من حيث هو بحث عن المعرفة أمر مستحب .

والنزعة إلى التنبؤ العلمى نزعة طيبة إن هى لم تتعارض مع غيرها من النزعات الـكبرى التى تضفى القيمة على الحياة .. ولـكن إذا أتيح لها أن تـكبت كل شىء إلا نفسها ، أصبحت صورة قاسية من صور الطغيان . ويخشى رسل من أن يتعرض العالم لطغيان من هذا النوع .

إن العلم فى خلال قرون تاريخه القليلة قد نما نمواً داخلياً لعله لم يكتمل بعد . وهذا النمو هو الانتقال من التأمل إلى التحكم ، فنحن قد نلتمس المعرفة بشيء من الأشياء لأننا نحب هذا الشيء أو لأننا نحب أن نسيطر عليه وقد طغى باعث السيطرة طغياناً متزايداً على باعث الحب فى خلال تقدم العلم ، إن العلم يمنح أدوات بالغة القوة لمن ينشد تغيير بيئته ، ولو كانت المعرفة هى مجرد المقدرة على إحداث تغييرات متعمدة فالعلم يمنحنا المعرفة فى سخاء .

ولكن الرغبة فى المعرفه لها صورة أخرى ، تنتمى إلى مجموعة من العواطف تختلف عن تلك التى أسلفنا تمام الاختلاف . فالصوفى والعاشق والشاعر كلهم ينشد المعرفة — ولعلهم ليسوا من الباحثين الناجحين ، ولكن هذا لا يجعلهم أقل جدارة بالاحترام . وفى كل صور الحب نريد معرفة من نحب ، لا طلباً للسيطرة ، بل التماساً للنشوة التى يبعثها التأمل .

فحيثما يبعث فينا شيء من الأشياء نشوة ، أو سروراً ، أو حبا رغبنا معرفة هذا الشيء .. لا معرفة علمية قصد إحالته شيئاً آخر ، بل معرفة عن طريق البصيرة لأنه بنفسه ولنفسه يضفى السعادة على العاشق . ويوجد الباعث على هذا النوع من المعرفة فى الحب الجنسى

كما فى صور الحب الأخرى ، هذا ما لم يكن الحب جسديا عمليا خالصا.

— ١٠ —

لقد كان العلم فى بدايته راجعا إلى الرجال الذين أحبوا العالم ، كانوا يسرحون أبصارهم فى جمال النجوم والبحر ، والريح والجبل ، وكان من أثر حبهم إياها أن عقدت بها أفكارهم ، فرغبوا فى فهمها على نحو أدق مما ينتجه مجرد التأمل الخارجى ، لقد كانو رجالا أولى عقل عاطفى جبار ... بيد أنه فى أثناء نمو العلم أخذ باعث السيطرة يغلب باعث الحب على أمره على أساس ما أحرزه من نجاح لم يكن يخطر لأحد ببال .

ولما خاب أمل رجل العلم فى أن يكون عاشقا للطبيعة فقد انقلب عليها طاغية جباراً . من أجل هذا ينبغى أن ينظر إلى مستقبل المجتمع العلمى فى توجس .. فالمجتمع العلمى فى صورته الخالصة لا يتسق مع البحث عن الحقيقة ، ولا مع الحب ، ولا مع الفن ، ولا مع المتعة الخالصة . وليست المعرفة مصدر هذه الأخطار ، فالمعرفة خير والجهالة شر ... ليس يكمن الخطر كذلك فى المقدرة فى ذاتها ولذاتها ، وإنما يكمن فى المقدرة التى تنال من أجل المقدرة ، لا المقدرة من أجل الخير

الخالص . وليست المقدرة من غايات الحياة . بل هى وسيلة إلى غايات أخرى . وحتى يتذكر الناس الغايات التي ينبغى للمقدرة أن تخدمها، فان يتاح للعلم أن يصنع ما هو قادر عليه فى خدمة الحياة الطيبة ، ولكن القارىء سيتساءل وما هى إذن غايات الحياة ؟

— ١١ —

إنى لا أعتقد أن ليس من حق أحد الناس أن يشرع لغيره فى هذا الشأن . فغايات الحياة بالنسبة لكل فرد هى تلك الأشياء التى يرغبها رغبة عميقة والتى يجلب وجودها البهجة والسرور والمتعة . إن المعرفة إذا كانت واسعة دقيقة دقيقة جلبت معها ادراكاً للبعيد عن الزمان والمكان ، وإن الفرد ليس شيئاً تناهت إليه المقدرة والخطر ، فتجلت له القيم أكثر وضوحاً مما تتبين لصاحب النظر القصير . وحياة الوجدان أهم من المعرفة ذاتها ، فالعالم بغير بهجة وغير حب هو عالم تجرد من القيم . ان هذه الحقيقة يجب أن يذكرها مطبق العلم ، ولو قد فعل لكان عمله خيراً خالصا ، وكل ما يطلب إنما هو ألا تسكر الناس خمر المقدرة الجديدة ، فيعيشون تحت تأثيرها . وينسون الحقائق التى كانت معروفة لكل جيل خلا من قبلهم ، فليست كل الحكمة جديدة ولا كل الحماقة قديمة .

— ١٢ —

ويطبق رسل الطريقة العلمية فى التفكير على المشكلة التى شغلته طول حياته، مشكلة إقرار السلام . فقد رسم برتراند رسل الطريق إلى السلام فى مقال نشر مع مجموعة من مقالات قادة الفكر والعلم فى العالم لتبصير الشعوب والحكومات بالأخطار المحدقة بهم من جراء ظهور الأسلحة النووية وقد ترجمت هذا الكتاب إلى العربية بالاشتراك مع الدكتور إبراهيم حلمى عبدالرحمن وصدر الكتاب باسم (السلام العالمى فى العصر الذرى) وقد ذكر فى هذا المقال أن على البشر أن يختار بين أمرين لا ثالث لهما : السلام عن طريق الموت الشامل ـ أو السلام عن طريق الاتفاق ـ إذ لم يعد أمام أى جانب من الجانبين المتنازعين فرصة للنصر بالمعنى الذى كان يفهم من هذه الكلمة حتى الآن ، والحرب العلمية إذا أطلق لها العنان فلن تدع أحداً على قيد الحياة، وعلى الدول الكبرى أن تدرك أن الحرب لا تحقق لها أى هدف ، وعليها أيضاً أن لا تدع العنان للشك فى أن الطرف الآخر يستعد لحرب عدوانية .

وينبغى أن يدعى علماء العالم أجمع إلى الاشتراك فى إعداد تقرير يتناول ما يتوقع من آثار الحرب الهيدروجينية إذا قدر لها أن تنشب

وسيظهر بجلاء أن الحرب الهيدروجينية ستترك الأرض كوكباً خلواً من الحياة ولا نعتقد أن أية حكومة تتمنى للعالم هذا المصير .

وبعد إذاعة هذا التقرير العلمى فى كل أنحاء العالم يأتى واجب الدول المحايدة فتقوم إحدى الحكومات المحايدة التى يثق بها الطرفان بدعوة الدول الكبرى إلى إبداء رأيها فى التقرير وعندئذ تستطيع الحكومات الشيوعية أن تعترف بحكومة الدولة المحايدة بأن الحرب لم تعد صالحة لعلاج المشاكل السياسية .

إن على حكام الدول القوية أن يصارح بعضهم بعضا لو أنهم تحرروا من الكبر والشك والخجل . فإذا اعترف الطرفان المتنازعان بضرورة إقرار السلم ، ولم يكن اعترافهم فى خطب الدعاية فحسب ، بل وفى العمل الفعال ، فوضعوا إقرار السلم أساساً لسياستهم ، فإن تصرفات الحكومات وتفكير شعوبها ستعتريهما بعض التغييرات فى النظرة إلى الأمور ، ويعتقد الناس فى أمريكا كما يعتقدون فى روسيا والصين بتفوق فلسفتهم بحيث تعتقد كل أمة أنها ستغزو العالم كله مع الزمن ، ويجب أن يتخلى الطرفان عن مثل هذه الآمال التى لا تستند إلى دليل .

والرأى العام فى الغرب مصاب بخطأين متعارضين :

فالرجعيون الأمريكيون يغضبون من العلماء إذا نوهوا بالتلف الذى قد تحدثه القنبلة الهيدرجينية فى أمريكا بينما هم يقيمون سياستهم كلها على أن القنبلة الهيدروجينية ستنزل أضراراً فادحة بروسيا والصين وتسير الحكومتان الروسية والصينية على نفس السياسة تقريباً فكل منهما تصر فى غلطه أن أسلحتها الذووية القوية ستفتك بأعدائها، وأما هى فلن تتعرض إلا لخطر يسير والعجيب أن بعض الشعوب قد انخدعوا بذلك فظنوا أن القنبلة الهيدروجينية ستكون دماراً وخراباً على الجانب الآخر . وأما على هذا الجانب فستكون برداً وسلاما .

ويجب أن يؤخذ فى الاعتبار أمران أولهما : أن هذه الأسلحة يمكن أن تصنع الآن بدرجة من السرية والكتمان تستعصى على الاكتشاف. والأمر الثانى : أنه حتى بفرض امتناع كل من الطرفين عن صنع مثل هذه الأسلحة حينما يسود السلم الظاهرى فلن يشعر أى طرف من الطرفين بأن عليه التزام إذا نشبت الحرب الفعلية .

ويخدع كثير من الناس أنفسهم إذ يظنون أن القنابل الهيدروجينية لن تستخدم فى الحرب ويدللون على ذلك بعدم استخدام الغازات السامة فى الحرب العالمية الثانية ، وهؤلاء الناس مخدوعون كل الخداع فالسبب فى عدم استخدام الغاز فى الحرب العالمية الثانية هو

أن أثره قد صار غير حاسم لأن الأقنعة تقى من خطره ، أما القنبلة الهيدروجينية فهى سلاح حاسم لم تـكتشف حتى الآن وسيلة لدفع خطره .

وكثيراً ما تساق حجة لا نصيب لهـا من الصحة ، فـكثيراً ما يسألنى الناس ، ألا ترحب بأن تموت دفاعاً عن آرائك ؟ فأجيبهم بأنى أعنى ذلك مخلصاً . فيقولون : أليس واجبنا جميعاً إذن أن نموت دفاعاً عن آرائنا ؟ هذا سخف أى سخف .

إنك إن تمت من أجل رأيك فإنما تموت أملا فى أن ينتفع بذلك الآخرون أما إن كان لن يبقى أحد لينتفع بتضحيتك فإن هذه التضحية لا يكون لها معنى. ولعل أصحاب النزعة الفدائية هؤلاء ينسون أن القنبلة الهيدروجينية لن تقتصر على قتل من يتفقون وإياهم فى الرأى بل ستقتل كذلك كل من لا علاقة لهم بالسياسة بما فى ذلك الأطفال والجيران، ولست أرى أى نبل أو شهامة فى أن تقضى على كل هؤلاء إشباعاً لتعصبك، ولست أعنى بذلك أنه ينبغى المحافظة على السلم بالخنوع والاستسلام ، وذلك لسببين . أولهما : أن هذا ليس من السياسة العملية فى شىء، وثانيهما: أنى أفضل السلم الذى يتم عن طريق الاتفاق وأراه ممكن التحقيق .

إنه لا حل لمشكلة الحرب والسلام إلا بإقامة حكومة عالمية ، وستجد هذه الحكومة أمامها بعض المشكلات الاقتصادية العويصة إذ توجد فى الوقت الحاضر اختلافات كبرى فى مستوى المعيشة فى بقاع العالم ، ولسوف تستعصى أجزاء العالم الفقيرة على الخضوع للمنظمة الدولية ما لم تسرع تلك المنظمة فى العمل الواضح الجدى لرفع مستوى المعيشة ، وبغير ذلك سيؤدى الحسد الاقتصادى إلى بث روح البغضاء ، ولست أدرى حلا لهذه المشكلة . ولكن يجب أن يتضح للأذهان أنه لا يمكن أن يكون أى نوع من التوازن المستقر الثابت فى عالم تغشاه الفروق الكبرى ، التى تبعث على الغطرسة الوقحة من جانب الأغنياء ، وكراهة الظلم من جانب الفقراء .

إننا نستطيع أن نعيش معاً أو نموت معاً . وإنى لعميق الاقتناع بأن المؤمنين بهذه الفكرة لوا أخلصوا أنفسهم ونشاطهم لحملوا العالم على وعيها وإدراكها. إن الشيوعى وغيره سواء فى إيثار الحياة على الموت، لذا يجب أن نحتفظ بأملنا فى إقرار سلام دائم حتى تحتفل شعوب الأرض بغروب عهد التقتيل المنظم ، وشروق عهد أسعد من كل العصور التى مرت بالإنسان .

- ١٣ -

وبعد أن أشرنا إلى رياضيات رسل ومنهجه فى التفكير ، ونظرته العلمية ، نريد أن نعود بك إلى رسل الإنسان الذى امتاز عن سائر المفكرين والفلاسفة بمشاركته فى الحياة اليومية ومشكلاتها بروح الإنسان المرهف الرقيق الحس .

سأله المذيع : لورد رسل، يبدو عليك أنك رجل سعيد جداً،هل كنت دائماً هكذا؟

فأجاب : بالطبع لا، فقد مرت على فترات سعيدة وفترات تعسة. من حسن حظى أن فترات السعادة تطول كلما تقدمت فى السن .

ـ ما هى العناصر التى تتألف منها السعادة ؟

ـ أربعة عناصر، وأهمها : أولها الصحة ـ وثانيها قدر من المال يقيك الحاجة ، وثالثها : حسن العلاقات الشخصية ـ ورابعها : النجاح فى العمل .

ـ ولكن لماذا تعطى الصحة كل هذه الأهمية ؟

ـ أعتقد أن بعض الأمراض تحول بين المرء وبين سعادته ، هى تؤثر فى العقل وتجعلك تعساً . إنك تستطيع الصبر على بعض

الأمراض دون البعض الآخر .

ـ وماذا عن الدخل ؟

ـ إنه يعتمد على المستوى الذى تعودت عليه، فإذا تعودت على حياة الفقر لم تـكن بحاجة إلى قدر كبير من المال ـ وإذا تعودت على حياة الغنى شعرت بالتعاسة ما لم يكن لك دخل كبير جداً. فالأمر كله مسألة تعود فيما أعتقد ، ولـكن هذا قد يؤدى بالشخص إلى الانزلاق إلى بحث مجنون عن المال ، ولـكن تـكدس المال فى خزائنك لا يؤدى بالضرورة إلى سعادتك ، فالمهم هو الحد الأدنى للاحتياجات وألا تـكون بحاجة إلى التفـكير دائماً فى مسألة المال ، فإنك لو أدمنت التفـكير فيه أصابك القلق .

ونأتى إلى العنصر الثالث وهو العلاقات الشخصية فيسأله المذيع :

ـ ماذا يعنى بالعلاقات الشخصية ؟

ـ فقال إن ما يقصد المرء عادة بالعلاقات الشخصية هو الصداقة والحب وعلاقة الأب بأطفاله ، كل هذه العلاقات الوثيقة الحميمة ، فإذا كانت علاقة سيئة جعلت الحياة شاقة جداً .

ـ ولـكن ما مكان العمل فى هذه العناصر ؟ وما أهمية النجاح فى العمل ؟

ـ إنه عنصر فى غاية الأهمية بالنسبة لـكل الناس من ذوى النشاط والطاقة ، فإنك إن كنت نشيطاً وافر الحظ من الطاقة كان لا بد لك من متنفس لطاقتك والعمل هو المتنفس الطبيعى . بطبيعة الحال العمل لا يجعلك سعيداً إذا لم يكن عملا ناجحاً ولـكنه إن إن كان ناجحاً ملأ أيامك بالسعادة ولا يهم أى نوع من العمل يكون بشرط أن تحبه .

ـ ولـكن هل تهم مكانة العمل وعلو درجته ؟

— كلا . . . . هذا يعتمد على مزاج الشخص ، وبعض الناس لا يشعرون بالسعادة إلا إذا اشتغلوا بأعمال ذات ضجيج وشهرة ، وآخرون يستطيعون أن يكونوا سعداء تماماً بغير هذه الأعمال ذات الضجة والضوضاء.. إنها مسألة مزاج ، ولـكن يجب أن يكون عملك من النوع الذى تستطيع قدراتك أن تحقق لك فيه النجاح .

ـ إن ما تقوله قد يوحى أنه من حسن الحظ للمرء أن يكون كسولا فهل الشخص سيقتنع بالقيام بعمل أقل من غيره كثيراً ؟

ـ هذا صحيح ولـكنه لا يجلب نفس القدر من السعادة ، فإن المرء يحصل على سعادة كبرى من نجاحه فى عمل شاق، ولا أعتقد أن الـكسول يحظى بمثل هذه السعادة .

ـ هل تعتقد أن الفلسفة تجلب السعادة ؟

ـ هذا يحدث إذا كنت مولعاً جداً بالفلسفة ومتمكناً منها جداً والواقع أن أى شىء تـكون متمكناً منه يجلب لك السعادة .

ـ وما هى معوقات السعادة ؟

ـ القلق. والواقع أنى قد أصبحت أكثر سعادة كلما كبرت . فالقلق عندى أقل كثيراً مما كان، وإذا انتابنى القلق سألت نفسى ما هو أسوأ شىء يمكن أن يحدث، ثم أفـكر. على كل حال لن يكون الأمر بالغ السوء بعد ١٠٠ سنة من الآن . فلا أهمية له إذا استطعت أن تحمل نفسك على أن تفـكر على هذا النحو، فلن تقلق وإنما يأتى القلق من عدم مواجهة الإمكانيات غير السارة .

ـ وأين تضع الحسد ؟

ـ إنه مصدر مزعج من مصادر التعاسة لعدد كبير من الناس، وأن كثير من الناس لديهم إيراد وفير يكفل لهم السعادة ولـكنهم

يمتلؤن بالحسد لأن غيرهم يملك أكثر مما يملكون .

ـ ولكن ألا يمكن أن يكون الحسد نافعا بمعنى انك إذا غبطت أحد الناس على عمل كنت تتمنى أن تستطيع إتيان مثله فقد يكون هذا حافزا لك على تحسين عملك .

ـ نعم قد يكون ذلك. ولكنه يحفزك أيضاً على ايذاء هذا الشخص فيما اعتقد هناك طريقان للتفوق على الشخص الاخر أولهما :أن تتفوق أنت الآخر والثانى أن تعوق الشخص الآخر حتى لا يتقدم .

ـ هل يصير الشخص أكثر سعادة إذا فهم دوافعه الشخصية فى العمل وبذا يتفادى خداع نفسه ؟

ـ أظن أن هذا يجعل المرء أكثر سعادة إن معظم الناس يحسون أن ما يشعرون به من كراهية لغيرهم من الافراد أو الجماعات أو الأشياء إنما هو صادر عن انسانية نبيلة ومثالية تدفعه إلى ذلك، والواقع غير ذلك ولو أدركوا لكانوا أسعد .

ـ هل تعتقد أنه من الممكن الحصول على السعادة فى أوقات المحنة ؟ السجن مثلا ؟ لقد كنت فى السجن .

ـ نعم قضيت هناك وقتا سعيداً جداً لكن يجب أن تأخذ فى

اعتبارك أنى كنت فى الدرجة الأولى حيث لا تصب العقوبات المعتادة بالسجن ، ولكن على العموم حياة السجن صعبة جداً على رجل يشتغل بالعمل العقلى وهى أسهل كثيراً بالنسبة للعامل اليدوى إلا أن العامل العقلى يحرم كثيراً من حياته العقلية .

ـ هل تعتقد أن مما يسعد المرء أن يكون له هدف ومبدأ يعيش من أجله، وبه ؟

ـ نعم، بشرط أن ينجح إلى حد ما فى ذلك ـ فاعتقد أنه إذ لم ينجح على الإطلاق فمحال أن يكون سعيدا ، ولكن إذا أحرز قدراً من النجاح من آن لآخر فان هذا يساعد على شعوره بالسعادة وأنا أستطرد من هذا إلى شىء آخر وهو الاهتمامات الجانبية وبخاصة حين يتقدم المرء فى السن وهى فى غاية الأهمية للحصول على السعادة ، فكلما كانت اهتماماتك غير شخصية وتتناول فترة زمنية تتجاوز حياتك كلما قل انقباضك لأن حياتك قد قاربت على الانتهاء وأنا أعتبر هذا عنصراً هاماً جداً من عناصر السعادة فى زمن الشيخوخة .

— ١٤ —

وبعد ان أوردنا رأى رسل فى هذه المسائل التى تشغل بال كل

انسان فى حياته الخاصة نعود إلى إجابات رسل عن بعض الأسئلة ذات الطبيعة العامة ... وسنجد ما يثير فينا كثير من العجب حين نرى ابرز فلاسفة القرن العشرين يكفر بالفلسفة ويقول ان العلم قد غزا ميادينها ميدانا بعد آخر . يسأله المذيع : لورد رسل ما هى الفلسفة ؟

— انها مسألة تختلف فيها الآراء أشد الاختلاف ، بحيث لا تكاد تجد فيلسوفين يتفقان فى الاجابة عن هذا السؤال . ورأيى الخاص ان الفلسفه تتالف من تأملات عن الموضوعات التى لم يستطيع المعرفة العلمية ان تحسمها . والفرق بين الفلسفة والعلم هو ما نعلم والفلسفة هى ما لا نعلم هذا تعريف بسيط. ولهذا فان المعارف تنتقل بصفة دائمة من الفلسفة إلى العلم كلما تقدمت المعرفة ، فكلما ثبت امر من الأمور وتم اكتشافه فانه لا يعود فلسفة بل يصبح علما .

— وما فائدة الفلسفة إذن ؟

— لها فائدتان فى رأيى . احداهما الإبقاء على التفكير فى الأشياء التى لم تدركها المعرفة العلمية بعد . فإن المعرفة العلمية لا تغطى إلا جزءاً ضئيلا جدا من الموضوعات التى تهم الجنس البشرى أو التى ينبغى أن تهمه، ولا تزال هناك أمور كثيرة جدا ذات أهمية قصوى لا يكاد العلم يعرف عنها شيئا إلى الآن ، وأنا لا أريد لخيالات الناس

أن تكون محدودة مقصورة على ما يمكننى معرفته الآن . وأعتقد أن من مهمات الفلسفة توسيع نظرتك التخيلية للعالم . ولكن لها فائدة أخرى لا تقل عن هذه أهمية، هى تبيان أن هناك أشياء كنا نظن أننا نعرفها دون أن نعرفها ، ومن جهة أخرى الفلسفة تجعلنا نواظب على التفكير فى أشياء قد نصل إلى معرفتها جميعاً ، ومن جهة أخرى تحفظ علينا تواضعنا حين ندرك مقدار ما نجهل .

— هل يحضرك مثال لنوع من الموضوعات تمخض التأمل فيه عن نتائج مادية فيما بعد ؟

— ليس أسهل من ذلك، ونجاحه مثال من الفلسفة اليونانية . لقد أنشأ الإغريق عدداً ضخما من الفروض لم يمكن اختبارها فى أيامهم ولكنها ثبتت صحتها فيما بعد .

خذ مثلا الفرض الذرى . لقد اخترعه ديمقريطس ومؤداه أن المادة تتكون من ذرات صغيرة وبعد أكثر من ألفى عام ثبت هذا علميا . وكانت على عهد ديمقريطس مجرد ظن من الظنون . خذ مثلا آخر : ارستارخوس الذى كان أول من حسب أن الأرض تدور حول الشمس وليس العكس ، وأن الدورة الظاهرية للاجرام السماوية حول الأرض كل يوم انما ترجع إلى دوران الأرض . وقد ظل هذا

الفرض مدفونا حتى جاء كربرنيين بعد ذلك بألفى سنة .

— ولـكن كيف يحدث ذلك ؟ بالحدس ؟

كلا . فالناس الذين يفكرون فى هـذه الفروض أول الأمر لا يستطيعون القول بأن هذه هى الحقيقة ، بل يقولون أنها قد تـكون الحقيقة . وإذا كانت لك مخيلة علمية طيبة فإنه يخطر لك كل ما قد يكون صحيحا . وهذا هو جوهر العلم ، فأنت أولا تفكر فى شيء قد يكون صحيحا .. ثم تحاول إثبات صحته وفى الغالب لا تثبت هذه الصحة ..

— ما هو إذن الاتجاه الغالب للفلسفة اليوم ؟

— على المرء أن يميز فى هـذا الصدد بين البلاد الناطقة بالانجليزية وبلاد القارة الأوربية . ففى الأولى وبخاصة فى انجلترا نشأت فلسفة جديدة من خلال الرغبة فى إيجاد ميدان للفلسفة تستقل به، وقد أدى هذا إلى ما يمكنك أن تسميه « الفلسفة اللغوية » . وفيها لا يكون همّ الفليسوف هو الإجابة عن أسئلة ، بل توضيح معنى السؤال تماما . وأنا شخصيا لا أوافق على ذلك ولـكنى سأضرب لك مثلا على ذلك : كنت يوما راكبا الدراجة فى طريقى إلى ونشستر

فضللت الطريق فذهبت إلى حانوت بإحـــدى القرى وسألت « اتستطيع أن تدلنى على أقصر الطرق إلى ونشستر » فنادى السامع شخصا وراءه فى مخزن الحانوت ولم أر هذا الرجل الأخير قال له أن السيد يريد أن يعرف أقصر الطرق إلى ونشستر. فأجاب الصوت من خلفه « ونشستر » — هيه — الطريق إلى ونشستر « هيه » أقصر الطرق « هيه » (لست أعرف) وهـكذا اضطررت إلى الانصراف دون الحصول على أى جواب .. هذا ما تريد مدرسة اكسفورد من الفليسوف أن يفعل استجلاء السؤال تماما دون أى اهتمام بالجواب.. إن الجواب من مهمة شخص آخر .

— وما وجه اختلاف هـذا عن طريقة الفلاسفة فى القارة الأوربية ؟

— طريقة هؤلاء الفلاسفة أكثر حياة وأوفر دما . وليس معنى ذلك أنى أكثر إقرارا لهـا ، انها قريبة الشبه بفلسفات العصور الخوالى . هناك أنواع كثيرة من الفلسفة تبعث من نظرة كير كجارد الوجودية . وفضلا من ذلك هناك فلسفات تستهدف تقديم المناقشات الجدلية حول الأديان التقليدية هناك أشياء مختلفة من هذا النوع ولا أظن ان هذا كله شىء له اهمية .

ـ ولـكن ما الفائدة العملية لفلسفتك للرجل الذى يريد أن تسدد خطاه ؟

— إن عدداً كبيراً من الناس يكتبون إلى قائلين إنهم فى حيرة قصوى من أمرهم كيف يكون سلوكهم . لقد كفوا عن قبول الـكليشيهات التقليدية للهداية ولا يعرفون بديلا منها . . . وأعتقد أن فلسفتى مفيدة على هذا النحو إنها تمـكن الناس من التصرف بقوة دون أن يكون لديهم يقين كامل..أن هذا هو التصرف الصحيح. ولا أظن أن من الضرورى أن تـكون على يقين تام من أى شىء وإذا كنت واثقاً فـكن على ثقة من أنك مخطىء ، لأنه ليس ثم ما يستحق أن نثق به كل الوثوق ولهذا ينبغى للمرء دائماً أن يتناول معتقداته بقدر من الشك ، وينبغى له أن يستطيع التصرف القوى برغم هذا الشك. وهذا على أى حال هو ما يصنعه القائد الحربى حين يخطط المعركة إنه ليس على ثقة تامة مما سوف يصنعه العدو ، لـكنه إذا كان قائداً كفئاً لجأ إلى الظن والتخمين وصدق فى ظنه وتخمينه ، وإذا كان قائداً (هاساً) أخطأ فى ظنه وتخمينه ، لـكن فى الحياة العملية يكون على المرء أن يتصرف على أساس الاحتمالات المرجحة ، وأنا أنتظر من الفلسفة أن تشجع الناس على التصرف القوى دون حاجة إلى يقين

كامل . . . وإذا كانت لهم أى دراية بعلم حصلوا على العزم والدافع الذى يعصمهم عن أن يلوذوا بالهزيمة بسبب ما قد يستشعرونه من شك .

— ١٥ —

وينتقد برتراند رسل الاشتراكى كلا من الشيوعية والديمقراطية الغربية فقد سأله المستروبات :

ـ هل تظن أن هناك تشابها بين الشيوعية والرأسمالية ؟

ـ هناك أوجه كثيرة للتشابه بينهما يمكن أن تنجم حتما من التكنيك الحديث . فالتكنيك الحديث يتطلب منظمات بالغة الضخامة ، تدار إدارة مركزية ، ويرسم مواصفات الإدارى الذى يستطيع إدارتها . . . هذا هو الشأن فى البلاد الرأسمالية والبلاد الشيوعية المتقدمة صناعياً .

ـ هل تعتقد أن هذا يجعل الناس فى روسيا وأمريكا مثلا يصبون إلى نفس الأشياء . ـ السيارات ، المكافآت المادية وهكذا ؟

ـ أظن هذا صحيحاً إلى حد كبير ، هناك لغط كثير حول

الروس ووصفهم بالماديين ، والواقع أن معظم الناس ماديون بمعنى أن ما يحتاجونه يستطاع شراؤه بالمال .

لقد تميز برتراند رسل على غيره من الفلاسفة المعاصرين بأنه ـ وهو صاحب المنطق الرياضى ، المغرق فى الكتابة الفلسفية ، قد صار علماً على مبدأ الحرية مما جعل مكانه فى الحياة العقلية لهذا القرن أشبه بمكانة فولتير فى القرن الثامن عشر ومكانة جون ستيورت ميل فى القرن التاسع عشر .

إن هذا الشيخ الذى ولد فى ١٨ مايو ١٨٧٢ ، أى أنه قد قارب المائة عام ، والذى كان فى جامعة كمبردج مثال الطالب الخجول قد صار الآن معجزة من معجزات الجلد العقلى والإيمان بالحياة ، ولا زال يقود علماء العالم ويعنيهم كما يعنى شعوبهم ضد أى انحراف من الساسة قد يؤدى بالعالم إلى كارثة نووية ، وقد لا يعيش رسل حتى يتم رسالته فى إقرار السلام . ولكن دعوته إلى تجنيد علماء العالم لمنع استخدام العلم لدمار البشر وتبصير سكان العالم جميعاً بالأخطار التى ينطوى عليها العصر الذرى سيكون لها أثر كبير جداً فى إقرار السلام فى يوم من الأيام . بعد أن يكون الموت قد طوى ذلك العالم الفذ فى تاريخ البشرية كلها .

جان بول سارتر

— ١٩٠٥

« قال لى سارتر : من الآن فصاعداً سآخذك من يدك . وكان سارتر يقبل على الصداقة مع النساء ، وقد رأيته لأول مرة فى جامعة السربون ، وكان يلبس قبعة ، وكان يتحدث مع واحدة كنت أظن أنها (خبيثة) جدا ، وسرعان ما هجرها وتعرف على ثانية أكثر جمالا ، ولكنها كانت تسبب له كثيرا من الحرج ، وانتهت علاقتهما بالانفصال السريع » .

«وحين حدثه (ايريو) عنى أراد ان يتعرف على.. ولا شك انه الآن سعيد لأنه استطاع الحصول على : أما أنا فإنى أحس أن أى برهة لم أقضها معه ، إنما هى وقت لا يحسب من حياتى» .

هكذا قالت سيمون دى بوفوار فى الكلام عن بداية صداقتها لجان بول سارتر ، تلك الصداقة التى استمرت أكثر من أربعين عاما. على نحو أشبه ما يكون بالزواج ، وأن لم يوثق بعقد مسجل .

وبعد أربعين سنة يسأل أحد الصحفيين سارتر عن سيمون دى بوفوار

س : ما رأيك فى سيمون كامرأة ؟

سارتر : أجدها جميلة ، كما كنت أجدها من قبل ، وحين كانت تضع قبعة صغيرة سخيفة على رأسها كنت ألفت نظرها ، وقد وددت تماماً أن أتعرف عليها لأنها كانت جميلة، وكان لها هذا الوجه الذى يفتننى أن الرائع فى سيمون دى بوفوار ، أن لها ذكاء رجـل ، وحساسية امرأة ، وقد تجدنى فى كلامى هذا عبودياً بعض الشىء » .

« ولعلنى وجدت فى سيمون دى بوفوار كل ما أستطيع تمنيه ، ولذلك لم نختلف إلا على بعض تفاهات ، ففى عام ١٩٣٩ ، اختلفنا فى نابلى لأننا كنا نتناقش حول هذا السؤال : هل من الضرورى إلزام السكان بالبقاء فى البيوت التى تبنى لهم ، أم تترك لهـــم الحرية دون إلزام ؟

وانتهت المناقشة ، بأن صحت فى وجهها (أنت فاشية !) وردت على (وأنت لن تصل فى حياتك إلى شىء . . لا شىء . . لا شىء) .

ترى هل وصل حقاً إلى شىء ؟ هذا ما سنراه فى بقية هذا الفصل.

— ٢ —

إننا نميل دائماً إلى أن نسمى عصرنا عصر العلم ، وإن نقول مع برتراند رسل أن الفلسفة صائرة إلى زوال ، لأن العلم يغزو ميادينها ميداناً بعد ميدان ، فقد ظهرت فى القرن العشرين فلسفة تناهض

فلسفة العلم والطريقة العلمية ، وتستوحى الحدس والبصيرة فى داخل الإنسان على نحو ما كانت تجرى فلسفات عصور ما قبل العلم ، ومن أبرز حملة هذا الاتجاه فى العصر الحاضر فيلسوفنا المسرحى القصاص جان بول سارتر .

— ٣ —

ذلك بأن المعالم الرئيسية للفكر الفلسفى فى القرن التاسع عشر كالمذهب المثالى والمذهب الوضعى وكل ما يدعوان إليه من طرق التفسير العقلانية، كان لها رد فعل شديد. فقد ظهر بعض من أشهر فلاسفة القرن العشرين وأبعدهم تأثيراً يصرون على أهمية ما لدى الإنسان من ملكات غير عقلانية — كالحدس والإدراك المباشر للظواهر والوعى بالتجربة الداخلية — إنهم يرفضون الطريقة العلمية التى سادت فى القرن التاسع عشر لما يشوبها من نظرة مادية وميكانيكية ، كما يرفضون النظرة الجديدة فى القرن العشرين، لاعتمادها على الاحتمالات الإحصائية واهتمامها بالظواهر الجماعية وعجزها عن القاء الضوء على الحالة المتفردة للفرد .

أنهم مهتمون بالحياة وبالإنسان وبخاصة الإنسان الفرد، فى وجه ميكنة الحياة فى المجتمع الصناعى ، والمفاهيم المجردة للعلم. ولقد سار البحث عن الحقيقة عن طريق التجربة المباشرة غير العقلانية فى مسالك شتى ، فهنرى

برجسون (١٨٥٩—١٩٤١) وهو أشهر الفلاسفة الفرنسيين فى الربع الأول من هذا القرن كان يصر على أن الحدس يستطيع أن يتغلغل إلى قلب الحقيقة بينما أبحاث العلم لا تستطيع إلا أن تحيط بها من الخارج ، كأنها قشرة البيضة . وكان يعتقد أن قوة الإرادة تستطيع أن تشكل هـذه الحقيقة على نحو خلاق .

لقد كان برجسون من أنبياء الحرية وكان يعتقد أنها غاية ما وصل إليه بنو الإنسان بفضل (الشرارة الحيوية) وأن الإنسان يتغير خلال الزمن فى عملية التطور الخلاق .

أما الفيلسوف الألمانى الظواهرى موند هوسرل (١٨٥٩–١٩٣٨) فقد ركز عنايته فيما أسماه الظواهر ويعنى بها البناءات كما يراها المشاهد ، كأن يرى المكعب مثلا من زوايا مختلفة بأشكال مختلفة . فأعتقد أن محاولة فحص هذه الظواهر يمكن أن تقوم بها البصيرة الداخلية للذات ، ومن عجيب الأمر أن فيلسوفا علميا كبيراً مثل وايتهد شريك برتراند رسل فى كتابه الذائـــع الشهرة عن المنطق الرياضى واسمه برنكيبا مثماتيكا (١٩١١) قد أكد فى أواخر عمره أن الفكر العلمى والمنطق فى معظمه هو بناء فوقى مقام على عقائد وآراء حدسية فى جوهرها .

وفى الربع الثانى من هذا القرن صارت المذاهب التى تعتمد على اللاعقلانية فى أساسها يطلق عليها عنوان فضفاض هو الوجودية . فالقول بأن الإنسان يجب أن يتلاءم مع اللاعقلانية و اللامعقول ليس قولا جديداً ، فقد دعا إلى ذلك فى القرن التاسع عشر الفيلسوف الدنماركى سورين ا . كير كجارد (١٨١٣ ـ ١٨٥٥) والفليسوف الألمانى نيتشه (١٨٤٤ — ١٩٠٠) والقصاص الروسى دوستوفيسكى (١٨٣١ ـ ١٨٨١) والفليسوف الألمانى مارتن هيدجر ١٨٨٩ .

ولـكن هذه الأفكار لم تنتشر على نطاق عالمى إلا من خلال أعمال القصاص المسرحى الفرنسى جان بول سارتر ١٩٠٥ .

ومن جهة أخرى فإن الوجودية قد تطورت على أساس كاثولـكى على يد الفليسوف الفرنسى جبريل مارسل ١٨٨٩ — وكارل باسبرز ١٨٨٣ — ولقد وجدت الفلسفة الوجودية إقبالا ضخماً فى القارة الأوربية فى أواسط القرن العشرين حيث سدت احتياجات الشعوب التى قاست الهزيمة والدمار مادياً ومعنوياً أثناء الحرب العالمية الثانية التى زخرت بالفاشية والمقاومة السرية ومعسكرات الإعتقال والموت والهزيمة ولـكنها أيضاً انتشرت كذلك خارج القارة الأوروبية فى بريطانيا وأمريكا اللاتينية واليابان والولايات المتحدة الأمريكية.

— ٤ —

(تقول الفكرة الوجودية أن الوجود نفسه بلا عقل ولا هدف ولا اتجاه ولا أفكار كبرى) هذا الوجود هو الحقيقة الوحيدة .وهذا الوجود يجب على الإنسان أن يقبله ، ومنه يصنع حياته عن طريق الإختيار المستمر ، فالفرد إذ نظر إلى داخل نفسه فإنه يغير الذات التي يحاول فهمها ، وبفضل سلوكه واستخدام قوة إرادته يقرر من يكون وماذا يكون ، إن لديه الحرية فى الاختيار ولكن هذه الحرية مفروضة عليه .

وهكذا تكون الحياة مشروعاً ينطوى على المغامرة لأن الفرد يخاطر بوجوده بأن يوجد وعلى هذا الأساس لا يستطيع أن يكون سلبياً ، ولا يستطيع أن يقتصر همه على ان يعرف وان يفهم ، بل هو مدفوع بقوة طبيعة وجوده إلى أن يعمل ، وان يحقق ذاته ولكن لا يوجد منطق ولا مذهب فكرى فى الوجود يهدينا إلى الاختيار وإلى العمل . ومن هنا رأينا أن هذه الفكرة لم تؤد إلى مجموعة مشتركة متناسقة من المبادىء والعقائد ، فقد ادت ببعض شراحها إلى اللادرية أو الألحاد ، كما ادت بغيرهم إلى نتائج دينية واخلاقية مختلفة .

لقد استخدمت فى تبرير قيام الاشتراكية الوطنية ، كما حدث فى كتابات هيدجر كما استخدمت فى استثارة الهمم فى فرنسا لمقاومة الاحتلال النازى كما فعل سارتر ، وإذا اردنا ان نبحث عن اوضح جوانبها الايجابية وجدنا إنها امداد الفرد بالباعث على العمل حين تنهار القيم التقليدية . فقد حفزت الانسان على فهم ذاته دون الرجوع إلى التبريرات الزائفة ، كما أدت إلى إيجاد اتصال بالآخرين — لا عن طريق الأحكام فى استخدام اللغة أو غيرها من الرموز كما كان يفعل أصحاب الوضعية المنطقية — بل بالدخول حدسياً عن طريق الخيال إلى وجود الآخرين ، ويمكن القول بأنها من هذه الناحية قد قوت من العلاقات الإنسانية وفهم الناس بعضهم لبعض .

أما جوانبها السلبية فهى أنها فصلت الفرد عن الحياة المنظمة ذات المناهج الفكرية ، وقلبت الإنسان على نفسه فى أنانية متمركزة حول الذات ، وأدت إلى الانفصام صلات الانسان بالحياة أكثر مما أدت إلى التزام الانسان بها .

وهكذا نجد أن المعالم الرئيسية للوجودية أنها قضت على عقائد الانسان اليقينية القديمة وعجزت عن أن تمنحه منهجاً فكرياً جديداً يبث النظام فى خبراته الجديدة .

— ٥ —

ومن الأمثلة الصارخة على التفكير غير العقلاني نظرية سارتر الشهيرة القائلة بأن الوجود سابق على الماهية ويستوقف نظرنا هنا أيضاً — كما استوقف نظر كثير من المفكرين — أن سارتر قد افترض القضية افتراضا ساحقا ماحقا .

وسارتر حين يقول بأن الوجود يسبق الماهية فإنما يعني أن الموجود أو الكائن الحي المفكر يصنع نفسه حين يقف من الأشياء الموقف الخاص به ، ويقول سارتر مفسراً لمعنى أن الوجود سابق على الماهية أن الانسان يوجد أولا ويلاقي نفسه ، وينبثق في العالم ويعرف نفسه بعد ذلك .

وينتقل سارتر بعد ذلك إلى قضية أخرى خطيرة هي قضية الحرية والمسئولية فيقول أن الخطوة الأولى التي تخطوها الوجودية هي أن تجعل كل إنسان حائزاً أو مالكا لماهيته ، وأن تسند إليه المسئولية التامة عن وجوده ، ونحن حين نقول أن الانسان مسئول عن نفسه لا نريد أن نقول أن الانسان مسئول عن فرديته وهذا الكلام

جميل ، ولـكنه فى غاية التعميم ، على حد تعبير فيلسوف مصرى .

— ٦ —

* * *

ومفهوم الحرية عند سارتر ليس معناه أنى حر تماما . ولـكن معناه أنى حر فى إختيار ما يعجبنى من الأفعال ، وانا عندما اختار ان اقوم بشىء فان هذا الاختيار صورة لحريتى ، وإذا اخترت ان تكون مهندسا وليس اديبا . . . وإذا اخترت ان تـكون مهندسا مجتهداً او مهملا . . فأنت عليك ان تتحمل بعـــد ذلك نتيجة هذا الاختيار .

وانت عندما تختار ان تـكون مهندسا فليس هذا الاختيار مرة واحدة وبعد ذلك تنتهى متاعبك ، وإنما انت تختار مهنتك ومتاعبها فتؤكدها وتهرب منها وتعانيها وتتفوق فيها . . كل يوم فهو اختيار تتجدد فيه الحرية والمسئولية اى الحرية وعذاب الحرية .

— ٧ —

وعلى ذلك فلا يمـكن ان تـكون الحرية عند سارتر عملا سلبيا أو عبارة فارغة او خيالا شاعريا . . . وانما هى عمل ثقيل ، ولـكن هذا الثقل هو وحده الذى يمكننا من الاستمرار . . . تماما مثل جاذبية

الأرض . فالعقل عند الوجوديين مثل الحركة على الأرض ، لها هدف ولها مقاومة وتتضمن المسئولية .

وسارتر نفسه يقول أنه عندما أصدر مسرحية (الذباب) أيام الاحتلال الألمانى كان يريد أن يدلل على أنه من الممكن أن يتحمل الإنسان نتائج هذه الحرية ، فهو يعلم أن هذه المسرحية تسخر من الألمان وتسخر من حكومـــة فيشي ، لحكومة فيشى كانت تؤكد للشعب الفرنسى دائماً أن ما أصاب الفرنسيين كان سببه أن الفرنسيين يستحقون هذا الهوان ، وهذا العذاب ، وأنهم يجب أن يتذكروا ذلك دائماً . . . وأن يندموا على اهمالهم وعلى حماقتهم كل السنوات التى سبقت الحرب والتى ظهرت فيها استعدادات هتلر للقيام بحرب شاملة فى أوروبا .

بل أن سارتر ذهب إلى أبعد من هذا عندما قال (إن الشعب الفرنسى لم يكن فى يوم من الأيام حراً كما كان أيام الاحتلال الألمانى) وهى جملة غريبة ولـكن قول سارتر لها أغرب وأجمل : فهو يرى أن الألمان قد حملوا عن الشعب كل مسئولية . فهم وحدهم الذين جردوا الشعب الفرنسى من كرامته ومن قيمه الأخلاقية هم وحدهم الذين جردوا المجتمع من ترابطه وتماسكه أو من جاذبيته الأرضية

والإجتماعية. فالناس أحرار فيما يختارون ـ من جديد ـــ من قيم ومثل عليا ومن أعمال ضد الألمان ولحسابهم .

لقد جاء الألمان واحتلوا فرنسا ... احتلوا قيادتها وأمسكوا مصيرها وليس على الشعب الفرنسى إلا أن ينهض من جديد ... إلا أن يقرر من جديد . . إلا أن يكون مسئولا من جديد. وعلى كل فرنسى أن يختار وحده وبمعزل عن الآخرين أن يعيش خائناً أو يموت شريفاً ، ففرنسا فى ذلك الوقت كانت جمهورية الصمت الكل صامت فى مواجهة الموت .

وإذا نحن اردنا أن نصوغ هذا القول صياغة علمية ، بعيداً عن الومضات البيانية والحدسية امكننا أن نقول ببساطة ـ وبحق ـ أن الالمان قد حققوا الحرية للفرنسيين حين احتلوهم ـ ذلك أنهم حرروهم من الشعور بالاثم ، لان انزال العقاب بالمذنب يخفف عنه الشعور بالذنب . ومن ثم يطلق قواه التى كبلها الندم والألم .

— ٨ —

والكلام عن الحرية يجر إلى الكلام عن الاشتراكية ، وقد اختار سارتر فى السنوات العشر الأخيرة أن يقف إلى جانب المعسكر

الاشتراكى ، إلى جوار الطبقة العاملة ، الطبقة التى ولد افرادها معدمين فكل انسان يولد فى الطبقة العاملة ، لايجدشيئا فى انتظاره .. لا الوظيفة ولا اللقب ولا التركة . أنه موجود لان اباه وأمه عاجزان عن تحديد النسل ، انه ليس كأبناء الطبقة البورجوازية فكل واحد منهم يولد عن عمد فله اسمه وله وظيفته وله طبقة يحتمى فيها وله مستقبل .

أما أبناء الطبقة العاملة فمستقبلهم فى أيديهم . الضمان الوحيد لحياتهم هو أن يعملوا ... وخلاصهم يتحقق عن طريق العمل ، والعمل نفسه يصبح حقا وواجبا باتحاد كل العاملين .

وكل مسرحيات وقصص سارتر تسخر من ابناء الطبقة المتوسطة وتنير الطريق للطبقة الفقيرة العاملة . والأقليات المضطهده كالزنوج مثلا ، ففى مسرحية (المومس الفاضلة) نرى سارتر يقف إلى جوار المومس وإلى جوار الزنجى ويروى أن الشرف والصدق صفتان لهما ، وأن الفقراء ليس لهم من درع إلا الشرف ليس لهم شىء آخر يحميهم من الاغنياء وليس لديهم شىء اخر يجعل الاغنياء يقفون عاجزين أو يظهرون عاجزين ، فالغنى الذى يتصور أنه يستطيع بأمواله وسلطانه أن يشترى شرفى استطيع أن اجعله يشعر بأنه عاجز وبأن ماله لاقيمة له وان نفوذه لايساوى شيئا عندما أرفض أن ابيع شرفى ... وعندما

أرفض أن ابيع شرفى فمعنى ذلك انى فى وضع أعلى وأقوى واحسن وان الذى املـكه اكبر من ان يشتريه .. وانه اصغرمن ان يشتريني .. فالشرف والامانه وكلمة (لا) هى وحدها التى تجعل القادر عاجزاً والغنى فقيراً ، والابيض اكثر سواداً من اى زنجى .

وليس العمل وحده هو الذى يدفع الناس إلى الإمام ولـكنه العمل الواعى المشترك ، فالعمل الواعى المشترك هو مادة التاريخ نفسه. والتاريخ ليس قوة تحركنا من خارجنا ، ولـكنه قوة بنا . نتحرك به ونصنعه فانت تصنع حياتك يوماً بعد يوم ، والشعوب تصنع تاريخها جيلا بعد جيل .

والفلسفة الوجودية لا يمكن أن تـكون لها دلالة ، إلا إذا كانت لها رسالة ولا يمكن أن يكون الأديب أو الفيلسوف أو الفنان مخلصاً إلا إذا التزم إلا إذا كان مسئولا عن نفسه وغيره ، وإلا إذا أحس أنه يفعل — كل ما يفعله — من أجل البشرية ومن أجل كرامة الإنسان ولا كرامة بلا حرية .

والاختيار الحر الذى اتخذه كل منا لحياته كان اختياراً حقيقياً . لأنه اختيار اتخذ وجهاً لوجه مع الموت ـ لقد قدمت ظروف النضال لأولئك الذين انخرطوا فى سلك الحركات السرية خبرة من نوع

جديد . فهم لم يحاربوا على المكشوف فى وحده ، بل واجهوا التعذيب متوحدين عراه فى حضرة معذبيهم .

المسئولية المطلقة فى الوحدة المطلقة : أليس هذا هو التعريف الكامل للحرية ؟

ومن ثم أقيمت فى وسط الظلام والدم جمهورية هى أقوى الجمهوريات جميعاً : أدرك كل مواطن من مواطنيها أنه قد وهب نفسه مسئوليته ودوره فى التاريخ ، وبالاختيار لنفسه فى حرية اختار الحرية للجميع ، هذه الحرية الخالية من المنظمات والجيوش كانت مكسباً لكل فرنسى ، يثبت دعائمه الروحية فى كل لحظة لقد كانت جمهورية الصمت والظلام .

— ٩ —

ولسارتر أيضاً موقف بارز من التفرقة العنصرية : فيحدثنا عن الزنوج الذين يعملون فى المطارات فى أمريكا وليس لهم الحق فى أن يكونوا طيارين ... فاذا سرق واحد من هؤلاء الزنوج طائرة ؛ كان هذا العمل تمرداً على الوضع الذى فرضه الرجل الأبيض على الرجل الأسود ، وهذه السرقة عمل فردى ولكنه يكشف عن وضع

اجتماعى طبقى عنصرى .. وقد تكون عقوبة هذا الفعل هى السجن أو الموت . ولكن لن تصبح هنالك عقوبة كالسجن أو الموت عندما يقوم كل الزنوج بمثل هذه الأعمال التى يتمردون فيها على الأوضاع الجائرة التى فرضها البيض على السود .

وإنما سيقومون برد فعل .. ومهما كان هذا الرد فعل عنيفاً ، فانه ضرورى لحركة التاريخ .. الذى يصنعه الزنوج معاً .. والبيض معا .. أيضاً .. لأن التاريخ هو سجل الأعمال الواعية التى يقوم بها الناس معا ، وضد بعضهم البعض انه العمل معا من أجل الناس جميعا .

— ١٠ —

قبل الحرب (١٩٣٩–١٩٤٥) كان سارتر بورجوازيا ، وكاتبا حراً يرفض كل قيد على الفكر السياسى ، وبالتالى لا يستطيع الالتزام بموقف أو الانخراط فى حركة ، ناهيك أن ينضم إلى حزب ، لأنه يخشى أن يفقد حريته ، وان يضطر إلى اعتناق آراء أو الدفاع عن تصرفات لا يقرها عقله ، ويرفضها ضميره . ولئن كان مذهب (الوجودية) يدعو إلى العمل وتحقيق الفعل ، فهو قد كان يخشى أن يؤدى تحقيق الفعل فى الواقع العملى إلى ما يخيب رجاءه .

فماذا أصابه حتى صار تحقيق الذات هدف حياته ورائد فلسفته. ماذا حدث فى الحرب العالمية الثانية فجعل منه شعلة من النشاط والحيوية هذا ما ينبغى أن نلتمسه عند أصحاب التحليل النفسى . قد يكون من النتائج غير السارة التى تترتب على عدم تصرف المرء تبعا لعواطفه الخلقية أن يصاب باحساس داخلى بالخطيئة ، أو بالعار الذى يلزمه طول حياته .

ونشأة الوجودية السارترية فى أعقاب الغزو النازى لفرنسا وما صحبه من شعور الفرنسيين بالخطيئة والإثم (بعدم قيامهم بتقوية بلادهم ، وصيانة مصالحها قبل الحرب ، مما أدى بوطنهم العزيز ذى التاريخ المجيد والمكانة العالمية إلى الهزيمة والاحتلال والقهر على يدى أعدائهم التقليدين من الألمان ، ممن يقلون عنهم حضارة وثقافة كان هذا الشعور يلازم الفرنسيين فى هذه الفترة . والشعور بالاثم شعور يصحبه توتر ، وحاجة إلى ازالة هذا التوتر . ويمكن فى حالة سارتران يقال إنه رغبة منه فى إزالة هذا التوتر قد لجأ لا شعوريا إلى حيلة من حيل التخلص من العذاب أو الشعور بالاثم ، وما يستلزمه من انزال العقاب فاسقط الاثم على طرف آخر جعله مسئولا عما أصاب فرنسا كى يشعر هو بالبراءة من الاثم ذاته ووجد كبش الفداء فى

النظام البرجوازى فى فرنسا وسياسة أمريكا وانجلترا . فكان فى كل مناسبة يهاجم كباش الفداء بدلا من أن يقسو على نفسه فى الشعور بالاثم ، وهناك جانب آخر يمكن أن يقال فى تفسير مناصرة سارتر لكل قضايا الشعوب المناضلة ضد الاستعمار — وهو من النتائج السارة للغزو الألمانى لفرنسا — وما كان ليفعل ذلك لولا أنه ذاق بنفسه مرارة الاستعمار النازى لبلاده ومرارة السجن فصار منذ هذا التاريخ يسقط ما عاناه هو فى هذه الفترة على الشعوب المستعمرة فجعله هذا — ربما دون أن يقصد — بطلا من أبطال التحرير فى العالم .

مما نلاحظه على وجودية سارتر « وجوب أن يلتزم الانسان — كل إنسان — يلتزم بموقف محدد ويحافظ عليه حتى النهاية . . إلخ » .

ان بهذه النظرية عيبين اساسيين :

الأول :

إن الناس بينهم فروق واسعة جداً فى الاستعداد الغريزى والانفعالى ، والذكاء ، وتأثيرات البيئة ، وديالكتيك النمو بحيث لا يمكن النظر إلى جميع الناس هذه النظرة الحماسية العامة ، التى

لا تـكاد تفرق بينهم والثانى أن للوقف الذى يدعو إليه سارتر ليس التزاماً أمام أحـد وليس التزاماً بمبدأ محدد ، ويمكن أن نوضحه فى مناقشة سارتر لشخصية بودلير فقد هاجم فى هذا البحث عجز بودلير وتناقضه وإنقسامه بين قيود التقاليد والأخلاق والرغبة فى الطهارة من من ناحية والشذوذ والدعارة من ناحية أخرى .

فقد رفض أن يجعل من خطاياه مذهبا ، أى رفض أن يلتزم . . ولو كان قد التزم التزاماً حراً لجعل طريق الخطيئة أو طريق النقاء والاستقامة مشروع حياته ومثله الأعلى، يستوى الطريقان والمشروعان أمام المنطق ولـكنهما يتمايزان اخلاقياً من حيث التصاق كل منهما بصاحبه ، وبقدر أصالة ووعى الالتصاق تـكون حرية الالتزام عن الأخلاق بالمعنى المفهوم ولـكن سارتر استدرك بأن وضع مقياساً آخر للالتزام . هذا المقياس هو التساؤل « ماذا لو تصرف الآخرين مثلى » ومن هنا يخرج الالتزام من الذات إلى الآخرين فتصبح المسئولية عن الفعل مسئولية عن الذات وعن العالم كله ومعنى المقياس الأخير إذا أردنا البعد عن المتاهات الفلسفية هو ببساطة « عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به» ولـكن سارتر كان أشبه دائماً بالفلاسفة الألمان فى محاولته تدليك إذنه اليسرى بيده اليمنى . . ومهما يكن من دفاعه أو دفاع حوارييه عن التزامه فإنه ليس التزاما بمبدأ محدد . ولـكنه فى معظمه

دعوة إلى تحقيق الذات والانطلاق ـ وهى دعوة رومانسية فى جوهرها مهما قيل فى تبريرها وإعادة تفسيرها .

— ١١ —

ومن أمثلة أقوال سارتر المأثورة التى تعوزها دقة عالم النفس الذى يدرك ما فى طبيعة الإنسان من تعقيد فى ديالكتيك النمو العقلى ومستويات الشعور وتأثر الإنسان بالوراثة والبيئة قوله :

« لا فرق بين الإنسان والحيوان إلا فى شىء واحد وهذا الشىء هو الإرادة العاقلة . نعم العقل هو الذى يميز الإنسان عن الحيوان ، الحيوان عبد أبدى للطبيعة ، لأنه محكوم من الخارج بقوانينها ومن الداخل بغرائزه .. أما الإنسان فهو الكائن الوحيد الذى يستطيع أن يقاوم الجبر ، ويتحرر من أسر الطبيعة وضعفها . وهو يستطيع أن يفعل ما لا يفعله الحيوان ، لأن له عقلا يفهم به الأشياء ، عقلا لم يحظ به الحيوان

الإنسان اذن وحيد فى الكون ، ليس له ما يعتمد عليه إلا نفسه والإنسان إذن مسئول عن نفسه ، لأن له عقلا يفهم به أغلال الحياة . وإرادة عاقلة يحطم بها هذه الأغلال كل ما فى الطبيعة عبد مسير إلا الإنسان ، فهو وحده مخير ، فلأن له عقلا فهو مختار ولأنه مختار فهو

مسئول ، الإنسان عند سارتر مسئول .. مسئول عن نفسه ومسئول عن غيره ... فسارتر لا يقصد بالإنسان فلاناً أو علاناً وإنما يقصد كل الناس كل أفراد الإنسانية كل إنسان مسئول .. مسئول عن نفسه وعن بقية اخوته فى الإنسانية » وإطلاق القول بأن الإنسان مخير لا يحد من حريته شىء .. فيه تسطيح شنيع لمسألة الجبر والاختيار التى طالما شغلت الفلاسفة ورجال الدين ، ولا تزال تشغل رجال علم النفس المحدثين . ومن أقواله الحماسية أيضاً قوله « ليس فى قوانين المجتمع ولا فى قيم الأخلاق ما هو ثابت أزلى ولا يمكن تغييره ، ليس فى الإنسان طبيعة إنسانية لا يستطيع الإنسان أن يغيرها ويراقبها وينحو بها نحو خيره وكماله ، كل إنسان قادر على صنع حاضره وتقرير مصيره . كل إنسان يختاره لنفسه والإنسان هو ما يختاره لنفسه فى الحياة الإنسان هو مجموعة أعماله .

والإنسان لا يكون إنساناً إلا إذا (التزم) بشىء واحد ، وهذا الشىء هو قضية الحرية ـ الحرية لنفسه والحرية لبنى الإنسان ، الحرية فى فرنسا والحرية فى كل مكان » .

— ١٢ —

ومن أطرف ما يلاحظه كتاب سيرة سارتر أن حياته مليئة بكلمة (لا) فهو عندما كان طفلا فى الثانية من عمره قيل له أن أباه فى رحلة

بعيدة .. فقال لا . بل إنه مات . واندهشت أمه التي استعدت لتتزوج رجلا آخر ، واندهشت جدته وثارت واتهمت أمه بأنها هي التي همست في إذن الطفل الصغير بما أصاب والده في الشرق الأقصى ، ولكن سارتر الصغير بذكائه الحاد قد أدرك أن هذه القصة يكررونها على مسامع الأطفال عندما تقع في البيت كارثة .

وعندما كان في الثالثة من عمره اتجه إلى القراءة ولكنه لم يتمكن من فهم كل الكتب التي تصادفه في البيت وكان يطلب إلى جدته تروى له القصص وكانت جدته ان تروى له القصص المعروفة للأطفال ولكنه كان يضيق...وكان يوقظها من نومها ليروى لها هذه القصص بشكل آخر ، ففي قصة الذئب الذي هاجم الفتاة في الغابة وراحت الفتاة تبكي حتى انطلق أحد الرعاة فأنقذها ، راح سارتر يرويها بصورة أخرى وجعل الفتاة تتمكن من نزع جلد الذئب وتخويفه ، فهي أيضاً تحولت إلى ذئب ولما قالت له جدته (إن هذه قصة أخرى) كان رد سارتر (لا بل يجب أن تكون القصة هكذا) .

وظل سارتر الصغير يقول (لا) لكل القصص والأساطير اليونانية والنظريات السياسية ولكنه لم يقل (لا) وينطلق هارباً . إنه يقول لا ويتوقف ويشرح ويعدل ويغير إنه لا يقول لا لينهي جملة أو ينهي موقفاً ... إنه يقولها وبعد ذلك يبدأ في رأي جديد .

وبينما كان على الحدود الفرنسية وقع أسيراً فى أيدى الألمان. وبعد ١١ شهرا أفرجوا عنه، ولـكن سارتر ظل أسيراً لشىء آخر لم يتخلص منه إلا منذ عشرين عاماً فقد بقى سارتر أسيراً للفلسفة الوجودية الألمانية التى يتزعمها مارتن هيدجر .

ومنذ عشرين عاماً فقط استطاع سارتر أن يقول (للوجودية الألمانية لا) فقد كانت الوجودية الألمانية لا تهتم بالإنسان الفرد وإنما تهتم بوجود الإنسانية عموماً . وكانت هذه الفلسفة عالمية . . . فوق مستوى الناس وفوق مستوى مشا كلهم ومتاعبهم اليومية ، ولذلك كان لا بد لساوتر العظيم أن يلتقط الخيط ، ويصنع أجمل نسيج فلسفى أدبى ظهر فى القرن العشرين.

ولعل أصدق ما وصف لسارتر هو ما وصفته به الأكاديمية السويدية فى تقرير منحه جائزة نوبل التى رفضها ، بأنه أحد الرجال القلائل الذين أثروا فى الفـكر الأوروبى فى عصره ، مستعيناً بخياله المبدع وقدرته الخارقة على النفاذ إلى أعماق الضمير الأوروبى وأكثرهم صدقا وإخلاصاً فى البحث عن الحقيقة والدفاع عن الحرية والسلام .

وما فعله سارتر فى هذا الموقف يصور حرصه الدائم على أن يؤكد أنه يتصرف بحريته ، وإن كل عمل يقوم به هو إختيار لقيمته هو من جديد. فالإنسان ليس إلا ما يفعله وما يفعله هو بمحض إرادته وما دام ما فعل ، فهو مسئول عن النتائج ، إلا شد ما أثرت فيه الحرب .

الفهرس

رقم الايداع ٤٦٥٦ / ١٩٦٩

المطبعة الفنية الحديثة

٢٠ شارع القرنفلي بالموسكي ت ٨٦٤٨٧١